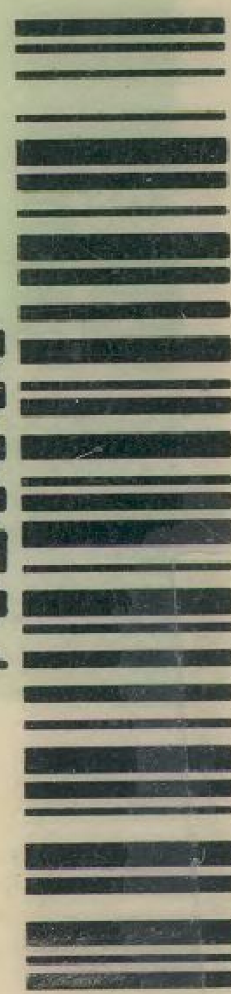
دراسات في تاريخ العرب

العصر العباسي الأول





(٣)

تأليف
الدكتور السيد عبد العزيز سالم
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
كلية الآداب – جامعة الإسكندرية

الناشر
مؤسسة شباب الجامعة

دراسات في تاريخ العرب

العصر العباسي الأول

الجزء الثالث

تأليف
الدكتور السيد عبد العزيز سالم
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية

الناشر
مؤسسة شباب الجامعة
ت ٣٩٤٧٢١٠ الإسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

قامت الدولة العربية الاسلامية بقيام دولة الرسول فى المدينة ، واتسعت بالفتوحات الاسلامية فى الشرق والغرب، في عهود خلفائه الراشدين الذين استرشدوا بآرائه ، واقتدوا بقيادته القائمة على الشورى والمساواة،ثم ازدهرت هذه الدولة في عصر الخلفاء الأمويين الذين استندوا في الحكم على مبدأ الوراثة، واعتمدوا على العنصر العربى دون الأعجمى فى القيادة والادارة ، باعتبار أن العرب وحدهم يشكلون جوهر الدولة ومادة الاسلام ، ولهذا السبب عرف هذا العصر بعصر الدولة العربية ، لأنه العصر الذى انتصر فيه العنصر العربى ، وانتشر فى آفاق البلاد المفتوحة، وانتشرت فيه اللغة العربية، وتعربت الدواوين، وسكت العملة العربية الاسلامية ، وأصبح للعرب المكان الأول ، إلى أن سقطت الدولة الأموية في سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠ م) ، وقامت الدولة العباسية ، وعندئذ فقط بدأ عصر جديد فى تاريخ العرب ، اعتمد فيه العباسيون - مع كونهم عربا - على العناصر الأعجمية (١) فى تصريف شؤون دولتهم ، وقدموهم على العرب فى المناصب القيادية ، ولهذا السبب عرف العصر الأموى بعصر الدولة العربية ، والعصر العباسى بعصر الدولة الاسلامية ، وقالوا : دولة بنى أمية دولة عربية ، ودولة بنى العباس إسلامية ، أو كما قيل إن « دولة بنى العباس

---

(١) ساد العنصر الفارسى ابان العصر العباسى الأول والثالث ، والتركى فى العصر العباسى الثانى والرابع ، كما ساد العنصر البربرى فى غرب العالم الاسلامى منذ قيام الدولة العباسية .

أعجمية خراسانية ، ودولة بنى مروان أموية عربية (١)» ، وفي ذلك يقول السيوطى : «في دولة بنى العباس افترقت كلمة الاسلام، وسقط اسم العرب من الديوان ، وأدخل الاتراك في الديوان ، واستولت الديلم ثم الأتراك ، فصارت لهم دولة عظيمة ، وانقسمت ممالك الأرض عدة أقسام وصار بكل قطر قائم يأخذ الناس بالعسف ويملكهم بالقهر » (٢) .

ولقد دامت الدولة العباسية أكثر من خمسة قرون الى أن سقطت بغداد فى أيدى المغول فى سنة ١٢٠٨ م ، وقدر للخلافة العباسية أن تستمر في القاهرة بعد ذلك في ظل دولة سلاطين المماليك حتى الفتح العثمانى لمصر والشام فى سنة ١٥١٧ م .

وقد شهد العصر العباسى تفككا خطيراً فى وحدة الدولة الاسلامية أدى إلى قيام حركات انفصالية (٣) ، وإلى ظهور خلافات ثلاث في شرق العالم الإسلامى وغربه (٤)، كما شهد صراعا سياسيا بين القوى السنية والقوى الشيعية فى شرق العالم الاسلامى وغربه ، وكان لذلك أعظم الأثر فى حالة التفتت

(١) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ٢ ، القاهرة ١٩٣٢ ، ص ٣٠٦ . برنارد لويس ، العرب فى التاريخ ، تعريب نبيه أمين فارس ، ومحمود يوسف زايد ، بيروت ١٩٥٤ ص ١١٤ .

(٢) السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، بيروت ، ص ٢٤١ .

(٣) أمثال الدولة الأموية فى الاندلس ، ودولة الاغالبة فى المغرب الأدنى والرساتمة المغرب الاوسط والأدارسة وبنى مدرار فى المغرب الأقصى ، ثم دولة الفاطميين على دولتى الاغالبة والرساتمة ، والدولة الطولونية ثم الاخشيدية ثم الفاطمية فالأيوبية فى مصر ، والدولة الحمدانية فى الشام ودولة بنى عقيل فى الموصل والدولة الطاهرية ثم الصفارية فى والسامانية ثم الغزنوية فى الهند وقسم من فارس وبلاد ما وراء النهر .

(٤) الى جانب الخلافة العباسية السنية فى بغداد ، قامت فى الاندلس خلافه ٣١٦ هـ الى ٤٢٢ هـ وفى المغرب ومصر والشام خلافه فاطمية شيعية .

السياسى التى أصابت الدولة العباسية ، وأدى إلى ظهور موجات غزوية تركية انطلقت من أواسط آسيا، وتتمثل فى قوة الاتراك السلاجقة ، ثم فى قوة المغول المدمرة (التى قضت على الخلافة العباسية فى بغداد) وغربية مسيحية تمثلت فى الحركة الصليبية التى اجتاحت الشرق الأدنى الاسلامى ، كما داهمت الجناح الغربى للعالم الاسلامى فى قلب الاندلس بل وعلى التراب المغربى .

والدولة العباسية تنسب إلى العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، عم الرسول . وكان العباس من أشرف سادات بنى هاشم ، وتجمع المصادر على أنه وقف بجانب الرسول فى بيعة العقبة الثانية ، وكان يوافى النبى (صلعم) بأخبار مكة وتحركاتها ضده ، وهاجر إلى المدينة قبيل فتح مكة، وحضر مع النبى فتحها ، وتوسط لأبى سفيان عند النبى ، وكان العباس يناصر على بن ابى طالب ويرشحه للخلافة .

وتوفى العباس فى خلافة عثمان فى ١٤ رجب سنة ٣٢ هـ، وأعقب من الأبناء: الفضل أكبر أبنائه ، وعبد الله ، وعبيد الله، وعبد الرحمن، وقثم ، ومعبد ، وأم حبيبة، وكثير، وتمام، وصفية واسمية، والحارث ، ومعظم ذرية العباس انتشرت من نسل ابنه عبد الله. أما عبد الله بن عباس، فشخصية إسلامية بارزة، وصحابى جليل ، ولد قبل الهجرة بسنتين ، وكان الرسول يحبه ويدعو الله ان يعلمه التأويل ، فكان ابن عباس أعلم الناس بآيات القرآن وتفسيره وأكثر المسلمين تفقها فى الدين (١) . وكان موضع احترام الخلفاء الراشدين وإجلالهم ، وقد

(١) أخبار الدولة العباسية ، تحقيق الدكتور عبد العزيز الدورى ، بيروت ١٩٧١ ، ص ٢٥ . وقيل فى علمه : عبد الله بن عباس حبر هذه الأمة .

ترك البصرة التى ولاه الامام على عليها وذلك بعد أن قتل عبد الرحمن بن ملجم عليــــا ، وأقام بالطائف معتزلا الفتنة الى ان توفى فى سنة ٦٨ هـ . ومن أشهر أولاد عبد الله بن عباس ابنه علي،أقطعه بنو أمية قرية بالشام يقال لها الحميمة وتقع في طريق المدينة بالقرب من الشوبك باقليم البلقاء . وفى هــذه القرية عاش على بن عبد الله العباسى حتي توفى فى سنة ١١٧هـ . وأنجب على ٢٢ ولدا ذكراً و١١ بنتا ، ومن أبنائه انتشر البيت العبــاسي. ومن أبرز أبنائه وأشهرهم محمد الذى كان أول من تطلع من بنى العباس الي الظفر بالخلافةوسعي اليها ، ومن أجلها بدأ التنظيم العقائدى السرى الذى انتهى بفوز العباسيين بالخلافة على يد أبنــــائه ابراهيم الإمام ، وأبى العبـــاس السفاح ، وأبى جعفر المنصور .

ويتفق المؤرخين المحدثون علي أن الدولة العباسية التي عمرت مايزيــد على خمسة قرون،مرت بمراحل زمنية أربعة تتسم كل مرحلة منها بمظـاهر مميزة ، وفيمايلى عرض لهذه العصور الأربعة للدولة العباسية :

العصر العبـاسي الاول : (١٣٢ - ٢٣٢ هـ / ٧٥٠ - ٨٤٧ م) .

ويعرف هذا العصر بعصر النفوذ الفارسى الأول باعتبار أن هنــاك عصراً ثانيا لهذا النفوذ هو العصر العباسى الثالث ، ونعنى به العصر البويهى ، ويعرف هذا العصر الأول أيضا بعصر الخلفاء العباسيين العظام ، إذ نشهد فيــه سيطرة العنصر الفارسي الذى قامت عليه الدولة العباسية ،وغلبته على جميع مناحىالحياة ، أدبية ومادية، فقد كان من الطبيعى أن يعتمد العباسيون علي الفرس وعلى أهل خراسان بوجه خاص في تصريف شؤون دولتهم اعترافا منهم بفضلهم عليهم ، فكان أبو جعفر المنصور يقول : « يا أهــل خراسان : أنتم شيعتنا وأنصارنا

وأهل دعوتنا » (١) ، وعندما حضرته الوفاة ،أوصى ولده المهدى بهم، فقال : «وأوصيك بأهل خراسان خيراً ، فانهم أنصارك وشيعتك الذين بذلوا أموالهم ودماءهم في دولتك ، ومن لاتخرج محبتك من قلوبهم، أن تحسن اليهم، وتتجاوز عن مسيئهم، وتكافئهم عما كان منهم ، وتخلف من مات منهم في أهله وولده .» (٢) ولذلك أسلم الخلفاء العباسيون في هـذا العصر آزمة أمـــورهم الي الفرس ، وأفسحوا لهم المجال في تولى المناصب الكبرى بعد أن كانت هـذه المناصب تقتصر في العصر الأموى على العرب ، وفى ذلك المعنى يقول السيوطي: «وهو أول من استعمل مواليه على الأعمال وقدمهم على العرب ، وكثر ذلك بعده حتى زالت رئاسة العرب وقيادتها » (٣) . وهكذا تولى الموالى الوزارة ، أولهم أبو أيوب المورياني ، ثم يعقوب بن داود ،والفيض بن أبي صالح، وغيرهم، إلى أن استبد البرامكة بالوزارة زمن هارون الرشيد . وكان البرامكة في الأصل سدنة لمعبد نوبهار ببلخ من معابد النار ، وقد وصل البرامـكة إلى أوج نفوذهم في عهد الرشيد (٤) الذى يدين ليحيي بن خالد البرمكي بخلافته فما أن تولى الرشيد الخلافة حتى عرف ليحيي فضله وخدمته ، فقلده وزارته ، ومنحه سلطة تـكاد تكون مطلقة ، وأطلق له يده في تصريف شؤون دولته ، إذ كان يدين له

---

(١) المسعودى ، مروج الذهب ، القاهرة ١٣٤٦ هـ ، ج ٢ ص ٢٤١ .

(٢) السيوطى ، ص ٢٥١ .

(٣) ابن الأثير ، الـكامل ، ج ٦ ص ١٩ ـ الاربلي ، خلاصة الذهب السبوك ، بغداد ١٩٦٤ ، ص ٩٠ .

(٤) عبد العزيز الدورى ، العصر العباسي الأول ، بغداد ، ١٩٤٥ ، ص ١٠٨ .

بالفضل في ظفره بالخلافة (١)، ويقول له : « يا أبت . أنت أجلستني هذا المجلس ببركة رأيك وحسن تدبيرك ، وقد قلدتك أمر الرعية، وأخرجته من عنقي إليك، فاحكم بما ترى، واستعمل من شئت ، واعزل من رأيت ، وافرض من رأيت ، واسقط من رأيت ، فإني غير ناظر معك في شيء » (٢) .

كذلك ظهر التأثير الفارسي في الحركات الدينيـة التي شغلت معظم فترات العصر العباسي الأول ، والتي اتجهت اتجاها قوميا شعوبيا يستهدف الطعن في السيادة العربية وفي الجنس العربي ، وإحياء المجد الفارسي القديم . وقد عمد الشعوبيون إلى الزندقة لمحاربة الإسلام ، كما عمدوا إلى تمجيد العنصر الفارسي والحط من شأن العرب، والتعصب للعجمية أدبيا وسياسيا واجتماعيا .

ومن الحركات الدينية التي ظهرت في العصر العباسي الأول : حركة الراوندية (٣) التي ظهرت في خلافة المنصور ،وحركة المقنعية نسبة إلى زعيمها المقنع الخراساني الذي أعلن الثورة على المهدي في ١٥٩ هـ (٤) ، وقد اتخذ المقنع لنفسه قناعا من الذهب،وادعى الألوهية ، وقال بالتناسخ والحلول ، وأسقط الزكاة والصوم والحج ، وأباح المحرمات . ثم الحركة البابكيـة، أتبـاع

---

(١) كان موسى الهادي يرشح ابنه جعفر للخلافة من بعده بدلا من أخيه هارون . وعندما أبدى رغبته تلك الى هارون ، وأوشك هذا على التنازل عن ولاية العهد، نصحه يحيى بالرفض وثبته ، وكان ذلك سببا في تحامل الهادي على يحيى البرمكي، فأمر بحبسه، وعزم على قتله ، ولكن الهادي لم يلبث أن توفي بعد ليلة واحدة من سجنه ليحيى . ويرجع سبب ميل يحيى البرمكي لهارون الى أنه تولي تأديبه وتربيته في صغره ، وأنه لقنه الآداب الفارسية القديمة فنشأ هارون متأثرا بها .

(٢) الطبري، تاريخ الرسل والملوك ، القاهرة ١٩٦٦ ، ج ٨ ص ، ٢٢٣ ـ الجهشياري، الوزراء والكتاب ، القاهرة ١٩٣٨ ، ص ١٧٧ ـ ابن الأثير ، ج ٦ ، ص ٤٤ .

(٣) نسبه الى بلدة راوند الواقعة بالقرب من أصفهان ، ويعتقد الراوندية بتناسخ الأرواح وهم الذين ألهوا المنصور ومع ذلك فقد حاصروا قصره وأرادوا قتله سنة ١٤١ انتقاما لمقتله أبي مسلم الخراساني .

(٤) راجع في ذلك النوبختي ، فرق الشيعة ، استنبول ١٩٣١ ص ٤٣ .

بابك الخرمي، وكانت استمراراً لحركتي الراوندية والمقنعية، ثم حركة الزنادقة التي تشبه المانوية وإن كانت قد انقلبت إلى نزعة تحررية تهاجم التقاليد، وتدعو الى الديموقراطية الفاسدة التي تبيح المحرمات. وهكذا جنح الشعوبيون الفرس الى هذه الحركات الدينية لمحاربة الإسلام والعرب، ثم بدأوا يصنفون الكتب في مناقب العجم وذم العرب وإظهار مثالبهم، ووضعوا الأحاديث في فضـــل الفرس وأسندوها إلى الصحابة والتابعين، واستعانوا بشعراء وكتاب أبرزوا فضائل العجم أمثال بشار بن برد الشاعر الذي كان يفتخر بأصله الفارسي ويحط من قدر العرب، وإن كان يعتز في نفس الوقت بالعرب وبمضر وقيس (١)، وفي كثير من أشعاره نراه يحمل على العرب ويهجوهم هجاء فاحشا، ويزدريهم في قسوة، وكانت له أشعار تحث على الفساد، وتدعو الى الإنحلال الأخلاقي، مما يرجح أنه كان زنديقا في بداية أمره (٢). وهناك شعراء آخرون أشاعوا المجون والانحلال في المجتمع العربي الاسلامي، وصوروا اللذة وشهوات النفس والشذوذ الجنسي، ومنهم أبو نواس الذي ابتكر لونا جـديداً في الشعر العربي هـــو الغزل بالمذكر .

العصر العباسي الثاني (٢٣٢ – ٣٣٤ هـ / ٨٤٧ – ٩٤٥ م) .

وهو المعروف أيضا بالعصر التركي الأول، لأنه العصر الذي زاد فيه نفوذ الأتراك، وقد بدأ العنصر التركي يتغلغل في جسم الدولة العباسية منـذ أيام الخليفة المأمون الذي استكثر من الأتراك في جيشه، ثم بالغ المعتصم في ذلك واستخدمهم في قيـادة الجيوش وفي الإدارة . ويعتبر المعتصم بحق أول من

(١) مصطفى الشكعة، رحلة الشعر من الاموية الى العباسية، بيروت ١٩٧١ ص ٤٩١ .
(٢) يتهمه الجاحظ في البيان والتبيين بانه كان يدين بالرجعة ويكفر جميـع الأمة (ج ١، بيروت ١٩٦٨، ص ٢١) وأنه قام بعذر ابليس في أن النار خير من الأرض .

أدخل الأتراك فى ميدان السياسة إذ كان متأثراً فى ذلك بأمه التركية ، وفى عهده زاد نفوذ الأتراك بحيث اضطر الخليفة إلى تأسيس مدينة لهم — هى مدينة سامرا — فى سنة ٢٢١ هـ . ثم استفحل أمر هؤلاء الأتراك حتى أصبح فى أيديهم عزل وتولية الخلفاء ، فقد جرضوا محمد المنتصر بن المتوكل على قتل أبيه،فهجم عليه بغلمان من الأتراك كان قد واطأهم على قتله ، فقتلوه فى سنة ٢٤٧ هـ (١)، فلما تولى المنتصر الخلافة وأحس باستبداد الترك ،سبهم ولقبهم بقتلة الخلفاء ، فدسوا له السم فمات (٢) ، ويكفى للتعبير عن سطوة الأتراك من ذكر مارواه ابن طباطبا فى كتابه الفخرى فى الآداب السلطانية ، إذ يذكر أنه لما ولى الخليفة المعتز الخلافة وكان بالمجلس بعض الظرفاء ، فقال : «أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته ،فقالوا له : فكم تقول أنه يعيش وكم يملك ؟ قال : ما أراد الأتراك » (٣) وقد حدث ماتوقعه ، إذ طالبه الأتراك ببعض المال ، فلما اعتذر لهم بخلو خزائنه اتفقوا على خلعه وقتله ، فلما ذهبوا إلى بابه أرسلوا إليه ليحضر إليهم ، فلما اعتذر لمرضه هجموا عليه وجروا برجله ، وضربوه بالدبابيس ، وأقاموه فى الشمس فى يوم صائف وهم يلطمون وجهه ويقولون: اخلع نفسك. ثم خلعوه،وبايعوا محمد بن الواثق، ثم اقتادوا المعتز بعد خمس ليال من خلعه فأدخلوه الحمام ، ومنعوا عنه الماء حتى مات (٤) .

---

(١) ابن الاثير، ج ٧ ص ١١٥ — الاربلى ، ص ٢٢٦ .

(٢) السيوطى ، ص ٣٣٠ .

(٣) ابن طباطبا ، كتاب الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية ، القاهرة ١٢١٧ هـ ص ٢٢٠ .

(٤) ابن الاثير ج ٧، ص ١٩٥ — ابن طباطبا ، ص ٢٢١ — السيوطى ، ص ٣٣٤

العصر العباسى الثالث (٣٣٤ - ٤٤٧ هـ / ٩٤٥ - ١٠٥٥ م)

يعرف أيضا بالعصر البويهي بسبب غلبة نفوذ البويهيين الديالمة، أو عصر النفوذ الفارسي الثانى . وكان بنو بويه من متشيعى الفرس ، وفى عهدهم ضعف سلطان الخلافة العباسية ، فاستبدوا بالحكم ،وأصبح لهم الحل والربط، ولم يعد للخليفة العباسى من السلطان سوى الاسم ، ويرى المؤرخون أن معز الدولة أحمد بن بويه أقدم على خلع الخليفة العباسى المستكفى بالله وسمل عينيه(١) وقد بلغ من سيطرة البويهيين على الخلافة أنهم فكروا فى إزالة الخلافة العباسية السنية وإقامة خلافة علوية فى بغداد ، وقد ازداد سلطان بنى بويه فى أيام الخليفة الطائع لله العباسى،وأصبح عضد الدولة البويهي يحكم البلاد ويذكر اسمه فى الخطبة بدلا من الخليفة ، وبالجملة أصبح خلفاء بنى العباس ألعوبة فى أيدى البويهيين يولونهم الخلافة ويعزلونهم منها متى شاءوا ، بل وصل الضعف بالخلافة العباسيه إلى درجة أن اسم الخليفة الفاطمى المستنصر بالله كان يذكر على منابر بغداد بدلا من الخليفة القائم وذلك فى سنة ٤٥٠ هـ .

العصر العباسى الرابع (٤٤٧ - ٦٥٦ هـ / ١٠٥٥ - ١٢٥٨ م)

ويعرف أيضا بالعصر التركى الثانى أو العصر السلجوقى . والسلاجقة

---

(١) لما قوي أمر معز الدولة حجر على الخليفة ، ثم دخل عليه فى جمادى الآخرة سنة ٣٣٤ فوقف ـ والناس وقوف على مراتبهم ـ فتقدم اثنان من الديلم الى الخليفه ، فمد يديه منها ظا نا أنهما يرغبان فى تقبيلها، فجذباه من السرير حتى طرحاه الى الأرض،وجراه بعمامته، وهجم الديلم على دار الخلافة ونهبوها ، وساقوا المستكفي بالله ماشيا الى معز الدولة فى بيته ، حيث خلعه معز الدولة وأمر بسمل عينيه وحبسه (راجع ابن الأثير ، ج ٨ ص ٤٥١ ، السيوطى ص ٣٦٨) .

فرع من قبائل الغز التركية ، وكانوا يسكنون فى بلاد ما وراء النهر ثم دخلوا فى الإسلام، وتمكن طغرلبك حفيد سلجوق من أن يصل بجيوشه إلى خراسان ، ثم يصل إلى بغداد ملبيا نداء الخليفة القائم العباسى عندما استنجد به ضد أبى الحارث البساسيرى الذى دعا فى بغداد باسم المستنصر بالله الفاطمى . وفى هذا العصر السلجوقى استطاع الخلفاء العباسيون استعادة بعض سلطانهم السليب، ولكن لم يمض عهد طويل حتى انتقلت السلطات كلها إلى أيدى السلاجقة، وأصبحوا يهيمنون على جميع مرافق الدولة ، ولم يعد للخليفة من سلطان سوى ذكر اسمه فى الخطبة ونقش اسمه على السكة . ومما يروى عن ضعف الخليفة ما ذكره السيوطى من أن ملكشاه السلجوقى أصر على طرد الخليفة المقتدى بأمر الله (٤٦٧ هـ) من بغداد فى سنة ٤٨٥ هـ لتدخله فى شئون الحكم، فأرسل إليه يقول «لابد أن تترك لى بغداد وتذهب إلى أى بلد شئت ، فانزعج الخليفة، وقال : أمهلنى ولو شهرا ، قال : ولا ساعة واحدة . فأرسل الخليفة إلى وزير السلطان يطلب المهلة إلى عشرة أيام ، فاتفق مرض السلطان وموته ، وعد ذلك كرامة للخليفة» (١) . على أن خلفاء بنى العباس أخذوا يعملون منذ عهد المسترشد على استرداد نفوذهم منتهزين ضعف السلاجقة ، وقد تمكن المقتفى سنة ٥٣٠ هـ من تجديد رسوم الخلافة ، وباشر الأمور بنفسه ، وغزا أكثر من مرة . ولما تولى الخليفة الناصر فى سنة ٥٧٥ هـ أخذ يحث الخوارزميين على طغرلبك آخر سلاطين السلاجقة فى العراق ، وتمكن علاء الدين تكش خوارزمشاه من قتل طغرلبك فى سنة ٥٩٠، وأرسل رأسه إلى الخليفة العباسي فى بغداد . ولكن تبين للخليفة الناصر العباسى بعد أن استعان بدولة

(١) السيوطى ، ص ٢٦٢

الخوارزميين للقضاء على السلاجقة أنه أخطأ خطأ فاحشا ، فقـد انكشفت له حقيقة الخوارزميين، وتأكدت له مطامعهم في العراق، وثبت له أنهم لا يقلون عن السلاجقة استبدادا وتحكما، وكان بداية العداء بين الخليفة والسلطان تكش الخوارزمي أن تكش طلب في أواخر أيامه أن تقرأ الخطبة باسمه على منابر بغداد نفسها، ولما تولى علاء الدين محمد بن تكش أتابكية خوارزم ، عـــزم على القضاء على الخلافة العباسية ، وإقامة خلافة شيعية في بغداد ، ثم أصـــدر أمراً بعزل الخليفة وإسقاط اسمـــه من السكة والخطبة، وأقام عـــلى الخلافة رجلا علويا من مدينة ترمذ .

ويروى المؤرخون أن الخليفة، عندما ضاق به الحال بعد أن قطع خوارزم شاه اسمه من الخطبة، راسل جنكيزخان يحرضه على مهاجمة الدولة الخوارزمية . وعلى الرغم من سقوط القسم الأعظم من دولة الخوارزميين في أيدي المغول في سنة ٦١٨ هـ ، فقد استمر النزاع قائما بين خلفاء بغـداد والخوارزميين ، ولم ينته هـذا النزاع الا بسقوط الدولة الخوارزمية نهائيا في أيدى المغول ، وذلك على أثر مصرع السلطان جلال الدين منكبرتى في شـوال سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣١ م) ثم سقوط الخلافة العباسية في بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) .

* * *

وبعد ففي الصفحات التالية مجموعة من المحاضرات التى القيتها فى سنة ١٩٧٢ على طـلاب قسم التاريخ بجامعة بيروت العربية ، حاولت أن أعالج من خلالها تاريخ الدولة العباسية في عصرها الأول ، لا على أساس سرد لسير الخلفاء أو ذكر لحروبهم ووقائعهم فحسب ، وانما رأيت أن أتعرض أولا لدراسة التاريخ

السياسي لهذا العصر بوجه عام مع التركيز على السياسة الخارجية للدولة العباسية في الشرق والغرب ، ثم دراسة نظم العباسيين ورسومهم وأحوالهم الاقتصادية والاجتماعية ، مع الاهتمام بالآثار الحضارية التي ترتبت على عملية المزج في الأمة العربية الاسلامية بالعناصر الأعجمية التي كان لها أعظم الأثر في إمداد الحضارة الإسلامية بدماء فتية جديدة، ومادة حيوية ، تواصلت ثم تفاعلت مع الأصول الأولى ، وأعانت على تطوير النظم الحضارية في العالم الاسلامي في مراكزه المتعددة .

ولعلى وفقت في الصفحات التالية في أن أرسم صورة متكاملة لتاريخ العصر العباسي الأول سواء ما يتعلق بجانبه السياسي أو ما يتصل بجوانبه الحضارية والله الموفق .

السيد عبد العزيز سالم

الاسكندرية في ١٢ ربيع الثاني ١٢٩٨ هـ

الفصل الأول

قيام الدولة العباسية

(١) الدعوة العباسية وتنظيماتها السرية

(٢) عوامل نجاح الدعوة العباسية

(٣) انتصار الثورة العباسية وآثاره فى التاريخ الاسلامى العام

(١)

الدعوة العباسية وتنظيماتها السرية

لم يكن سقوط الدولة الأموية وقيام دولة بنى العباس مجرد تغيير فى الاسرة الحاكمة ، وإنما يشكل فى حقيقة الأمر ثورة جذرية حاسمة فى تاريخ الاسلام على النظام القديم ، تحققت بفضل دعوة وتنظيم ثوريين ناجحين واسعى الانتشار، يعبران على حد قول المؤرخ الانجليزى برنارد لويس Bernard Lewis عن سخط عناصر هامة من الامة العربية الاسلامية من الحكم الأموى ، وعن رغبة مشتركة فى إسقاط النظام القائم (١). وليس هناك أى مجال للشك فى أن الدعوة العباسية بما أصابته من نجاح تجاوز كل تقدير فى الحسبان تمثل براعة لا حدود لها فى التنظيم العقائدى ، وتخطيطا دقيقا لا نظير له فى وضع أسسها وإرساء قواعدها ، كما أنه لا بد لهذه الدعوة حقا من زعيم روحى ينفخ فيها ويقودها ويرعاها ، وعقول مفكرة تخطط بدقة وتجتذب الأنصار والمشايعة حتى يتوفر لها أسباب النجاح . وعلى هذا النحو استلزم الأمر نوعا من التنظيم السرى المحكم الذى يكفل للدعاة أن يقوموا بمهامهم الخطيرة دون أن تتعرض لهم السلطات الحاكمة ، والذى يهيىء للدعوة أن تستمر فى طريق النضال حتى النصر .

ولم يكن للدعوة بادىء ذى بدء اسم تتميز به، إذ كانت ترتكز على حزب آل البيت، أقوى الأحزاب المعارضة للدولة الأموية ، وهو حزب الهاشمية الذى

---

(١) برنارد لويس ، العرب فى التاريخ ، ص ١١٣ وما يليها ـ فاروق عمر ، طبيعة الدعوة العباسية ، راجع الفصل الثانى والخاتمة ، ص ٢٦٩ وما يليها .

يضم علويين وعباسيين — على السواء [١] — وأنصارهم من الموالى العجم الذين آثروا الانضمام اليه دون غيره من الأحزاب المعارضة الأخرى. وقد تعرض الشيعة العلويون على مختلف فرقهم لتنكيل الأمويين باعتبارهم أصحاب الحق الشرعى فى الخلافة ، كما استشهد من أئمتهم من خرج يطالب بهذا الحق[٢] .

ومنذ طليعة القرن الثانى للهجرة ، حمل العباسيون لواء المطالبة بالخلافة بدلا من العلويين ، فكيف انتقلت الامامة من الشيعة العلويين أصحاب الحق الشرعى فى الخلافة ورمز بيت النبي الى بنى العباس عم النبي ؟ وما هى الظروف التى صاحبت هذا التحول ؟

بعد أن استشهد الحسين فى كربلاء ، انتشر التشيع فى أنحاء الدولة العربية ، ونادى فريق الشيعة بعلى زين العابدين بن الحسين بن على إماما ، وعرف هؤلاء بالشيعة الامامية ، بينما قام فريق آخر يتزعمه المختار بن عبيد الثقفى وقائد حرسه أبو عمرو كيسان (وكان من موالى الفرس) بالدعوة لمحمد بن على بن أبي طالب المعروف بابن الحنفية (من خولة بنت قيس بن جعفر الحنفى) ، مؤلفا فرقة من غلاة الشيعة نسبت اليه مرة وعرفت بالمختارية

---

(١) لم ينصح العباسيون عن مطامعهم فى الخلافة منذ وفاة الرسول حتى سنة ١٣٠ هـ لأن جمهور المسلمين كان يرى أن أبناء على بن أبي طالب من فاطمة بنت رسول الله الذين ضحوا بأنفسهم واستشهدوا فى سبيل الحق هم رمز بيت النبى وأصحاب الحق الشرعى فى الخلافة .

(٢) استشهد الامام الحسين بن على فى كربلاء فى المحرم سنة ٦١ هـ ، عندما خرج الى الكوفة تلبية لدعوة أهل العراق ، واستشهد زيد بن على زين العابدين سنة ١٢٢ هـ عندما خرج على الأمويين فى الكوفة مطالبا بالخلافة (المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ٢٤٦) واستشهد ابنه يحيى بن زيد فى سنة ١٢٥ عندما استنكر ما شمل الناس من الجور (المسعودى ج ٣ ص ٢١٢ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ٢٧٢ — عبد العزيز سالم ، تاريخ الدولة العربية ، ص ٦٥٤ وما يليها) .

وإلى صاحب شرطته وحرسه مرة ثانية وعرفت بالكيسانية (١)، وإلى أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية مرة ثالثة وعرفت بالهاشمية . ولما توفى محمد بن الحنفية الذى كان يزهد فى الخلافة لنفسه، وبايع عبد الملك بن مروان على أثر انتهائه من القضاء على حركة ابن الزبير، والذى تبرأ من الآراء الخطيرة التى نادى بها كيسان وما تضمنته من أباطيل ذات لون شعوبى (٢)، ولما توفى ابن الحنفيه اضطربت أفكار الشيعة وتعددت فرقهم : ففرقة استمرت على ولائها لابن الحنفية وقالت بغيبته ورجعته، وفرقة نادت بامامة ابنه أبى هاشم عبدالله، بالاضافة الى فرقة الامامية التى سبق أن تحدثنا عنها . وفى هذه الآونة أقام على ابن عبد الله بن عباس وابنه محمد بالحميمة التى كان الوليد بن عبد الملك قد أقطعه اياها، ونزل عنده بها أبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية عندما اتضحت له النوايا السيئة التي يضمرها سليمان بن عبد الملك نحوه، وحدث أن توفى على زين العابدين بن الحسين في المدينه فى أول سنة ٩٤ ه وقد ترك من الأبناء ولدين فى مطلع شبابهما هما محمد الباقر وزيد، ولم يمض على ذلك خمس سنوات حتى توفى أبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفيه في سنه ٩٩ ه. من سم سقيه عند عودته من الشام، وضع عليه سليمان بن عبد الملك من سقاه

(١) الشهرستانى، الملل والنحل، القاهرة ١٩٤٨ ص ١٩٦ .

(٢) ذهب الكيسانية الى القول بأن لكل ظاهر باطن، ولكل شخص روح، ولكل تنزيل تأويل، وقد ساعد قولهم بالباطنية على تسرب كثير من العقائد غير الاسلامية الى آرائهم، فقد قالوا بتناسخ الارواح وبالرجعة أى رجعة الامام بعد موته، ولهذا زعموا بعد وفاة محمد بن الحنفية بأنه ذهب الى مقره فى السماء وأنه سيعود .

(راجع : المجتمع العربى ومناهضة الشعوبية، ص ٢٦) .

له تخلصا منه بعد ان لمس فيه العلم الواسع والذكاء المتقـد والنشاط الوافـر .
فلما أحس أبو هاشم بدنو أجله عاد إلى محمـد بن علي بن عبـد الله بن عباس
وهو بالحميمة ، « فعرفه حاله ، وأعلمه ان الخـلافة صائرة الى ولده ، وأعلمه
كيف يصنع ، ثم مات عنده » (١) . وكان أبو هاشم قد أبلغ شيعته من أهل
خراسان والعـــراق عند ترددهم اليه أن الأمر صائر الى ولد محمـد بن علي ،
وأمرهم بقصده بعـده . والظاهر أن أبا هاشم عندما أحس بالسم يسرى في
جسده،وأدرك دنو أجله،قد أمد محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بأسماء دعاة
الشيعـة في الكوفة التي كانت المركز الرئيسي للدعوة الشيعية في العـــراق
وخراسان ، أو أنه سلمه كتبا يبعثهـا إلى هؤلاء الدعاه توكيداً لوصيته ،
وكان معظم هؤلاء الدعاه الشيعة من أصول فارسية (٢) ، وعلى أساس هـذه
الوصية،ورث محمد بن علي العباسي حق الكيسانية في الامامة،فما كاد أبو هاشم
يموت حتي قصده الشيعة وبايعوه ، ثم عادوا إلى مراكزهم ، وبدأوا في نشر
الدعوه لمحمد بن علي العباسي عن طريق الدعاة . (٣)

ويرد بعض المؤرخين المحدثين على هـذه الرواية التي تفسر كيفيـة تنازل
أبي هاشم عن حقه في الخلافة إلى محمد بن علي العباسي ، ويستندون في ردهم
على أن الدعوه العباسية شقت طريقها بعـد ذلك باسم الدعـوه لآل البيت أو
للرضا من آل محمد (أي الذي يرتضونه من آل النبي) تمويهاً على الشيعة بوجه
خاص مما يسقط رواية الوصية ، فلو ان الامامة انتقلت حقا من أبي هاشم الى

---

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٤ .
(٢) ابراهيم أحمد العدوى ، المجتمـــع العربي ومناهضة الشعوبية ، القاهرة ١٩٦١
ص ٥٤ .

محمد بن علي لكان قد صرح بذلك، ولكن الدعوة وجهت لآل العباس في ذلك الحين. ويستندون كذلك في ردهم على أن العباسيين بعد أن استأثروا بالخلافة العباسية ، عمدوا إلى تدعيم موقفهم أمام دعاوى الشيعة ، فاستندوا الى ان حق الوراثة في التشريع الاسلامي يتيح لهم وراثة النبي ، لأن التشريع يقدم العم فى الميراث على ابن البنت ،وان العباسيين باعتبارهم من نسل العباس ـ وكان مايزال حيا بعد وفاة النبى حتي خلافة عثمان ـ أولى بالخلافة من نسل فاطمة بنت رسول الله (١) .

ومن المرجح أن العباسيين انضموا إلى الشيعة الكيسانية ، وتسموا بالهاشمية (٢) ستاراً لمطامعهم ، وتمويهاً على الفرق الشيعية الأخرى بأنهم يدعون لآل البيت أو للرضا من آل محمد .

---

(١) أورد ابن الأثير نص كتاب وجهه أبو جعفر المنصور الى محمد النفس الزكية ردا على كتابه ، وقد جاء في جملة ما جاء فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد، فقد بلغني كلامك وقرأت كتابك، فاذا جل فخرك بقرابة النساء لتضل به الجفاة والغوغاء ، ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء ، ولا كالعصبة والأولياء ، لان الله جعل العم أبا ، وبدأ به في كتابه على الوالدة الدنيا ، ولو كان اختيار الله لهن على قدر قرابتهن، كانت آمنة أقربهن رحما ، وأعظمهن حقا .... وأما قولك انكم بنو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فان الله تعالى يقول في كتابه : (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم) ولكنكم بنو بنته ، وأنها لقرابة قريبة ولكنها لا يجوز لها الميراث ، ولا ترث الولاية ولا يجوز لها الامامة ، فكيف تورث بها ؟ ولقد طلبها أبوك بكل وجه ، فأخرج فاطمة نهارا، ومرضها سرا، ودفنها ليلا ، فأبى الناس الا الشيخين ، ولقد جاءت السنة التي لا اختلاف فيها بين المسلمين أن الجد أبا الأم والخال والخالة لا يورثون »

راجع ابن الاثير ، ج ٥ ص ٥٣٨ وما يليها .

(٢) اما نسبة الى ابى هاشم بن محمد بن الحنفية وشيعته المعروفين بالكيسانية أو نسبة الي هاشم بن عبد مناف

كان محمد بن على العباسى شخصية مستنيرة تميزت بالذكاء الحاد، والنشاط، والإتزان، ورجاحة العقل، وحسن البصيرة ، وقد أهلته هذه الصفات ليقدر أبعاد الموقف تقديراً واقعياً ، فأدرك بثاقب نظره أن الدعوة يجب أن تتخذ منطلقاً بعيداً عن مركز الخلافه الأموية، وأن تتوفر لها العناصر المؤيدة لآل البيت والمناهضة للدولة الأموية ، كما أدرك أهميه التزام السرية التامة لأهدافها البعيدة مع اتخاذ هدف قريب تتستر وراءه وهو « الرضا من آل محمد »، ويقصد به أى شخص من آل البيت النبوى يتفق عليه في الوقت المناسب ، درءاً وتقية لما قد يصيب الدعوة من أخطار إذا ما اكتشفت السلطات الاموية سرها ، وفي نفس الوقت كسبا لأنصار جدد من شيعة فارس الذين كانوا يميلون ـ سواء عن إيمان عقائدى راسخ أو بدافع من الشعور القومى ـ للعلويين (١) ، وزيادة في تعمية الأمر على الأمويين والعلويين، وتجنبا لاثارة الشبهات فى نواياه الحقيقية . واختار محمد ـ بتوجيه من أبيه على ـ الكوفة وخراسان مراكز لدعوته . أما الكوفه فلأنها قاعدة الشيعة ومهد التشيع لآل البيت منذ أن اتخذها الإمام على مركزاً له ، وأما خراسان ، فلبعدها عن دمشق دار الخلافة الأمويه من جهة ، ولأنه أدرك أن الخراسانيين أسهل قياداً لتأييد الدعوة العباسية من العراقيين ، وبلادهم أكثر أقاليم الإسلام استعداداً لنصرة الدعوة وتأييدها بسبب عداء أهلها الفرس للأمويين العرب

---

(١) لأن الحسين بن على كان قد تزوج من شهربانو بنت كسرى يزدجرد الثالث آخر أكاسرة الدولة الساسانية البائدة ، ولهذا السبب أيدوا أئمة الشيعة لأنهم يجمعون بين أشرف دم عربى وأشرف دم فارسى ، وان كانوا قد وجدوا فى هذا التأييد سبيلا الى التسلل ضد العرب وانتزاع السلطان منهم (المجتمع العربى ومناهضة الشعوبية ، ص ٢٥) .

من جهة ثانيه (١) ونضيف إلى ماسبق أنه أراد أن يصـــرف نظر الأمويين وأنصارهم عن المركز الرئيسى لنشاطه التنظيمى وهو الحميمة حيث قام هو فى حياة أبيه ثم بعد وفاته فى سنة ١١٨ هعلى تنظيم الدعوة ، ولضمان السرية التامة للدعوة فى خراسان والكوفة رأى أن يكون الطريق الذى يسلكه الدعاة فى ترددهم ما بين خراسان والحميمة من الطرق الرئيسية التى يكثر استخدامها حتى لا ينكشف سر الدعوة ، ولهذا اختار طريق الكوفة ـ خراسان التجـارى ، وأوحى إلى الدعاة والنقباء بالتنكر فى زى التجار ، ولم يسمح لأحد منهم أن يتصل بالحميمة إلا عن طريق داعى الدعاة بالكوفة (٢) . وتتضح أهميـــة خراسان بالنسبة للدعوة العباسية فى قول محمـد بن على العباسى لدعاته عندما أراد أن يوجههم إلى الأمصار : « أما الكوفة وسوادها فشيعـــة على وولده ، وأما البصرة وسوادها فعثمانيـة تدين بالكف وتقول كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل ، وأما الجزيرة فحرورية مارقة (٣) ، وأما أهل الشام فليس يعرفون إلا آل أبى سفيان (٤) وطاعة بنى مروان ، وعداوة راسخة وجهل متراكم ، وأما مـكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر . ولكن

---

(١) كان العباسيون يحسـون حساب رد الفعل الشيعى أو العربى عامة بعد انكشاف سر دعوتهم فيما بعد ، ويعدون لذلك العدة ، ولهذا ركزوا همهم على أن يكون معظم أنصار دعوتهم من الفرس والخراسانيين بوجه خاص ، وطالبوا دعاتهم فيما بعد بقتل كل من يتكلم باللسان العربى فى خراسان .

(٢) محمـــد حلمى محمد ، الخلافة والدولة فى العصر العباسى ، القاهرة ١٩٥٩ ص ٣٠ وما يليها .

( ) فى نص المقدسى البشارى : «فحرورية صادقة وأعراب كأعلاج ومسلمون فى أخلاق النصارى » المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٢٩٣ .

(٤) فى نص المقدسى : فلا يعرفون غير معاوية وجماعة بنى أمية .

عليكم بخراسان ، فان هناك العدد الكثير والجلد الظاهر ، وهناك صدور سليمة ،وقلوب فارغة لم تتقسمها الأهواء ، ولم يتوزعها الدغل (١) ،وهم جند لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل وهامات ولحى وشوارب (٢) ، وأصوات هائلة ،ولغات فخمة تخرج من أجواف منكرة (٣). وبعد، فانى أتفاءل إلى المشرق وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق » (٤) .

والظاهر أن على العباسي كان الرأس المدبر للدعوة فى الفترة من ٩٩ هـ إلى ١١٨ هـ التى توفى فيها (٥) ، ولا شك أن محمدا بن على، يوم وزع دعاته على العراق وخراسان، لم يظهر لهم أهدافه الحقيقية فى الاستئثار بالأمر لنفسه ولبنيه دون العلويين ، وإنما أظهر أمامهم سعيه لقلب نظام الحكم الأموى وإعادة الحق إلى اصحابه الشرعيين حتى يجتذب اليه الأنصار والمؤيدين(٦) بدليل أن أبا سلمة الخلال الذى تلقب بلقب وزير آل محمد ، حاول ـ بعد أن كشف دور السرية فى الحركة قبيل إعلان الخلافة العباسية ـ أن يقيم خلافة علوية ، ورشح لذلك ثلاثة من أئمة الشيعة هم جعفر الصادق وعبد الله المحض وعمر بن زين العابدين ، ولكنه فشل فى ذلك (٧) .

---

(١) فى نص المقدسى : لم تتوزعها النحل ، ولم يقدح فيها فساد .
(٢) يقصد بذلك أنهم رجال يعتمد عليهم .
(٣) يعنى بذلك أنهم أكثر الشعوب الاسلامية سخطا وتذمرا على الأمويين وأكثرهم جرأة على مناهضتهم .
(٤) ابن الفقيه الهمذانى ، مختصر كتاب البلدان ، ليدن ١٨٨٥ ، ص ٣١٥
(٥) ابن الاثير ، ج ٥ ، ص ١٩٨
(٦) فلهاوزن ، الدولة العربية ، ترجمة الدكتور العشي ص ٤٠٨ .
(٧) الجهشيارى، ص ٨٦ ،وما يليها ـ ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ،القاهرة ١٩٠٩ ج ٢ ص ٣٢١ .

ويذكر ابن الأثير أن محمد بن على أخذ يوجه منذ سنة ١٠٠ هـ الدعاة فى الآفاق ، فوجه ميسرة العبدى إلى العراق ، كما وجه محمد بن خنيس ، وأبا عكرمة السراج (وهو أبو محمد الصادق) ، وحيان العطار ، خال ابراهيم ابن سلمة ، إلى خراسان ، « وأمرهم بالدعاء اليه وإلى أهل بيته ، فلقوا من لقوا . ثم انصرفوا بكتب من استجاب لهم إلى محمد بن على ، فدفعوها إلى ميسرة ، فبعث بها ميسرة إلى محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، فاختار أبو محمد الصادق لمحمد بن على اثنى عشر رجلا نقباء (١) » .

وبمقتضى هذا التنظيم السرى توزع عدد من الدعاه فى العراق وعدد آخر في خراسان ، فكان للعراق ثلاثة دعاة على التوالى هم : ميسرة العبدى (١٠٢ – ١٠٥ هـ) ، ثم بكير بن ماهان (١٠٥ – ١٢٧ هـ) ، ثم أبو سلمه الخلال (١٢٧ – ١٣٢ هـ) ، كانوا يتنكرون في ثياب التجار أو الحرفيين أو المؤدبين ثم يندسون بين الناس دون أن يعرفهم أحد . أما دعاة خراسان فكانوا سبعة، أولهم أبو عكرمة السراج . ويلى طبقة الدعاة في المرتبة طائفة النقباء الذين يأتمرون بأمرهم ويجهلون إمام الوقت ، وكان لكل داعية ١٢ نقيباً ، ولكل نقيب سبعون عاملا يديرون الوحدات المتفرعة، ويشرفون على الخلايا السرية المنبثة في مختلف الأقاليم . وكان الدعاة والنقباء يتميزون باخلاصهم الشديد للدعوة، وتفانيهم في نشرها ، كما كانوا يتصفون ببعد النظر والقدرة على فهم نفسيات الناس وتمييز عناصرهم، تمهيداً لاجتذابهم إلى دعوتهم، وبالبراعة فى التخفى والتنكر، مع حظ كبير من الثقافة والعلوم الدينية واللغوية .

---

(١) ابن الاثير ، ج ٥ ص ٥٣ ، ٥٤

ويعتبر بكير بن ماهان داعي دعاة العباسيين فى العراق من الشخصيات البارزة فى تاريخ الدعوة العباسية ، إذ يعود اليه الفضل الأعظم فى تنظيم الدعوة السرية فى العراق زهاء ٢٢ سنة . وكان موسرا ، فلم يضن بأمواله فى النفقة عليها (١) . وخلفه أبو سلمة الخلال، واسمه حفص بن سليمان الفارسي ، وكان سمحا، كريماً، فصيحا، عالماً بالاخبار والأشعار والسير والجدل والتفسير (٢)، ويرجع إلى أبى سلمة الفضل فى قيادة الدعوة العباسية فى العراق فى السنوات الخمس الأخيرة التى سبقت قيام الدولة العباسية .

أما خراسان ، فقد تعرضت الدعوة فيها زمن ولاية أسد بن عبدالله القسرى لمحن شديدة ، فعلى الرغم من السرية المحكمة وشى رجل من كندة إليه بجمع من دعاة العباسيين فى سنة ١٠٧ ، فاستقدمهم وفيهم أبو عكرمة السراج ومحمد بن خنيس وعامة أصحابه ، ونجا عمار العبادى ، فقطع أسد أيدى من ظفر به منهم وصلبهم ، وأقبل عمار العبادى إلى بكير بن ماهان فأبلغه الخبر ، فكتب إلى محمد بن على بذلك (٣) وقدم إلى خراسان فى سنة ١٠٩ هـ أيضاً فى ولاية أسد داعية بعث به محمد بن علي العباسي يقال له زياد أبو محمد ، أقام بمرو ، ودعا لبنى العباس ، فأخبر به أسد ، فتخوف من جانبه ، فاستقدمه إليه وقتله وقتل معه عشرة من أهل الكوفة (٤) وفى سنة ١١٧ هـ ظفر أسد فى بداية ولايته الثانية على خراسان بجماعة من دعاة بنى العباس ، فقتل بعضهم ومثل

---

(١) ابن الاثير ، ج ٥ ص ١٢٥ — الشيخ الخضرى ، محاضرات فى تاريخ الدولة العباسية، القاهرة ١٩٠٩ ص١٦
(٢) ابن طباطبا ، ص ١٣٦ .
(٣) ابن الاثير ، ج ٥ ص١٣٦ .
(٤) نفس المصدر ، ص ١٤٤ .

بعضهم وسجن البعض ، وكان فيمن وقع بيده « سليمان بن كثير ، ومالك ابن الهيثم ، وموسى بن كعب ولاهز بن قريظ ، وخالد بن ابراهيم ، وطلحة بن زريق . فأتى بهم ، فقال لهم : يافسقة...ألم يقل الله تعالى : (عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه) فقال له سليمان : نحن والله كما قال الشاعر

لو بغير الماء حلقي شرق .˙. كنت كالغصان بالماء اعتصاري

صيدت والله العقارب بيديك ! إنا ناس من قومك ، وان المضرية رفعوا اليك هذا لأنا كنا أشد الناس على قتيبة بن مسلم ، فطلبوا بثأرهم . فبعث بهم إلى الحبس (١) . وفي العام التالى وجه بكير بن ماهان عمار بن يزيد إلى خراسان داعيا لبنى العباس ، فنزل مرو ، وتسمى بخداش ، ودعا إلى آل البيت ،فسارع إليه الناس وأطاعوه ،ثم غير ما دعاهم اليه ، وأظهر دين الخرمية، ودعا إليه ، ورخص لبعضهم فى نساء بعض ، وقال لهم انه لا صوم ولا صلاة ولا حج مؤولا الصوم بمعنى الصوم عن ذكر الامام ، والصلاة أى بالدعاء له، والحج بمعنى القصد اليه. فبلغ خبره أسد بن عبد الله فظفر به ، فأغلظ القول لأسد ، فقطع لسانه ، وسمل عينيه ، ثم أمر بقتله ، فقتل ثم صلب بآمل (٢) . ومنذ ذلك الحين انقطع محمد بن على العباسى عن مكاتبة دعاته بخراسان . إلا أن الدعوة فى خراسان لم تحرز تقدما ملحوظا إلا منذ وفاة

---

(١) ابن الاثير ، ج ٥ ص ١٩٠ .

(٢) نفس المصدر ، ج ٥ ص ١٩٧ .

أسد بن عبد الله فى سنة ١٢٠ هـ .

وكانت مهمة الدعاة والنقباء فى خراسان تقوم على ترديد بعض الشعارات التي ينادى بها العباسيون، كتحقيق مبدأ المساواه الذى كانت تتستر وراءه نزعات متباينة ، والذى أيده جماعة كبيرة من الشعوبيين العجم لأنه يحقق اهم مكاسب تهدف الى إحياء المجد الفارسى القديم وإدالة دولة الجبابرة (أى الدولة العربية) كما أيده آخرون من العرب (١) على أساس تسوية الموالى بالعرب استناداً الى مبدأ الفقهاء فى الاصلاح، ومحاربه الظلم والعسف . كذلك طالب الدعاة بالدعوة الى الاصلاح ،ويقصد به الدعوة الى الكتاب والسنة . وقد أدت هذه الشعارات الى ازدياد عدد المؤيدين للدعوة فى خراسان للرضا من آل محمد ، وانتشارها فى بلاد فارس وخراسان وخوارزم وبلاد ما وراء النهر .

ثم توفى محمد بن على العباسي فى سنة ١٢٥ هـ (٧٤٢ م) بعد أن أوصى بالامامة من بعده لابنه ابراهيم . وفى عهد ابراهيم يبدأ دور

---

(١) على الرغم من أن الثورة العباسية اتخذت لها واجهات متعددة ورفعت لنفسها شعارات مختلفة حاولت فيها على حد قول الدكتور فاروق عمر كسب كل المتذمرين ضد الحكم الاموى،الا أنها اعتمدت بوجه خاص فى رأى الدكتور فاروق على القبائل العربية بخراسان التى كانت تكون القوة الفعالة فى الجيش الخراسانى الذى تقوى على نصر بن سيار

(فاروق عمر ، طبيعة الدعوة العباسية ، ص ٢٧٧ وما يليها)

ومع أن الدكتورة قدورة ترى أن العنصر العربى فى خراسان كان ضئيلا (زاهية قدورة ، الشعوبية وأثرها الاجتماعى والسياسى ، بيروت ١٩٧٢ ص٦٨) الا أنها تؤكدأن الدعوة العباسية كانت فىصميمها عربية ومؤسسها عربى عريق النسبفى العرب، وهدفها نقل الخلافة من فرع عربى الى فرع عربى آخر . (نفس المرجع ص ٧٦)

جديد من تاريخ الدعوة العباسيـــة هو دور العمل والنضال الحـربى ، الذى تألقت فيه شخصيتان بارزتان كان لهما أعظم الأثر فى نجـــاح الدعـوة هما : حفص بن سليمان المعروف بأبى سلمة الخلال الذى تولى رئاسة الدعوة بعـد وفاة بكير بن ماهان ، وشخصية أبى مسلم الخراسانى الشاب المغامـــر الذى يرجـــع اليه الفضل فى قيادة الثورة العباسية الى النصـــر فى الفترة من ١٢٩ هـ الى ١٣٢ هـ .

(٢)

عوامل نجاح الدعوة العباسية

تهيأت لدعاة العباسيين فرص النجاح في بث دعــوتهم ونشرها في الآفاق قبل أن تصطدم حربياً بقوى الأمويين ، بسبب التنظيم العقائدى المحكم للدعوة على النحو الذى شرحناه ، وبسبب عوامل أخرى مختلفة أدت إلى تصدع دعائم الدولة الأموية فى الداخل والخارج ، مما سهل عـلى العناصر الثورية مهمــة قلب نظـام الحــكم الأموى . ومن عوامل التصدع فى كيان الدولة الأموية مايــلى :

اولا — انتشار الاسلام بين الفرس :

كان لانتشار الاسلام فى بلاد الفرس بالسرعة الهائلة التى تم بها ، واشتراك الفرس المسلمين فى الحركات الثورية التى قامت فى العصــر الأموى كالزبيرية والمختارية وحركة التوابين ، كما كان لتحالفهم مــع الشيعة خاصة ،فى أعقاب كربلاء، كان لكل ذلك أعظم الأثر فى نجـاح الثورة العباسية وانتصارها فى النهاية . ومن المعروف أن الاسلام انتشر انتشاراً هائلا فى فارس فى عصــر عبد الملك ، بدليل السياسة الاقتصادية التى أخذ الحجاج الثقفى يطبقها فى فارس وخراسان ، فقد اقترن انتشار الاسلام هناك بتناقص واضح فى الموارد المالية للدولة الأموية ،الأمر الذى دفـع الحجاج إلى فــرض الجزية عــلى من أسلم من الموالى، وترك ضريبة الخراج على مثل ما كانت عليه ، كما اضطرت

الدولة الأموية الى إعادة المهاجرين من مسلمى فارس الى قراهم (١)، ومقاومة تيار الهجرة الى الحواضر بقصد التكسب من وراء الاشتغال بالحرف والصناعات التى يأنف العرب الاشتغال بها . وأدى ذلك الى استياء المسلمين الفرس، والقراء العرب، فقامت حركات ثورية كالثورة المنسوبة الى عبدالرحمن ابن محمد بن الأشعث ، وكانت ثورة فارسية لأن معظم من شارك فيها كانوا فرسا أو ممن حرص من العرب على تطبيق مبادىء الاسلام ، والمطالبة بتطبيق مبدأ المساواة على الفرس المسلمين ومساواتهم بالعرب .

وانتهت مرحلة مقاومة الأمويين للحركة الاسلامية فى فارس بوفاة الحجاج ، وتبعتها مرحلة التراجع عن هذه السياسة زمن سليمان بن عبد الملك رغبة فى استرضاء طبقات المسلمين ، واستمرت هذه السياسة سارية المفعول فى خلافة عمر بن عبد العزيز، وكان من أهدافها التوفيق بين التيار الاسلامى وبين المصالح الأموية (٢) ، بل إن الحركة الاسلامية لم تلبث أن اتخذت صورة جديدة قوامها التحالف مع الدعوة الهاشمية ، وعادت الهجرة الفارسية من الريف إلى المدن تحقق للمهاجرين أرباحا ضخمة ، وأدى اشتداد حركة الهجرة وتدافعها إلى المدن في النصف الثانى من العصر الأموى الى تكوين طبقات كبيرة من الماطلين الساخطين فى مدن خراسان وفارس ، وكانوا وقوداً هشا للثورة العباسية .

---

(١) كتب عمال الحجاج اليه : « ان الخراج قد انكسر وان أهل الذمة قد أسلموا ولحقوا بالامصار . فكتب الى البصرة وغيرها ان من كان له اصل فى قرية فليخرج اليها . فخرج الناس فعسكروا ، فجعلوا يبكون وينادون : يا محمداه ! يا محمداه ، وجعلوا لا يدرون أين يذهبون » الطبرى ، تاريخ الامم والملوك ، ج ٨ ص ٣٥

(٢) حسن محمود ، العالم الاسلامى فى العصر العباسى ، القاهرة ١٩٦٦ ص ٢٨ .

ثانيا — موجات الاستياء العارمة ضد الحكم الاموى :

هناك أسباب عديدة لمساويء الحـكم الأموى ، منها خروج معاويه على القاعده التي سنها الخلفاء الراشدون،واستحداث نظام الوراثة فى الحكم ، ومنها ميل الأمويين الى الملوكية ومظاهر الابهةواللهو ،ومبالغة بعضهمفىذلك الى حد الانصراف إليالهو والخلاعة ،والانحرافعنالقيمالاخلاقيةوالمثلالدينية وقد أثار ذلك مشاعر الجماهير الاسلامية وأطاح بهيبة الخلفاء ، وجرأ المعارضين للدوله على السعي لتقويضها ، فيزيد بن معاوية كان « موفر الرغبة فى اللهـو والقنص والخمر والنساء » ، وكان معروفا بقبح سـيرته ومجاهرته بالمعاصى واشتهاره بالقبائح (١)،وفي أيامه استشهد الحسين بن على ، وضربت الـكعبة بالمجانيق واستبيحت المدينة. ويزيد بن عبد الملك كان خليـع بنى أميـة (٢) وكذلك عرف الوليد بن يزيد بن عبد الملك بخليع بـنى مروان (٣). وكان الوليد صاحب شراب ولهو وسماع غناء ، وفيه يقول المسعودى : « هو أول من حمل المغنين من البلدان اليه ، وجالس الملهين ، وأظهر الشرب والملاهى والعزف .. وكان متهتكا ماجنا خليعا (٤) ».ويذكر ابن الاثير أنه كان يوقـع بالعود، ويضرب بالطبل والدف ، وكان الغناء أحب اليه من كل لذة

---

(١) ابن طباطبا ، ١٠٣ .

(٢) نفسه ص ١١٧ .

(٣) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ٢١٦ .

(٤) نفسه ، ص ٢١٣ .وذكرالسيوطى أنه كان فاسقا شريبا للخمر منتهكا حرمات الله، أراد الحج ليشرب فوقظهر الـكعبة ،فمقته الناس لفسقه وخرجوا عليه، فقتل فى جمادى الآخرة سنة ١٢٦ (السيوطى ، ص ٢٢٣) .

وأشهى الى نفسه من الماء الى ذى الغلة (١). وذكروا أنه كان يسىء التصرف عند سكره ، فقد قرأ يوما : (واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد . من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد) ، فدعا بالمصحف ،فنصبه هدفا للنشاب ، وأقبل يرميه وهو يقول :

أتوعد كل جبار عنيد ... فها أنا ذاك جبار عنيد
إذا ما جئت ربك يوم حشر ... فقل يارب خرقنى الوليد

ومن أسباب استياء المسلمين من الحكم الأموى انحراف الولاة عن تحري العدل مع الموالى ، واستبدادهم بهم ، وحيادهم عن مبادىء الاسلام الحنيف فى التكافل الاجتماعي والعدالة والمساواة بين العرب والفرس ، فقد عز على أمة الفرس المغلوبة أن يقهرهم العرب ، ويخمدوا أنفاس قوميتهم بسياسة الانصهار والتعريب التى جرى عليها المروانيون منذ خلافة عبد الملك ، ولم ينس الفرس ، رغم اعتناق معظمهم الاسلام ، ماضيهم الحافل بالأمجاد ،واعتبروا سيطرة العرب عليهم نوعا من السيادة العنصرية التى يجب التخلص منها . وعندئذ بدأت طلائع الشعوبيين تتسلل فى كيان الدولة العربية تحت ستار التعاليم الاسلامية ، بدعوى المطالبة بالمساواة ،مستندين الى قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم) . وقد اتخذ الفرس المبادىء الإسلامية سلاحا شهروه على الأمويين لقلب حكومتهم انتصارا للحق على الاستبداد والعنف ، وانضمت الاحزاب المعارضة للحكومة الأموية الى جانب الثوار كالخوارج والمرجئة والشيعة ، ووجد

(١) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، ج ٥ ، ص ٢٩٠ .

الفرس فى التشيع سبيلا مسلطا على العرب ، فارتموا فى أحضانه لا لأن التشيع يوافق عقلية الفرس ويلائمها من حيث التشابه فى نظام الحكم الالهى المتوارث، ولا لأن هناك ثمة قرابة بينهم وبين الشيعة نتيجة لمصاهرة الامام الحسين بن على لهم ، وانما بدافع التحرر من السيطرة العربية .

وعامل ثالث نضيفه الى ما سبق تعليلا لازدياد الشعور بالنقمة على الأمويين هو أن الأمويين أقاموا دولتهم على الخديعة والدس والقهر والسفك ، وأنهم اضطهدوا العلويين بعد أن اغتصبوا منهم حقهم الشرعي فى الخلافة ، وتتبعوهم بالقتل ، فقتلوا مسلم بن عقيل عندما توجه الى الكوفة ممهدا لخروج الحسين ، وقتلوا الحسين بن على وأصحابه وذويه فى كربلاء التي كانت عاملا رئيسيا فى توحيد صفوف الشيعة واستثارة مشاعرهم للانتقام من قتلة الحسين ، فظهر منهم التوابون والمختارية والامامية ، وأصبح التشيع منذ ذلك الحين عقيدة راسخة فى النفوس، وازداد سخط المسلمين على الأمويين ونقمتهم عليهم باستشهاد زيد بن على زين العابدين بالكوفة فى أيام هشام بن عبد الملك ،وصلبه عريانا مدة خمسين شهرا ،وحرق جسده الطاهر فى أيام الوليد بن يزيد ، وباستشهاد ولده يحيى بن زيد فى الجوزجان من بلاد خراسان،وفصل رأسه وصلب جسده فى أيام الوليد بن يزيد نفسه .

وعامل رابع استثار مشاعر المغلوبين من البربر فى غرب العالم الاسلامى على الحكم الاموى ، ونعني به تشبه ولاة الامويين فى المغرب بالحجاج،أمثال يزيد بن مسلم كاتب الحجاج (١) وكان ظلوما غشوما ، ومثل عبيدة بن

(١) كان كاتبا للحجاج وصاحب شرطته،ومنذ أن تولى افريقية سنة ١٠٢ هـ حتى شرع فى تطبيق سياسة الحجاج مع أهل العراق على البربر ، وفي ذلك يذكر الطبري أنه عزم =

عبد الرحمن السلمي (١) ، ومثل عبيد الله بن الحبحاب (٢) وقد بالغ هؤلاء الولاة في الاستبداد بالبربر ، والاستخفاف بهم، والتشدد عليهم فى الجزيات ، بل إنهم لم يتورعوا عن التهجم على نسائهم، وسبيهن، وقتل قطعان أغنامهم، مما دفع هؤلاء البربر الى الانتقاض والثورة (٣) . وكان الخلفاء الامويون يستحبون طرائف المغرب ونسائه ، ويبعثون الى عمال المغرب بطلبهن، فكان العمال يحرصون على اتحاف الخلفاء بالنساء المسبيات، وهو أمر أنكره البربر عليهم (٤) ،وهكذا كانت نفوس أهل المغرب تغلي لهذه المظالم ، فطالبوا الخلفاء بانصافهم، فلما أعرضوا عن إجابة مطالبهم، انتقض البربر على العرب ، واضطرم المغرب على اثر ذلك نارا (٥) .

ثالثا : المنازعات الداخلية :

ترجع أسباب المنازعات الداخلية في الدولة الاموية التى سببت تفتتا خطيرا فى الجبهة الداخلية ، وهيأت المجال للدعوة العباسية ان تنتشر، دون ان يتدارك

= على أن يسير فى البربر « بسيرة الحجاج فى أهل الاسلام الذين سكنوا الامصار ممن كان أصله من السواد من أهل الذمة فأسلم بالعراق ، فانه ردهم الى قراهم ، ووضع الجزية على رقابهم على نحو ما كانت تؤخذ منهم وهم كفار » (الطبرى ، ج ٥ ص ١٠٣ — ابن الاثير ، ج ٤ ص ١٨٢).

(١) كان شديدا فى معاملة البربر ، فأسرف في غزو قبائلهم وسبى نسائهم ، وبالغ فى التعسف معهم . (راجع المغرب الكبير ، ج ٢ ص ٢٩٧) .

(٢) أساء عماله السيرة مع البربر واعتبروهم فيئا للمسلمين وعبيدا لهم ، وتعدوا على الصدقات (ص ٥٢).

(٣) ابن عذارى ، البيان المغرب فى أخبار الاندلس والمغرب ، ج ١ ص٥٢

(٤) ابن عذارى ،ص ٥٣

(٥) المغرب الكبير ج ٢ ص ٣٠٣ — ٣٠٦

الامويون أمرها ، إلى نظام توليه العهد لأكثر من واحد،والصراع بين العصبيات العربية .

أما ما يتعلق بالسبب الأول ، فمن المعروف أن المروانيين اتبعوا سياسة النكث بولاية العهد ابتداء من مروان بن الحكم حتى نهاية عصر الدولة الأموية، فلقد بايع مروان وليين لعهده هما خالد بن يزيد بن معاوية ثم عمرو بن سعيد ابن العاص (١) ، ولكنه نكث بهذه البيعة عندما عزم على توليسة العهد من بعده لابنه عبد الملك ، فاستقدم حسان بن بحدل وأرغبه وأرهبه حتي بايع ولديه عبد الملك ثم عبد العزيز ، وتم تحويل ولاية العهد اليهما ،وترتب على ذلك أن غضب خالد بن يزيد لخلعه من ولاية العهد ، وحدث أمه في ذلك ، وكان مروان قد تزوجها ، فعمدت إلى قتله (٢) . فلما تولى عبد الملك الخلافة أراد أن يخلع أخاه عبد العزيز من ولاية العهد ويبايع لابنه الوليد بن عبد الملك ، فنهاه عن ذلك قبيصة بن ذؤيب ، متولى الخاتم والسكة ، ولكن وفاة عبد العزيز فى جمادى الأولى سنة ٨٥ هـ (٣) وضعت حدا لما كان قد عزم عليه ، وكتب عبد الملك بالبيعة لابنيه الوليد وسليمان . ولما ظفر الوليد بالخلافة أراد أن يخلع أخاه سليمان من ولاية العهد ويبايع لولده عبد العزيز ، فأبى سليمان ، فكتب الوليد الى عماله،ودعا الناس الى ذلك ، فلم يجبه سوى الحجاج بن يوسف وقتيبة بن مسلم وخواص من الناس ، فكتب الوليد الى سليمان يأمره بالقدوم عليه فأبطأ ، فعزم الوليد على المسير اليه لخلعه ، وأعد العدة للخروج ، فمات قبل ان

(١) اليعقوبى ، تاريخ اليعقوبى ، ج ٢ ص ٢٥٦ — ابن الأثير ، ج ٤ ص١٤٨

(٢) عبد العزيز سالم ، تاريخ الدولة العربيه ، ص ٦٦٥

(٣) ابن الأثير ، ج ٤ ص ٥١٣

يسير اليه فى سنة ٩٦، وتولى سليمان الخلافة ، فصب جام انتقامه على أهل الحجاج وصنائعهم، كما أمر بقتل قتيبة بن مسلم الباهلي بخراسان وقتل أهله .

ولما تولى يزيد بن عبد الملك الخلافة، بايع بولاية العهدلأخيه هشام و بعده لابنه الوليد بن يزيد ، لصغر سن الوليد ، فلما عاش يزيدحتي بلغ ابنه الوليد ، كان إذا رآه يقول : « الله بيني وبين من جعل هشاما بيني وبينك (١) » (يقصد مسلمة بن عبد الملك) .

وقد كان من نتائج هذه السياسة إيغار القلوب، وتفتيت الروابط الأسرية بين أفراد البيت الأموى ، وإثارة الفتن والقلاقل والمنازعات بعد وفاة كل خليفة ، وقد عجل ذلك بتصديع الكيان الأموى .

وأما السبب الثانى ، وأعنى به الصراع بين العصبيات العربية ، فكان أخطر وأكثر وبالا من السبب الأول ، فلقد مهدت السياسة الحزبية للدولة الأموية وظهورالأحزاب المعارضة من شيعة وخوارج وزبيرية السبيل لانبعاث العصبيات القبلية القديمة، على الرغم من أن الاسلام أضعف من هذه العصبيات، وحد من المنازعات القديمة بين اليمنية والقيسية . وبينما نجح معاوية بسياسته المعتدله في تحييد هذه العصبيات ، وارتفع فوق مستواها، أخفق المروانيون فى هذه السياسة ، بل هم الذين أذكوا نيرانها وزادوا وقودها ، فلقد تعصب مروان بن الحكم لليمنية ضد المضرية ، واعتمد على اليمنية بزعامة حسان بن مالك فى صراعه مع الضحاك بن قيس الفهرى ، فاجتمعت له حشود من كلب وغسان والسكاسك والسكون ، بينما اعتمد الضحاك على جموع هائلة من

---

(١) ابن الاثير ج ٥ ص ٩١ .

القيسية والمضرية والنزارية ، واشتبك الفريقان في مرج راهط في ذي القعدة سنة ٦٤ هـ في قتال عنيف انتهى بهزيمة العدنانية . وكان لهذه الموقعة آثار خطيرة في انبعاث العداء التقليدي القديم بين العصبيتين اليمنية والقيسية، وإشعال نار الفتن في سائر أنحاء العالم الاسلامي ، فقامت الحرب بين اليمنية والقيسية في مناطق عديدة من الدوله العربية : في الشام والعراق وفارس والمغرب والأندلس ، وأدى الصراع بين هذه العصبيات وتطاحنها إلى تداعي الصف العربي . ومما زاد في احتدام نارها، إخفاق الخلفاء المروانيين في النصف الثاني من العصر الأموي في حفظ التوازن بين العصبيتين، ذلك لأن الخلفاء أصبحوا يؤيدون عصبية منها على أخرى ، فيثيرون بذلك النزاع بين العصبية الأخرى والعصبية التي اعتمدوا عليها : فالوليد بن عبد الملك اعتمد على المضرية ، بينما انحاز أخوه سليمان إلى اليمنية ، وحاول عمر بن عبد العزيز أن يمسك العصا من الوسط ولكن هذه السياسة الحكيمة قضى عليها بعد وفاته ، فقد اعتمد يزيد بن عبد الملك على المضرية ، في حين اعتمد هشام بادىء ذي بدء على اليمنية (١) ، ثم تحول عن ذلك فانحاز إلى المضرية، منذ سنة ١١١ هـ عندما استعمل على خراسان الجنيد

---

(١) عندما تولى الخلافة تعصب لليمنية . ويورد ابن الاثير رواية تعبر عن ذلك ، فقد ذكر أن عمر بن يزيد بن عمير الاسيدي دخل على هشام ولديه خالد بن عبد الله القسري، وكان قد ولاه على العراق ، فسمعه يذكر طاعة أهل اليمن ، فعاق عمر بن يزيد على ذلك بقوله : « والله ما رأيت هكذا خطأ وخطلا ، والله ما فتحت فتنة في الاسلام الا بأهل اليمن ، هم قتلوا عثمان ، وهم خلعوا عبد الملك ، وان سيوفنا لتقطر من دماء أهل المهلب» فسمعه رجل من آل مروان فقال له « يا أخا بني تميم ورت بك زنادي ، وقد سمعت مقالتك وأمير المؤمنين قد ولي خالد العراق وليست لك بدار » (ابن الاثير ، ص ١٢٤) .

ابن عبد الرحمن، الذى لم يتخذ من العمال الا من كان مضريا (١) فأغضب ذلك اليمنية. وفي عهد الوليد الثانى تحيز الخليفة المضرية ، فوثب عليه اليمنية وقتلوه (٢). ولما تولى يزيد بن الوليد الخلافة أيد اليمنيـة ، واعتمد عليهم لأنهم ساعدوه فى التوصل الى الخلافة، وأخذ اليمنية يثأرون من المضرية ، فثار هؤلاء فى حمص وفلسطين والأردن ، واضطرب أمر بنى أمية ، وهاجت الفتنة ، ولكن الخليفة تمكن فى نهاية الأمر من التغلب على الثوار . ولما تولى مروان بن محمد الخلافة سنة ١٢٧، تعصب للمضرية على اليمنية ، فثار اليمنيه بحمص ، فدخلها مروان عنوة فى ١٢٨ ، وقتل جماعة من الثوار ، وصلب خمسمائه من القتلى حول المدينه، ودمر جانبا من سورها (٣). كذلك ثار أهل فلسطين فترة، ولكنهم لم يلبثوا أن أذعنوا له بالطاعه .

وقد أتاحت هـذه الاضطرابات الفرصه لظهور الدعوة العباسيه ، وتثبيت أركانها ، إذ شغل مروان بن محمد عنها باخماد الفتن ، ولم يفطن الى حقيقـة الأوضاع فى خراسان على الرغم من التقارير التى كانت تصل اليه من نصر بن سيار عن سوء الأحوال بها . كذلك انعكس صدى هذه الأحداث فى غرب العالم الاسلامى وشرقه .ففى الأندلس انحاز واليها أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي الى اليمنيه بحكم كونه كلبيا ، ونازع زعيم القيسيه هناك وهو الصميل ابن حاتم بن ذى الجوشن ، مما أدى الى قيام حرب طاحنة بين العصبيتين اليمنيه

---

(١) ابن الاثير ، ج ٥ ص ١٥٦ .

(٢) نفسه ، ص ٢٨١ .

(٣) نفسه ، ص ٣٢٩ .

والمضريه جنوبى قرطبة ، وانتهى الأمر بهزيمة اليمنيه (١) . واستمر الصراع قائما فى الأندلس بين العصبيتين حتى قيام دولة عبد الرحمن الداخل مؤسس الدوله الأموية فى الأندلس .

وفي المشرق قامت المنازعات القبلية في خراسان بين القبائل اليمنية والمضرية التى كانت قد استقرت في خراسان منذ أمد بعيد ونقلت معها نزاعاتها القبلية (٢). ومن المعروف أن هذه العناصر العربية التى استقرت بخراسان منذ فتنة الامصار انما قدمت من البصرة والكوفه حيث يسود التنافس القبلى والفتن وتقلب الاهواء . بدأ النزاع بين القبائل العربية فى خراسان منذ أن قام الحارث ابن سريج بثورته ضد الحكم الاموى هناك ، وساندته فيها بعض القبائل العربية ، وتبع ذلك اشتعال نار الفتن ، وأصبحت خراسان على هذا النحو مسرحا للصراع بين اليمنية والمضرية ، ونجح دعاة العباسيين فى استثمار هذا الصراع لصالح دعوتهم (٣) ، كما نجح أبو مسلم الخراسانى فى تفريق كلمة العرب فى خراسان ودفعهم إلى القتال ، ودخل مرو والفريقان يقتتلان ، فأمرهما بالكف وهو يتلو من كتاب الله : (ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها ، فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه) وصفت مرو لأبى مسلم (٤).

(١) راجع : أخبار مجموعة فى تاريخ الاندلس ، ص ٥٨ — ابن عذاري ، ج ٢ ص ٥٣ ، وأنظر التفاصيل فى كتابى : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس ، بيروت ١٩٦٢ ص ١٦٠ — ١٦٧ .

(٢) برنارد لويس ، ص ١١٠ . وفي الوقائع بين مضر واليمن فى خراسان راجع ابن الاثير ، ج ٥ ص ١٢٧ ، ٢٠٦ وما يليها .

(٣) راجع : ابراهيم العدوى ، المجتمع العربى ومناهضة الشعوبية ، ص ٤٧ — ٦٢ ، حسن محمود ، العالم الاسلامى فى العصر العباسى ، ص ٤٠ .

(٤) ابن الاثير ، ج ٥ ص ٣٧٩ وما يليها .

رابعا ـ تقويض أسطورة العرب :

فى أواخر عصر الدولة الأموية منى العرب بهزائم بشعة فى الخارج شرقا وغربا أسقطت هيبة العرب أمام الشعوب الأعجمية ،وقوضت أسطورة القوة التى جهد الفاتحون فى زمن الخلافة الراشدة والعصر الأموى الأول فى ترسيخها .

ففى عهد هشام بن عبد الملك تمكن خاقان الترك من التغلغل إلى شرق إيران منذ عام ١٠٨ ﻫ وحتى ١١٩ﻫ عندما نجح العرب بعد جهود مضنية فى التغلب عليه، وسقط خاقان صريعا ، وتفرق الترك من بعده (١) .

كذلك تلقى العرب فى عهد هشام هزيمة نكراء على أيدى البيزنطيين زمن الامبراطور ليو الثالث الايسورى (٢) ، فى موقعه أقرن (أفيون قره حصار حاليا) Akroinon الواقعة بالقرب من عمورية، وذلك فى سنة ١٢٢ﻫ (٧٣٩ م)، وفى هذه الموقعة قتل القائد عبد الله أبو الحسين الانطاكى المعروف بالبطال فى جماعة من المسلمين (٣) ، وقد ترتب على هذه الهزيمة أن جلا العرب عن القسم الغربى من آسيا الصغرى وتراجعوا إلى الشرق ، واقترن اسم الموقعة بأسطورة البطل التركى المعروف باسم السيد البطال الغازى الذى لا يزال قبره قائما فى قرية تقع جنوبى اسكى شهر الحالية (٤) .

---

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٢٠٥

(٢) Ch. Diehl & G. Marcais , Histoire du Moyen âge t. III le monde oriental Paris 1936, p.2 .2 —

أسد رستم ، الروم والعرب ج ١ ص ٢٩٣

(٣) الطبرى ، ج ٨ ص ٢٧٩ ـ ابن الاثير ، ج ٥ ص ٢٤٨ .

(٤) السيد الباز العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص ١٩٠ .

كذلك كان للهزيمة الساحقة التى تلقاها المسلمون فى موقعة بلاط الشهداء فى سنة ١١٤ هـ (٧٣٢ م) على أيدى الفرنجة ، ومصرع القائد العربى عبد الرحمن الغافقى وجموع هائلة من أجناده أعظم الأثر فى تقويض أسطورة العرب ، وتصدع كيان الدولة الاموية . وقد وضعت هذه الكارثة حدا لتوسع المسلمين فى غالة وأطاحت بهيبتهم حتى فى داخل شبه جزيرة أيبيريا ، فتجرأت العناصر القوطية الأيبيرية على مناوءة سلطان المسلمين، واستقطاع ممالك كانت المنطلق الاول لحركة الاسترداد الإسبانى للاندلس .

(٣) راجع : شكيب أرسلان ، تاريخ غزوات العرب ، ص ١٠٣ — حسين مؤنس ، فجر الاندلس ، ص ٢٧٥ — عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس ص ١٤٦ .

(٣)

انتصار الثورة العباسية وآثاره فى التاريخ الاسلامى العام

ذكرنا فيما سبق أن الدعوة العباسية تحولت بعد عام ١٢٨ ﻫ من دور الستر إلى دور الجهر ، أو من دور النشاط السرى الى دور العمل والكفاح المسلح ، وذكرنا من أسباب هذا التحول انضمام شاب فارسي مغامر الي الدعوة، اسمه أبو مسلم الخراسانى ، دفعه الطموح الى الاتصال بكبير الدعاة، ولم يلبث أن اختاره الإمام ابراهيم داعيا للدعاة في خراسان ، وارتضاه الخراسانيون زعيما للثورة يحقق أحلامهم ، ويرضى آمالهم في إسقاط دولة الجبابرة (الدولة العربيـــة) وإحياء دولة العجم ممثلة فى الدولة العباسية المستقبلة .

وأبو مسلم عبد الرحمن الخراسانى كان مولى فارسى الأصل، اشتراه بكير بن ماهان ، ولقنه أصول التشيع ، ثم اتصل أبو مسلم بمحمد بن علي العباسى فى سنة ١٢٥ﻫ، ثم بابنه ابراهيم من بعده ، فلمح فيه صفات العزم والذكاء الخارق، ووجد فيه ضالته المنشودة . وكانت الدعوة بخراسان فى حاجـة الى مثل أبى مسلم في تلك الفترة بالذات التى اشتـد فيها الصراع في خراسان بين العصبيات العربية وما وقعت فيه الدولة الأموية من الخلاف (١) ، فوجهـه الى خراسان سنة ١٢٨ﻫ ، وكان عمره يومئذ ١٩ سنة ، وأوصاه بقوله : « أنظر هذا الحى من اليمن فالزمهم ، واسكن بين أظهرهم ، فان الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم(٢)، فاتهم ربيعة في أمرهم ، وأما مضر فانهم العدو القريب الدار(٣) ، واقتل من

---

(١) الشيخ محمد الخضرى ، محاضرات فى تاريخ الأمم الاسلامية ، الدولة العباسية ، ص ٢١

(٢) لأن اليمنية وقتئذ كانوا أعداء للدولة الأموية .

(٣) كان المضرية زمن مروان بن محمد الدعامة التى تستند عليها الدولة الأموية

شككت فيه ، وإن استطعت أن لا تدع بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل ، وأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله ، ولا تخالف هذا الشيخ – يعني سليمان ابن كثير – ولا تعصه ، وإذا أشكل عليك أمر فاكتف به مني » (١) . ثم ارسل اليه الامام ابراهيم راية النصر ، وبذلك انتقلت الدعوة العباسية الى مرحلة العمل الايجابي .

وفي هذه الأثناء حاول نصر بن سيار والي خراسان أن يوحد بين صفوف العرب ضد الفرس ، ويقضي على منازعاتهم ، كما حاول استمالة اليمنية رغم كونه مضريا ، ولكنه أخفق في محاولته ، فرفض اليمنية مصالحته ، واشترط زعيمهم جديع بن شبيب المعروف بالكرماني أن يترك منصبه، فقامت الحرب بينه وبين الكرماني ،وانتهت بانتصار الأخير واستيلائه على مرو (٢) .

ثم نزل أبو مسلم على سليمان بن كثير الخزاعي في رمضان سنة ١٢٩ بقرية سفيذنج من قرى مرو ، وهناك بث دعاته في الناس، فأظهر أمره ،فتوافدعليه

---

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣٤٨ .

(٢) من قوله يحذر العرب من عواقب الفرقة والانقسام أمام عدو ضار يتربص بهم السوء :

أبلغ ربيعة في مرو وأخوتها . . أن يغضبوا قبل الا ينفع الغضب
ما بالكم تلقحون الحرب بينكم . . كأن أهل الحجى عن فعلكم غيب
وتتركون عدوا قد أظلكم . . ممن تأشب لا دين ولا حسب
ليسوا الى عرب منا فنعرفهم . . ولا صميم الموالي ان هم نسبوا
فمن يكن سائلي عن أصل دينهم . . فان دينهم أن تقتل العرب

(الدينوري ، الاخبار الطوال ، تحقيق الاستاذ عبد المنعم عامر ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٣٦١ – ابن الاثير ، ج ٥ ص ٣٦٨) .

في ليلة واحدة سكان ستين قرية . وفي ٢٥ من رمضان من نفس السنة عقد اللواء الذى بعث به الامام اليه على رمح وعقد الراية وهو يقول : (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير) ، ثم لبس السواد (١) هو وسليمان بن كثير ومواليه وشيعته ممن أجاب الدعوة من أهل سفيذنج ، وهنالك تقاطرت عليه جموع كثيفة من هرمز ومرو ، فشرع أبو مسلم في ترميم حصن سفيذنج وأقام فيه بمن معه (٢) .

ثم وقع الاشتباك بين قوات نصر بن سيار بقيادة مولاه زيد وبين قوات أبي مسلم في قرية آلين من قرى مرو ، وانتهى القتال بانتصار أبي مسلم ، ووقوع زيد في أسره . ولكن أبو مسلم لم يلبث أن اطلقه من الأسر حتى يروى لنصر ابن سيار ما شاهده من ضخامة قوى أبي مسلم . وتكاثر أنصار أبي مسلم حتى ضاقت بهم سفيذنج ، فاضطر الى الرحيل الى الماخوان من قرى مرو أيضا ، فحصنها وخندق حولها ، وأقام معه في الخندق سبعة آلاف مقاتل .

وكان نصر بن سيار قد شغل بمقاتلة اليمنية ومحاربة الكرماني حتى قتله ،

---

(١) أصبح السواد شعارا للعباسيين ، ولعلهم اتخذوه تعبيرا عن حزنهم على الشهداء من أهل البيت ، وذكروا في ذلك أن بكير بن ماهان قال : « قد تتابعت على آل رسول الله مصائب لاينكر معها ... لأشياعهم لباس السواد حتى يدركوا بثأرهم » . ولكن بعض المؤرخين يرون أنه قد سبق لبعض الخوارج أن حملوا اللواء الاسود في حروبهم ضد (أهل الضلالة) من الأمويين ، وقد يكون للسواد في هذه الحالة علاقة بأهل الضلال فيرمز للحق والعدل (الدورى ، العصر العباسي الأول ، ص ٣٦) ، بدليل أن الرسول كانت له راية من صوف أسود مربعة كان يحملها في حروبه ضد المشركين ، وكانت لعلى بن أبي طالب راية سوداء ، وكان محمد بن على العباسي يقول : « مايسكم بالسواد فليكن لباسكم » (راجع : اخبار الدولة العباسية ، ص ٢٤٥) .

(٢) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣٦٠ .

فاستغل أبو مسلم هذه الفرصة (١) ، وبعث قواده للاستيلاء على البلاد ، ونجح في ضم علي بن الكرماني واليمنية الموتورين اليه ، وأحس نصر بن سيار بخطر أبي مسلم على كيان الدولة الأموية ، فكتب الى مروان بن محمد يحذره ويصف له خطورة الوضع في خراسان ، ويبلغه أن أبا مسلم يدعو الناس الى ابراهيم ابن محمد العباسي ، وجاء فيما كتبه اليه الأبيات الشعرية التالية:

أرى بين الرماد وميض جمر ... ويوشك أن يكون له ضرام
فان النار بالعودين تذكى ... وان الحرب أولها الكلام
أقول من التعجب ليت شعري ... أأيقاظ أمية أم نيام
فان يك قومنا أضحوا نياما ... فقل قوموا فقد حان القيام
ففرى عن رحالك ثم قولي ... على الاسلام والعرب السلام (٢)

ولكن هذه الصرخات لم تجد نفعا ، فقد اكتفى مروان بأن كتب اليه يقول : « ان الشاهد يرى مالا يرى الغائب ، فاحسم الثؤلول قبلك » (٣). وحدث أن وقع في يد مروان بن محمد كتاب فضح سر صاحب الدعوة ، كان قد بعث به الامام ابراهيم الى أبي مسلم يأمره فيه الا يدع بخراسان متكلما بالعربية الا قتله ، فلما قرأ مروان الكتاب ، كتب الى عامله بالبلقاء يأمره بالتوجه الى الحميمة ، والقبض على ابراهيم الامام ، وشد وثاقه ، وإرساله اليه ، ففعل ذلك ، فسجنه مروان في سجن حران حيث مات مسموما (٤) .

وكان ابراهيم الامام — عندما تم القبض عليه في الحميمة — نعى نفسه

(١) أهتبل فرصة ضعف الفريقين العربيين ، فريق نصر وفريق الكرماني .

(٢) الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص ٣٥٧ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣١٦

(٣) ابن الاثير ، ج ٥ ص ٣٦٦

(٤) ابن طباطبا ، ص ١٢٩

الى أهل بيته ، وأمرهم بالسير الى الكوفة مع أخيـــه أبى العباس عبد الله ، وأوصى الى أبى العباس ، وجعله الخليفة بعده . فمضى أبو العبـاس ومن معه من بيت الامام الى الكوفة حيث أنزلهم أبو سلمه الخلال داعى دعاة العباسيين في دار لأحد أتباعه ، وكتم أمرهم نحوا من أربعين ليلة ، وحاول ان يحول الأمر الى آل على بى أبى طالب عندما بلغه نبأ وفاة ابراهيم الامام ، ولكنـه أخفق فى هذه المحاولة ، واضطر الى مبايعة أبى العباس عبد الله بالخلافة . ولم يستطع محمـــد بن خالد بن عبد الله القسرى أمير الكوفة أن يصمـــد أمام العباسيين ، فسلم لهم الكوفة ، وعلى أثر ذلك ظهر أبو العباس ، ودخل الجامع وبويع له بالخلافة فى ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٢ هـ (١) وخطب على المنبر خطبـة افتتحها بمدح آل النبي ، والطعن فى السبئية الضلال الذين نادوا بأحقيـة الرئاسة والخلافة لغير العباسيين (يقصد لآل على)، ثم سب الأمويين بنى حرب وبنى مروان الذين ابتزوا الخلافة، واستأثروا بها وظلموا أهلها . الى أن ردت الى أصحابها . ثم خاطب أهل الكوفة قائلا : « ياأهل الكوفة انتم محل محبتنا ومنزل مودتنا ، أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ولم يثنكم عنه تحامل أهل الجور عليكم حتى أدركتم زماننا ، وأتاكم الله بدولتنـا . فأنتم أسعد الناس بنا وأكرمهم علينا ، وقد زدتكم فى أعطياتكم مائة درهم، فاستعدوا، فأنا السفاح المبيح والثائر المبير » (٢). ثم خرج العباس بعد الخطبة الى معسكر أبى سلمة حيث أقام شهرا ، ثم ارتحل من هناك فنزل المدينة الهاشمية بقصر الامارة .

أما أبو مسلم فكان خطره قد استفحل بعد أن فرق بين قبـائل العرب ، فزحف فى ربيع الثـانى من سنة ١٣٠ هـ (ديسمبر ٧٤٧ م) على مرو ، وتمكن

---

(١) ابن الاثير ، ج ٥ ص ٤١١ .

(٢) طالع الخطبة فى ابن الأثير، ج ٥ ص ٤١١ ، ٤١٥ = السيوطى ، ص ٢٤٠

من دخولها بمساعدة على بن الكرمانى ، وقتل من العرب فيها نحو ٩٠٠ شخص ، وأما نصر بن سيار فقد فر مستخفيا نحو العراق مارا بنيسابور ، فتعقبه جيوش أبي مسلم ، ولكنه توفي ببلدة ساوة من نواحى الرى فى نفس السنة .

ثم تمكن أبو مسلم من افتتاح أبيورد وبلخ وترمذ ، وعندئذ تخلص من على وعثمان ولدى الكرمانى ، فقتلهما وقتل معظم أصحابهما(١) .

وهكذا تغلب أبو مسلم الخراساني على خراسان كلها ، فبعث العمال على البلاد ، ثم وجه قحطبة بن شبيب إلى طوس ليفتحها ، فتم له ذلك ، وبلغ عدد القتلى هناك من أنصار نصر بن سيار بضعة عشر ألفاً . ثم أمره أبو مسلم بالزحف إلى نيسابور حيث نزل نصر ، فلما بلغ نصراً ذلك ، فر فيمن معه إلى قومس ، فدخل قحطبة نيسابور . وما زال يتتبع نصرا من مدينة إلى مدينة حتى توفى نصر بنواحي الري ، واستولى قحطبة على الرى ، وتم للعباسيين على هذا النحو فتح خراسان و بلاد الجبل . ثم تابع قحطبة وولده الحسن زحفهما ، فاستولى الحسن على همذان ، وافتتح أبوه نهاوند وشهرزور (٢) والموصل ، وتوغل في العراق، ولكنه توفى قبل أن يشتبك مع القائد يزيد ابن عمر بن هبيره أمير العراق من قبل مروان بن محمد، فخلفه على القيادة ابنه الحسن الذى تمكن من ايقاع الهزيمة بجيش ابن هبيرة . وقبل أن يدخل الحسن بن قحطبة الكوفة بادر واليها محمد بن خالد القسرى مسوداً على النحو الذى أشرنا اليه .

وتركزت المقاومة الأموية فى موضعين : الأول فى الموصل حيث

(١) ابن الاثير، ج ٥ ، ص ٢٨٥ .

(٢) نفس المصدر، ج ٥ ص٤٠٠

احتشدت جموع هائلة من الأمويين يبلغ عددها ١٢٠ ألف مقاتل بقيادة مروان بن محمد نفسه . فسير أبو العباس لمقاتلته عمه بن على . وتم الاشتباك على الزاب الأعلى أحد روافد دجلة من جهة الشرق ، وانتهى بهزيمة مروان(١) في ١١ جمادى الآخرة سنة ١٣٢ وفراره (٢) ، بينما غرق معظم الجيش في نهر الزاب بعد أن قطع الجسر . والثانى فى واسط حيث تحصن القائد يزيد بن عمر بن هبيرة فسير أبو العباس السفاح إليه أخاه أبا جعفر ، فاحتدم القتال هناك مايقرب من عام إلى أن بلغ ابن هبيرة نبأ مصرع مروان ، فسعى لطلب الصلح بالأمان ، فأجابه عليه أبو جعفر ، ولكنه لم يف بوعده ، فأمر بقتله وقتل من كان معه من القادة . وبمصرع ابن هبيرة طويت الصفحة الأخيرة من تاريخ الدولة الأموية وبدأ عهد جديد فى تاريخ العرب والإسلام.

* * *

(١) نفس المصدر ، ص ٤١٧ وما يليها .

(٢) فر مروان بن محمد إلى حران ، ثم إلى قنسرين فحمص فدمشق كل ذلك والعباسيون يطاردونه بلا هوادة أينما حل ، وكانت دمشق قد أبدت بعض المقاومة ، ولكن العباسيين اقتحموا المدينة ورفعوا العلم العباسى على قصر بنى أمية . أما مروان فرال يفر من بلد إلى بلد عبر الأردن وفلسطين إلى أن نزل بالفسطاط بمصر ، ومنها إلى بوصير الملق حيث تعقبه العباسيون وقتله عامر بن اسماعيل الحارثى فى ٢٧ ذى الحجة ١٣٢م وبعث برأسه إلى صالح بن على ثم احتوى على عسكره ، ودخل إلى الكنيسة التى فيها بناته ونسائه وقعد على فراشه وأكل من طعامه وبلغ أبا العباس ذلك فاستهجن مافعله عامر وكتب إليه يلومه (راجع المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ٢٤٧ — الكندى ، كتاب الولاة والقضاة ، طبعة رفن جست ، ١٩١٢ ص ٩٦ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٢٦ وما يليها — الاربلى ، خلاصة الذهب المسبوك ، ص ٥٨ — السيوطى ، ص ٢٣٨) .

وقد صحب قيام الدولة العباسية تغيير جذرى واضح المعالم فى جميع مناحى الحياة الإسلامية ، فمن ناحية نظام الحكم شهد العصر العباسى تطورا عميقا فى نظم الحكم فأصبحت السلطة عند العباسيين مقدسة مستمدة من الله تعالى لأن الخلافة تستند على نظرية الإمامة التى كانت المحور الرئيسى للدعوة العباسية مع تأثر واضح بنظرية الحق الإلهى فى الحكم الشائعة عند الفرس (١) ، ولعل هذا يفسر ميل الخلفاء إلى الاستبداد والاحتجاب عن الناس من جهة ، كما يفسر بقاء الخلافة العباسية مدة طويلة واستمرارها فى مصر حتى بعد زوالها من بغداد (٢) ومن حيث الإدارة سيطر الفرس سيطرة تامة على الجيش والإدارة المركزية ، والمناصب الإدارية التى تنحدر من أصول فارسية كنظام الوزارة والحجابة .

---

(١) خطب المنصور قائلا : أيها الناس إنما أنا سلطان الله فى أرضه أسوسكم بتوفيقه وتسديده وحارسه على ماله . . . » (العقد الفريد ، القاهرة ١٩٤٤ ، ج ٤ ص ٩٩) .

(٢) يذكر ابن طباطبا فى ذلك أنه على الرغم من استبداد الفرس ثم الأتراك ثم البويهيين ثم السلاجقة بالدولة العباسية فى مراحل تاريخها ، « فهذه الدول جميعها طرت على دولة بنى العباس ولم تقو نفس أحد على إزالة ملكهم ومحو آثارهم ، وكانت لهم فى نفوس الناس منزلة لا تدانيها منزلة أحد آخر من العالم حتى إن السلطان هولاكو لما فتح بغداد وأراد قتل الخليفة أبى أحمد عبد الله المتعصم ألقوا إلى سمعه أنه متى قتل الخليفة اختل نظام العالم واحتجبت الشمس وامتنع المطر والنبات ، فاستشعر لذلك » (ابن طباطبا ، ص ١٢٥) .

ومن الناحية السياسية نلاحظ أن الدولة العباسية انصرفت بوجهها نحو المشرق ، وبينما مكنت صلاتها بأقاليم أواسط آسيا كبلاد الترك والهند والصين، فاحتكت بها تجاريا ، قل اهتمامها بالمغرب الاسلامى ، مما أضعف النفوذ العباسى فى الغرب ، واكتفى العباسيون باقامة دولة الأغالبة التى اعتبروها بمثابة حاجز يحمى بلاد المشرق الاسلامى من أخطار تسرب المبادىء الخارجية المتطرفة والتشيع .

ومن الناحية الحربية نتج عن تحول الدولة العباسية الى الشرق واتخاذ بغداد مقرا للخلافة العباسية، أن قل اهتمامها بشؤون البحرية فترة طويلة من الزمان، كما قل اهتمامها بموانى البحر المتوسط الشرقى فى الوقت الذى ازداد اهتمامها بالبحرية التجارية فى المحيط الهندى ، مما أدى إلى تألق البصرة وسيراف وغيرها على الخليج العربى كموانىء تجارية هامة .

ومن الناحية الثقافية ظهرت آثار سياسة الانفتاح نحو الشرق فى الحركة العلمية ، فكان العصر العباسى عصر إحياء للثقافات الاقليمية وبالذات للثقافات الفارسية القديمة ، وهو العصر الذى بلغت الحياة العلمية أوجها ، ونشطت حركة الترجمة عن اليونانية والهندية والفارسية .

ومن الناحية الاقتصادية شهد العصر العباسى تطورا اقتصاديا هاما ، فقد عملت الثورة العباسية على تحرير طبقة العمال والفلاحين من السيطرة الأموية ، وإعفائهم من الجزية ، والسماح لهم بامتلاك الاراضى ، فقلت الهجرات الى المدن ، وأحدث احتكاك العباسيين بالشرق الاقصى رواجا اقتصاديا لا نظير له بسبب تفتح الأسواق التجارية مع الصين وتركستان والهند وتدفق المتاجر والسلع

الى العراق ، وازدهرت التجارة البحرية مع الصين عبر سواحل الملايو والهند الصينية ، كما امتدت التجارة العباسية الى بلاد البلغار وحوض نهر الفولجا . وترتب على ذلك أيضا ازدهار الصناعات كالخزف والمنسوجات والتحف المعدنية . واشتهرت بغداد بالعتابى وهو نوع من المنسوجات اختصت به العتابية ببغداد ، واشتهرت الموصل بالموصلى الذى عرفته أوروبا باسم الموسلين. وبازدهار الصناعات تطورت الفنون الزخرفية والفنون المعمارية بعدأن غذتها الفنون الايرانية والهندية والبيزنطية والصينية بكثير من تأثيراتها الفنية . وباختصار كان قيام الدولة العباسية نقلة هامة ونقطة تحول فى تاريخ الاسلام والحضارة الاسلامية .

الفصل الثانى

التعريف بخلفاء العصر العباسى الاول واهم اعمالهم

١ – ابو العباس عبد الله بن محمد المعروف بابى العباس السفاح

١٣٢ – ١٣٦ هـ (٧٥٠ – ٧٥٤م)

هو أول خلفاء الدولة العباسية ، تولى الخلافة فى ٣ ربيع الآخر سنة ١٣٢ هـ وخطب فى صبيحة اليوم التالى لخلافته بجامع الكوفة خطبة مدح فيها آل محمد ، ونده بالأمويين الذين اغتصبوا الخلافة من أصحابها الشرعيين ، ثم ختم خطبته بقوله : « أنا السفاح المبيح والثائر المبير » ، ولهذا السبب لقب بالسفاح . واختلف المؤرخون فى تفسير كلمة السفاح ويرجح العدد الأعظم منهم أن لقب السفاح يعنى السفاك أو المحب للقتل ، وأن هذه الصفة لصقت به لكثرة جرائمه والمذابح التى حدثت فى عهده ضد الأمويين وأقرب الاقربين اليه كأبى سلمة الخلال وزير آل محمد . ويميل عدد من الباحثين الى تفسير كلمة السفاح بمعنى الكريم الذى يسفح الدنانير ، وأن هذا المعنى يتفق وما عرف عن أبى العباس من الكرم والعطاء وأنه سمى نفسه بالسفاح المبيح أى الذى يغدق الأموال على المؤيدين ، والثائر المبير الذى لا يتردد فى سحق الأعداء والمتآمرين ، ويعتقد هؤلاء الباحثون أن السفاح ، بمعنى القاتل ، لم يتلقب به أبو العباس فى المصادر التاريخية الأولى الموثوق بها كالطبرى واليعقوبى والدينورى والجهشيارى ، وأن اسم السفاح لم يرد فى كتابات المؤرخين الا منذ القرن الرابع الهجرى ،

ويضيف هؤلاء أن ابن قتيبة صاحب كتاب الامامة والسياسة يطلق اسم السفاح على عبد الله بن على بن عبد الله بن عباس عم أبى العباس الذى اشتهر بشدة البطش وسفك الدماء، وهو الذى قتل مروان فى مصر ومثل بأهل الشام، وينفى هؤلاء الباحثون صفة القسوة وسفك الدماء من أبى العباس الذى اتصف بالحلم وكرم الأخلاق وكراهيته لسفك الدماء، ويبرأونه من أعمال المذابح التى جرت فى بداية قيام الدولة، وينسبونها الى أعمام أبى العباس، كعبد الله بن على الذى يسميه اليعقوبى بالسفاح (١)، وداود، وسليمان، واسماعيل، وصالح (٢).
ولكن مهما دوفع عن أبى العباس وبرىء من هذه التهم، فانه هو المسؤول عن المذابح البشعة التى اقترنت بقيام الدولة العباسية، أما القول بأن اسم السفاح لم يرد فى مدونات القرن الثالث فمردود بدليل أن مؤلفا مجهول الاسم (من القرن الثالث الهجرى) لعله ابن النطاح مولى جعفر بن سليمان بن على بن عبد الله العباسى (٣) يسمى أبا العباس بالسفاح (٤)، ولا نستبعد لذلك أنه لقب بالسفاح لكثرة ما سفك هو من دماء أو ما سفك فى عهده من دماء الامويين، ويكفى للدلالة على ذلك أنه خر ساجداً لله عندما وصله رأس مروان بن محمد

---

(١) راجع : عبد العزيز الدورى، العصر العباسى الأول، ص ٦٥ - ٦٦.

(٢) عبد الحميد العبادى، صور وبحوث من التاريخ الاسلامى، ج ٢ ص ٧٠، الاسكندرية ١٩٤٨ - أحمد مختار العبادى، فى التاريخ العباسى والفاطمى ص ٤١ - ٤٤. ويميل الزميل الجليل الأستاذ الدكتور عبد المنعم ماجد إلى تبرئته من أعمال القتل وسفك الدماء ويأتى فى ذلك بشواهد عديدة (راجع عبد المنعم ماجد، العصر العباسى الأول، ج ١، القاهرة ١٩٧٣ ص ٥٠)

(٣) اخبار الدولة العباسية، ص ١٨

(٤) نفس المصدر، ص ٤١٠، ٤١٢.

ثم رفع رأسه ، وقال : «الحمد لله الذى أظهرنى عليك وأظفرنى بك ، ولم يبق ثأرى قبلك وقبل رهطك أعداء الدين» ، وترديده لقول الشاعر :

لو يشربون دمى لم يرو شاربهم .·. ولا دماؤهم للغيظ ترويني(١)

ومن أمثلة سفكه للدماء مافعله بسليمان بن هشام بن عبد الملك الذى كان فى مجلسه مطمئنا إلى أمان حصل عليه من الخليفة ، فسمع السفاح مولى له ينشده :

لا يغرنك ما ترى من رجال .·. إن تحت الضلوع داء دويا

فضع السيف وارفع السوط حتى .·. لا ترى فوق ظهرك أمويا(٢)

فأمر السفاح فى الحال بقتل ضيفه سليمان ، وبهذه السياسة النادرة بـدأ العباسيون مذابحهم ، فغدروا بالامويين فى أبى فطرس، وحذوا حذو خليفتهم السفاح ، واعتقد أنه لو لم يكن أبو العباس هوالذى سن هذهالسياسة الانتقامية ويباركها ما تجرأ بنو العباس أمثال عبد الله بن على(٣) وسليمان بن على(٤) وغيره على البطش ببقايا الامويين وتتبع أولادهم وأطفالهم فى كل مكان تصل إليه

---

(١) المسعودى ، ج ٣ ص ٢٥٧ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٢٧ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٤٢٩ — ابن طباطبا ، ص ١٣٤ .

(٣) أمر عبد الله بضرب تسعين رجلا من بنى أمية بالعمد حتى قتلوا وبسط عليهم الانطاع ، فأكل الطعام عليها وهو يسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعا ، وهو الذى أمر بنبش قبور بنى أمية بدمشق ، وهوالذى تتبع بنى أمية وقتلهم بنهر أبى فطرس . وقد نسب ابن طباطبا هذا العمل الاجرامى الى السفاح . ص ١٣٤

(٤) قتل سليمان بالبصرة جماعة من بنى أمية عليهم الثياب الموشية ، فأمر بهم فسحلوا (أى جروا من أرجلهم) حتى ماتوا وألقوا على الطريق ، فأكلتهم الكلاب .

عساكر العباسيين . وقد وصف المؤرخون أبا العباس السفاح بأنه «كان سريعا الى سفك الدماء، فأتبعه فى ذلك عماله فى الشرق والمغرب، وكان مع ذلك جوادا بالمال »(١) .

ويمكننا على هذا الأساس أن نفسر وصف السفاح لنفسه بالسفاح بانه كان يتوعد من ينوى الخروج عليه بسفك دمه . وأما المبيح فمعناها الرجل الجواد كثير العطايا ، ولعله كان يقصد أنه بقدر ما هو سفاح فهو كريم يبذل المال لمن استحقه. والواقع أن هذه السياسة الحكيمة التى التزمها أبو العباس وقوامها الشد والجذب، والشدة واللين، والترهيب والترغيب ، كانت ضرورية فى أول قيام الدولة العباسية، فقيام الدوله يقترن دائما بمثل ذلك ، ومن المعروف أن معاوية ابن أبى سفيان اتبع نفس السياسة ، كما اتبعها أيضا عبد الرحمن الداخل عندما أسس دولة بنى أمية فى الأندلس ، واتبعها حفيده عبد الرحمن الناصر عندما تولى إمارة الأندلس والبلاد ممزقة الأوصال ، وهى على العموم سياسة مجدية لأنها تمكن لنفوذ الدولة الجديدة .

وأول ماقام به أبو العباس أنه عزم على اتخاذ قصر لخلافته يكون قريبا من شيعته وأنصاره بدلا من دمشق حاضرة دولة بنى أمية البائدة ، ومن المعروف أنه نزل بادىء ذى بدء فى موضع قريب من الكوفة يسمى هاشمية الكوفة، ولكنه انتقل منها بعد عامين إلى مدينة الأنبار الواقعة على نهر الفرات إلى الشمال من الكوفة، فأقام بجوارها مدينة عرفت بهاشمية الأنبار (٢) اتخذها دارا للخلافة .وظلت

(١) السيوطى ، ص ٢٤١ .

(٢) على بن الحسين الهاشمى الخطيب النجفى ، تاريخ الأنبار ، بيروت ، ١٩٧٢ ص ٥١ وسبب انتقال السفاح من الكوفة الى الأنبار أنه لم يكن مطمئنا الى أهل الكوفة لولائهم لعلى .

الأنبار مقرا للدولة العباسية مدة سبع سنوات إلى أن قام المنصور ببناء مدينة بغداد فى سنة ١٤٥ هـ.

ورأى أبو العباس ضرورة القضاء على بقايا الأمويين حتى تستقر دعائم دولته ويصفو له الأمر ، فقام بمذابح بشعة منها مذبحة نهر أبى فطرس عندما أعلن أمانه لكل أمير أموى يسلم نفسه للسلطات العباسية ، وطلب من هؤلاء الأمراء الفارين بأن يسلموا أنفسهم ، فلما اجتمعوا لهذا الغرض انقض عليهم العباسيون بإيعاز من عبد الله بن على العباسى وقتلوهم ، وكان فيمن قتل محمد بن عبد الملك بن مروان ، والنمر بن يزيد بن عبد الملك ، وعبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك ، وسعيد بن عبد الملك . ولم يكتف أبو العباس بالقضاء على الأحياء من بنى أمية بل عمد الى التمثيل بجثث الخلفاء المروانيين وإحراقها ، ويأتى المسعودى فى ذلك برواية لعمرو بن هانى جاء فيها : « خرجت مع عبد الله بن على لنبش قبور بنى أمية فى أيام أبى العباس السفاح ، فانتهينا إلى قبر هشام ، فاستخرجناه صحيحا ما فقدنا منه إلا خورمة أنفه ، فضربه عبد الله ابن على ثمانين سوطا ، ثم أحرقه (١) ، واستخرجنا سليمان من أرض دابق فلم نجد منه إلى صلبه وأضلاعه ورأسه فأحرقناه ، وفعلنا ذلك بغيرهما من بنى أمية ، وكانت قبورهم بقنسرين . ثم انتهينا الى دمشق ، فاستخرجنا الوليد بن عبد الملك ، فما وجدنا فى قبره قليلا ولا كثيرا ، واحتفرنا عن عبد الملك ، فما وجدنا الا شئون رأسه ، ثم احتفرنا عن يزيد بن معاوية ، فما وجدنا فيه إلا عظما واحدا ووجدنا مع لحده خطا أسود كأنما خط بالرماد فى الطول

(١) ذكر اليعقوبى أنه وجده فى مغارة على سريره قد طلى بما يبقيه ، فأخرجه ، فضرب وجهه بالعمود ، وضربه مائة وعشرين سوطا ثم حرقه (اليعقوبى ، ج٢ ص٣٠٧).

فى لحده ، ثم أتبعنا قبورهم فى جميع البلدان ، فأحرقنا ما وجدنا فيها منهم »(١) .

ونلاحظ أن السفاح لم يرع مواثيقه التى كان يمنحها لأعدائه أو حتى لأنصاره ، فكان كثير النكث بها ، مثل ذلك أنه لما حاصر القائد الأموى ابن هبيرة فى واسط ، وطال الحصار إلى سنة كاملة ، أعطاه السفاح أمانا وقعه أبو جعفر المنصور ، وكان رأى أبى جعفر الوفاء له بما أعطاه من أمان ، « ولكن السفاح ألح على أبى جعفر يأمره بقتل ابن هبيرة » . وعلى الرغم من مراجعة أبى جعفر المنصور له فى ذلك فان السفاح كتب إلى أخيه يقول : « والله لتقتلنه أو لأرسلن إليه من يخرجه من حجرتك ثم يتولى قتله (٢) » . وعندئذ قتله المنصور . ويذكر ابن الاثير أيضا أن أبا جعفر أمن خالدا بن سلمة المخزومى من قادة الامويين — وكان مع ابن هبيرة — ولكن السفاح أمر بقتله ولم يجز أمان أبى جعفر (٣) . كذلك أمر السفاح بقتل وزيره أبى سلمة الخلال الذى كان من أهم الشخصيات التى ساعدت فى تأسيس الدولة العباسية (٤) ، فقتله عن طريق أبى مسلم الخراسانى ، وبذلك رسم أبو العباس السفاح الخطة التى اتبعها من

---

(١) السعودى ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ٢٠٧ ومايليها (طبعة بيروت ، دار الاندلس)

(٢) ابن الاثير ، ج ٥ ص ٤٤٢ .

(٣) ابن الاثير ، ج ٥ ص ٤٤٢ .

(٤) عن أبى سلمة راجع : الجهشيارى ، ص ٨٥ ، ٨٧ — ابن طباطبا ص ١٣٦ ومايليها — ابن قتيبة الامامة والسياسة ، ج ٢ ص ٢٣٦ — أبو حنيفة الدينورى ، ص ٣٧٠ — السعودى ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ٢٧١ — الدورى ، العصر العباسى الاول ، ص ٦٠ .

خلفه من خلفاء بنى العباس فى الغدر بالأنصار، وعدم احترام العهود والمواثيق، الامر الذى دعا المؤرخين الى القول بأن « الدولة العباسية كانت دولة ذات خدع ودهاء وغدر، وكان قسم التحيل والمخادعة فيها أوفر من قسم القوة والشدة » (١).

وفى عهد السفاح قامت الثورات العربية فى مواضع كثيرة من بلاد الشام والجزيرة، وقام الثوار بالتبييض، أى رفع الألوية البيضاء شعار الدولة الاموية، ففى سنة ١٣٢ هـ بيض حبيب بن مرة المرى فى البثنية وحوران، ثم بيض أبو الورد مجزاة بن الكوثر بن زفر بن الحارث الكلابى فى قنسرين، وقدم أهل دمشق عليهم أبا محمد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية المعروف بالسفيانى، لاستيائهم من سياسة القتل التى جرى عليها العباسيون. وكان ابن الورد متوليا لعسكر السفيانى (٢). ونجح عبد الله بن على العباسى فى إيقاع الهزيمة بقوات أبى الورد فى مرج الأخرم وقتلهم جميعا. أما السفيانى فقد فر الى تدمر، ثم لحق بأرض الحجاز، وظل هناك حتى خلافة المنصور ثم قتل. وفى نفس سنة ١٣٢ (٣) بيض أهل الجزيرة، وخلعوا أبا العباس السفاح، وزحفوا الى حران، كذلك بيض أهل قرقيسيا والرقة ودارا وماردين والرها وسميساط، ولكن أبا جعفر المنصور تمكن من القضاء على هذه الثورة. كذلك قامت ثورات أخرى فى خراسان وعمان ومصر، كلها تأخذ على العباسيين كثرة سفكهم الدماء.

---

(١) ابن طباطبا، ص١٣٢.

(٢) ماجد، العصر العباسى الأول، ص ٥٢.

(٣) ابن الأثير، ج ٥ ص ٤٣٢ — ٤٣٤.

وعلى الرغم مما اتصف به أبو العباس السفاح من قسوة فإنه كان كريما كثير البذل، وكان شاعراً يميل الى الادب وسماع الغناء ، وكان يظهر لندمائه ويجالسهم ويجزل لهم العطاء ، وكانت تعجبه مفاخرات العرب من نزار واليمن (١) . وفي سخائه يقول الصولي : « وكان السفاح أسخى الناس ، ما وعد عدة فأخرها عن وقتها ، ولا قام من مجلسه حتى يقضيها » (٢) .

٢ – ابو جعفر المنصور : ١٣٦ — ١٥٨ هـ (٧٥٤ — ٧٧٥م)

كان السفاح قد عقد في سنة ١٣٦ لاخيه أبي جعفر عبد الله بن محمد بالخلافة من بعده ، وجعله ولي عهد المسلمين ، على أن يليه في ولاية العهد عيسى بن موسى ابن محمد العباسي . فلما توفي السفاح كان أبو جعفر بمكة ، فأخذ عيسى بن موسى البيعة لأبي جعفر وكتب إليه يعلمه بوفاة السفاح والبيعة له .

وهكذا ولي المنصور الخلافة والأخطار ما تزال محيطة بالدولة ، فهناك العلويون من آل الحسن وجماعة من أقاربه وأنصاره يكيدون له . وكان أبو جعفر على حد قول السيوطي « فحل بني العباس هيبة ، وشجاعة ، وحزما ، ورأيا ، وجبروتا ، جماعا للمال ، تاركا اللهو واللعب ، كامل العقل ، جيد المشاركة في العلم والأدب ، فقيه النفس ، قتل خلقا كثيراً حتى استقام ملكه ، وهو الذي ضرب أبا حنيفة — رحمه الله — على القضاء ثم سجنه ، فمات بعد أيام » (٣) . ويصفه ابن طباطبا بقوله : « كان المنصور من عظماء الملوك

---

(١) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ٢٧١

(٢) السيوطي ، ص ٢٤٠

(٣) نفسه ص ٢٤٢

وحزمائهم وعقلائهم وعلمائهم وذوى الآراء الصائبة منهم، والتدبيرات السديدة، وقورا شديد الوقار، حسن الخلق فى الخلوة، من أشد الناس احتمالا لما يكون من عبث أو مزاح . ويضيف الى هذه الصفات صفة المكر والتيقظ، وينسب اليه أصل الدولة وضبط المملكة وترتيب القواعد وإقامة الناموس (١). ولهذا كله يعتبر أبو جعفر المنصور المؤسس الحقيقى للدولة العباسية (٢). ولاشك أن الفترة التى قضاها المنصور فى الخلافة العباسية تعتبر من أهم عصور الخلافة إن لم تكن أهمها على الإطلاق، فقد حكم ما يقرب من ٢٢ عاما حكما استبداديا اصطنع خلاله العنف والقسوة، وأشاع أنه يحكم بتفويض من الله، كما يتجلى فى قوله «إنما أنا سلطان الله فى أرضه (٣)»، وعلى هذا الأساس عمل العباسيون على الاحتفاظ بالخلافة فى دولة تيوقراطية أساس السيادة فيها لزعماء الدين، وكان من أثر ذلك أن أصبحت الخلافة العباسية ذات طابع استبدادى ودينى، وركز الخليفة فيها جميع سلطات الدولة فى يده فلم يكن للوزير من الأمر شيء .

وفى سبيل تثبيت دعائم الدولة العباسية الفتية لم يتردد أبو جعفر المنصور فى الغدر بكثير من أنصاره وبعض أقربائه (٤)، وأصبح الغدر سمة تمثل الطابع الذى التزمته الدولة العباسية طوال تاريخها الطويل وقد استهل أبو جعفر عهده بقتل عمه عبد الله بن على الذى يرجع اليه الفضل الأول فى إيقاع الهزيمة

---

(١) ابن طباطبا، ص ١٤١، ١٤٢

(٢) ماجد، العصر العباسى الأول، ص ٥٥

(٣) العقد الفريد، تحقيق الأستاذ أحمد أمين، القاهرة ١٩٤٤ ج ٤ ص ٩٩

(٤) عبد العزيز الدورى، العصر العباسى الأول، ص ٧٠

بمروان بن محمد فى موقعة الزاب ، وهو الذى تتبع الأمويين بالقتل والتشريد ، وقضى على الفتن الكبرى التى قامت فى الشام ضد الحكم العباسى . ويرجع سبب قتله لعمه الى أن عبد الله بن على ما كاد يسمع بوفاة أخيه السفاح حتى خرج على المنصور ، فجمع جنده ، وطلب منهم أن يبايعوه ، وادعى أن أبا العباس جعل له العهد عندما سيره لمقاتلة مروان بن محمد ، وأتى بشهود شهدوا له بذلك ، وبايعه أكثر أهل الشام (١) رغم كراهيتهم له نكاية لأبى جعفر . ثم سير أبو جعفر أبا مسلم الخراسانى لقتال أخيه عبد الله ، فسار أبو مسلم وهو كاره ، واشتبكت قواته مع قوات عبد الله فى قتال طويل الأمد دام خمسة شهور وانتهى بهزيمة عبد الله بن على فى ٧ جمادى سنة ١٣٧ هـ ، ففر عبد الله الى أخيه سليمان والى البصرة ، فأخفاه عنده ، ثم سلمه الى أبى جعفر فى سنة ١٣٩ بعد أن حصل على الامان له ، فسجنه المنصور ثم قتله بعد تسع سنين (٢) فى سنة ١٤٧ هـ .

كذلك أقدم أبو جعفر المنصور فى سنة ١٣٧ هـ على قتل أبى مسلم الخراسانى قائد الثورة على الامويين فى خراسان ، ويعزون قتل المنصور له إلى الاسباب الآتية :

١ — تمادى أبى مسلم فى زهوه (٣) وإسرافه فى قتل النفوس البريئة

---

(١) اليعقوبى ، ج ٢ ص ٣٦٥ — المسعودى ، ج ٣ ص ٢٨٩ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٦٤ .

(٢) المسعودى ، ج ٣ ص ٣٠٥ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ٥٨٢ .

(٣) خاصة بعد انتصاره على عبد الله بن على عندما أراد المنصور أن يختبر مدى طاعته له ، فأرسل اليه رسولا ليحصى عليه الغنائم ، فغضب وتناول أبا جعفر بلسانه ، وأراد قتل الرسول لولا تدخل أصحابه (المسعودى ج ٣ ص ٢٩٠ — اليعقوبى ، ج ٢ ص ٣٦٦) .

٢ — تقدمه على المنصور فى طريق الحج وعدم انتظاره إياه فى طريق العودة عندما بلغه نبأ وفاة أبى العباس السفاح .

٣ — بعد وفاة السفاح أرسل أبو مسلم الى المنصور رسالة يعزيه فيها دون ان يهنئه بالخلافة .

٤ — كان المنصور قد أمر الحسن بن قحطبة ، والى الجزيرة ، أن يلحق بأبى مسلم عند توجهه لمقاتلة عبد الله بن على فى الشام ، فكتب ابن قحطبة الى مالمورياني وزير المنصور يقول : « إنى قد رأيت بأبى مسلم أنه يأتيه كتاب أمير المؤمنين فيقرأه ثم يلقى الكتاب من يده إلى مالك بن الهيثم فيقرأه ، ويضحكان استهزاء »(١) .

٥ — تجرأه على قتل سليمان بن كثير الخزاعى أحد شيوخ الدعوة العباسية دون استشارة الخليفة .

٦ — تحديه لأمر المنصور عندما صرفه عن ولاية خراسان وولاه الشام ومصر وقوله : « هو يوليني الشام ومصر ، وخراسان لى (٢) » ، واستمراره فى السير إلى خراسان .

٧ — تقديمه لاسمه على اسم الخليفة فى رسائله ، وانتسابه إلى سليط ابن عبد الله بن عباس (٣) .

والواقع أن أبا مسلم تمادى فى الإعتداد بنفسه لاستشعاره بأنه صاحب الفضل الأعظم فى قيام الدولة العباسية ، وتجاوز حدود سلطاته إلى حد أخاف المنصور منه على خلافته .

وفى عهد المنصور ظهرت عدة نحل دينية أشهرها حركة الراوندية التى ظهرت فى قرية راوند بالقرب من أصفهان عقب مقتل أبى مسلم الخراسانى

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤١٩ .

(٢) اليعقوبى ، ج ٢ ص ٣٦٥ ، ٣٦٦ .

(٣) الدورى ، العصر العباسى الأول ، ص ٧٥ .

وهي حركة مستمدة من الأفكار الغنوصية القديمة التي روجها الفرس بدافع الشعور بالقومية الفارسية . ويعتقد أصحاب هذه الحركة بتناسخ الأرواح ويزعمون أن روح آدم حلت في عثمان بن نهيك (١) ، وأن ربهم الذي يطعمهم ويسقيهم هو المنصور (٢). وقد اعتبر المنصور هذه النحلة خروجا على الدين ، فحارب أصحابها ، فانقلبوا عليه وكادوا يفتكون به ، ولكنه ظفر بهم وقتلهم . ثم تشكلت الراوندية في حركات متفرعة متتالية منها الخرمية ، وهي فرقة تدعى أيضاً بالمسلمية(٣) ، قطعت بعدم موت أبي مسلم ، ومنها المقنعية نسبة إلى رجل من مرو من أنصار أبي مسلم ادعى الألوهية واتخذ قناعا يخفي قبح وجهه ، وأباح المقنع ترك الصوم والحج والزكاة ، كما أباح النساء لأتباعه ، ولم يتم القضاء على هذه الحركة إلا في زمن المهدي .

وفي عهد المنصور أخذ العلويون يناوئون العباسيين ويناصبونهم العداء لأنهم خدعوهم ، واستأثروا بالخلافة دونهم ، وكان يقود العلويين في المدينة بنو الحسن، وعلى رأسهم أخوان هما محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب المعروف بالنفس الزكية لزهده ونسكه، وكان يلقب بالمهدي، والثاني إبراهيم بن عبد الله بن الحسن قتيل باخرى . فاهتم المنصور اهتماماً

---

(١) رئيس حرس الخليفة في الهاشمية .

(٢) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٥٠٢ — ابن طباطبا ، ص ١٤٣ .

(٣) من رؤسائها سنباذ الذي خرج في نيسابور يطالب بدم أبي مسلم الخراساني، ولكن المنصور سير إليه جيشا بقيادة جهور بن مرار العجلي هزمه وقتله وقتل اتباعه وذلك سنة ١٣٧ (المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ١٩٤ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٨١) .

(٤) أبو الفرج الأصفهاني ، مقاتل الطالبيين ، طبعة بيروت ١٩٦١ ، ص ١٩١ — ابن طباطبا ، ص ١٤٨ .

خاصاً بالقضاء على الحسنيين ، فسير جيشاً ضخماً بقيادة عيسى بن موسى ولى عهده ، وحميد بن قحطبة ، اشتبك مع انصار النفس الزكية فى موضع قريب من المدينة ، ودارت الدائرة على الحسنيين ، وقتل ابن قحطبة محمد النفس الزكية، واحتز رأسه وحمله إلى المنصور فى ١٤ رمضان سنة ١٤٥ (١)، أما أخوه ابراهيم فقد أعلن الثورة فى البصرة، واستولى عليها، فأرسل المنصور اليه جيشاً بقيادة عيسى بن موسى وسعيد بن مسلم ، واشتبك إبراهيم بن عبد الله بن الحسن مع الجيش العباسى فى الموضع المعروف باسم باخمرى القريب من الكوفة ، فانهزم وقتل هناك فى نفس العام (٢) ، وحزوا رأسه فأتوا به عيسى بن موسى وذلك فى ٢٥ من ذى القعدة .

ويقترن اسم المنصور بمدينة بغداد التى شيدها فى سنة ١٤٥ هـ ، ويرجع سبب بنائه لها على حد قول ابن الأثير إلى أنه لما ثارت الراوندية فى الهاشمية الواقعة بنواحى الكوفة « كره سكناها لذلك ولجوار أهل الكوفة أيضاً فانه كان لا يأمن أهلها على نفسه ، وكانوا قد أفسدوا جنده» (٣). « فخرج بنفسه يرتاد له موضعاً يسكنه هو وجنده ، فانحدر إلى جرجرايا، ثم أصعد الى الموصل، وسار نحو الجبل فى طلب منزل يبنى له ، حتى اهتدى الى موضع بغداد ، الذى يجمع بين الماء والزروع ، فى موقع يمكن أن تصل اليه السفن من الشام والرقة والميرة من الصين والهند والبصرة وواسط والموصل وأرمينية ، بين أنهار

(١) اليعقوبى ، ج ٢ ص ٣٧٦ — المسعودى ، ج ٣ ص ٢٩٦ — أبو الفرج الاصفهانى ، مقاتل الطالبين ، ص ٢٠٠ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ٥٥٠ — ابن طباطبا ، ص ١٤٩ .

(٢) المسعودى ج ٣ ص ٢٩٦ — مقاتل الطالبين ، ص ٢٥٢ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ٥٧٠ — ابن طباطبا ، ص ١٤٩ .

(٣) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٥٥٨ — ابن طباطبا ، ص ١٤٣ .

لا يصل إليه عدوه الا على قنطرة . فأعجبه المكان، وعزم على اختياره لإنشاء بغداد ، وأمر باختيار قوم من ذوى العقل والعلم والمعرفة بالهندسة ليتولوا تخطيط المدينة . فابتدأ المنصور بإنشائها فى سنة ١٤٥ هـ ، وكتب الى عماله بالشام والجبل والكوفة وواسط والبصرة يأمرهم بإنفاذ الصناع والفعلة ، فكان ممن أحضر من كبار العقلاء الحجاج بن أرطاه وأبو حنيفة ، وتم البناء فى سنة ١٤٦ وجعلها المنصور مدورة (١) ، وفتح فى سورها أربعة أبواب(٢) . ومن أسمائها بغداد أو بغدان ، والزوراء لانحراف قبلتها إلى اليسار ، وقيل لا زورار نهر دجلة عند مروره بها ، كما سمى الجانب الشرقى منها الروحاء لانبساط مجرى النهر عنده. وفى وسط المدينة أقام قصره ، والجامع ، ودار حرسه ، ومنازل أولاده ومنازل من يقوم بخدمتهم ، وقصور الأمراء ورجال الدولة (٣)، ودور الأهالى تتخللها الأسواق. وقد حرص على تحصينها لتحاكى فى العظمة والفخامة والمناعة القسطنطينية العظمى. ومن أشهر قصور بغداد قصر الضيافة المعروف بالخضراء وكان ينزل فيه السفراء والوافدون على بغداد من مختلف الأقاليم حتى يحدد لهم المنصور وقت مقابلته لهم ، وكان بأعلى هذا القصر تمثال على صورة فارس فى يده رمح يدور مع الريح (٤) ، ووصفت قبة القصر بأنها كانت تاج البلد وعلم بغداد . كذلك بنى قصر الخلد على شاطىء دجلة الغربى خارج بغداد ، بينما كان

(١) الأربلى ، ص ٧٤ .

(٢) هى باب خراسان فى الشمال الشرقى ، وباب البصرة فى الجنوب الشرقى ، وباب الكوفة فى الجنوب الغربى ، وباب الشام فى الشمال الغربى . وعلى كل باب منها مجالس وقباب مذهبة يصعد اليها على الخيل (اليعقوبى ، ج ٢ ص ٣٧٣) .

(٣) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٥٧٤ .

(٤) الاربلى ، ص ٧٦ .

قصر الذهب فى قلب المدينة . وأقام المنصور خارج بغداد على الضفة الشرقية من نهر دجلة، فى قبالة المدينة ،ربضا سمى برصافة بغداد ،اتخذه ثكنات لجنده، وسوره وخندق حول السور. وسرعان ما عمرت الرصافة ، وأصبحت تضاهى بغداد فى العظمة . وفى سنة ١٥٧ هـ أمر المنصور ببناء محلة الكرخ فى الجهة الجنوبية من بغداد ، ويرجع السبب فى بناء الكرخ الى ارتفاع الدخان المتصاعد من الأسواق وتسببه فى اسوداد بغداد، الامر الذى أزعج المنصور وضايقه، فأمر بنقل هذه الأسواق التى كانت تشغل قسما كبيراً من مدينته إلى الجنوب حيث الكرخ . وقيل فى سبب نقل الاسواق الى الكرخ أن رسول ملك الروم جاء الى بغداد ، فأمر الربيع فطاف به فى المدينة ، فسأله المنصور : كيف رأيتها ؟ قال : « رأيت بناء حسنا الا أنى رأيت أعداءك معك وهم السوقة » فلما عاد الرسول عنه أمر بإخراجهم الى ناحية الكرخ ، وقيل إنما أخرجهم لان الغرباء يطرقونها ويبيتون فيها ، وربما كان فيهم الجاسوس (١) .

وفى عهد المنصور غزا البيزنطيون بعض أراضى الشام فى سنة ١٣٨ هـ (٧٥٥م) فى عهد الامبراطور قسطنطين الخامس ، ، استولوا على ملطية (٢)، وهدموا سورها، ولكن المنصور تمكن من استردادها فى العام التالى ، وأقام فيها حامية عسكرية كبيرة . وفى عهده استقل عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل بالأندلس عن الخلافة العباسية، فأراد المنصور أن يقضى على سلطان عبد الرحمن الأموى فبعث العلاء بن مغيث اليحصبى إلى الأندلس لمحاربة عبد الرحمن، ولكن الأمير تمكن من ايقاع الهزيمة بالعباسيين فى قرمونة (٣) .

(١) ابن الأثير ، جـ ٥ ص ٥٧٤ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٤٨٨ .
(٣) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، بيروت ١٩٦٢ ص ١٩٨

وتوفى المنصور فى سنة ١٥٨ هـ بالقرب من مكة وهو فى طريقه للحج .

(٣) المهدى بن المنصور : (١٥٨هـ — ١٦٩ / ٧٧٥ — ٧٨٥م)

هو محمد بن عبد الله المنصور ، بويع له بمكه يوم توفى أبوه ، وحكم المهدى قرابة ١١ سنة قضتها الدولة فى سلام ، وساعد على ذلك ميله إلى السلم واستقرار أمور الدولة فى حياة أبيه . وقد عكف المهدى على الفنون ، وخاصة العمارة ، فأقام سور الرصافة ، وبنى مسجدها ، ووسع المسجد النبوى بالمدينة ، وجمله بالفسيفساء والعمد ، وكسا الكعبة سنة ١٦٠هـ بالديباج والخز والقباطى ، وطلى جدرانها بالمسك والعنبر (١) ، وبنى على جوانب الطريق المؤدى إلى الحج منازل ومحطات لراحة الحجاج (٢) . وأمر كذلك بالزيادة فى المسجد الجامع بالموصل فى سنة ١٦٣ هـ (٣) . وكان المهدى من أكثر الخلفاء العباسيين حبا للموسيقى والغناء ، وكان بلاطه يكتظ بالمغنين وذوى المواهب الفنية أمثال حكم الوادى وسياط وابراهيم الموصلى ، ويشير ابن خلكان إلى أنه كان أحسن الناس صوتا ، وكان ابنه أبو اسحق ابراهيم من كبار المغنين والموسيقيين فى بلاط الرشيد والأمين ، وعد ابراهيم زعيم الحركة الموسيقية الابداعية الفارسية ، بخلاف اسحق الموصلى الذى تزعم المدرسة التقليدية العربية (٤) .

وكان المهدى شديدا على أهل الضلال والزندقة ، لاتأخذه فى اهلاكهم لومة لائم (٥) . ففى عهده ظهرت حركة المقنعية بزعامة المقنع الخراسانى سنة ١٥٩هـ

(١) اليعقوبى ، ج ٢ ص ٣٩٦ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٤٠٢ — السيوطى ، ص ٢٥٤ .
(٣) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٧٦ .
(٤) راجع فارمر ، تاريخ الموسيقى الأندلسية ، ترجمة الدكتور حسين نصار ، القاهرة ١٩٥٦ ص ١٤٢ .
(٥) ابن طباطبا ، ص ١٦١ .

قادها رجل من أهل مرو - موطن النحل الفارسية - أعور، قصير القامة، دميم الخلقة، اتخذ لوجهه قناعا من ذهب لاخفاء قبح وجهه، وادعى الألوهية، وكان يقول أن الله خلق آدم، فتحول فى صورته نوح، وهكذا هلم جرا إلى أبى مسلم الخراسانى، ثم تحول إلى هاشم، وسمى نفسه هاشما، وكان يقول بالتناسخ، فتابعه فى الضلال خلق كثير. وكانوا يسجدون إلى ناحيته أين كانوا من النواحى، وكانوا يقولون فى الحرب: «ياهاشم أعنا». وتجمع حوله حشد كبير من التابعين وتحصنوا فى قلعة بسنام وسنجردة من رساتيق كش، وأعانه الترك فى بخارى والصغد (١). ولكن هذه الحركة لم يطل أمدها، فقد انتهت بهلاك المقنع، ذلك أن المهدى سير اليه جيشا بقيادة معاذ بن مسلم، وسعيد الحرشى، أوقع بأصحاب المقنع فهزمهم، فلما أيقن المقنع بالهلاك، جمع نساءه وأهله وسقاهم السم، وأمر أن يحرق هو بالنار حتى لا يمثل بجثته (٢).

كذلك ظهرت فى أيام المهدى حركة الزندقة، وكان أصحاب هذه الحركة ينادون بالاباحية المطلقة والفوضى والتحلل من جميع القيم والروابط الاجتماعية، وقد تتبع المهدى الزنادقة فى كل مكان، ونكل بهم، وعين لمطاردتهم رئيسا يعرف بصاحب الزنادقة، فقتل منهم أعدادا هائلة. وبلغه أن صالح بن أبى عبيد الله كاتبه زنديق، فأحضره، فلما تأكد لديه ذلك قتله (٣). والمهدى اول من أمر بتصنيف كتب الجدل فى الرد على الزنادقة والملحدين (٤).

وفى عهد المهدى ساءت العلاقات بين البيزنطيين والعباسيين، فلم تنقطع

---

(١) ابن الأثير، ج ٦ ص ٣٩ - ابن طباطبا، ص ١٦٢.
(٢) نفسه، ص ٥٢ - ابن طباطبا، ص ١٦٢.
(٣) اليعقوبى، ج ٢ ص ٤٠٠.
(٤) السيوطى، ص ٢٥٣

الحرب البرية والبحرية بينهما ، فمنذ سنة ١٥٩ ﻫ توالت حملات المهدى على البيزنطيين (١) ، وقد رد البيزنطيون على تلك الغارات ، فأغاروا على مرعش وأحرقوها ، فجعل المهدى ابنه هارون فى حلب لمهاجمة البيزنطيين ، وعمل هارون على مقاتلتهم ، فوصل جيشه إلى سواحل البسفور ، وأرغم الامبراطورة إيرين الوصية على ابنها قسطنطين السادس، على أن تدفع للمسلمين مبلغا قدره سبعون الف دينار سنويا ، وعقدت الهدنة بين المهدى وايرين لمدة ثلاث سنوات (٢) .

٤ – الهادى بن المهدى : ١٦٩ — ١٧٠ ﻫ (٧٨٥ — ٧٨٦م)

هو أبو محمد موسى الهادى بن المهدى ، بويع له بالخلافة فى اليوم الذى توفى فيه المهدى ، وفى عهده القصير ضعفت الخلافة العباسية ، فقد أصبحت أموال الدولة تصرف على المقربين والمتصلين به من الشعراء وغيرهم ، كذلك بدأ نساء القصر يتدخلن فى شئون الدولة، مما قلل هيبتها ، فكانت أمه الخيزران حاكمة مستبدة بالأمور الكبار ، وكانت المواكب تغدو إلى بابها ، وقيل أنها سعت إلى قتله لما وعك، فسمته ، وقيل غموا وجهه ببساط جلسوا على جوانبه (٣) .

---

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤٠ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ٦٦ .

(٢) نفسه ، ص ٦٦ .

(٣) ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٠٠ – السيوطى ، ص ١٦٠ وما يليها .

ويعللون سبب حقدها عليه بأنه حاول اقصاء أخيه هارون الرشيد عن الخلافة والبيعة لابنه جعفر، فخافت الخيزران على هارون، وكانت تحبه، فقملت بالهادى ما فعلت . وقيل أنه كان شديد الغيرة على الخيزران، فكره منها خروجها فى المواكب واتهمها بمصاحبة رجل يقال له عبد الله بن مالك ، فغاضبها وأقسم ليضربن عنقه (راجع : المسعودى ، ج ٣ ص ٣٢٨ ، ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٠٠ – ابن طباطبا ، ص ١٧٣) .

وفى عهد الهادى بدأت ظاهرة استقلال الأطراف فى الدولة العباسية ، وقامت الفتن والمنازعات فى الداخل . فقد ثار العلويون الحسنيون فى الحجاز فى سنة ١٦٩ﻫ بزعامة الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، فأرسل الهادى لاخماد حركتهم جيشا إلى مكة بقيادة محمد بن سليمان وتم الاشتباك فى واد بطريق مكة يسمى فخ ، فقتل الحسين ومن معه من أهل بيته ، وفر أحد أقاربه وهو إدريس بن عبد الله بن الحسن ، فأتى مصر ، ومن هناك خرج إلى المغرب الأقصى واستقر بوليلة ،فاستجاب له من بها من البربر ، وتمكن بفضل هؤلاء الاتباع من تأسيس دولة الأدارسة .

وكان الهادى عنيفا فى محاربة الزنادقة فى سنة ١٦٩ﻫ التى تولى فيها الخلافة ، فقتل منهم جماعة (١) فيهم على بن يقطين ، ويعقوب بن الفضل بن عبد الرحمن ابن عباس (٢) .

٥ ـ هارون الرشيد : ١٧٠ ـ ١٩٣ﻫ (٨٧٦ ـ ٨٠٩م)

هو أبو جعفر هارون بن محمد المهدى ، من أعظم خلفاء بنى العباس وأكثرهم ذكرا فى التاريخ العباسى ، لما اتصف به من كرم وجود ، ولما وصلت اليه الدولة الاسلامية فى عهده من نهضة حضارية بلغت الأوج ، فقد أصبحت بغداد فى أيامه كعبة العلم والأدب ومركز التجارة والصناعة ، حتى أصبح اسمه مقرونا بألف ليلة وليلة . وفى عصره ارتقى فن الغناء والموسيقى بفضل جهود مغنيه ابراهيم الموصلى وعواده زلزل ، وظهر فى أيامه شعراء عظام أمثال أبو العتاهية

---

(١) الإربلى ، ص ١٠٦ ـ السيوطى ، ص ٢٦٠ .

(٢) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٨٩ .

والعباس بن الأحنف، ومروان بن أبي حفصة ، ومؤرخين أمثـــال الاصمعى والواقدى وفى عهده أيضا ظهر التأثير الفارسى فى الحياة الاجتماعية ، فاحتفل الناس بالأعياد الفارسية القديمة كالنوروز الذى أصبح يحتفل منذ قيـام الدولة العباسية ما كان له من عظمة وروعة، ولم يقتصر الاحتفال بهذا العيدعلى الفرس حسب تقاليدهم القديمة ، بل عد عيدا شعبيا عاما ، كما احتفل به الخلفـاء احتفالا رسميا (١)، وأصبحت الازياء تتبع النمطالفارسى كما انتشرت الاطعمة والاشربة الفارسية . ومن أنواع الاطعمه الفارسية التى شاعت فى هذا العصر السكباج (٢) والاسفيدباج (٣) . ومن أمثلة الحلوى الفـارسية الفالوذج (٤) والخوشكنانج (٥) .

ويتميز عصر الرشيد بقيام عدة ثورات : منها ثورات العـرب فى الشـام ومصر والموصل ، وفتنة الخوارج فى الجزيرة (٦) ، وخـروج العـــلويين فى طبرستان وأفريقية (تونس) وفى عصره نكب البرامكة سنة ١٨٧هـ بعدأن

---

(١) فؤاد عبد المعطى الصياد ، النوروز وأثره فى الأدب العربى ، بيروت ١٩٧٢ ص ٤٨ .

(٢) الأبشيهى ، المستطرف فى كل فن مستظرف ، القاهرة ١٢٩٢ ج ١ ص ٢١١ .

(٣) البغدادى ، الطبيخ ، تحقيق الدكتور داود الچلبى ، الموصل ، ١٩٣٤ ص ٣٢ .

(٤) المصدر نفسه ، ص ٨٠ .

(٥) المصدر نفسه ص ٧٨ .

(٦) ثار الصحصح الخارجى فى الموصل سنة ١٧١ هـ ، وثار الفضل الخارجى فى نصيبين سنة ١٧٦ ، والوليد طريف الشارى فى الجزيرة الفراتية سنة ١٧٨ وحمزة بن عبدالله الأزرق فى سجستان سنة ١٧٩ ، كما خرج كثيرون غيرهم ، وقد اضطر الرشيد إلى هدم سور الموصل بسبب كثرة ثورات الخوارج بها (راجع ذلك فى : فاروق عمر فوزى ، الرسائل المتبادلة بين الخليفة هارون الرشيد والثائر حمزة بن عبد الله الخارجى ، المجلة التاريخية ، العدد ٣ ، بغداد ١٩٧٤ ص ٢٦٠ وما يليها) .

سيطروا على الدولة اقتصاديا وإداريا ، وكانوا يهيمنون على جميع مرافق الدولة فى الحكم ، وفى الشئون المالية ، وفى الادارة وفى العلوم والفنون ، وسنتحدث عن نكبتهم بالتفصيل عند تعرضنا لعلاقة العباسيين بالفرس .

أما عن علاقة الدولة العباسية بالدولة البيزنطية فكانت علاقة حرب بخلاف علاقتها بالدولة الكارولنجية التى ارتبط عاهلها شارلمان (٧٦٨ - ٨١٤) مع الرشيد بعلاقات المودة والصداقة ، وتبادل الجانبان الهدايا والسفارات . ومن المعروف أن الرشيد قاد الحملات ضد البيزنطيين بنفسه ، ففى سنة ١٨١ هـ خرج على رأس جيش كثيف إلى آسيا الصغرى واجتاز منطقة الثغور ، واقتحم المواقع البيزنطية فى آسيا الصغرى ، وافتتح حصن الصفصاف ، كما غزا قائده عبد الملك بن صالح بلاد البيزنطيين فى نفس السنة ، فبلغ أنقرة (١) فاضطرت الامبراطورة ايرين إلى شراء سلم مهين لبيزنطة من العباسيين ، ثم قامت فى بيزنطة حركة انقلابية ضد ايرين فى ١٨٧ هـ (٨٠٢ م) أطاحت بحكمها ، وخلفها الامبراطور نقفور الأول (٨٠٢ - ٨١١م) الذى نقض الهدنة ، وامتنع عن دفع الجزية ، ويروى ابن الأثير هذا الخبر بقوله : « وكان يملك الروم حينئذ امرأة اسمها رينى فخلعتها الروم وملكت نقفور ، وتزعم الروم أنه من أولاد جفنة بن غسان ، وكان قبل أن يملك يلى ديوان الخراج ، وماتت رينى بعد خمسة أشهر من خلعها . فلما استوثقت الروم لنقفور كتب الى الرشيد :

« من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب ، أما بعد فان الملكة التى كانت قبلى أقامتك مقام الرخ ، وأقامت نفسها مقام البيدق ، فحملت اليك من أموالها ما كنت حقيقا بحمل أضعافها اليها ، ولكن ذلك ضعف النساء وحمقهن ، فاذا

---

(١) ابن الاثير ، ج ٦ ص ١٥٨ .

قرأت كتابي هذا فاردد ما حصل لك من أموالها ، وافتد نفسك بما تقع به المصادرة لك ، وإلا فالسيف بيننا وبينك » (١) . فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب حتى لم يقدر أحد أن ينظر اليه دون أن يخاطبه ، وكتب على ظهر الكتاب : «بسم الله الرحمن الرحيم . من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم ، قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة ، والجواب ما تراه دون ما تسمعه والسلام (٢)» . وعلى أثر ذلك زحف بجيوشه مخترقا آسيا الصغرى حتى نزل على هرقلة ، ففتحها وغنم غنائم كثيرة ، وانتصر على البيزنطيين فى عدة مواقع ، وأرغم الامبراطور نقفور على إبرام معاهدة صلح تعهد له فيها بدفع الجزية من جديد . ولكن البيزنطيين نقضوا هذه المعاهدة مرة ثانية ، وهاجموا الدولة العباسية والرشيد فى طريق عودته ، وهزموا المسلمين فى جنوبى آسيا الصغرى منتهزين انشغال الخليفة ببعض الفتن الداخلية ، ولكن الرشيد خرج فى سنة ١٩٠ هـ وفتح هرقلة والصفصاف وملقونية وغيرها ، وأسر من البيزنطيين ستة عشر ألفا (٣) ، وفرض جزية عليهم قدرها خمسون ألف دينار .

— وتوفى الرشيد وهو غاز بخراسان ، فدفن بطوس فى ٣ جمادى الآخرة سنة ١٩٣ هـ ، وكان قد بايع بولايه العهد لأولاده الثلاثة : الأمين سنة ١٧٥ هـ ، ثم المأمون سنة ١٨٢ هـ ، ثم المؤتمن سنة ١٨٦ هـ ، وقسم دولته بينهم ، فعهد بالقسم الشرقى إلى المأمون ، وبالجزيرة والعواصم الى المؤتمن ، أما الأمين فتولى الشام والعراق إلى آخر المغرب (٤) .

(١) ابن الأثير ؛ س ١٨٥
(٢) المصدر نفسه ، ج ٦ س ١٨٥
(٣) السيوطى ، س ٢٦٨
(٤) ابن الأثير ، ج ٦ س ١٧٣

٩ — محمد ابو عبدالله الأمين : ١٩٣ - ١٩٨ هـ (٨٠٨ - ٨١٣ م)

هو ولد الرشيد من زبيدة أم جعفر بنت جعفر بن المنصور ، ولي الأمر بعد الرشيد صبيحة الليلة التي توفي فيها ، وكان المأمون حينئذ بمرو ، وعلى الرغم من الانتقادات التي وجهها المؤرخون اليه (١) واقباله على اللهو وانقطاعه إلى معاشرة المجان عن تدبير الدولة ، وتوجيهه إلى جميع البلدان في طلب الملهين ، واستخفافه بأخويه وبقواده ، وإسرافه في الانفاق على ملذاته ومتعه ، على الرغم من ذلك كله ، فقد كان شجاعا فصيحا أديبا كريما (٢). أما ما رصمه به المؤرخون فانما يعبر عن النزعة الشعوبية التي اعتبرت النزاع بين الأمين والمأمون صراعا بين القومية العربية والقومية الفارسية ، وكان من الطبيعي أن تمجد العناصر الفارسية المأمون في صراعه ضد الأمين، لأن المأمون، بحكم كون أمه فارسية، يمثل النزعة الشعوبية ، وكان وزيره الفضل بن سهل فارسيا، وكان أبوه - أي أبو الفضل - مجوسيا إلى أن أسلم في زمن الرشيد ، واتصل بالرشيد عن طريق جعفر البرمكي ، فعينه الرشيد مع

---

(١) ذكروا أنه كان سيء التدبير ، كثير التبذير ، ضعيف الرأي ، أرعن لا يصلح للامارة ، ويدللون على ذلك بأنه أمر أول ما بويع بالخلافة ثاني يوم ببناء ميدان بجوار قصر المنصور للعب بالكرة ، وأنه عزل أخاه المؤتمن سنة ١٩٤ هـ ، عما كان الرشيد ولاه ، ووقعت الوحشة بينه وبين أخيه المأمون ، بسبب سعي الأمين على عزل المأمون ، فأسقط اسم الأمين من الطراز ، وقطع البريد عنه .

(٢) ابن طباطبا ، ص١٩٣ . ومن الأمثلة الدالة على كرم عنصره ، أن الفضل بن الربيع اقترح عليه لما تأزم الموقف بعد هزيمة قوات الأمين أن يأخذ ولدي المأمون رهينة حتى ينفذ له مطالبه فاذا أبى تنفيذها قتلهما ، فرد عليه الأمين : « أنت اعرابي مجنون ، أدعوك الى ولاية أعنة العرب والعجم وأطعمك خراج الجبال الى خراسان وأرفع منزلتك عن نظرائك من أبناء القواد والملوك ، وتدعوني الى قتل ولدي وسفك دماء أهل بيتي » (ابن الأثير ص ٢٠٤) .

ابنه فى إدارة القسم الشرقى من دولته ، فالفضل بن سهل هو الذى أشعل نار الفتنة بين الأخوين سعيا لاقصاء العرب عن السلطان وتحويله إلى الفرس ، وهو الذى سعى إلى فصل خراسان عن الدولة العباسية . لهذا لا نستبعد أن يكون ما وصم به الأمين من صفات ذميمة من نسج خصومه وصنائعهم الشعوبيين . وكل ما فى الأمر أن الأمين لم يوفق فى اختيار رجاله، ولم يفطن إلى حقيقة المؤامرات التى كان يحيكها أعداؤه ضده .

ويرجع سبب الفتنة بين الأمين والمأمون إلى أن الفضل بن الربيع وزير الأمين فطن إلى أن المأمون اذا آلت اليه الخلافة وهو حى لن يبقى عليه ، فسعى الفضل إلى إغراء الأمين وحثه على خلع المأمون من ولاية العهد، والبيعة بولاية العهد لابنه موسى بن الأمين ، فبادر الأمين بالدعاء لابنه بالإمرة بعد الدعاء للمأمون وللمؤتمن، ثم خلع المؤتمن، ووجه إلى المأمون يطلب اليه أن يقدم ابنه موسى على نفسه ويحضر عنده، فاستشار المأمون وزيره الفضل بن سهل وخاصته، فأغروه بالامتناع، فامتنع، وكتب يعتذر (١) ، وفى نفس الوقت عمد الفضل إلى استمالة العباس بن موسى رئيس وفد الأمين اليه ، ملوحا له بإمرة بعض مواضع من مصر، فأجاب إلى بيعة المأمون ، وأصبح العباس عينا للمأمون يكتب إلى الفضل بن سهل بأخبار الأمين من بغداد (٢) . ثم عمل الفضل بن سهل على توسيع هوة الخلاف بين الأخوين ، فحرض المأمون على الاستقلال بخراسان عندما أرسل الأمين إلى عماله فى خراسان يطلب منهم النزول عن بعض كورها ، فامتنع المأمون عن إجابة الأمين إلى طلبه ، وأمر بسد الطرق والمنافذ المؤدية إلى خراسان بثقاته

---

(١) ابن طباطبا ، ص ١٩٤ .

(٢) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٢٣٠ .

رجاله حتى يمنعوا أحدا من العبور، وحظر أهل خراسان أن يستمالوا برغبة أو رهبة ، وضبط الطرق بثقات أصحابه فلم يمكنوا من دخول خراسان إلا من عرفوه ، وأتى بجواز ، أو كان تاجرا معروفا ، وفتشت الكتب»(١)، بل عمد المأمون إلى مكاتبة ملك كابل وملوك الترك وخاقان التبت الذين خرجوا على طاعة الأمين وبعث اليهم ببعض الهدايا .

فلما علم الأمين بذلك بايع لولده موسى بولاية العهد، وسماه الناطق بالحق ، وأمر بالدعاء له على المنابر، وقطع ذكر المأمون والمؤتمن في ربيع الأول سنة ١٩٥ﻫ ، وأرسل إلى الكعبة بعض الحجبة فأتوه بكتابى العهد اللذين وضعها الرشيد فى الكعبة ببيعة الأمين والمأمون ، فأحضرهما عنده ، فمزقها الفضل بن الربيع. وكان لنكث الأمين لعهد أبيه أثر عميق في إغضاب أهل خراسان وغيرهم . ثم تطورت الفتنة ، وأصبحت نزاعا بين الفرس أنصار المأمون والعرب أنصار الأمين، وقد ساند الامين فى موقفه ضد الفرس وزيره الفضل بن الربيع، وعلى بن عيسى بن ماهان، وعبد الرحمن بن جبلة أعظم قواده . أما المأمون فقد وقف إلى جانبه الفضل بن سهل، ومن قواده هرثمة بن أعين وطاهر بن الحسين. وبدأ الامين يجهز قواته لمواجهة الفتنة . ثم أمر على بن عيسى بن ماهان بقيادتها لحرب المأمون بعد أن جهزه بخمسين ألف فارس، وكتب إلى أبى دلف القاسم بن ادريس العجلى، وهلال بن عبد الله الحضرمى بالانضمام اليه ، وخرج على بن عيسى فى شعبان سنة ١٩٥ ﻫ ، وركب الامين يشيعه ومعه القواد والجنود .

وفى نفس الوقت كان طاهر بن الحسين يعسكر بالرى والامداد تأتيه من خراسان ، وكان يتأهب للقتال ، فلما بلغ على بن عيسى ذلك — وكان مغرورا

---

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ، ص ٢٣١ — ابن طباطبا ، ص ١٩٥ .

بقوته، علق بقوله : « انما طاهر شوكة من أغصانى ، وما مثل طاهر يتــولى الجيوش» ، وقال لاصحابه : « ما بينكم وبين أن ينقسف انقصاف الشجر من الريح والريح العاصف إلا أن يبلغه عبورنا عقبة همذان ، فان السخال لا تقوى على النطاح ، والبغال لا صبر لها على لقاء الاسد ، وإن أقام تعرض لحد السيوف وأسنة الرماح ، وإذا قاربنا الرى ودنونا منهم فت ذلك فى أعضادهم» (١) .

وحدث الاشتبـاك بالقرب من الرى، واستطاع طاهر بن الحسين بسهولة التغلب على قوات الامين، ولقى على بن عيسى مصرعه ، وبويع للمأمون بالخلافة فى جميع خراسان // ويبالغون فى استهتار الامين بالخبر، فيذكرون أن نعى على ابن عيسى جاءه وهو يصيد سمكا ، فغضب إذ قطع عليه الناعى لذة الصيد، وقال: « ويلك دعنى ، فان كوثرا قد اصطاد سمكتين ، وأنا ما صدت شيئا بعد » (٢)

وتبع ذلك فترة مشحونة بالارتباك والفوضى ، فقد تعجل الامين فى الرد على الهزيمة التى أصيب بها جيشه دون إعداد مسبق أو وفقا لخطة موضوعة ، كما أنه لم يحسن اختيار القادة ، فقد وجه عبد الرحمن بن جبلة الانبارى فى عشرين ألف رجل نحو همذان . واستعمله عليها وعلى كل ما يفتتحه من بلاد خراسان، فلما وصل ابن جبلة الى همذان شرع فى تحصين سورها ، ولكن طاهر بن الحسين لم يمهله لذلك، فأتاه الى همذان ، فخرج اليه ابن جبلة على غير تعبئة ، واشتبك الفريقان فى قتال عنيف انتهى بهزيمة جيش المأمون، ودخل ابن جبلة همذان ، فأقام بها أياما أعاد خلالها جمع صفوفه ، ثم خرج لقتال طاهر ، فانهزم أصحابه

---

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٢٤١ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٤٥ — ابن طباطبا ، ص ١٩٥ — السيوطى ، ص ٢٧٧ ، وكوثر المشار اليه هو خادم خاص خصى كان يحبه الأمين .

ووضع فيهم عسكر طاهر السيوف، وامتنع ابن جبلة فى المدينة، فحاصره طاهر، فأوسل اليه ابن جبلة يطلب الامان لنفسه ولمن معه ، فأمنه ، وسلم له ابن جبلة همذان . ولكن ابن جبلة تظاهر بعد ذلك برضائه بأمان طاهر ، ثم اغترهم وهم آمنون فركب فى أصحابه وبادر طاهر بالهجوم دون أن يشعر ، وعلى الرغم من ذلك، فقد انهزم ابن جبلة وأصحابه ، وظل يقاتل حتى قتل(١) . ثم سير الأمين للمرة الثالثة جيشا عدته أربعون ألفا لمحاربة طاهر بقيادة أسد بن يزيد بن مزيد، وأحمد بن مزيد، وعبد الله بن حميد بن قحطبة ،وسار العسكر الى خانقين، ولكن طاهر بث العيون والجواسيس فى معسكر الأمين، واحتال فى وقوع الاختلاف بينهم ، فاختلفوا ، وانتقض أمرهم ، وقاتل بعضهم بعضا ، ثم انسحبوا من خانقين دون أن يواجهوا عسكر طاهر . وحدث بعد ذلك أن انقلب الحسين ابن على بن عيسى بن ماهان، أحد قادة الأمين عليه ، وخلعه وحبسه بقصر المنصور، وبايع للمأمون ، وتبعه فى ذلك فريق من العسكر ، ولكن فريقا آخر استاء من هذا التصرف ، وتبعهم أهل الارباض ، فقاتلوا الحسين بن على بن عيسى وأسروه ، ودخل أسد الحربى على الأمين فخلصه من قيوده ، وأعاده الى قصر الخلد . ثم استقدم الأمين قائده الأسير، فعاتبه ، فاعتذر اليه، وعفا الأمين عنه، ثم خلع عليه وولاه العسكر، وأمره بمقاتلة المأمون ، فخرج، ثم هرب ، ولكن قوما أدركوه وقتلوه (٢) . وفى هذه الأثناء كان طاهر بن الحسين يستولى على الأقاليم الخاضعة للامين اقليما بعد اقليم ، فضم اقليم الجبال الواقع جنوبى بحر قزوين ، ثم اقليم الأهواز وواسط والمدائن ، واقتربت جيوشه من بغداد، وبايع عامل الحجاز للمأمون ، وتمكن هرثمة بن أعين من محاصرة بغداد من الجانب

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٢٤٨ .

(٢) ابن الأثير ، ص ٢٦٠ ، ٢٦١ — ابن طباطبا ، ص ١٩٦ وما يليها .

الشرق ، أما طاهر بن الحسين فتولى حصار الجانب الغربي من بغداد ، ودام الحصار مدة ١٥ شهرا ، وقد أصيب عمران بغداد من جراء هذا الحصار الطويل بأضرار كبيرة بسبب قذائف المنجنيق والنفط . فتهدمت أسوار المدينة ، ودمرت المباني ، واشتعلت النيران في كل مكان، حتى زالت محاسنها ودرست معالمها، ونفذت الأقوات في المدينة ،وانتشرت الامراض والمجاعات، واضطر الامين الى بيع ما في خزائنه من أمتعة وتحف لينفق على الجند (١) أما طاهر بن الحسين فقد عجز عن الاستيلاء على بعض أحياء بغداد مثل الكرخ ومدينة المنصور وأسواق الخلد ، فسماها طاهر دار النكث .

ثم تحرج الأمين عندما خذله كثير من أعوانه وقواده ومنهم محمد بن عيسى صاحب شرطته ، وعلى أفراهمرد الموكل بقصر صالح ، وعبد الله بن حميد بن قحطبة وأخوته ، ويحيى بن على بن ماهان ، وخزيمة بن خازم ، وترتب على ذلك سقوط أسواق الكرخ في يد طاهر ، وتحصن الأمين بمدينة المنصور ، وتولى الدفاع عنه العيارون وأهل السجون، وكانوا يقاتلون عراة، في أوساطهم المآزر ، ونصحه بعض أصحابه بالخروج إلى الشام وإعادة جمع قواته من هناك، فاقتنع بنصحهم ،وعزم على ذلك ، ولكن طاهر بن الحسين علم بذلك الخبر ، فكتب إلى عدد من أصحاب الامين يأمرهم باقناع الامين بالعدول عن عزمه ، وأثنوه عما أقدم عليه ، ونصحه بعض الناصحين بأن يستسلم لأخيه وينزل له عن الخلافة ، فقبل أن يسلم الخاتم والقضيب والبردة وهي من مخلفات الرسول، لطاهر ويسلم نفسه إلى هرثمة بن أعين لكبر سنه ،ولما عرفه من قسوة طاهر، نهي أن

---

(١) اضطر الأمين الى بيع ما في الخزائن من الأمتعة ، وضرب آنية الفضة والذهب دنانير ودراهم (المسعودي ، ج ٣ ص ٤٠٢ - الاربلي ، ص ١٨٢) .

طاهر خشى ألا يكون الأمين جادا فى تنفيذ ما اعتزمه ، لاسيما وقد بلغه من قبل أنه كان ينوى الخروج من بغداد إلى الجزيرة وبلاد الشام ، فوضع حول القصر كمينا بالسلاح . فلما أرسل هرثمة إلى الأمين حراقة على باب خراسان ، ونزل الأمين بالحراقة ، أرسل طاهر جماعة من الموامين خرقوها بالسهام ، وقيل قلبوها بمن فيها ، وسبح الأمين إلى الشاطئ(١) ، فقبض عليه بعض عساكر المأمون ، وذبحوه فى المحرم سنة ١٩٨ هـ ، وطافوا برأسه ، فأرسلها طاهر إلى المأمون ، فحزن المأمون لقتله ، وكان يرغب فى أن يرسل اليه حيا ليرى فيه رأيه ، فحقد بذلك على طاهر بن الحسين ، وأهمله إلى أن مات طريدا بعيدا (٢) .

٧ - ابو العباس عبد الله المأمون : ١٩٧ هـ — ٢١٨ (٨١٣ — ٨٣٣م)

هو ابن هارون الرشيد من جارية فارسية تدعى مراجل، بويع له بالخلافة وهو بخراسان فى سنة ١٩٧ هـ ، وبويع له البيعة العامة ببغداد فى سنة ١٩٨ هـ ، وفى هذه الأثناء كان الفضل بن سهل يستبد بأمور الدولة ويدبرها من مرو التى كان ينوى اتخاذها دارا للخلافة ، ويحول الإدارة المركزية من العراق العربى إلى خراسان الفارسية ، ولكى ينفذ هذا المخطط الخطير، حجر على المأمون، ومنع أهل بيته وكبار قواده ، من الدخول اليه الا باذن منه ، ثم أمر على لسان المأمون بتعيين أخيه الحسن بن سهل على اقليم العراق والحجاز واليمن (٣) ، تمهيدا لجعل بلاد الشرق العربى ولايات تابعة لخراسان . وقد أثار هذا الوضع ثائرة العرب فى

---

(١) المسعودى ، ج٣ ص ٤١٢ — ابن الأثير ، ج٦ ص٢٨٦ — الإربلى ، ص ١٨٥

(٢) السيوطى ، ٢٧٩

(٣) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٢٩٨

بغداد وغيرها من الحواضر العربية. واستاء له العباسيون، فثار نصر بن سيار ابن شبث من بنى عقيل بشمالى حلب فى أواخر سنة ١٩٨ ﻫ (٨١٤م) وتغلب على ما جاوره من البلاد ، واستولى على سميساط من مدن الجزيرة ، وانضم إليه حشد كبير من الاعراب ، وكثرت جموعه ، فأمر الحسن بن سهل طاهر بن الحسين بالسير إلى الرقة لمحاربة نصر بن شبث العقيلى فى أوائل سنة ١٩٩ ، بعد أن ولاه الموصل والجزيرة والشام والمغرب . فزحف طاهر واشتبك مع نصر بنواحى كيسوم بالقرب من حلب فى قتال شديد أبلى فيه نصر وأتباعه العرب بلاء عظيما، وارتد طاهر إلى الرقة شبه مهزوم ، وترتب على ذلك ارتفاع شأن نصر بن شبث بالجزيرة، فقد قوى من أمره وأعلى شأنه ، وتوافد عليه الاتباع والأنصار ، ولم يرض ابن شبث أن يجعل من هذا النصر مكسبا شخصيا له ، وإنما عبر عن ثباته على المبدأ عندما أتاه نفر من شيعة الطالبين فقالوا له : «قد وترت بنى العباس، وقتلت رجالهم، وأعلقت عنهم العرب ، فلو بايعت لخليفة كان أقوى لأمرك » فقال : « من أى الناس ؟ » قالوا : « نبايع لبعض آل على بن أبى طالب » فقال : « أبايع بعض أولاد السوداوات فيقول أنه هو خلقنى ورزقنى ؟ قالوا : « فنبايع لبعض بنى أمية » فقال : « أولئك قد أدبر أمرهم ، والمدبر لا يقبل أبدا ، ولو سلم على رجل مدبر لأعدانى إدباره، وإنما هواى فى بنى العباس، وإنما حاربتهم محاماة على العرب لأنهم يقدمون عليهم العجم » (١).

ولم يوفق المأمون فى إخماد حركة شبث الا فى سنة ٢٠٩ ﻫ عندما حاصره عبد الله بن طاهر بكيسوم وضيق عليه حتى طلب الأمان (٢) ، وكما عجز الحسن بن

(١) ابن الأثير ، ص ٣٠٨

(٢) نفس المصدر ، ص ٣٨٨

سهل عن إخماد ثورة نصر بن شبث العقيلى ، أخفق فى إخماد الفتن التى اشتعلت فى العراق ـ و بالذات فى البصرة والكوفة ـ حيث استغل العلويون هنالك ضعف نفوذ الحسن بن سهل واستبداد الفضل بن سهل بالمأمون وأعلنوا ثورتهم عليه، ففى سنة ١٩٩ هـ ظهر أبو عبدالله محمد بن ابراهيم بن اسماعيل بن ابراهيم بن الحسن ابن الحسين بن على بالكوفة، ودعا إلى الرضا من آل محمد، والعمل بالكتاب والسنة، وهو المعروف بابن طباطبا ، وقاد الثورة أبو السرايا السرى بن منصور ، القيم بأمره فى الحرب ، ونجح فى ايقاع الهزيمة بالجيوش التى وجهها اليه الحسن بن سهل ، واستولى على الكوفة . وعلى الرغم من وفاة محمد بن ابراهيم بن طباطبا فجأة ، فقد تولى مكانه محمد بن محمد بن زيد بن على بن الحسين بن على ، وانتشر الطالبيون فى البلاد (١) . وضرب أبو السرايا الدراهم بالكوفة، وعاث جيوشه بالبصرة وواسط ونواحيها ، فتغلب على البصرة والمدائن ، ثم ولى عمالا على مكة واليمن والأهواز والبصرة والمدائن، واستفحل خطر حركة أبى السرايا، واستعصى على الحسن بن سهل قمعها ، فاستنجد بالقائد هرثمة بن أعين الذى تمكن من هزيمة أبى السرايا وحمله على الفرار من الكوفة فى سنة ٢٠٠ هـ (٨١٥م) إلى القادسية، ومن هناك مضى إلى خوزستان ، وانتهى به الأمر إلى الوقوع فى يد الحسن بن سهل الذى قتله وبعث برأسه إلى المأمون (٢) . وفى نفس الوقت كانت الثورات

---

(١) وثب بالمدينة محمد بن سليمان بن داود بن الحسن بن الحسن بن على ، ووثب بالبصرة على بن محمد بن جعفر بن محمد بن على بن الحسن بن على ، وزيد بن موسى بن جعفر ابن محمد بن على بن الحسين المعروف بزيد النار لكثرة ما أحرق بالبصرة من دور العباسيين، وظهر فى اليمن ابراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسن بن على ، وفى مكة محمد بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين الذى دعت اليه السبطية من فرق الشيعة وقالت بامامته (المسعودى ، ج ٣ ص ٤٣٩ ، اليعقوبى ، ج ٢ ص ٤٤٥) .

(٢) المسعودى ج ٣ ص ٤٤٠ ـ ابن الأثير ، ج ٦ ص ٣٠٩

تجتاح سائر أقاليم الدولة العباسية، لا سيما فى الحجاز واليمن ومصر والشام (١)، ويرجع سبب هذه الثورات الى تغلب الفضل بن سهل على المأمون «وأنه أنزله قصراً حجبه فيه عن أهل بيته وقواده، وأنه يستبد بالأمر دونه، فغضب لذلك بنو هاشم ووجوه الناس، واجترأوا على الحسن بن سهل، وهاجت الفتن فى الأمصار» (٢).

وفى خضم هذه الأحداث الخطيرة كان الفضل بن سهل يتحكم فى أمور الدولة فى مرو، فتلقب بلقب الوزير الأمير، كما تلقب أيضا بلقب ذى الرياستين لجمعه بين السيف والقلم. ولاصلاح الأمور كان لابد للخليفة المأمون من أن يطلعه رجل عربى غيور على حقائق الامور التى كانت تخفى عليه بسبب الحصار المحكم الذى فرضه الفضل بن سهل على بلاطه، وتمثل هذا الشخص الغيور فى شخصية هرثمة بن أعين القائد العربى، الذى قرر السير الى مرو ليبصر الخليفة بالمؤامرات التى يدبرها بنو سهل وصنائعهم الفرس، وفطن ابن سهل الى نوايا هرثمة، فاستصدر أمرا من الخليفة بتوليته الشام والحجاز حتى يبعده عن خراسان، ويحول بينه وبين الإتصال بالمأمون، ولكن هرثمة رفض أن ينفذ هذا الامر، وواصل سيره إلى مرو قائلا: «لا أرجع حتى القى أمير المؤمنين إدلالا منه عليه، ولما يعرف من نصيحته له ولآبائه»، وأراد أن يعرف المأمون ما يدبر عليه الفضل بن سهل وما يكتم عنه من الاخبار، وأنه لا يدعه حتى يرده إلى بغداد ليتوسط سلطانه(٣).

---

(١) اليعقوبى، ج ٢ ص ٤٤٦ وما يليها

(٢) ابن الأثير، ج ٦ ص ٣٠٢

(٣) نفس المصدر، ص ٣١٥

وبلغت هذه الكلمات مسامع الفضل ، فأوهم المأمون بأن هرثمة هو الذى أثار عليه البلاد ، وهو الذى دس أبا السرايا ، وأنه خالف أمر أمير المؤمنين عندما قلده ولاية الشام والحجاز ، وحث الفضل الخليفة على تأديبه حتى يكون عبرة لمن يعتبر . ونجح الفضل فى تغيير قلب المأمون على هرثمة ، فلما وصل هرثمة مرو ، أمر الفضل بالطبول فدقت لكى يسمعها المأمون ، فسأل المأمون عنها ، فقالوا له : « هرثمة قد أقبل يرعد ويبرق » . وفى نفس الوقت ظن هرثمة أن قرع الطبول يعنى قبول قوله ، فأمر المأمون بإدخاله ، ثم وجه اليه تهمة تأليب أبى السرايا وأهل الكوفة العلويين عليه ، ولم يقبل منه أى عذر أو اعتراض ، فأمر به فديس بطنه ، وضرب أنفه ، وحبسه ، أما الفضل فقد أمر أعوانه بالتشديد عليه وتعذيبه (١) ، وأقام هرثمة أياما فى سجنه ثم توفى مقتولا . وثار أهل بغداد على الحسن بن سهل ، وطردوا عماله من بغداد ، كما أخرجوا على بن هشام والى بغداد من قبل الحسن بن سهل ، وأرادوا أن يبايعوا المنصور بن المهدى العباسى بالخلافة ، فامتنع من ذلك ، ثم عرضوا عليه الإمرة عليهم على أن يدعو للمأمون بالخلافة ، فأجابهم اليه (٢) فى سنة ٢٠١ ه عندما أصروا على ذلك قائلين : « لا نرضى بالمجوسى بن المجوسى الحسن بن سهل » (٣) ، وتضامن أهل بغداد على إصلاح ما فسد من أحوال الامن ووضع حد لجرائم الشطار وقطاع الطرق والعابثين فى بغداد نفسها ، وعرف هؤلاء الذين تجردوا لذلك بالمتطوعة للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والعمل بالكتاب والسنة . ووجد الفضل بن سهل — بعد أن تخلص من هرثمة — الطريق أمامه مهيئا لنقل الخلافة من العباسيين إلى

---

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ، ص ٣١٥

(٢) نفس المصدر ، ص ٣٢١

(٣) نفس المصدر ، ص ٣٢٣

العلويين ، فما زال يزين الامر للمأمون لتنفيذ هذه الخطوة ، وينفره من آله العباسيين الذين خرجوا عليه فى بغداد ، مستغلا فى ذلك ما كان يتحلى به المأمون من مرونة تجاه العلويين(١)، حتى أقنعه بأن يختار الامام على الرضا بن موسى الكاظم وليا لعهده فى سنة ٢٠١ هـ . ويذكر المؤرخون أن المأمون نظر فى بنى العباس وبنى على ، فلم يجد أحدا أفضل ولا أورع ولا أعلم منه ، فاستقدمه المأمون إلى مرو ، وأنزله أحسن إنزال ، ثم بايع له بولاية العهد ، ولقبه الرضى من آل محمد (صلعم) ، وأمر جنده بطرح السواد من الثياب والأعلام ولبس الثياب الخضر فى رمضان سنة ٢٠١ ، وضرب اسمه على الدنانير والدراهم ، ثم زوجه من أم حبيب ابنته ، وزوج محمد بن على بن موسى الرضا بابنته أم الفضل(٢). والظاهر أن الإمام على الرضا أطلع المأمون على حقيقة الأوضاع ، وأطلعه على سوء الحال من الفتن والحروب والثورات التى استمرت منذ قتل الأمين ، وبما كان الفضل بن سهل يستر عنه من أخبار(٣). وهكذا تظاهر المأمون وعلى الرضا برضائهما عن تحويل الخلافة الى العلويين ، حتى لا يثيرا ريبة الفضل ابن سهل .

---

(١) لمزيد من التفاصيل راجع : فاروق عمر فوزى ، سياسة المأمون تجاه العلويين ، مجلة كلية الآداب جامعة بغداد ، عدد ١٦ سنة ١٩٧٣ ص ٢٧٥ ـ ٢٩٨

(٢) المسعودى ، ج ٣ ص ٤٤١ ـ ابن طباطبا ، ص ١٩٩

(٣) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٣٤٦ . كذلك أبلغه أن الفضل بن سهل كذب عليه وأن الناس ينقمون على المأمون مكان الفضل ومكان أخيه الحسن ومكان الامام على الرضا ، واستحضر الامام على الرضا عددا من الشهود فأخبروه بأن أهل بغداد بايعوا لابراهيم ابن المهدى وأنهم سموه الخليفة السنى على أساس اتهامهم للمأمون بالرفض ، ثم أطلعوه على أكاذيب الفضل فيما يتعلق بهرثمة بن أعين ، وطالبوا المأمون بالخروج الى بغداد (ابن الأثير ، ج ٦ ص ٣٤٧) .

ولكن أهل بغداد أبوا أن تخـــرج الخلافة من ولد العباس ، وظنوا أن تحويلها إلى العلويين حلقة فى مؤامرة خططها الفضل بن سهل (١) ، وكانوا قد استاءوا من منصور بن المهدى لاعتماده على الشطار بطانته . فبايعوا ابراهيم ابن المهدى (٢) بالخلافة ، ولقبوه المبارك ، وخلعوا المأمون فى غرة المحرم سنة ٢٠٢ هـ ، وبايعه سائر بنى هاشم ، فاستولى إبراهيم على الكوفة والسواد كله ، واستعمل على الجانب الغربى من بغداد العباس بن موسى الهادى ، وعلى الجانب الشرقى منها إسحاق بن موسى الهادى .

وعزم المأمون على السير إلى العراق ، فتحرك إلى سرخس ، وهناك اغتيل الفضل بن سهل فى حمامه غيلة فى حمام دار المأمون فى ٢ من شعبان ، فاستعظم المأمون ذلك ، وأمر بقتل قتلته . وقيل أنه هو الذى أمر بقتل الفضل بن سهل ، وذلك أنه لما رأى إنكار أهل بغداد لما فعله من نقل الخلافة الى بنى على ، وأنهم نسبوا ذلك الى الفضل بن سهل ، ورأى الفتنة قائمة ، دس جماعة على الفضل ابن سهل فقتلوه فى الحمام ثم أخذهم وقدمهم ليضرب رقابهم ، « فقالوا له : أنت أمرتنا بذلك ثم تقتلنا . فقال : أنا أقتلكم باقراركم ، وأما ما ادعيتموه على من أنى أمرتكم بذلك فدعوى ليس لها بينة » (٣) .

وفى مدينة طوس توفى الامام على الرضا فجأة فى صفر سنة ٢٠٣ ، بسبب عنب أكثر منه ، وقيل لعنب مسموم (٤) ، فصلى عليه المأمون ، ودفنه عند قبر أبيه

---

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٣٢٦

(٢) كان يعرف بابن شكلة (المسعودى ، ج ٣ ص ٤٤١)

(٣) ابن طباطبا ، ص ١٩٩ ومايليها

(٤) المسعودى ، ج ٣ ص ٤٤١ — ابن الأثير ج ٦ ص ٣٥١

الرشيد . ثم جد المأمون فى المسير الى بغداد ، فلما علم ابراهيم بن المهدى بقرب وصوله فر من بغداد فى ٢٠ من ذى الحجة سنة ٢٠٣، ووصل المأمون إلى بغداد، فنزل الرصافة ، ثم تحول ونزل قصره على شاطىء دجلة ، وكان قد استقدم معه طاهر بن الحسين من الرقة ليوافيه بالنهروان ، ويصحبه إلى بغداد . ولما استقر فى بغداد ، تلقاه العباسيون، وسألوه أن يترك لباس الخضرة ويأمر بالعودة إلى السواد ، فأجابهم إلى ذلك فى ٢٣ صفر سنة ٢٠٤ .

أما ابراهيم بن المهدى فقد أمر المأمون بالبحث عنه ، فظفر به فى سنة ٢١٠ وكان متنكرا فى زى امرأة ، فعفا المأمون عنه ، وأما الحسن بن سهل فقد عزله عن ولاية العراق، واستوزره جبرا لمصابه بعد قتل أخيه، وتزوج بابنته بوران فى رمضان سنة ٢١٠ . أما طاهر بن الحسين فقد ولاه المأمون خراسان فى سنة ٢٠٥ ، بينما ولى ابنه عبد الله بن طاهر الجزيرة والشام ومصر ، وتوفى طاهر فى جمادى الأولى سنة ٢٠٧ هـ ، وقيل أنه كان ينوى الاستقلال بخراسان ، وقطع اسم المأمون فى الخطبة ، ولكن الموت فاجأه ، فقد ذكر ابن الأثير أن كلثوم بن ثابت بن أبى سعيد ، القائم بالبريد فى خراسان قال « فلما كان سنة سبع ومائتين حضرت الجمعة ، فصعد طاهر المنبر ، فخطب ، فلما بلغ إلى ذكر الخليفة أمسك عن الدعاء له ، وقال : اللهم أصلح أمة محمد بما أصلحت به أولياءك ، واكفنا مؤونة من بغى علينا وحشد فيها ، بلم الشعث وحقن الدماء وإصلاح ذات البين »(١)

ومن بين الثورات التى قامت فى عهد المأمون :

١ — ثورة عرب مصر وأقباطها سنة ٢١٦ هـ :

قامت بالوجه البحرى بسبب تعسف الولاة وتشددهم مع الأقباط والعرب

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٣٨٢

فى جباية الضرائب والجزيات وقد شملت هذه الثورة كل بلاد الوجه البحرى ، واضطر المأمون إلى الخروج بنفسه إلى مصر فى سنة ٢١٣ ، لتهدئة الاحوال ، فأقام بها ٤٧ يوما ، والظاهر أن المأمون استخدم العنف فى القضاء على هذه الثورة ، وعهد إلى الأفشين بمحاربتهم وخاصة قبط البشرود من أهل الحوف ، فقتل منهم الافشين عددا كبيرا ، وسباهم ، فنزلوا على حكم المأمون . واستفتى المأمون فى ذلك فقيها مالكيا بمصر يقال له الحارث بن مسكين فقال : « إن كانوا خرجوا لظلم نالهم فلا تحل دماؤهم وأموالهم . فقال المأمون : أنت تيس ومالك أتيس منك ، وهؤلاء كفار لهم ذمة إذا ظلموا تظلموا إلى الإمام ، وليس لهم أن يستنصروا بأسيافهم ، ولا يسفكوا دماء المسلمين فى ديارهم » . وأخرج المنصور رؤساءهم فحملهم إلى بغداد (١)

٢ ـ ثورة الزط(٢) فى جنوبى العراق بنواحى البصرة :

قام الزط بثورتهم منذ قيام الفتنة بين الأمين والمأمون ، وقد ولى المأمون لمحاربتهم فى سنة ٢٠٥ هـ عيسى بن يزيد الجلوذى(٣) ، كما عهد فى العام التالى لمحاربتهم

(١) اليعقوبى ، ج ٢ ص ٤٦٦ ـ الكندى ، ولاة مصر ، طبعة بيروت ، ١٩٥٩ ص ٢١٦ .

(٢) هم فى الأصل من أهل السند والبنجاب ووقعوا فى سبى الفرس ، وأسلموا زمن الفتوحات ، فأنزلهم أبو موسى الأشعرى فى البصرة . كذلك أتى الحجاج بجماعة من زط السند ومعهم أهلوهم وأولادهم وجواميسهم فأسكنهم بأسافل كسكر ، فغلبوا على البطيحة وتناسلوا بها . ثم انضم اليهم قوم من أباق العبيد وموالى باهلة وخولة محمد بن سليمان بن على وغيرهم فشجعوهم على قطع الطريق ومبادرة السلطان بالمعصية ، وكان همهم بادىء ذى بدء اختلاس الشىء الطفيف من أهل السفن ، فتحامى الناس المرور بهم فى أيام المأمون . (راجع البلاذرى ، فتوح البلدان ، طبعة الدكتور المنجد ، ج ٢ ص ٤٦٢ . ولمزيد من الاخبار عن الزط أو الجت بالهندية راجع : القاضى أطهر مباركبورى الهندى ، العرب والهند فى عهد الرسالة ، ترجمة عبد العزيز عزت عبد الجليل ، القاهرة ١٩٧٣ ص ٤٧ ـ ٥٨) .

(٣) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٣٦٤ .

قائده داود بن ماسجور وأسند إليه أعمال البصرة وكور دجلة واليمامة والبحرين(١)، واستمر الزط يشكلون خطرا كبيرا على الموارد الاقتصادية للدولة العباسية، إذ كانوا يفرضون المكوس على السفن الداخلة إلى بغداد(٢)، ولم تخمد حركتهم إلا فى سنة ٢١٩ هـ عندما وجه المعتصم لحاربتهم قائده عجيف بن عنبسة فى جمادى الآخرة، وفى ذلك يقول ابن الأثير: «وكانوا غلبوا على طريق البصرة، وأخـذوا الغلات من البيادر بكسكر وما يليها من البصرة، وأخافوا السبيل، ورتب عجيف الخيل فى كل سكة من سكك البريد تركض بالاخبار، فكان يأتى بالاخبار من عجيف فى يوم، فسار حتى نزل تحت واسط، وأقام على نهر يقال له بردودا حتى سده، وأنهارا أخر كانوا يخرجون منها ويدخلون، وأخذ عليهم الطرق، ثم حاربهم، فأسر منهم فى معركة واحدة ٥٠٠ رجل وقتل فى المعركة ٣٠٠ رجل فضرب أعناق الأسرى»(٣). ثم خرج الزط اليه، بعد أن أمنهم، فى ذى الحجة سنة ٢١٩ هـ، وبلغ عددهم ٢٧ ألفا بما فى ذلك النساء والصبيان، والمقاتلة منهم ١٢ ألفا، ثم عبأهم فى سفنهم ومعهم البوقات، ونقلوا بعد ذلك إلى عين زربة(٤)، وظلوا هناك إلى أن أغار البيزنطيون على عين زربة فى سنة ٢٤١ هـ فى خلافة المتوكل العباسى، فأسروا كل من كان بها من الزط مع نسائهم وذراريهم ودوابهم(٥)، ونقلوهم إلى القسطنطينية. ويبدو أنهم انتشروا من هناك فى

---

(١) ابن الأثير، ص ٣٧٩

(٢) العبادى، فى التاريخ العباسى والفاطمى، ص ١٠٨

(٣) ابن الأثير، ج ٦ ص ٤٤٣

(٤) نفس المصدر، ص ٤٤٦. وذكر اليعقوبى والبلاذرى أنه أسكن بعضهم خانقين (البلاذرى، فتوح البلدان، ج ٢ ص ٤٦٢ — اليعقوبى، ج ٢ ص ٤٧٢).

(٥) نفس المصدر، ج ٧ ص ٨٠

نواحى أوربا الغربية ونزل بعضهم إسبانيا ، ولعل الغجر (المسمون بالاسبانية Gitanos) من سلالة هؤلاء الزط لتشابه كلمة زط بالاسم الفارسى لهم وهو جت وتقارب جت من جيتانو الاسبانية ، سيا وأن هؤلاء الزط اشتهروا فى المشرق الاسلامى باشتغالهم بالغناء والرقص وإلهاء الجماهير(١). وسنعود إلى الحديث عنهم .

٣ — حركة بابك الخرمى :

وبدأت هـــذه الحركة فى سنة ٢٠١ هـ فى الجاويدانية ، وهم أصحاب جاويدان بن سهل صاحب البذ ، وادعى بابك أن روح جاويدان حلت فيه ، وقال بالتناسخ (٢) . واستفحل خطر هذه الحركة الامر الذى دفع المأمون إلى محاربة بابك ، فسير إليه فى سنة ٢٠٤ قائده يحي بن معاذ ، ولكنه لم ينجح فى مهمته (٣) ، ثم أعاد المأمون الكرة فى سنة ٢٠٦ هـ ، وسير لمحاربة بابك قائده عيسى بن محمد بن أبى خالد ، ولكن بابك هزم قوات المأمون ونكبها(٤)، وتابع المأمون تسيير قواته لمهاجمة بابك ، ففى سنة ٢٠٩ عهد إلى على بن صدقه المعروف بزريق ، واليه على أرمينية وأذربيجان ، بمحاربة بابك ، ولكن بابك أسر أحد القادة الذين سيرهم زريق لمحاربته (٥) . وظل أمر بابك

---

(١) العبادى ، المرجع السابق ، ص ١٠٨ ، وراجع أيضا تفصيلات عن هذا الموضوع فى بحثه القيم بعنوان « حركة الزط فى العصر العباسى الأول » ، من بحوث مؤتمر الدراسات التاريخية لشرق الجزيرة العربية ، الدوحة ٢١ — ٢٧ مارس ١٩٧٧ ، ص ٤٤ — ٤٩ من ملخصات البحوث .

(٢) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٣٢٨

(٣) نفس المصدر ، ص ٣٥٨

(٤) نفس المصدر ، ص ٣٧٩

(٥) نفس المصدر ، ص ٣٩٠ . أسر بابك القائد أحمد بن الجنيد الإسكافى ،

يشتد ، وجموعه تتكاثر ، حتى آلت الخلافة إلى المعتصم ، فتـولى قائده الأفشين مطـاردته على النحو الذى سنشير اليه فيما بعد .

☆ ☆ ☆

وعلى الرغم من الفتن والثورات التى ملأت عهد المأمون ، فان عصره يعتبر من أزهى عصور الدولة العباسية من الناحية العلمية ، فقد اهتم بالمسائل العلمية والفلسفية ، وشجع على النهضة الفكرية ونشر العلوم ، فزود دار الحكمة التى كان الرشيد قد أسسها فى بغداد بمختلف أنواع الكتب من الهند وبلاد الروم والفرس حتى أصبحت دار الحكمة أشبه بجامعة علمية تضم داراً للكتب يجتمع فيها شيوخ العصر للترجمة والتأليف والتحصيل ، كما خصص فيها مواضع للنساخين . وذكروا أنه استخرج كتب الفلاسفة واليونان من جزيرة قبرص(١) ، واطلع على الكثير مما جاء فيها ، فكان أول من فحص من الخلفاء « عن علوم الحكمة وحصل كتبها وأمر بنقلها إلى العربية وشهرها ، وحل اقليدس ، ونظر فى علوم الأوائل ، وتكلم فى الطب ، وقرب أهل الحكمة » (٢) ، وجره ذلك إلى القول بخلق القرآن (٣) ، وامتحان القضاة والشهود والمحدثين بالقرآن ، فمن أقر أنه مخلوق محدث خلى سبيله ومن أبى أعلمه به ليأمره فيه برأيه ، وممن امتحنهم فى ذلك الامام أحمد بن حنبل الذى أصر على أن القرآن كلام الله ، فأمر به فشد فى الحديد ، ثم أمر به فأرسل إلى طرسوس مع جماعة ممن خالفوا المأمون فى مقالته (٤) .

---

(١) السيوطى ، ص ٣٠٣ . وقد اهتم بترجمة هذه الكتب وغيرها من لغاتها الى العربية ، واشتغل بذلك حنين بن اسحق وبختيشوع والحجاج بن مطر وثابت بن قرة .

(٢) ابن طباطبا ، ص ١٩٨

(٣) السيوطى ، ص ٢٨٤ . أيد المعتزلة فيما ذهبوا اليه من القول بأن القرآن مخلوق .

(٤) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤٢٧

وكان المأمون يحب لعب الشطرنج ، ويولع به ، وكان يبرر ذلك بقوله « هذا يشحذ الذهن » ، واقترح فيها أشياء ، وكان يقول: «لا أسمعن أحدا يقول تعالى حتى نلعب ، ولكن يقول : نتداول أو نتناقل [1] » .

وكان المأمون يشترك فى المناظرات فى الفقه ، فأوجد مجالس للمناظرة ، وكان يجلس لذلك يوم الثلاثاء من كل أسبوع ، وكانت المناظرات تتناول المسائل الكلامية ، وتجرى داخل غرفة مفروشة . وجرت العادة أن يبدأ المأمون مع من يناظره من الفقهاء بتناول الطعام والشراب ، فاذا فرغوا بخروا بالمجامر وطيبوا ، ثم يبدأ فى مناظرتهم إلى أن تغرب الشمس ، ثم تنصب الموائد ثانية فيطعمون وينصرفون [2] .

وقد أجمع المؤرخون على أن المأمون كان أفضل رجال بنى العباس حزما وعزما وحلما ورأيا ودهاء وهيبة وشجاعة ، وأنه لم يل الخلافة من بنى العباس أعلم منه [3] .

وفى عهد المأمون قامت فى الدولة البيزنطية ثورة يتزعمها توماس الصقلى ضد الامبراطور البيزنطى ميشيل الشاذ، العمورى فى سنة ٢٠١ هـ (٨٢١ م) كادت تطيح بعرش الامبراطور ، وقد أيد المأمون ثورة توماس وأمدها بقوة إسلامية مقابل أن يتنازل له توماس ، بعد أن يتحقق هدفه ، عن بعض الحصون البيزنطية ، ولكن ثورة توماس فشلت بعد عامين فى سنة ٨٢٣ م .

---

(١) السيوطى ، ص ٣٠٠

(٢) المسعودى ، ج ٣ ص ٤٣٢ — السيوطى ، ص ٣٠٣

(٣) ابن طباطبا ، ص ١٩٧ — السيوطى ، ص ٢٨٤

٨ - ابو اسحق محمد المعتصم : ٢١٨ — ٢٢٧ ه (٨٣٣ — ٨٤٢ م)

هو ابن الرشيد من ماردة أم ولده التركية ، بويع له بعد وفاة أخيه المأمون وهو فى غزوته الأخيرة إلى بلاد البيزنطيين فى رجب سنة ٢١٨ ، وقد سار المعتصم على سياسة أخيه فى حمل الناس على القول بخلق القرآن ، فأهان ابن حنبل إهانة بالغة ، فقد أحضره أول خلافته وامتحنه بالقرآن ، فلم يجب إلى القول بخلقه ، فأمر به فجلد جلدا شديدا حتى غشى عليه ، وتقطع جلده ، وحبس مقيدا (١) كذلك تشدد المعتصم مع العلويين ، فتخلص من الامام محمد الجواد بن على الرضا بن موسى فى ٥ من ذى الحجة سنة ٢١٩ ، فقد قيل أن أم الفضل بنت المأمون سمته لما قدمت معه من المدينة إلى المعتصم (٢) ، كذلك قبض على محمد بن القاسم بن على بن عمر بن على بن الحسين العلوى ، فسجنه فى أزج اتخذه فى بستان بمدينة سر من رأى ، ثم دس اليه السم فمات (٣) ، وإن كان فريق من الزيدية اعتقدوا أنه لم يمت وأنه مهدى هذه الأمة (٤) .

وكان المعتصم شجاعا قويا من أشد الناس بطشا (٥) ، وكان قائدا موفقا فى حروبه ، حتى لقد استحق لقب الخليفة القائد ، وهو أول من أدخل الأتراك فى الديوان ، وكان يتشبه بملوك الاعاجم ، ويمشى مشيتهم (٦) ، واعتمد المعتصم على

---

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤٤٥

(٢) المسعودى ، ج ٣ ص ٤٦٤

(٣) نفس المصدر ، ص ٤٦٥

(٤) نفس المصدر

(٥) المسعودى ، ج ٣ ص ٤٦٠ — السيوطى ، ص ٣١٠

(٦) نفس المصدر

الاتراك اعتمادا كليا فى الجيش (١)، وأسقط العرب من ديوان العطاء، وأهل الفرس، فقويت شوكة الاتراك، وارتكبوا الكثير من أعمال الشغب ببغداد، مما أثار عليهم العامة (٢)، فاضطر المعتصم إلى تاسيس مدينة تتسع لجنده الاتراك، فأسس مدينة سامرا فى سنة ٢٢١ هـ (٢)، وانتهى من بنائها فى ٢٢٣ هـ، وأقام فيها مسجدا جامعا، وأفرد سوقا لأرباب الحرف والصناعات، ونقل اليها الأشجار والثمار، واقام القصور العظيمة التى بلغ عددها ١٧ قصرا.

وفى عهد المعتصم ازداد خطر بابك الخرمى الذى لاذ بالأقاليم الجبلية الشمالية الشرقية منذ سنة ٢٢١، ولكن المعتصم وضع كل إمكاناته العسكرية للقضاء عليه، وعهد بهذه المهمة الى قائده الافشين الذى نجح فى القبض عليه، وسيره الى الخليفة بسامرا حيث قتل شر قتلة فى سنة ٢٢٣ هـ (٣).

والمعتصم هو بطل عمورية، ففى عهده ساءت العلاقات بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية، وكان الامبراطور البيزنطى تيوفيل بن ميشيل العمورى يعين بابك الخرمى بمعونات عسكرية انتقاما لما فعله العباسيون زمن المأمون من مساعدتهم لتوماس الصقلبى، فقد أغار البيزنطيون فى سنة ٢٢٣ على مدينة زبطرة وفتحوها بالسيف، ثم أغاروا على ملطية وقتلوا ونهبوا وسبوا،

---

(١) ذكر المسعودى أنه كان يحب جمع الأتراك وشراءهم من أيدى مواليهم، فاجتمع له منهم ٤ آلاف، فألبسهم أنواع الديباج والمناطق المذهبة، وميزهم فى الزى عن سائر جنوده، وكان قد اصطنع قوما من حوف مصر فسماهم المغاربة، واستكثر من الفراغنة والأشروسنية (المسعودى، ج ٣ ص ٤٦٥)

(٢) نفس المصدر، ص ٤٦٦

(٣) راجع التفاصيل فى : اليعقوبى، ج ٢ ص ٤٧٤ — المسعودى، ج ٣ ص ٤٧٠، — ابن الأثير، ج ٦ ص ٤٧٨

فاستنفر المعتصم قواته ، وسار على رأس جيش ضخم يقوده الافشين وأشناس ، وتمكن من هزيمة الامبراطور البيزنطى فى أنقره ، ثم حاصر عمورية ودخلها بالسيف ، وتركها أربعة أيام نهبا للسلب والتدمير ، وأراد المسير الى القسطنطينية ومحاصرتها برا وبحرا ، فبلغه عزم العباس بن المأمون على الخروج عليه ومكاتبة الامبراطور البيزنطى ، فعجل المعتصم فى مسيره ، وقبض على العباس وأنصاره ، وفى منبج منع عنه الماء فمات بها (١) .

وفى أيام المعتصم خرج المازيار بن قارن صاحب جبال طبرستان (وكان على ما يظهر من الخرمية) على المعتصم فى سنة ٢٢٤ هـ ، ويرجع سبب ثورته الى أنه أراد انتزاع الأرض من كبار الملاك العرب وتوزيعها على الفلاحين ، فأغرى الفلاحين بقتل أرباب الضياع (٢) فأمر المعتصم قائده عبد الله بن طاهر بمحاربته ، فسير اليه عبد الله بن طاهر من نيسابور عمه الحسن بن الحسين ، الذى تمكن من أسره ، وحمله الى سامرا سنة ٢٢٥ ، وهناك أقر بأن الأفشين هو الذى حرضه على العصيان لاتفاقهما فى المجوسيه ، فأمر المعتصم بجلده حتى الموت ، ثم صلب الى جانب بابك . أما الافشين فقد مات فى الحبس ، ثم أخرج من سجنه ميتا فصلب بباب العامة بسامرا (٣) .

وفى أيام المعتصم أيضا خرج أبو حرب المبرقع اليمانى بفلسطين سنة ٢٢٦ ، ويرجع السبب فى ثورته الى أن بعض الجند اعتدوا على احدى نسائه بالسوط فاصابها إصابة دامية ، فغضب وقتل الجندى ثم هرب ، وألبس وجهه برقعا ، ودعا

---

(١) اليعقوبى ، ج ٢ ص ٤٧٦ — ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤٩١ — ٤٩٢

(٢) الدورى ، العصر العباسى الأول ، ص ٢٤٢

(٣) المسعودى ، ج ٣ ص ٤٧٤ — ابن الأثير ، ص ٥١٠ ، ٥١٨

الى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وزعم أنه أموى ، فسمى بالسفيانى ، فلما كثر أتباعه وانضم اليه جمع من رؤساء اليمنية ، خاف المعتصم أن يستفحل أمره ، فسير اليه رجاء بن أيوب الحضارى فى نحو ١٠٠ ألف مقاتل ، فرآه رجاء فى حشود هائلة ، فكره مواقعته ، وعسكر تجاهه ، وكان الوقت أوان الزراعة ، فانصرف من كان مع المبرقع الى عملهم، وبقى فى نحو ألف أو ألفين .

وتوفى المعتصم فى هذه الأثناء وولى الواثق ، واتفق أن ثار القيسية بدمشق أيضا ، فأمر الواثق القائد رجاء بالشروع فى إخماد فتنة دمشق والعودة بعد ذلك الى المبرقع، ولكن المبرقع وقع أسيرا فى يد رجاء، فأرسل الى سامرا (١) .

٩ — الواثق بالله : ٢٢٧ — ٢٣٢ (٨٤٢ — ٨٤٧ م)

هو أبو جعفر الواثق بالله هارون بن المعتصم ، وأمه أم ولد رومية اسمها قراطيس ، وكان الواثق يشارك أباه المعتصم فى ميوله وآرائه الفلسفية ، فتشدد مع الفقهاء ، وألزمهم باعتناق آرائه ، وانتصر للمعتزلة ، وقد أثار بهذه السياسة مشاعر أهل بغداد ، فسخطوا عليه ، وأنكروا القول بخلق القرآن ، وتزعم هذه الحركة أحمد بن نصر الخزاعى فى سنة ٢٣١ ، ولكن الواثق توصل إلى القبض على زعماء الحركة، وجلس لهم مجلسا عاما فيه أحمد بن أبى دؤاد قاضى القضاة ، وناظر أحمد بن نصر فى مشكلة خلق القرآن . فأنكر عليه ابن نصر ذلك ، فقام إلى سيف يقال له الصمصامة وضربه على رقبته ثم طعنه بطرف سيفه فى بطنه ، وأمر بصلب رأسه عند باب الخرمى ببغداد (٢) .

وبوفاة الواثق فى سنة ٢٣٢ ينتهى خلفاء العصر العباسى الأول .

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٥٢٢ — ٥٢٣

(٢) ابن الأثير ، ج ٧ ص ٢٢ — السيوطى ، ص ٣١٥

الفصل الثالث

السياسة الداخلية

(١)

سياسة خلفاء العصر العباسى الاول مع الامويين والعلويين والفرس

أ — مع الامويين :

لم تضع معركة الزاب حداً لمقاومة الامويين ، فقد أعلن أنصار الأمويين الثورة على العباسيين فى حمص وقنسرين والجزيرة وحوران ، واتخذ الثوار الأعلام البيض شعاراً لهم ، ولكن أبا العباس تمكن من إخماد هذه الثورات بالقوة حيناً وبالتسوية السلمية (الوعود والأموال) حيناً آخر ، واضطر أبو العباس إلى تسوير أخيه أبى جعفر المنصور لمساعدة الحسن بن قحطبة فى حصاره لابن هبيرة فى واسط ، فاستمر العباسيون يحاصرون هذه المدينة نحوا من ١١ شهراً لاقوا خلالها مقاومة عنيفة من ابن هبيرة وقواته ، وحاول العباسيون حرق واسط عن طريق سفن ملأوها حطباً وأضرموا فيها النار ثم وجهوها إلى المدينة لتحرق ما يقابلها ، ولكن ابن هبيرة كان يبادر بسحب هذه السفن بواسطة حراقات مزودة بكلاليب (١) ، تجر تلك السفن ، ثم عمد أبو العباس إلى التفريق بين قوات ابن هبيرة ، ونجح فى تحقيق هذا الهدف ، فأبت اليمنية أن تقاتل ، لتعين مروان بن محمد ، وقالوا « لا نعين مروان وآثاره فينا ظاهرة » ، بينما

---

(١) الطبرى ، ج ٩ ، طبعة دار القاموس الحديث ، ١٤٤

ورفضت النزارية أن تقاتل حتى يقاتل معها اليمنية ، ثم أن أبا العباس أخذ يكاتب اليمنية من أتباع ابن هبيرة ، ويطمعهم بالوعود ، فأجابه اليمنية وعلى رأسهم زياد بن صالح الحارثى عامل ابن هبيرة السابق على الكوفة وأقرب أصحابه اليه ، وعلى هذا النحو خذل اليمنية ابن هبيرة ، وتخلى النزارية عنه ، ولم يبق معه سوى الصعاليك والفتيان(١).

ولم يجد ابن هبيرة بدا من فتح باب التفاوض مع العباسيين ، خاصة وقد وصلته الأنباء بمصرع مروان بن محمد ، فطلب الصلح مع الأمان ، فأجيب إلى طلبه ، وكتب له كتاب أمان شرط له فيه ما سأل ، وختمه أبو العباس (٢) .

ولكن العباسيين لم يفوا بعهدهم له ، فقد وقع فى يد أبى العباس كتب لابن هبيرة إلى محمد بن عبد الله بن حسن يبايع له فيها ويعلن له أن لديه أموالا وعدة وسلاحا ، وأن معه عشرين ألف رجل ، فكتب أبو العباس إلى أبى جعفر المنصور يأمره بضرب عنق ابن هبيرة . كما كتب أبو مسلم الخراسانى يحرض المنصور على قتله ، وينصحه بأن يتخلص منه لأن أمر العباسيين لا يستقيم ما دام ابن هبيرة حيا ، فوجه المنصور لقتله رجلا مضريا يقال له خازم بن خزيمة التميمى ، أتاه فى جماعة وهو جالس فى رحبة القصر بواسط ، فقتلوه ، وقتلوا قواده وأصحابه عن آخرهم (٣) .

وبذلك تخلص أبو العباس من خطر الأمويين العسكرى ، ولكن بقى عليه أن يتخلص من بقايا البيت الأموى ، ليتحقق له بذلك القضاء على كل نفوذ لهذا البيت بين أنصاره والمتعصبين له ، فلا يفكر هؤلاء الأنصار فى البحث عن

---

(١) المصدر السابق

(٢) اليعقوبى ، ج ٢ ص ٣٥٣

(٣) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٥٤

أمير أموي يستعيد سلطان الأمويين من جهة ، وليشبع انتقامه الشخصي منهم لما فعلوه ببني هاشم عامة من قتل وسجن وتعذيب وتشريد .

وتنفيذا لهذا المبدأ، تتبع العباسيون بقيادة عبد الله بن علي العباسي مروان ابن محمد بالشام حتى فر إلى مصر ، مارا بالأردن وفلسطين ، وكان عبد الله بن علي قد وجه وهو على نهر أبي فطرس بفلسطين صالح بن علي في طلب مروان ، فسار صالح إلى الرملة ومنها إلى ساحل البحر حيث جمع السفن « وتجهز يريد مروان وهو بالفرماء ، فسار على الساحل والسفن حذاءه في البحر حتى نزل العريش » ، ولكن مروان فر منها إلى الفسطاط ثم عبر النيل وقطع الجسر ، ومضى صالح يتتبعه من موضع إلى آخر حتى أحاط به في كنيسة نزل بها في أبي صير ، فقتلوه ، واحتزوا رأسه، وبعث بها صالح بن علي إلى أبي العباس (١) . ولما وصل رأس مروان إلى أبي العباس — وكان بالكوفة — ورآه ، سجد ثم رفع رأسه وقال : « الحمد لله الذي أظهرني عليك وأظفرني بك ولم يبق ثأري قبلك وقبل رهطك أعداء الدين ، وتمثل :

لو يشربون دمي لم يرو شاربهم .·. ولا دماؤهم للغيظ ترويني (٢)

فطلب الثأر من البيت الأموي كان هدفا من أهداف العباسيين ، بدليل ما رواه المسعودي إذ يقول ، عندما تعرض لذكر مصرع مروان بن محمد : « فلحقوه بمصر وقد نزل بوصير ، فبايتوه ، وهجموا على عسكره ، وضربوا

---

(١) الطبري ، ج ٩ ص ١٣٦ ـ ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٢٧

(٢) ابن الأثير ، ص ٤٢٧ .

بالطبول ، وكبروا ، ونادوا : ياالثارات ابراهيم ،(١) . وذكر أيضا أنه لما أتاه رأس مروان، ووضع بين يديه ،سجد وأطالالسجود، ثم حمد الله، ثمقال : « ما أبالى متى طرقنى الموت ، فقد قتلت بالحسين وبنى أبيه من بنى أمية مائتين ، وأحرقت شلو هشام بابن عمى زيد بن على ، وقتلت مروان بأخى ابراهيم »(٢) .

ومثل آخر استدل منه على هدف آخر من أهداف العباسيين ،وهو القضاء على بنىأمية ،واستئصال شأفتهم، حتى يفقد أنصارهم كل أمل فى إحياء دولتهم . فقد كان سليمان بن هشام بن عبد الملك قد استأمن الى أبى العباس ، « فقدم معه بابنين له ، فأكرمه أبو العباس وبره وأجلسه وابنيه على النمارق والكراسى، فكان أبو العباس يجلس بالعشيات ويأذن لخواصه وأهل بيته ، فدخل عليه أبو الجهم ليلة وقد أذن لأهله وخواصه ، فقال له : « إن أعرابيا أقبل يوضع على ناقة ، حتى أناخها بالباب وعقلها ، ثم جاء بى وقال : استأذن لى على أمير المؤمنين ، فقلت : اذهب وضع عنك ثياب سفرك ، وعد على ، سأستأذن عليه ، فقال : إنى آليت ألا أضع عنى ثوبا ، ولا احل لثاما ، حتى أنظر الى وجهه، قال (ابو العباس) : فهل أنبأك من هو ؟ قال : نعم زعم أنه سديف مولاك ، فقال : سديف ؟ ائذن له . فدخل أعرابى كأنه محجن ، فوقف ، فسلم عليه بإمرة المؤمنين ، ثم تقدم فقبل بين يديه ورجليه ، ثم تأخر ، فوقف مثله ، ثم اندفع فقال :

---

(١) المسعودى ، ج ٣ ص ٢٤٦

(٢) نفس المصدر ،ص ٢٥٧

أصبح الملك ثابت الأساس   بالبهاليل من بنى العباس
يا أمير المطهرين من الرجس   ويا رأس منتهى كل رأس
أنت مهدى هاشم وهداها   كم أناس رجوك بعد أياس
لاتقيلن عبد شمس عثارا   واقطعن كل رقلة وغراس
أفنها أيها الخليفة واحسم   عنك بالسيف شأفة الارجاس
انزلوها بحيث أنزلها الله بدار الهوان والإتعاس
ولقد ساءنى وساء قبيلى   قربهم من نمارق وكراسى .

فأمر أبو العباس أبا الجهم باخراجهم وضرب أعناقهم ، ففعل ، وأتاه برؤوسهم (١) . وقد تتبع عبد الله بن على العباسى بالشام بقايا البيت الاموى رجالا وأطفالا بالقتل تمهيداً للقضاء عليهم وتصفية البيت الأموى من أمرائه الاحياء ، بل أمر أبو العباس بتعقب هؤلاء الامراء حيث كانوا ، وقتلهم أينما وجدوا ، وقد أمر بقطع يدى أبان بن معاوية بن هشام ورجليه ، ثم طيف به فى كور الشام ينادى على رأسه : «هذا أبان بن معاوية فارس بنى أمية » ، حتى

---

(١) اليعقوبى ، ج ٢ ص ٣٦٠

وروى ابن الأثير هذا الخبر مع تعديل طفيف فى الابيات الشعرية ، فذكر أن سديف دخل على السفاح وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك وقد أكرمه ، فقال سديف :

لايغرنك ما ترى من الرجال .·. إن تحت الضلوع داء دويا
فضع السيف وارفع السوط حتى .·. لاترى فوق ظهرها أمويا

فقال سليمان قتلتنى ياشيخ ، فدخل السفاح ، وأخذ سليمان فقتل . (ابن الأثير ج ٥ ص ٤٢٩) . أما الأبيات المذكورة بالمتن فينسبها ابن الأثير الى شبل بن عبد الله (مولى بنى هاشم) ألقاها على عبد الله بن على وعنده من بنى أمية نحو تسعين رجلا على الطعام ، فانشده شبل الأبيات المذكورة ، فأمر بهم عبد الله فضربوا بالعمد حتى قتلوا . (نفس المصدر ، ص ٤٣٠) .

مات ، كذلك قتلوا النساء والصبيان ، فذبحوا عبدة بنت هشام بن عبد الملك ذبحا (١) وقتل سليمان بن على بالبصرة جماعة من بنى أمية ، وأمر بهم فسحلوا ، كما قتل يحيى بن محمد العباسى أعداداً كبيرة من أهل الموصل (٢) ، ولهذا تفرق بنو أمية فى الآفاق للنجاة بأرواحهم من بطش العباسيين بهم ، وكان فيمن فر منهم عبد الواحد بن سليمان ، والغمر بن يزيد ، وعمرو بن معاوية عمرو بن سفيان بن عتبة ابن أبى سفيان . فعمد بنو العباس إلى التظاهر بالأسف والندم على ما اقترفوه من آثام فى حق بنى أمية ، وبسطوا أمانا لأمراء بنى أمية حتى يجمعوهم ثم يضربوا رقابهم جميعا ، فيقضوا عليهم بذلك دفعة واحــدة ، فوزع عبد الله بن على المنشورات فى كور الشام ، بأن « أمير المؤمنين قد ندم على ما كان فى بنى أميــة وأحب البقاء ، وقد أمرنى بتأمينهم ، فقد أمنتهم ، فلا أعلمن أحدا يعرض لهم بمكروه (٣)، فاستأمن الخليفة السفاح بذلك بضعا وسبعين رجلا، وقيل ، ثمانين ، منهم عبد الواحد بن سليمان والغمر بن يزيد والأصبغ بن محمد بن سعيد . وعلى هذا النحو أخذ العباسيون كلمــا أتاهم أموى قربوه وأنزلوه معسكر صالح بن على بالقرب من نهر أبى فطرس بفلسطين ، وأعطوه العهود والمواثيق ، وتسامع بذلك امراء بنى أمية الفارين فى أنحاء الأرض — وكانوا قد ملوا حياة التشرد وأمضهم تعب التنقل فى ظل الخوف — فتداعوا من كل فج أمــــلا فى الظفر بالأمان ، ولكن نفرا مع أمراء بنى أمية — أكثر حذرا — تشككوا فى هــذا الأمان ، فــلم يضطربوا مع من اضطرب فى المعسكر من بنى أمية ، ولم يتعجلوا

---

(١) أخبار مجموعة فى فتح الأندلس ، مدريد ، ١٨٦٧ ص ٤٧ .

(٢) وسبب ذلك ماظهر منهم من محبة بنى أمية وكراهة بنى العبــاس . (ابن الأثــير ج ٥ ص ٤٤٤) .

(٣) أخبار مجموعة ، ص ٤٧

الذهاب طلبا للأمان ، وآثروا الانتظار وترقب الأحداث على مقربة من نهر أبى فطرس ، فاذا ما حصل الجميع على الامان أمكنهم ان يقدموا أنفسهم، ومن هؤلاء الأمير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ، الذى قدر له أن يحيى دولة بنى أمية فى الأندلس (١) . فلما اكتمل بنو أمية فى معسكر عبد الله بن على أمر بهم فقتلوا، وكان فيمن قتل : محمد بن عبد الملك بن مروان ، والغمر بن يزيد بن عبد الملك، وعبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك، وسعيد بن عبد الملك ، وأبو عبيدة ابن الوليد بن عبد الملك ، فلما فرغ منهم قال :

بنى أمية قد أفنيت جمعكم .·. فكيف لى منكم بالأول الماضى
يطيب النفس أن النار تجمعكم .·. عوضتم من لظاها شر معتاض
منيتم ، لا أقال الله عثرتكم .·. بليث غاب إلى الأعداء نهاض
إن كان غيظى لفوت منكم فلقد .·. منيت منكم بما ربى به راض (٢)

وفى الحجاز قتل داود بن على العباسى من ظفر بهم من بنى أمية بمكة والمدينة (٣) . وواصل بنو العباس بعد السفاح سياستهم الإنتقامية مع الأمويين، حتى فى عهد المأمون نفسه، فقد أمر سنة ٢١٢ بلعن معاوية على منابر بغداد ، وأعد الكتب الى الحواضر الإسلامية يأمر فيها عماله بذلك ، فأعظم الناس ذلك وأكبروه ، واضطربت العامة ، فأشير عليه بترك ذلك ، فأعرض عما كان

---

(١) عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، ص ١٧٤ ومايليها .
(٢) ابن الأثير، ج ٥ ص ٤٣١ .
(٣) نفس المصدر ، ج ٥ ص ٤٢٨ . وذكر اليعقوبى أنه أوثق جماعة منهم فى الحديد ووجههم الى الطائف حيث قتلهم (ج ٢ ص ٣٥٢) .

هم به(١)، ويأتى المسعودى برواية تعبر عن كراهية العباسيين للأمويين وارتياحهم بالتخلص منهم ، فقد ذكر أن ابن دأب (٢) قال : « دعانى الهادى فى وقت من الليل لم تجر العادة أنه يدعونى فى مثله ، فدخلت إليه ، فاذا هو جالس فى بيت صغير شتوى وقدامه دفتر صغير ينظر فيه ، فقال لى : يا عيسى ، قلت : لبيك يا أمير المؤمنين . قال : إنى أرقت فى هذه الليلة ، وتداعت إلى الخواطر ، واشتملت على الهموم ، وهاج لى ماجرت اليه بنو أمية من بنى حرب وبنى مروان فى سفك دمائنا ، فقلت : ياأمير المؤمنين ، هذا عبد الله بن على قد قتل منهم على نهر أبى فطرس فلانا وفلانا حتى أتيت على تسمية أكثر من قتل منهم ، وهذا عبد الصمد بن على قـــد قتل منهم بالحجاز فى وقت واحد نحو ما قتـل عبد الله بن على ، وهو القائل بعد سفكه دماءهم :

ولقـد شفى نفسى وأبرأ سقمها .·. أخذى بثأرى من بنى مروان
ومن آل حرب، ليت شيخى شاهد .·. سفكى دماء بنى أبى سفيان

قال ابن دأب : فسر والله الهادى ، وظهرت منه أريحية ، فقال : ياعيسى ! داود بن على هو القائل ذلك ، والقاتل لمن ذكرت بالحجاز ، ولقد أذكرتنيها حتى كأنى ما سمعتها . قلت : يا أمير المؤمنين ، وقد قيل أنها لعبد الله بن على، قالها على نهر أبى فطرس . قال : قد قيل ذلك» (٣) .

---

(١) المسعودى ، ج ٣ ص ٤٠٤ وما يليها .

(٢) هو عيسى بن دأب من أهـل الحجاز ، وكان أكثر أهـل عصره أدبا وعلما ومعرفة بأخبار الناس وأيامهم ، وكان الهادى يدعوه لمسامرته ، فيدعو له متكأ ، ولم يكن غيره يطمع منه فى ذلك (المسعودى ، ج ٣ ص ٣٢٥) .

(٣) المسعودى ، ج ٣ ص ٣٢٩

ب — مع العلويين :

كانت الدعوة العباسية منذ البداية تستغل اسم الرضا من آل محمد (أى بيت الرسول) لكسب الأنصار والمؤيدين ، واصطنعت السرية التامة فى الإفصاح عن اسم الإمام حتى لا يحس الشيعة العلويون بخروج الأمر من أئمتهم . ثم حدث أن اكتشف مروان بن محمد اسم الامام المنظم للدعوة ، وهو إبراهيم ابن محمد وأمر بالقبض عليه ، فأدرك الإمام قرب نهايته، وأوصى إلى أخيه أبى العباس وطلب اليه أن يرحل مع ذويه إلى الكوفة ، حدث بعد ذلك كله أن أبا سلمة الخلال — القائم بالدعوة فى العراق — أنكر عليهم الحضور إلى الكوفة ، وقال : « خاطروا بأنفسهم وعجلوا » ، ثم أذن لهم بدخول الكوفة على كره منه (١) ، وأنزلهم فى دار الوليد بن سعد مولى بنى هاشم فى بنى أود ، وكتم أمرهم، فلم يطلع على خبرهم أحد (٢) نحوا من أربعين يوما ، وقيل شهرين، عمل خلالها أبو سلمة الخلال على تحويل الامر إلى آل أبى طالب ، وأخفى خبر إمامة أبى العباس عن جميع القواد والشيعة العباسيين ، فلما سأله أبو الجهم بن عطية ، أحد كبار رجال الدعوة : « ما فعل الإمام ؟ قال : لم يقدم بعد ، فألح عليه ، فقال ليس هذا وقت خروجه لان واسطا لم تفتتح بعد » . وكان أبو سلمة إذا سئل عن الإمام يقول : لا تعجلوا (٣) .

وفى أثناء ذلك بعث أبو سلمة بمحمد بن عبد الرحمن بن أسلم ، وكتب

(١) الجهشيارى ، الوزراء والكتاب ، القاهرة ١٩٣٨ ص ٨٥ وما يليها .
(٢) اليعقوبى ، ج٢ ص ٣٤٥ — ابن الأثير ج٥ ص ٤٠٩ — ابن طباطبا ، ص ١٣٠
(٣) الطبرى ، ج ٩ ص ١٢٥ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤١٠

معه كتابين (١) على نسخة واحدة إلى أبى عبد الله جعفر بن محمد بن على بن الحسن بن على، وإلى أبى محمـــد عبد الله المحض بن الحسن بن الحسين بن على يدعو كلا منهما إلى الشخوص اليه ليصرف الدعوة اليه ، ويجتهد فى بيعة أهل خراسان له ، وطلب أبو سلمة من مبعوثه أن يسرع قبل أن يفتضح الأمر، وقال له : « العجل العجل ، فلا تكونن كوافد عاد (٢) » . فقدم محمد بن عبد الرحمن على أبى عبد الله جعفر فى المدينة ودفع اليـــه كتابه ، فأحرقه الإمام جعفر ، وكتب إلى أبى سلمة « لست بصاحبكم ، فإن صاحبكم بأرض الشراة (٣) » . ثم مضى المبعوث إلى عبد الله بن الحسن ، فدفع اليه الكتاب فقبله وقرأه وابتهج به ، وحادث الإمام جعفر الصادق فيه ، فنصحه بألا ينخدع بالمظاهر لأن الشيعة العلويين ليسوا طرفا فى هذه الدعوة ولا يعرفون عن أسرارها شيئا ، فنازعه عبد الله القول حتى قال له : « والله ما يمنعك من ذلك الا الحسد » فقال أبو عبد الله جعفر : « والله ما هذا إلا نصح منى لك ، ولقد كتب إلى أبو سلمة بمثل ما كتب به اليك فلم يجد رسوله عندى ما وجد عندك ، ولقـــد أحرقت كتابه من قبل أن أقرأه (٤) » . فانصرف عبد الله من عند الإمام جعفر مغضباً ، ولم ينصرف رسول أبى سلمة اليه إلى أن بويع السفاح بالخلافة ، وعلم بنوايا أبى سلمة فقتله . ويرجع السبب فى فشل خطة أبى سلمة إلى الظروف

---

(١) وذكر ابن طباطبا أنه كتب الى ثلاثة من أئمة الشيعة والثالث هو عمر الأشرف ابن زين العابدين ، وأوصى رسوله ألا يمضى الى هذا الامام الا اذا لم يجب عبد الله المحض (ابن طباطبا ، ص ١٣٧) .

(٢) المسعودى ج ٣ ص ٢٥٤

(٣) اليعقوبى ، ج ٢ ص ٢٤٩

(٤) المسعودى ، ج ٣ ص ٢٥٥ ـ ابن طباطبا ، ص ١٣٨

وحدها ، فقد حدث أن أبا سلمة أقام ينتظر انصراف رسوله اليه ، فدخل أبو حميد محمد بن ابراهيم الحميرى ذات يوم إلى الكوفة، فلقى سابقا الخوارزمى غلام أبى العباس ، فسأله عن ابراهيم الإمام ، فقال : « قتله مروان فى الحبس، وكان مروان يومئذ بحران ، فقال أبو حميد : فإلى من الوصية ؟ قال : إلى أخيه أبى العباس . قال : وأين هو ؟ قال : معك بالكوفة هو وأخوه وجماعة من عمومته وأهل بيته . قال : مذ متى هم هنا ؟ قال : من شهرين »(١) . فطلب منه أبو حميد أن يأخذه اليه ، فواعده على اليوم التالى ، فانصرف أبو حميد وأخبر جماعة من قواد خراسان فى عساكر أبى سلمة بذلك ، منهم أبو الجهم بن عطية وموسى بن كعب ، وأبو غانم عبد الحميد بن ربعى، وسلمة بن محمد ، وأبو شراحيل ، وعبد الله بن بسام ، واتفق معهم أبو حميد على مقابلة أبى العباس ومبايعته ، فمضوا فى اليوم التالى سرا ودخلوا على أبى العباس ، فسلموا عليه بالخلافة ، وألبسه أبو حميد السواد وأخرجه الى المسجد الجامع ، وبلغ الخبر أبا سلمة ، فأقبل يركض حتى لحقهم ، فقال : « إنى انما كنت أدبر استقامة الأمر والا فلا أعمل شيئا فيه »(٢) وذكر الطبرى أن أبا سلمة عندما سأله أبو الجهم عن الإمام أجاب « ليس هذا وقت خروجه لان واسطا لم تفتح بعد»(٣) وظل يخفى وجوده بالكوفة عن عسكره وقواده حتى تم اكتشاف موضع أبى العباس على النحو الذى اشرنا اليه .

ثم بويع لأبى العباس فى جامع الكوفة فى اليوم التالى فى ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٢ هـ ، وخطب خطبة أكملها عمه داود بن على بقوله :

---

(١) المسعودى ، ج ٣ ، ص ٢٢٥

(٢) اليعقوبى ، ج ٢ ص ٣٥٠ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤١١

(٣) الطبرى ، ج ٩ ص ١٢٥

« أيها الناس إنا والله ما خرجنا فى طلب هذا الأمر لنكثر لجيناً ولا عقيانا ولا نحفر نهرا ولا نبنى قصرا ، وإنما أخرجنا الأنفة من ابتزازهم حقنا، والغضب لبنى عمنا ، وما كرثنا من أموركم وبهظنا من شؤونكم ، ولقد كانت أموركم ترمضنا ونحن على فرشنا ، ويشتد علينا سوء سيرة بنى أمية فيكم ، وخرقهم بكم واستذلالهم لكم واستئثارهم بفيئكم وصدقاتكم ومغانمكم عليكم ، لكم ذمة الله تبارك وتعالى، وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم، وذمة العباس رحمه الله ، أن نحكم فيكم بما أنزل الله ، ونعمل فيكم بكتاب الله ، ونسير فى العامة منكم والخاصة بسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تبا تبا لبنى حرب بن أمية وبنى مروان ، آثروا فى مدتهم وعصرهم العاجلة على الآجلة ، والدار الفانية على الدار الباقية ، فركبوا الآثام وظلموا الأنام ، وانتهكوا المحارم ، وغشوا الجرائم ، وجاروا فى سيرتهم فى العباد ، وسنتهم فى البلاد التى بهـــا استلذوا تسربل الأوزار ، وتجلبب الآصار ، ومرحوا فى أعنة المعاصى ، وركضوا فى ميادين الغى ، جهلا باستدراج الله ، وأمنا لمكر الله ، فأتاهم بأس الله بياتا وهم نائمون ، فاصبحوا أحاديث ، ومزقوا كل ممزق ، فبعدا للقوم الظالمين ، وأدالنا الله من مروان وقد غره بالله الغرور . . . . .

يا أهل الكوفة : « إنا والله ما زلنا مظلومين مقهورين على حقنا حتى أتاح الله لنا شيعتنا أهل خراسان فأحيا بهم حقنا ، وأفلج بهم حجتنا ، وأظهر بهم دولتنا ، وأراكم الله ما كنتم به تنتظرون وإليه تتشوفون ، فأظهر فيكم الخليفة من هاشم ، وبيض به وجوهكم ، وأدالكم عن أهل الشام ، ونقل إليكم السلطان وعز الإسلام . . . واعلموا أن هذا الأمر فينا ليس بخارج منا حتى نسلمه

إلى عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم والحمد لله رب العالمين .(١) .

وهكذا رسم العباسيون فى هذه الخطبة سياستهم الجديدة التى وعدوا الناس بتطبيقها عليهم ، ولكنهم لم يوفقـــوا فى تنفيذها ، كما كشف عبد الله بن على بخطبته أن الأمر سيظل فى بيت هاشم لا يخرج منهم حتى يوم القيامة . ولـكن اتضح للعلويين فيما بعد أن العباسيين خدعوهم واستأثروا بالخلافة دونهم ، فقد كان الظن أن يلى الخلافة بعد السفاح إمام من العلويين ، ولكن العباسيين جعلوا الخلافة وراثية فى ذريتهم ، ولهـــذا السبب بدأت حركات العلويين تظهـر منذ خلافة المنصور بعد أن اتضح لهم أن العباسيين أقصوهم نهائيا عن الخلافة منذ أيام السفاح الذى عمد إلى قتل أبى سلمة الخلال بحكم أنه نكث وغير وبدل(٢). بمحاولته نقل الخلافة الى بنى على .

وكان الحسنيون أول من طالبوا من العلويين بحقهـم فى الخلافة وذلك فى زمن المنصور وأدرك أبو جعفر المنصور أن هؤلاء الحسنيين يشكلون خطـراً كبيراً على دولته لا سيما وأن محمد النفس الزكية وأخاه ابراهيم تخلفا عن مبايعة أبى العباس من قبل ، وأن أبا سلمة الخلال حاول نقـل الخلافة اليهم (٣) . وأن بنى الحسن أشاعوا أن بنى هاشـــم وفيهم ابراهيم الإمام والسفاح والمنصور وصالح بن على ، اجتمعوا بالأبواء من طـريق مكة وذلك عندما اضطربت

---

(١) الطبرى ، ج ٩ ص ١٢٧ – ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤١٤ ، ٤١٥
(٢) المسعودى ، ج ٣ ص ٢٧٠
(٣) عبد العزيز الدورى ، العصر العباسى الأول ، ص ٦٩

أحوال الدولة الأموية وأجمعوا على مبايعة محمد النفس الزكية (١) ، وأن عبد

---

(١) الاصفهانى ، مقاتل الطالبيين ، ص ١٥١ ـ ١٥٢ ، ١٧٣ — ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٩٠ ـ ابن طباطبا ، ص ١٩٠ ، ١٩١ . وفى ذلك يقول الأصفهانى : « اخبرنى عيسى بن الحسين قال : حدثنا الخراز قال : حدثنى المدائنى عن سحيم بن حفص : أن نفرا من بنى هاشم اجتمعوا بالأبواء من طريق مكة ، فيهم أبراهيم الامام والسفاح والمنصور وصالح بن على وعبد الله بن الحسن وابناه محمد وابراهيم ، ومحمد بن عبد الله بن عمرو ابن عثمان ، فقال لهم صالح بن على : انكم القوم الذين تمتد أعين الناس اليهم ، فقد جمعكم الله فى هذا الموضع ، فاجتمعوا على بيعة أحدكم ، فتفرقوا فى الآفاق ، وادعوا الله لعل الله أن يفتح عليكم وينصركم. فقال أبوجعفر : لأى شىء تخدعون أنفسكم ،والله لقد علمتم ما الناس الى أحد أميل أعناقا ولا أسرع اجابة منهم الى هذا الفتى ـ يعنى محمد بن عبد الله ـ قالوا : قد والله صدقت، انا لنعلم هذا ، فبايعوا جميعا محمدا، وبايعه أبراهيم الامام والسفاح والمنصور وسائر من حضر ، فذلك الذى أغرى القوم لمحمد بالبيعه التى كانت فى أعناقهم ». وذكر الأصفهانى أيضا أن ابا جعفر المنصور لما ولى الخلافة جد فى طلب محمد بن عبد الله ابن الحسن (ص ١٩٠ ، ١٩١) ، وفى موضع آخر اشار الى أنه لما ظهرت دولة بنى العباس ، « حرص السفاح والمنصور على الظفر بمحمد وابراهيم لما فى أعناقهم من البيعة لمحمد ، وتواريا ، فلم يزالا ينتقلان فى الاستتار ،والطلب يزعجهما من ناحية الى أخرى حتى ظهرا فقتلا » (ص ١٧٣) . وذكر فى موضع آخر نقلا عن عبد الاعلى بن أعين أن عبد الله ابن الحسن قال للمجتمعين من بنى هاشم (يوم الاجتماع) « لا ترسلوا الى جعفر فانه يفسد عليكم (يعنى به جعفر الصادق) فأبوا . قال : فأتاهم وأنا معهم ، فأوسع له عبد الله الى جانبه وقال : قد علمت ما صنع بنا بنو أمية وقد رأينا أن نبايع هذا الفتى (يعنى ابنه محمدا) فقال : لا تفعلوا : « فان الأمر لم يأت بعد . فغضب عبد الله وقال : لقد علمت خلاف ما تقول ولكنه يحملك على ذلك الحسد لابنى» . . . فقال جعفر : « انها والله ما هى اليك ولا الى ابنيك ، ولكنها لهؤلاء (يقصد السفاح والمنصور) وان ابنيك لمقتولان» . فتفرق المجلس ولم يجتمعوا بعدها». فلما ولى أبو جعفر المنصور الخلافة سمى الصادق فبعثت عليه (الاصفهانى ، ص ١٨٩) وقد كرر ابن طباطبا هذا المعنى مؤكدا أن محمد النفس الزكية كانت له فى أعناق العباسيين بيعة له بالخلافة وأن جميع أعيان العباسيين والطالبيين اتفقوا على مبايعته ماعدا الامام جعفر بن محمد الصادق الذى قال لعبد الله المحض والد النفس الزكية: ان ابنك لاينال الخلافة ولن ينالها الا صاحب القباء الأصفر ، وكان يعنى المنصور بذلك إذ كان عليه يومئذ قباء أصفر ، فبايعوا محمد النفس الزكية ، ثم ضرب الدهر ضربه ، وانتقل الملك الى بنى العباس ، وانتقل من السفاح الى المنصور ، فلم يكن له همة سوى طلب النفس الزكية ليقتله أو ليخلعه ، فطلبه =

الله بن الحسن أشاع عن ابنه محمد النفس الزكية أنه المهدى الذى بشر به (١) وصريح قريش . ومما زاد فى تخاوف المنصور أن النفس الزكية كان شخصية محبوبة فى بلاد الحجاز ، وأنه أنفذ دعاته إلى الآفاق ، وبويع له فى كثير من الأمصار (٢) .

وأخذ المنصور يشدد الضغط على محمد النفس الزكية ، فولى رياح بن عثمان على المدينة فى سنة ١٤٤ ، وأوصاه بالتشدد فى طلب النفس الزكية ، فاضطر محمد النفس الزكية الى التعجل بالخروج قبل أن يتم أمر دعاته الذين أنفذهم إلى الآفاق ، وخرج فى أول رجب سنة ١٤٥ ، وقيل فى ٢٨ جمادى الآخرة سنة ١٤٥ ، وأمر بالقبض على رياح ، وأخيه عباس بن عثمان وحبسهما فى دار مروان ، ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال : « أما بعد أيها الناس فانه كان من أمر هذا الطاغية عدو الله أبى جعفر ما لم يخف عليكم من بنائه القبة الخضراء التى بناها معاندا الله فى ملكه، وتصغيرا للكعبة الحرام ، وإنما أخذ الله فرعون حين قال أنا ربكم الأعلى ، وأن أحق الناس بالقيام بهذا الدين أبناء المهاجرين الاولين والانصار المواسين ، اللهم انهم قد أحلوا حرامك ، وحرموا حلالك، وآمنوا من أخفت ، وأخافوا من آمنت ، اللهم فاحصهم عددا واقتلهم بددا ولا تغادر منهم أحدا . ايها الناس ! انى والله ما خرجت من بين أظهركم وأنتم

= المنصور من أبيه عبد الله المحض فألزمه المنصور باحضار ولديه محمد النفس الزكية وابراهيم، فاعتذر لعدم علمه بهما ، ثم قبض عليه سنة ١٤٠ وعلى أهله من بنى الحسن سنة ١٤٤ (ابن طباطبا ، ص ١٤٦ ، ١٤٧) وسجنهم فى قصر ابن هبيرة بشرق الكوفة (الاصفهانى ص ١٥٨ ، ١٦٠) .

(١) الاصفهانى ، ص ١٥١ – ١٥٢ ، ١٧٢ ، ١٧٦ ، ١٧٧ – ١٨١

(٢) المسعودى ، ج ٣ ص ٢٩٤

عندى أهل قوة ولا شدة ، ولكنى اخترتكم لنفسى ، والله ما جئت هذه وفى الارض مصر يعبد الله فيه إلا وقد أخذ لى فيه البيعة (١) »

وكان المنصور قد أدرك ، قبل أن يعلن محمد عن دعوته لنفسه ، نواياه فى ذلك، فعمد إلى إفساد خططه ، فدس له عيونا يكيدون له متظاهرين بأنهم اتباعه بهدف الإطلاع على حقيقة خططه وتمويه الحقائق عليه ، وهم الذين اوحوا اليه بان دعوته قد عمت الاقطار ، وقد أشار النفس الزكية إلى ذلك فى خطبته . ولم يكتف المنصور بذلك بل كان يكتب اليه على ألسنة قواد العباسيين يدعون محمدا النفس الزكية الى الظهور، ويخبرونه بانهم معه ، فكان محمد النفس الزكية يقول : « لو التقينا مال الى القواد كلهم » (٢) . وبدأ المنصور يؤمن ظهره ، منذ اليوم الذى اعتقل فيه عبد الله بن الحسن وآله ، أمام أنصاره الخراسانيين حتى لا يشهد من لديه ميول علوية منهم عليه ، فصعد المنبر بالهاشمية وقال : « يا أهل خراسان ، أنتم شيعتنا وانصارنا واهل دعوتنا ، ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا خيرا منا ، إن ولد بن ابى طالب تركناهم والذى لا إله إلا هو والخلافة فلم نعرض لهم لا بقليل ولا بكثير ، فقام فيها على بن أبى طالب رضى الله عنه ، فما أفلح وحكم الحكمين ، فاختلفت عليه الامة ، وافترقت الكلمة ، ثم وثب عليه شيعته وانصاره وثقاته فقتلوه ، (٣) . وما زال يحدثهم عن العلويين واحدا واحدا وإخفاقهم جميعا فى الظفر بالخلافة حتى انتهى الى زيد بن على وكيف اخرجه اهل الكوفة ثم أسلموه وكيف حذره داود بن على غدر أهل

---

(١) الطبرى ، ج ٩ ص ٢٠٤ ، ٢٠٥

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٥٠

(٣) المسعودى ، ج ٣ ص ٣٠٠

الكوفة فلم يقبل ، فقتل وصلب بالكناسة . ثم قال المنصور : «ثم وثب بنو أمية علينا فابتزونا شرفنا ، وأذهبوا عزنا ، والله ما كان لهم عندنا ترة يطلبونها وما كان ذلك كله إلا فيهم وبسبب خروجهم ، فنفونا عن البلاد ، فصرنا مرة بالطائف ومرة بالشام ومرة بالسراة حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وانصارا ، فأحيا الله شرفنا وعزنا بكم يا أهل خراسان ، ودفع بحقكم أهل الباطل وأظهر لنا حقنا ، وأصار إلينا أمرنا وميراثنا من نبينا صلى الله عليه وسلم ، فقر الحق فى قراره ، وأظهر الله مناره ، وأعز أنصاره ، وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين . فلما استقرت الأمور فينا على قرارها من فضل الله وحكمه العدل وثبوا علينا حسدا منهم لنا وبغيا ، بما فضلنا الله به عليهم ، وأكرمنا من خلافته ميراثنا من نبيه ، وجبنا من بنى أمية ، وجرأة علينا . . . » (١) . وما إن انتهى من هذه المرحلة من الحرب الدعائية ضد الحسنيين حتى بدأ يكاتب محمد النفس الزكية ليستثيره عليه ويدفعه إلى أن يبادره هو - أى محمد - بالحرب فيهدر دمه ، وتبدأ عندئذ المرحلة الثانية من الحرب الدعائية .

ويذكر الطبرى أن أبا جعفر المنصور لما بلغه ظهور محمد بن عبد الله بالمدينة كتب إليه : « بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف . أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم . إلا الذين

---

(١) المسعودى ، ج ٣ ص ٣٠١ .

تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم) ولك على عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم إن تبت ورجعت من قبل أن أقدر عليك ، أن أؤمنك وجميع ولدك وإخوتك وأهل بيتك ومن اتبعكم على دمائكم وأموالكم ، وأسوغك ما أصبت من دم أو مال وأعطيك ألف ألف درهم وما سألت من الحوائج ، وأنزلك من البلاد حيث شئت وأن أطلق من في حبسي من أهل بيتك ، وأن أؤمن كل من جاءك وبايعك واتبعك أو دخل معك في شيء من أمرك ، ثم لا أتبع أحدا منهم بشيء كان منه أبدا . فإن أردت أن تتوثق لنفسك فوجه إلى من أحببت يأخذ لك مني الأمان والعهد والميثاق ما تثق به »(١) .

فكتب إليه محمد بن عبد الله : « بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله المهدى محمد بن عبد الله إلى عبد الله بن محمد (طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلوا عليك من نبإ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين . ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما ما كانوا يحذرون) . وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذي عرضت علي ، فإن الحق حقنا وإنما ادعيتم هذا الأمر بنا وخرجتم له بشيعتنا ، وحظيتم بفضلنا ، وإن أبانا عليا كان الوصي وكان الإمام ، فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء . ثم قد علمت أنه لم يطلب هذا الأمر أحد له مثل نسبنا وشرفنا وحالنا وشرف آبائنا . ولسنا من أبناء اللعناء ولا الطرداء ولا الطلقاء ، وليس يمت أحد من بني هاشم بمثل

(١) الطبرى ، ج ٩ ص ٢١٠ — ابن الأثير ج ٥ ص ٥٣٦ .

الذى نمت به من القرابة والسابقة والفضل . وإنا بنو أم رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة بنت عمرو فى الجاهلية وبنو بنته فاطمة فى الإسلام دونكم ، إن الله اختارنا واختار لنا : فوالدنا من النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن السلف أولهم إسلاما على ، ومن الأزواج أفضلهن خديجة الطاهرة وأول من صلى القبلة ، ومن البنات خيرهن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة ، ومن المولودين فى الإسلام حسن وحسين سيدا شباب أهل الجنة . وأن هاشما ولد عليا مرتين .. ولك على إن دخلت فى طاعتى وأجبت دعوتى أن أؤمنك على نفسك ومالك وعلى كل أمر أحدثته إلا حدا من حدود الله أو حقا لمسلم أو معاهد ، فقد علمت ما يلزمك من ذلك وأنا أولى بالأمر منك وأوفى بالعهد لأنك أعطيتنى من العهد والأمان ما أعطيته رجالا قبلى ، فأى الأمانات تعطينى ؟ أمان ابن هبيرة أم أمان عمك عبد الله بن على أم أمان أبى مسلم ؟ » (١) .

ثم رد أبو جعفر المنصور على كتاب النفس الزكية مفندا حجج الشيعة العلويين التى يستندون عليها فى مطالبتهم بالخلافة ومركزا على أن العم أولى بالإرث من بنت الابن ، وفيما يلى مقتبسات من هذا الكتاب : « أما بعد ، فقد بلغنى كلامك وقرأت كتابك . فإذا جل فخرك بقرابة النساء لتضل به الجفاة والغوغاء ، ولم يجعل الله النساء كالعمومة والآباء ولا كالعصبة الأولياء ، لأن الله جعل العم أبا وبدأ به فى كتابه على الوالدة الدنيا .... ولقد بعث الله محمدا عليه السلام وله عمومة أربعة ، فأنزل الله عز وجل (وأنذر عشيرتك الأقربين) ، فأنذرهم ودعاهم ، فأجاب اثنان أحدهما أبى ، وأبى اثنان أحدهما أبوك فقطع الله ولايتهما منه ولم يجعل بينه وبينهما إلا ولا ذمة ولا ميراثا ، ...

---

(١) الطبرى ، ج ٩ ص ٢١٠ – ٢١١ ؛ ابن الأثير ، ج ٥ ص ٥٣٨ .

وأما قولك إنكم بنو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن الله تعالى يقول فى كتابه : (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم) ولكنكم بنو ابنته ، وإنها القرابة قريبة ولكنها لا تحوز الميراث ولا ترث الولاية ولا تجوز لها الامامة ، فكيف تورث بها ولقد طلبها أبوك بكل وجه فأخرجها نهارا ومرضها سرا ودفنها ليلا ، فأبى الناس إلا الشيخين ، وتفضيلها . ولقد جاءت السنة التى لا اختلاف فيها بين المسلمين أن الجد بالأم والخال والخالة لا يرثون ..... ثم خرجتم على بنى أمية فقتلوكم وصلبوكم على جذوع النخل وأحرقوكم بالنيران ، ونفوكم من البلدان حتى قتل يحيى بن زيد بخراسان وقتلوا رجالكم وأسروا الصبية والنساء وحملوهم بلا وطاء فى المحامل كالسبى المجلوب إلى الشام ، حتى خرجنا عليهم فطلبنا بثأركم ، وأدركنا بدمائكم وأورثناكم أرضهم وديارهم .... »(١) .

والظاهر أن المكاتبات لم تؤد إلى نتيجة ، وعزم أبو جعفر المنصور على إخماد حركة النفس الزكية ، فسير إلى المدينة عيسى بن موسى على رأس أربعة آلاف (٢) ، وقيل خرج من الكوفة فى أربعة آلاف فارس وألفى راجل (٣) ، وأتبعه حميد بن قحطبة فى جيش كثيف ، وأقبل عيسى بن موسى إلى المدينة فنزل قصر سليمان بن عبد الملك فى ١٢ من رمضان سنة ١٤٥ ، ثم عاجل محمدا القتال ولم يشعر أهل المدينة يوم النصف من رمضان إلا بالخيل قد أحاطت بهم حين أسفروا ، واشتد القتال ، وأصيب أنصار محمد بالنشاب فتفرق معظمهم عنه ، فأتى دار مروان فصلى الظهر فيها واغتسل وتحنط ، ثم قاتل فى نفر قليل من

---

(١) الطبرى ، ج ٩ ص ٢١٢ ، ٢١٣ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ٥٣٨ .

(٢) الأصفهانى ، مقاتل الطالبيين ، ص ١٩٧ .

(٣) المسعودى ، ج ٣ ص ٢٩٦ .

أصحابه حتى قتل ، قتله حميد بن قحطبة واحتز رأسه(١) .

وتفرق أخوة محمد النفس الزكية وولده فى البلدان ، فمضى ابنه على بن محمد إلى مصر فقتل بها ، وسار ابنه عبـــد الله إلى خراسان ثم فر منها إلى السند فقتل هناك ، وسار ابنه الحسن إلى اليمن فحبس ومات فى حبسه ، وسار أخوه موسى إلى الجزيرة وأخوه يحيى إلى الرى ثم إلى طبرستان ، وإدريس بن عبدالله إلى المغرب (٢) ، أما إبراهيم بن عبد الله فقد كان قصد الكوفة وهو لا يشك أن أهلها يثبون معه بأبى جعفر ، فلما أصبح بالكوفة لم يجد ناصرا ، وبلغ المنصور خبره فوضع الأرصاد والحرس بكل موضع ، وتحايل على الخروج إلى البصرة وقد بايع أهلها ، فسار فى غرة رمضـــان سنة ١٤٥ واستولى على البصرة ، ووجه المغيرة بن الفزع السعدى إلى الأهواز فتغلب عليه ، ودخل قائده يعقوب ابن الفضل فارس وتمكن هارون بن سعـــد العجلى من الاستيلاء على ما حول واسط ، وتغلب برد بن لبيد اليشكرى على كسكر . ثم خرج فى أول ذى القعدة على رأس جيش كثيف وقد عزم على مقاتلة المنصور ، فسير إليه المنصور عيسى بن موسى فى ١٨ ألفا (٣) ، وزحف إبراهيم حتى أصبح فى موضع يقال له باخمرى ، واشتبك الجيشان واشتد القتـال ، وكادت الدائرة تدور على عيسى بن موسى ، فعمد إلى الحيلة وأرسل سلم بن قتيبة الباهلى على مؤخرة جيش إبراهيم فتوهموا كمينا ، فانهزموا ، وبقى إبراهيم فى ٤٠٠ من الزيدية يقاتل قتال الموت حتى قتل واحتز رأسه ، فوجه به إلى أبى جعفر بالكوفة (٤) .

(١) الأصفهانى ، ص ٢٠٠ ـ ابن الأثير ، ج ٥ ص ٥٤٩ .

(٢) المسعودى ، ج ٣ ص ٢٩٦ .

(٣) وقيل فى ١٥ ألفا (ابن الأثير ج ٥ ص ٥٦٧) .

(٤) اليعقوبى ، ج ٢ ص ٣٧٨ - الأصفهانى ، ص ٢٣٥ وما يليها ـ ابن الأثير ، ج ٥ ص ٥٦٤ .

أما عبد الله بن الحسن والد النفس الزكية وآله الحسنيين، فقد كان المنصور قد سجنهم في الكوفة داخل سرداب تحت الأرض لا يفرقون بين ضياء النهار وسواد الليل ، وظلوا في سجنهم حتى ماتوا (١) ، وقيل إن يعقوب وإسحق ومحمد وإبراهيم بني الحسن قتلوا في الحبس بضروب من القتل ، وأن إبراهيم بن الحسن دفن حيا ، وأن عبد الله بن الحسن طرح عليه بيت (٢) .

ثم قام العلويون (من الفرع الحسني) بثورة ثانية في الحجاز في سنة ١٦٩هـ في زمن الخليفة العباسي الهادي ، وقد اتبع هذا الخليفة مع العلويين سياسة تقوم على العنف بخلاف المهدي الذي حاول استرضاء العلويين (٣) ، فألح الهادي في طلبهم ، وأخافهم خوفا شديدا وقطع ما كان المهدي يجريه لهم من الأرزاق والأعطية ، وكتب إلى الآفاق في طلبهم وحملهم ، (٤) . فلما اشتد خوفهم ، وكثر من يطلبهم ويحث عليهم لاذوا بالحسين بن علي بن الحسن بن الحسن وبايعوه بالإمامة ، ويذكر ابن الأثير أن سبب ظهور الحسين بن علي بالمدينة أن الهادي استعمل على المدينة عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، فلما وليها حمل على الطالبيين وأساء إليهم وأفرط في التحامل على الحسنيين إلى حد أنه اتهم أبا الزفت الحسن بن محمد بن عبد الله بن الحسن ، وسلمه بن جندب

---

(١) المسعودي ، ج ٣ ص ٢٩٨ .

(٢) الأصفهاني ، ص ١٦٩ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ٥٢٧ .

(٣) أخرج المهدي عن سجنائهم وأمر لهم بجوائز وصلات وأرزاق دارة ، ثم أطلق سائر الناس (اليعقوبي ، ج ٢ ص ٣٩٤) والظاهر أنه كان يخشى على نفسه من العلويين الحسنيين فاستوزر يعقوب بن داود وكان يعقوب هذا شيعيا . ولعل المهدي اصطنعه ليستعين به على التفاهم مع بني الحسن (ابن طباطبا ص ١٩٦ — ابن الأثير ، ج ٦ ص ٣٨) .

(٤) اليعقوبي ، ج ٢ ص ٤٠٤ .

الشاعر الهذلى ، وعمر بن سلام على شراب لهم (١) ، فأمر بهم فضربوا جميعا ثمانين سوطا ، وحمل فى أعناقهم حبال وطيف بهم فى المدينة ، فجاء الحسين بن على إلى العمرى وقال له : ولقد ضربتهم ولم يكن لك أن تضربهم لأن أهل العراق لا يرون به بأسا ، فلم تطوف بهم ؟ فأمر بهم فردوا وحبسهم ، ثم تولى الحسين بن على ويحيى بن عبد الله بن الحسن كفالة الحسن بن محمد ، فأخرج من السجن ، على أن يقع تحت المراقبة . وحدث أن غاب يومين ، فأحضر الوالى الحسين بن على ويحيى بن عبد الله ، وأغلظ لهما ، فوعداه بأن يأتيا به ، ثم دخل الحسين بن على المسجد فصلى ودعا إلى نفسه ، فبايعه الناس على كتاب الله وسنة نبيه للمرتضى من آل محمد ، فلما جاء الوالى ومعه خالد البريدى تصدى يحيى بن عبد الله وأخوه إدريس لخالد ، وقتلاه ، وحمل أصحاب الحسين بن على على العمرى فهزموه وانتهبوا بيت المال وامتنعوا فى المدينة ، واشتد القتال فى اليوم التالى بين شيعة بنى العباس وبين أنصار الحسين بن على ، ثم أقام هو وأصحابه أياما يتجهزون ، ثم خرجوا من المدينة فى ٢٤ من ذى القعدة (وهم زهاء ثلاثمائة) قاصدين إلى مكة فتصدى لهم عند ذى طوى (٢) ـ وقيل عند فخ (٣) الواقعة على بعد ستة أميال من مكة ـ ستة من كبار الشخصيات العباسية اتفق قدومهم إلى مكة لأداء فريضة الحج تلك السنة ، منهم سليمان بن المنصور ومحمد بن سليمان بن على والعباس بن محمد بن على وموسى وإسماعيل ابنا عيسى بن موسى ، وكان محمد بن سليمان قد سار بجماعة وسلاح من البصرة حماية له ولأصحابه . وذكر

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٩٠ ـ الأصفهانى ، ص ٣٢٠ .

(٢) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٩٢ .

(٣) المسعودى ، ج ٣ ص ٣٢٦ ـ الأصفهانى ، ص ٣١١ ـ ابن طباطبا ، ص ١٧٢ .

المسعودى أن عدة من كان معهم من العسكر بلغ أربعة آلاف فارس ، واشتبك العباسيون مع الحسين بن على وهو فى قلة من أصحابه ، فقتل ومعظم من كان معه ، وكان عدد القتلى يزيد على مائة قطعت رؤوسهم من بينهم الحسن بن محمد ابن عبد الله ، وتركت جثث القتلى ثلاثة أيام فى العراء لم توار حتى أكلتها السباع والطير ، وأسر العباسيون نفرا من بنى الحسن منهم سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن وإسحاق بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن ، فضربت رقابهم فى مكة ، بينما أخذ لعبد الله بن الحسن بن على الأمان فحبس عند جعفر ابن يحيى بن خالد البرمكى ثم قتل بعد ذلك (١) ، وأفلت من المنهزمين إدريس بن عبدالله بن الحسن بن الحسن وأخوه يحيى بن عبد الله ، أما دريس فقد فر إلى المغرب الأقصى ونزل بوليلى حيث تمكن بفضل قبيلة أوربة من تأسيس دولة عرفت بدولة الأدارسة ، بينما فر يحيى إلى بلاد الديلم ، حيث كثرت جموعه وقويت شوكته والتف حوله الأنصار ، فأعلن ثورته فى سنة ١٧٦ هـ فى خلافة الرشيد ، فسير إليه الفضل بن يحيى فى ٥٠ ألف مقاتل ، فكاتب الفضل يحيى بن عبد الله ولطف به وحذره ، فأجاب يحيى إلى الصلح، ولكنه اشترط أن يكتب له الرشيد أمانا بخطه يشهد عليه فيه القضاة والفقهاء وشيوخ بنى هاشم ، فأجابه الرشيد إلى ذلك ، وسير الأمان مع تحف وهدايا ، فقدم يحيى مع الفضل إلى بغداد ، فأحسن الرشيد استقباله ورحب به ومنحه مائتى ألف دينار، ولم يلبث الرشيد أن انقلب عليه فسجنه بعد أن استفتى الفقهاء فى نقض الأمان، فمنهم من أفتى بصحته فحاجه . ومنهم من أفتى ببطلانه (٢) ، فأبطل الرشيد الأمان وأخرقه

---

(١) المسعودى ، ج ٣ ص ٣٢٧ .

(٢) ومنهم عبد الله بن مصعب الزبيرى وأبو البخترى وهب بن وهب .

حتى جعله سيورا ومات يحيى فى السجن فى قول (١) ، وقتل فى الحبس فى قول آخر (٢) ، ويأتى الأصفهانى برواية تفسر سبب وفاته، فقد ذكر على لسان رجل كان مع يحيى بن عبد الله فى المطبق أن الرشيد أتاه يوما فى سجنه وأمر بضربه مائة عصا وتخفيض جرايته إلى النصف ، ثم كرر ذلك يوما آخر، ثم عاد للمرة الثالثة وقد مرض يحيى، فلما دخل قال : « دلى به . قالوا : هو عليل لما به . قال : كم أجريتم عليه ؟ قالوا : رغيفا ورطلين ماء . قال : فاجعلوه على النصف . ثم خرج، فلم يلبث يحيى بن عبدالله أن مات ، فأخرج إلى الناس ودفن» ؛ وقيل إنه بنى عليه أسطوانة بالموافقة وهو حى ، وقيل أيضا إنه دس إليه فى الليل من خنقه ، وقيل إنه سقاه سما ، وقيل أيضا إنه أجاع السباع ثم ألقاه إليها فأكلته. ولكن يبدو أن هذه الأقوال مبالغ فيها، ونرجح الرواية التى يرجع سبب موته إلى تخفيض جرايته فى الطعام يوما بعد يوم ، بدليل أن إدريس بن محمد بن يحيى بن عبد الله قال : « قتل جدى بالجوع والعطش فى الحبس » وليس بعيدا أن يكون الرشيد قد عذبه بالضرب قبل ذلك مما عجل بموته ، فقد ذكروا أن يحيى بعد أن تلقى من الرشيد المائتى ألف دينار قضى بها دين الحسين بن على صاحب فخ فأثار غضب الرشيد عليه (٣) .

وفى عهد الرشيد قبض على موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين وأحضر فى قبة إلى بغداد ، حيث سجن ثم قتل قتلا خفيفا ، وأظهر أنه مات حتف أنفه . ويرجع السبب فى ذلك إلى أن جماعة من حساد موسى بن جعفر من أقاربه وشى به إلى الرشيد ، وذكر له أن الناس يحملون إلى موسى خمس

---

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٢٥ ـ الأصفهانى ، ص٣٤٤ .

(٢) الأصفهانى ، ص ٣٤٩ ـ ابن طباطبا ص ١٧٦ .

(٣) الأصفهانى ، ص٣٤٨ ـ ٣٥١ .

أموالهم ويعتقدون إمامته ، وأنه عزم على الخروج عليه . فلما مات أدخل عليه الفقهاء ووجوه أهل بغداد، فنظروا اليه ، فلم يجدوا فيه أثراً لجرح أو مايدل على جرم ، فشهدوا بذلك (١) .

وفى عهد الرشيد أيضا قتل عبد الله بن الحسن بن على بن على زين العابدين، إذ اتهم بأنه يجمع الزيدية ويدعوهم إلى الخروج عليه ، ثم حبسه ، ولكن جعفر ابن يحيى ضرب عنقه بدون أمر الرشيد (٢) .

وحاول المأمون أن يتقرب إلى العلويين إما مدفوعا فى ذلك بتأثير الفضل ابن سهل وغيره من كبار أعوانه الشيعة فى خراسان، ممن كان يرغب فى تحويل الخلافة العباسية السنية إلى خلافة شيعية ، أو رغبة فى تحسين علاقته بالعلويين وتعويضهم عما تعرضوا له من اضطهاد فى العهود السابقة عليه . ويذكر المؤرخون أن المأمون وجه إلى جماعة من آل أبى طالب فحملهم إليه من المدينة وفيهم على الرضا بن موسى الكاظم ، فقدم بهم على المأمون، فأنزلهم دارا ، وأنزل على الرضا دارا ثم عرض الفضل بن سهل وأخوه على على الرضا مسألة عقد ولاية العهد له ، فأبى ،فما زالا به وهو يأبى ذلك ويتمنع منه حتى هدداه بضرب عنقه إن هو خالف رغبة المأمون،فاضطر على الرضا إلى قبول ما عرضوه عليه سنة ٢٠١ . ثم أعلن الفضل به سهل قرار المأمون فى عقد ولاية العهد لعلى الرضا ، وأمر الناس بلبس الخضرة ، وحدد يوما لتلقى البيعة . وفى ذلك اليوم، ركب الناس من القواد والقضاة وغيرهم من الناس فى الخضرة ، وجلس المأمون ووضع للرضا وسادتين كبيرتين أجلسه عليهما ، ثم أمر ابنه العباس بن المأمون

---

(١) الأصفهانى ، ص ٣٦٥ — ابن طباطبا ، ص ١٧٨ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٣٥٩ .

فبايع له أول الناس ، ثم تابعه الناس . ثم أمر المـــأمون فضربت له الدراهم وطبع عليها اسمه (١) ، وزوج المأمون ابنته أم الفضل من محمد بن على بن موسى . ثم توفى على الرضا مسموما ، واتهموا المأمون بدس السم له فى عنب وقيل فى شراب ، ولكن حزن المأمون وبكاءه عليه وجـــزعه الشديد لفقده يبرئانه من هذه التهمة (٢) وذكروا فى ذلك أن المأمون دخل على الرضا يعوده فوجده يجود بنفسه ، فبكى وقال : « أعزز على يا أخى بأن أعيش ليومك وقد كان فى بقائك أمل ، وأغلظ على من ذلك وأشد أن الناس يقـولون إنى سقيتك سما وأنا إلى الله من ذلك برىء . فقال له الرضا : صدقت يا أمير المؤمنين ، أنت والله برىء ثم خرج المأمون من عنده ، ومات الرضا » (٣) وذكروا أن المأمون شوهد يمشى فى جنازة الرضا حاسرا فى مبطنة بيضاء وهـو بين قائمتى النعش يقول : « إلى من أروح بعدك يا أبا الحسن » ، وأنه أقام عنـد قبره ثلاثة أيام يؤتى فى كل يوم برغيف وملح فيأكله ، ثم انصرف فى اليوم الرابع (٤) .

وواصل المأمون سياسته الودية نحو العلويين حتى بعد وفاة على الرضا وبعد أن دخل بغداد ، ولم يغير ملابسه الخضراء إلا بعد أن أخذ عليه ذووه ذلك ، ثم إنه أوصى أخاه المعتصم عندما حانت ساعته فقال : « يا أبا إسحق ، عليك عهد الله وميثاقه وذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لتقومن بحق الله فى عباده ، ولتؤثرن طاعة الله على معصيته ، إذ أنا نقلتها من غيرك إليك . قال : اللهم نعم .

---

(١) نفس المصدر ، ص ٤٠٤ – ابن الأثير ، ج ٦ ص ٣٢٦ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٤٠٥ .

(٣) الأصفهانى ، ص ٤٠٧ ، ٤٠٨ .

(٤) اليعقوبى ، ص ٤٥٣ .

قال : هؤلاء بنو عمك من ولد أمير المؤمنين على صلوات الله عليه، فأحسن صحبتهم، وتجاوز عن مسيئهم ، واقبل من محسنهم ، ولا تغفل صلاتهم فى كل سنة عند محلها، فإن حقوقهم تجب من وجوه شتى» (١) .

وفى عهد المعتصم ، ثار محمد بن القاسم بن على بن عمر بن على بن الحسين الملقب بالصوفى بالطالقان ، وكان يذهب إلى القول بالعدل والتوحيد ، ويرى رأى الزيدية الجارودية ، وقد وقع فى يد عبد الله بن طاهر ، فوجه به إلى المعتصم سنة ٢١٩ ، فأمر بدفعه إلى مسرور الكبير ، فحبسه في سرداب شبيه بالبئر فكاد يموت فيه ، وانتهى ذلك إلى المعتصم فأمر بإخراجه منه ، فأخرجه وحبسه فى قبة فى بستان موسى مع المعتصم فى داره ، ففر من محبسه إلى واسط حيث مات (٢) .

ج — مع الفرس :

قامت الدعوة العباسية أساسا فى خراسان ، واعتمد العباسيون على الخراسانيين فى المكان الأول فى تأسيس دولتهم ، مستغلين فى ذلك نقمتهم على العرب من جهة ، والصراع القبلى بين القبائل العربية من جهة ثانية ، ونسى العباسيون أمرا خطيرا وهو أن خراسان كما كانت مركز الدعوة العباسية لبعدها عن دار الخلافة ، ومصدرا للرجال الذين اعتمد عليهم العباسيون فى إدالة الدولة الأموية ، كانت وكرا لمؤامرات الشعوبيين لتمزيق وحدة الصف العربى تمهيدا لإعادة أمجاد الفرس القديمة . وقد يكون العباسيون على علم بهذا الخطر ، ولكنهم كانوا على أهبة الاستعداد للتحالف مع الشيطان إذا لزم الأمر طلبا

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤٣١ .

(٢) الأصفهانى ، ص ٤١٨ — المسعودى ، ج ٣ ص ٤٩٥ .

لثأرهم من الامويين (١) الذين أماتوا شرفهم وأذهبوا عزهم ، وقتلوهم وصلبوهم وشردوهم ، وانتصارا للحق على الباطل والظلم ، وهى عبارة استهوت الموالى الذين اتهموا الامويين بأنهم ابتعدوا عن مبادىء الاسلام القائمة على العدل والمساواة (٢) . وهكذا اجتذبت الدعوة العباسية عناصر حاقدة على الامويين معظمها تتعاطف مع آل البيت وبعضها عناصر هدامة ناقمة على العرب وتسعى لإسقاط دولتهم ، وبعضها عناصر عربية ذات عصبية موتورة تسعى لطلب الثأر ، ثم كانت مرحلة الصدام المسلح الذى انتهى بانتصار الثورة العباسية وقيام الدولة . وقد اعتبر الفرس انتصار الثورة العباسية فوزا لهم على العرب ، وكان من الطبيعى أن يعتمد العباسيون على الفرس فى تصريف شئون دولتهم اعترافا منهم بفضلهم عليهم وأن يسلموا إليهم أزمة أمورهم لأنهم يدينون لهم بالخلافة فيقربونهم إليهم ويصطنعونهم فى خدمتهم ، ولذلك السبب اصطبغت الدولة العباسية فى عصرها الأول بالصبغة الفارسية بحيث أصبح الخليفة العباسى - على حد قول بروكلمان - خلفا لملوك الفرس بعد أن كان خلفاء دمشق أقرب إلى شيوخ

---

(١) وفى سبيل ذلك حاول بعض الدعاة استثارة الشعور القومى الفارسى عند الخراسانيين ضد العرب عامة والأمويين خاصة ، فهذا قحطبة بن شبيب يخطب فى الخراسانيين فيقول : « يا أهل خراسان، هذه البلاد كانت لآبائكم الأولين ،وكانوا ينصرون على عدوهم لعدلهم وحسن سيرتهم حتى بدلوا وظلموا ،فسخط الله عز وجل عليهم ، فانتزع سلطانهم وسلط عليهم أذل أمة فى الأرض كانت عندهم فغلبوا على بلادهم . . . واسترقوا أولادهم فكانوا بذلك يحكمون بالعهد وينصرون المظلوم ؟ ثم بدلوا وغيروا وجاروا فى الحكم وأخافوا أهل البر والتقوى . . . فسلطكم عليهم لينتقم منهم بكم » ؛ الطبرى ج ٩ ص ١٠٦ .

(٢) من العوامل الرئيسية التى أدت الى التفاف أهل خراسان خاصة والموالى عامة حول الدعوة العباسية الشعور بالتذمر الاجتماعى والاقتصادى بين سكان المدن ممن لم يتمتعوا بامتيازات الطبقة الممتازة، ونعنى بهؤلاء السكان : التجار والصناع من الموالى الذين أصابوا نجاحا فى الأمصار الإسلامية .

القبائل (١) . وكان طبيعيا أيضا أن تسيطر النظم الفارسية فى الحكم وفى الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، فقد كان لزاما على الخليفة أن يصطنع أعوانا وموظفين تدعيما لسلطانه ، ويتمثل ازدياد أهمية القوة كعنصر أساسى من عناصر السلطان فى المكانة الهامة التى كان يتمتع بها السياف أو الجلاد فى البلاط العباسى ؛ وتمثلت هيبة الخلافة فى قوة جيشه وفى ألقابه الجديدة وفى مظاهر الأبهة التى أصبحت تحيط ببلاطه وترافقه ، وفى الجهاز الإدارى المصوغ بالصبغة الفارسية الذى يعتمد عليه وعلى رأسه الوزير والحاجب . وكان من الطبيعى أيضا أن ترتفع مكانة بعض الشخصيات الفارسية التى لمعت فى مرحلة الكفاح المسلح للدعوة العباسية كشخصية أبى سلمة الخلال وشخصية أبى مسلم الخراسانى فيصبح الأول وزير آل محمد (٢) . ويتلقب الثانى بأمين آل محمد (٣) ، وقرب الخلفاء المؤسسون للدولة العباسية أهل خراسان وكرموهم باعتبارهم عصب الدولة العباسية وشيعة بنى العباس وأهل دعوتهم وعندما أسس المنصور بغداد خصص لسكنى العجم مواضع منها قطيعة الرواذية وقطيعة المروروذية وقطيعة رباوة الكرمانى (٤) ، كذلك خصص المعتصم عددا من القطائع لقواد

---

(١) بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة الدكتور نبيه فارس ، بيروت ١٩٤٩ ج ٢ ص ٩ . ويقول برنارد لويس فى ذلك : « وقد أدى تغير الأسرة الحاكمة إلى إتمام تنظيم الدولة الذى بدأ فى زمن الأمويين ، فبعد أن كان الخليفة مجرد شيخ قبيلة يستمد سلطانه من رضى الطبقة العربية الحاكمة الممنوح عن غير طيب خاطر ، أصبح حاكما أو توقراطيا يدعى أن سلطانه مقدس ، ويدعم هذا السلطان بجيش نظامى مسلح . . » برنارد لويس ، العرب فى التاريخ ص ١١٧ ومايليها .

(٢) اليعقوبى ج ٢ ص ٣٥٢ — ابن طباطبا ، ص ١٣٩ .

(٣) اليعقوبى ، ج ٢ ص ٣٥٢ — المسعودى ، ج ٣ ص ٢٧١ .

(٤) اليعقوبى ، كتاب البلدان ، ليدن ، ١٨٩١ ص ٢٤٥ — ٢٤٨ .

خراسان عندما أسس سامراء(١) . وكان خلفاء بنى العباس يجلون أهل خراسان إلى حد تركهم يدخلون فى حضرتهم ويخرجون بدون إذن منهم ، ويسمحون لهم فى مجالسهم بالسبق فى الكلام (٢) وعلى الرغم من الامتيازات التى تمتع بها الفرس فى ظل خلفاء بنى العباس وما خصهم به هؤلاء من تمييز وتقديم على العرب . فقد غلبت على كبــار شخصياتهم القرية مشاعر الشعوبية بحيث أصبحوا يشكلون خطرا حقيقيا على سلطان الخلفاء ، وقد فطن أبو العباس السفاح منذ بداية الأمر إلى حقيقة ما يهدف إليه أبو سلمة الخلال ـ رغم ما قدمه للدعوة العباسية من خدمات جليلة فى دورها الأخير ورغم عظيم بلائه ـ من استئثار الثورة لصالح العلويين من جهة (٣) واسطوته على الخليفــة وإنفاذه للأمور بدون الرجوع إليه من جهة ثانية ، فكان يظهر من الإدلال والقدرة على الخليفة (٤) ويقيم عنده فى كل ليلة الى حين من الليل، فإذا أراد الرجوع إلى بيته قربت إليه دابته إلى المجلس فيركب منه دون غيره (٥) . ولهذه الأسباب خافه السفاح على نفسه ، وكان لزاما عليه أن يتخلص منه اتقاء لشره (٦) ، ولكن قتل أبى سلمه من شأنه أن يثير عليه أنصاره ويستثير شكوك أبى مسلم الخراسانى(٧)،

---

(١) نفس المصدر ، ص ٢٦٠ .

(٢) كان المهدى إذا أراد الشورى جمع خاصته لمشورتهم ويسمع الموالى بالأولوية فى الكلام .

(٣) المسعودى ، ج ٣ ص ٢٧٠ — ابن طباطبا ، ص ١٢٧ .

(٤) ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، ج ٢ ص ٢٣١ .

(٥) نفس المصدر .

(٦) أبو حنيفة الدينورى ، ص ٣٧٠ .

(٧) اليعقوبى ، ج ٢ ص ٣٥٢ .

لذلك أفضى لأبى مسلم بما أنكره على أبى سلمة ، فكتب إليه أبو مسلم ينصحه بقتله ، وقال له مبررا قتله : « إنه العدو الغشاش ، الخبيث السريرة (١) » ، فكتب إليه أبو العباس يسأله أن يبعث إليه من يقتله ، فوجه أبو مسلم مراد ابن أنس الضبى ، فقتله . غير أن الدينورى يعزى قتل أبى سلمة إلى مشاعر الحسد التى انتابت أبى مسلم ، فيذكر أنه « عندما بلغ أبا مسلم بأن الخليفة السفاح ولى أبا سلمة الداعى جميع ما وراء بابه وجعله وزيره وأسند إليه جميع أموره ، دعا بمروان الضبي -وكان أحد قواده- وقال له: انطلق إلى الكوفة وأخرج أبا سلمة من عند الإمام أبى العباس واضرب عنقه (٢) » . وأيا ماكانت أسباب قتله فإن أبا جعفر أثبت بذلك عن عقلية مفكرة وضعت أمن الدولة وسلامتها فى هذه المرحلة الحاسمة من تاريخها فوق كل اعتبار ، كما أثبت بتنفيذ عملية القتل على يد أبى مسلم الخراسانى براعة فائقة وفهما عميقا لأمور السياسة بدون أن يثير عليه حقد أنصاره ونقمتهم ، حفاظا على الروابط المتينة التى تربطه بهم . ولكن من جاء بعده من خلفاء بنى العباس لم يتردد فى نكبة من بالغ من الفرس فى الاستبداد بدولتهم والتنكيل بهم عندما تبين لهم خطرهم على سلامة دولتهم ، وتدل حادثة نكبة أبى مسلم الخراسانى على يد المنصور ، ونكبة البرامكة على يد الرشيد ، ونكبة الفضل بن سهل على يد المأمون (إذا جاز ذلك) على أن خلفاء بنى العباس قاوموا توثب الفرس وأحبطوا مؤامراتهم الشعوبية وحدوا من تطلعهم إلى السيطرة التامة (٣) .

---

(١) نفس المصدر.

(٢) أبو حنيفة الدينورى ، ص ٣٧٠ .

(٣) عبد الفتاح السرنجاوى ، الدولة العباسية : اضمحلالها وسقوطها ، القاهرة ١٩٤٠ ص ٦ .

فأبو مسلم الخراسانى اعتد بقوته واستخف بالمنصور فى أثنـاء خلافة السفاح بل وبعد وفاته ومن أمثلة استخفافه به فى خلافة السفاح أنه لما بويع لأبى العباس السفاح ، وجه بأخيه أبى جعفر إلى خراسان لأخذ البيعة على أبى مسلم ، فوصل أبو جعفر إلى مرو فى ثلاثين فارسا « فلم يحتفل به أبو مسلم ، ولم يلتقه ، واستخف به ، فانصرف واجدا عليه ، وشكاه إلى أبى العباس وأعلمه ما نال منه ، وكثر عليه فى بابه ، فقال أبو العباس : فما الحيلة فيه وقد عرفت موضعه من الإمام ومن إبراهيم ، وهو صاحب الدولة والقائم بأمرها ؟ » . وقدم أبو مسلم على أبى العباس ، فأكرمه وأعظمه ولم يثر شيئا من أمر الجفوة بينه وبين أخيه أبى جعفر . ودخل عليه يوما ، وأبو جعفر فى المجلس ، « فسلم عليه وهو قائم ، ثم خرج ولم يسلم على أبى جعفر ، فقال له أبو العباس : مولاك مولاك !! لم لا تسلم عليه ؟ يعنى أبا جعفر . فقال : قد رأيته ، ولكنه لايقضى فى مجلس الخليفة حق أحد غيره(١) » . ومن مظاهر استهانته بالسفاح وبالمنصور أنه كتب فى سنة ١٣٦ إلى السفاح يستأذنه فى القدوم عليه والحج ، فكتب اليه السفاح يأمره بالقدوم فى خمسمائة من الجند ، فكتب اليه أبو مسلم : « إنه قد وترت الناس ولست آمن على نفسى ؛ فكتب اليه : أن أقبل فى ألف ، فإنما أنت فى سلطان أهلك ودولتك وطريق مكة لا يحتمل العسكر . فسار فى ثمانية آلاف فرقهم فيما بين نيسابور والرى ، وقدم بالأموال والخزائن فخلفها بالرى ، وجمع أيضا أموال الجبل ، وقدم فى ألف ، فأمر السفاح القواد وسائر الناس أن يتلقوه . . . .(٢) » . وقيل أن السفاح قدمه على أبى جعفر فى الحج ،

---

(١) اليعقوبى ، ج ٢ ص ٣٥١ .

(٢) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٠٨ .

فعرف أبو مسلم خبر وفاة السفاح قبل أن يعرفه المنصور ، ولم يأته ليعزيه بل كتب إليه معزيا مع أنهما كانا عائدين من الحج ، كما أنه لم يهنئه بالخلافة ولم يتوقف فى طريقه ليبايعه وإنما اكتفى بالكتابة إليه قائلا : « عافاك الله ومتع بك، إنه أتانى أمر أفظعنى وبلغ منى مبلغا لم يبلغه منى شىء قط ، وفاة أمير المؤمنين ، فنسأل الله أن يعظم أجرك ويحسن الخلافة عليك ، إنه ليس من أهلك أحد أشد تعظيما لحقك وأصفى نصيحة لك وحرصا على ما يسرك منى » (١). ثم مكث يومين وكتب إلى أبى جعفر ببيعته(٢) .

وذكر الحسن بن قحطبة رسول المنصور إلى أبى مسلم عندما كتب إليه يدعوه إلى مقاتلة عبد الله بن على العباسى أنه رأى أبا مسلم — عندما أتاه بكتاب المنصور — يقرأ الكتاب ثم يلقيه من يده إلى مالك بن الهيثم فيقرأه ويضحكان استهزاء ؛ فلما انهزم عبد الله وجمع أبو مسلم ماغنم من عسكره بعث أبو جعفر أبا الخصيب إلى أبى مسلم ليكتب له ما أصاب من الأموال ، فأراد أبو جعفر قتله ، فتوسط له بعض الحاضرين فخلى سبيله ؛ وعلق وتشدد على كتاب المنصور : « أؤتمن على الدماء ولا أؤتمن على الأموال» (٣)، ثم استخف برسل الخليفة إليه وشتمهم ، وتناول أباجعفر بلسانه ، حتى ذكر أمه وقال : « ويلى على ابن سلامة »(٤) . وبلغ ذلك أبا جعفر المنصور وهو فى رومية ،فغضب وزاد

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٦١ .

(٢) نفس المصدر ، ج ٥ ص ٤٦٢ ، ٤٦٨ .

(٣) اليعقوبى ، ج ٢ ص ٣٦٦ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٦٩ — ابن طباطبا ، ١٥٠ .

(٤) اليعقوبى ، ج ٢ ص ٣٦٦ .

ما فى قلبه عليه ، فولى هشام بن عمرو العقيلى مكان أبى مسلم ، فانصرف أبو مسلم وأقبل يريد خراسان مغاضبا لأبى جعفر حتى يثير أهل خراسان عليه ويجعل العباسيين دائما فى قبضة يده ، فمر بالمدائن ، وأبو جعفر ينزل برومية على مقربة منها ، فلم يسع إلى لقائه ، ونفذ لوجهه حتى جاز حلوان ، فسير إليه المنصور نفرا من أصحابه فلحقوه وعظموا عليه الخطب ، وسألوه أن يتم على ما كان منه وعليه من الطاعة ، وحذروه عاقبة البغى ونصحوه بالرجوع إلى المنصور ؛ فأقبل إلى العراق ، وقدم على أبى جعفر ، فأمر الناس بتلقيه ، فتلقاه بنو هاشم والناس ، فدخل على المنصور فقبل يده ، وأمره المنصور بأن ينصرف ويروح نفسه ويدخل الحمام ، فانصرف ؛ فلما كان الغد دعا المنصور عددا من الحرس وأمرهم بالجلوس وراء الرواق فإذا صفق بيديه وثبوا على أبى مسلم فقتلوه ؛ ثم أرسل إلى أبى مسلم يستدعيه ، ثم أخذ يعاتبه على مخالفته له ، فلما طال عتاب المنصور قال أبو مسلم : « لا يقال هذا لى بعد بلائى وما كان منى » ، قال : يا ابن الخبيثة ، والله لو كانت أمة مكانك لأجزأت ، إنما عملت فى دولتنا وبريحنا ، فلو كان ذلك إليك ما قطعت فتيلا » ، فأخذ أبو مسلم بيده يقبلها ويعتذر إليه ، فقال له المنصور : « ما رأيت كاليوم ! والله ما زدتنى إلا غضبا » ، قال أبو مسلم : « دع هذا فقد أصبحت ما أخاف إلا الله تعالى » ، فغضب المنصور وشتمه ، ثم صفق بيده على الأخرى ، فخرج عليه الحرس فأخذوه بسيوفهم حتى قتلوه(١) ؛ وتم ذلك فى شعبان سنة ١٣٦ .

ثم خطب المنصور فى الناس بعد أن قتله فقال : « أيها الناس ، لا تخرجوا عن أنس الطاعة إلى وحشة المعصية ، ولا تسروا غش الأئمة ، فإن من أسر غش

---

(١) المسعودى ، ج ٣ ص ٢٩١ .

إمامه أظهر الله سريرته فى فلتات لسانه وسقطات أفعاله ، وأبداها الله لإمامه الذى بادر بإعزاز دينه به وإعلاء حقه بالجهد ، إنا لم نبخسكم حقوقكم ، ولم نبخس الدين حقه عليكم ، إن من نازعنا عروة هذا القميص أو طأناه ما فى هذا الغمد، وإن أبا مسلم بايعنا وبايع لنا على أنه من نكث بيمننا فقد أباح لنا دمه ، ثم نكث بيمنه هو ، فحكمنا عليه لأنفسنا حكمه على غيره لنا ، ولم تمنعنا رعاية الحق له من إقامة الحق عليه(١) » .

ثم اضطرب اصحاب أبى مسلم بعد قتله ، ففرقت فيهم الأموال ، فأمسكوا رغبة ورهبة(٢). واعتبر الناس يوم مقتل الخراسانى أول خلافة المنصور، لأنه كان يزاحمه فى السلطان ، وكاشفهم بخلع المنصور(٣) عندما أعلن مخالفته وقصد السير إلى خراسان حيث شيعته وأنصاره من الشعوبيين أمثاله ، بدليل أنه لما نمى قتل أبى مسلم إلى خراسان اضطربت الخرمية وهى الطائفة المسماة بالمسلمية وكانت تقول بإمامة أبى مسلم . ومن زعمائها سنباذ المجوسى الذى سبق أن تحدثنا عنه .

وبمصرع أبى مسلم الخراسانى ، قوى مركز المنصور وتوطدت أركان الدولة العباسية . ولا شك أن المنصور بقتله هذا الشعوبى إنما أثبت سطوته وقدرته على مواجهة المواقف الخطيرة ، وكان المنصور أول من أحس خطورة أبى مسلم وتنبه لتسلطه ضد العرب وضد الدولة منذ أن قتل خيرة رجال العرب فى

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٧٤ — ٤٧٩ ؛ ابن طباطبا ، ص ١٥٣ .
(٢) المسعودى ، ج ٣ ص ٢٩٣ .
(٣) الذهبى ، العبر فى خبر من غبر ، ١ ص ١٨٦ .

خراسان ممن يعرفون خطته ومؤامراته ضد العروبة ومنهم سليمان بن كثير كبير الدعاة فى خراسان ، ويحاول المنصور أن يغرى أخاه السفاح بقتل أبى مسلم الخراسانى فقال له : « أطعنى واقتل أبا مسلم ، فوالله إن فى رأسه الغدرة . فقال : قد عرفت بلاءه وما كان منه . فقال أبو جعفر : إنما كان بدولتنا ، والله لو بعثت سنورا لقام مقامه وبلغ ما بلغ . فقال : كيف نقتله ؟ قال : إذا دخل عليك وحادثته ضربته أنا من خلفه ضربة قتلته بها . قال : فكيف بأصحابه ؟ قال أبو جعفر : لو قتل لتفرقوا وذلوا . فأمره بقتله ، وخرج أبو جعفر ، ثم ندم السفاح على ذلك فأمر أبا جعفر بالكف عنه »(١) .

أما نكبة الرشيد للبرامكة فكانت هى الأخرى دليلا واضحا على يقظة خلفاء بنى العباس وتنبههم إلى خطر التسلل الشعوبى ، فالمعروف أن البرامكة من أصل فارسى ينتسبون إلى أشراف بلخ ويتلقبون بالبرامكة من برمك وهى رتبة وراثية لرئيس كهنة معبد نوبهار ببلخ(٢) ، وأول من اتصل من البرامكة بالعباسيين خالد بن برمك الذى أسهم فى الدعوة العباسية ، وكان من أبرز رجال أبى مسلم الخراسانى الذين اعتمد عليهم فى مهمته ، وقد ولاه قحطبة ابن شبيب الطائى مهمة تقسيم الغنائم عندما انتصر قحطبة على قائد الأمويين فى جرجان(٣) ، وأصبح وهو لا يزال فى جيش قحطبة يتقلد خراج كل ما افتتحه قحطبة من الكور ويقوم بتقسيم الغنائم بين الجند تقسيما عادلا أرضى جميع أهل خراسان حتى قيل : « إنه ما من أحد من أهل خراسان إلا ولخالد عليه

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٥٩ .

(٢) ابن الفقيه الهمدانى ، مختصر كتاب البلدان ص ٣٢٢ —
Bouvat, les Barmecides, Paris, 1912, P. 26

(٣) اليعقوبى ، ج ٢ ص ٣٤٣ و

بدومنة لأنه قسط الخراج فأحسن فيه إلى أهله »(١) . وقد أعجب السفاح بخالد ابن برمك لفصاحته وأقره على عمله ، ثم أسند إليه ديوان الخراج وديوان الجند(٢) ، وكان هذا التكريم أول مرحلة من مراحل تدخل البرامكة فى شؤون الدولة وتصرفهم فى أموالهم، وأصبح خالد بذلك يؤدى عمل الوزراء فى توليته الخراج ، ولكنه تجنب أن يتلقب بالوزير تطايرا بما جرى لأبى سلمة الخلال(٣). وارتفعت منزلة خالد عند السفاح وكثر قصاده والوافدون على بابه وانتجعه الناس . ومنذ ذلك الحين بدأ يتعصب لفارسيته ، فلما بنى المنصور بغداد وعظمت النفقة عليه، أشار عليه وزيره أبو أيوب المورياني بهدم إيوان كسرى واستعمال أنقاضه ، فاستشار المنصور خالد بن برمك فى ذلك فقال : « لا تفعل يا أمير المؤمنين ، فإنه آية الإسلام ، فإذا رآه الناس علموا أن مثل هذا البناء لايزيله إلاأمر سماوى،وهو مع ذلك مصلى على بن أبى طالب عليه السلام والمؤونة فى نقضه أكثر من نفعه . فقال له المنصور : أبيت يا خالد إلا ميلا إلى العجمية . ثم أمر المنصور بهدمه ، فهدمت منه ثلمة فبلغت النفقة عليها أكثر مما حصل منها، فأمسك المنصور عن هدمه ، وقال : يا خالد قد صرنا إلى رأيك وتركنا هدم الإيوان . قال : يا أمير المؤمنين ، أنا الآن أشير بهدمه لئلا يتحدث الناس أنك عجزت عن هدم ما بناه غيرك . فأعرض عنه وأمسك عن هدمه »(٤) .

وفى عهد المهدى، زادت مكانة خالد البرمكى ، فولاه الخليفة ولاية فارس ،

---

(١) الجهشيارى ، الوزراء والكتاب ، القاهرة ١٩٣٨ ، ص ٨٧ .

(٢) نفس المصدر ، ٨٩ .

(٣) ابن طباطبا ، ص١٣٩ — ابراهيم سلمان ، نظام الوزارة فى العصر العباسى الأول ، رسالة الماجستير ، الإسكندرية ١٩٦٩ ص ٧١ .

(٤) ابن طباطبا ، ص ١٤٠ .

فعمل على التقرب من الأهالى بالتخفيف عنهم، فأسقط ضريبة الشجر، وأسرف فى العطاء. ولما توفى خالد، حل ابنه يحيى محله فى المكانة السامية التى كان يشغلها عند الخليفة، وأسند إليه المهدى مهمة تربية ابنه هارون فى سنة ١٦١(١). وإلى يحيى بن خالد يرجع الفضل فى ظفر هارون الرشيد بالخلافة، وقد تعرض يحيى بسبب موقفه لسخط الهادى، فأمر بسجنه، ولكنه توفى بعد ليلة واحدة، فلما تولى هارون الخلافة أخذ نجم يحيى يتألق، فقلده وزارته وخوله من السلطات وأطلق له يده فى تصريف شؤون دولته بحيث إنه أصبح الحاكم الفعلى للدولة؛ فقد أسند إليه إلى جانب مهام الوزارة جميع الدواوين وديوان الخاتم(٢). وفى سنة ١٧٨ اصطنع الرشيد الفضل بن يحيى فولاه خراسان وثغورها، فاتخذ بخراسان جندا من العجم موالين له سماهم العباسية بلغت عدتهم خمسمائة ألف رجل، قدم منهم إلى بغداد عشرون ألفا عرفوا هناك بالكرنبية(٣). ثم قرب الرشيد إليه جعفر بن خالد، وأقصى الفضل بسبب ميله للإمام موسى الكاظم الذى كان سجينا لديه، ونال جعفر حظوة كبيرة عند الرشيد، فأسند إليه ديوان الخاتم، وتألق نجم جعفر وأصبحت بيده أزمة الأمور، وبلغ من حب الرشيد له أنه كان لا يرد له مطلبا، وأنه قلده بريد الآفاق ودور الضرب والطرز فى جميع الكور(٤). وأمر الرشيد بأن ينقش اسم جعفر على دنانير الصلات والأفراح

(١) الطبرى، ج ٨ ص ٣٤٤ (أحداث سنة ١٦٣).
(٢) الجهشيارى، ص ١٧٨.
(٣) الطبرى، ج ١٠ ص ٦٢ (أحداث سنة ١٧٨).
(٤) الجهشيارى، ص ٢٠٤.

بمدينة السلام والمحمدية(١) ثم أسند إليه النظر فى المظالم(٢) لأول مـــرة فى تاريخ القضاء .

وهكذا نال البرامكة من النفوذ والسطوة والجاه والمنزلة ما لم تحظ به أسرة أخرى فى تاريخ الدولة العباسية ، ولـكنهم لم يحسنوا استعمال السلطة ، فضربوا على يد الرشيد واستأثروا بالحكم دونه، ووزعوا الاموال على الاتباع والاعوان والانصار إلى حد أن شهرتهم غلبت على شهرة الرشيد وتضاءل نفـوذه بالنسبة لنفوذهم ، وقد فطن الرشيد مؤخـرا إلى أن البرامكة بمـا ظفروا به من سلطان أصبحوا سيفا مسلطا عليه ، وقد عبر عن ذلك لأحـد ندمائه بقوله : « ما عد البرامكة بنى هاشم إلا عبيدهم ، وأنهم هم الدولة ، وأن لانعمة لبنى العباس إلا والبرامكة أنعموا عليهم بها(٣) » . ثم أخذ الرشيد يعمل بالتدريج على الحد من سطوتهم ، فعزل محمد بن خالد البرمكى عن حجابته فى سنة ١٧٩ وقلدها الفضل ابن الربيــع(٤) ، ثم صرف الفضل بن يحيى عن مهامه فى سنة ١٨٣ وقلدها لعلى ابن عيسى بن ماهان ، ثم سحب الإشراف على الحرس من جعفر وأسنده لهرثمة ابن أعين(٥) ، وبالتدريج أعرض عنهم قبل أن يقدم على نكبتهم ؛ وهناك عوامل دفعت بالرشيد إلى ذلك ، منها :

---

(١) المقريزى ، شذور العقـود فى ذكر النقـــود ، تحقيق الطبـاطبائى ، النجف ١٣٥٩ هـ ، ص ١٢ .

(٢) الجهشيارى ، ص ٢٠٤ .

(٣) الأتليدى ، إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بنى العباس ، القاهرة ١٣٠١ هـ ، ص ٨٨ .

(٤) الجهشيارى ، ص ٢٢٣ .

(٥) نفس المصدر ، ص ٢٠٧ .

١ — عامل سياسى : كانت للبرامكة ميول سياسية ومذهبية تشكل خطرا على سلامة الدولة(١) ، فقد اتهم الرشيد يحيى بن خالد بميله إلى يحيى العلوى وأنه أمده بمائتى ألف دينار عندما ثار فى بلاد الديلم(٢) ، كما اتهم البرامكة بممالأتهم لخصومه السياسيين أمثال عبد الملك بن صالح بن على العباسى الذى اتهمه الرشيد بأنه يطالب بالخلافة لنفسه(٣) . كذلك اتهم موسى بن يحيى بن خالد على لسان على بن عيسى بن ماهان الذى تولى خراسان بأنه كان يكاتب أهل خراسان ليستميلهم إليهم ويخرجهم عن الطاعة(٤) ، وأثرت هذه التهمة فى نفس الرشيد إلى حد أنه أمر بحبس موسى فى ١٨٦ ﻫ ثم أطلقه لوساطة أم الفضل .

٢ — عامل اقتصادى : سيطر البرامكة على أموال الدولة وأنفقوها على ما اشتهوا فى وجوه شتى ، وبالغوا فى ذلك إلى حد أن الرشيد نفسه كان لايصله مال إلا بإذنهم (٥) ، وبينما كانوا يقترون على الرشيد مع اكتظاظ خزائن الدولة بالأموال كانوا يسرفون فى الإنفاق على أنفسهم وعلى أنصارهم ، فامتلكوا الضياع وبالغوا فى العطايا والهبات .

٣ — عامل التعصب للفرس : كان البرامكة لايختلفون فى ذلك عن الشعوبية ، فكانوا يتعصبون للفارسية ويعملون على إعادة الأمجاد الفارسية القديمة ، فكانوا يسندون المناصب الهامة فى الدولة إلى أنصارهم الفرس ، بل

---

(١) الدورى ، ص ١٩٨ .

(٢) الجهشيارى ، ص ٢٤٣ .

(٣) ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٨٤ .

(٤) نفس المصدر ، ص ١٧٧ .

(٥) المسعودى ، ج ٣ ص ٣٦٨ .

وأشاع الناس أن البرامكة كانوا زنادقة (١) .

٤ — الاستئثار بالسلطة دون الخليفة : كان الرشيد بادىء ذى بدء يتغاضى عما كان يصله من أخبار استبداد البرامكة بشؤون الدولة وتزايد نفوذهم وفاء منه لخدماتهم ، ولكن مشاعره أخذت تتغير تجاههم إلى حد أنه لم يعد يأمن لهم وأصبح يخشى على مركزه كخليفة للمسلمين بعد أن سيطروا على أجهزة الدولة الإدارية والمالية وصار الناس يلهجون بذكرهم ويتوافدون على أبوابهم (٢) . ويشير ابن طباطبا الى أن جعفرا والفضل ابنى يحيى بن خالد ظهر منهما من الإدلال مالا تحتمله نفوس الملوك ، فنكبهم الرشيد (٣) . ويروى ابن طباطبا أن بختيشوع الطبيب دخل يوما على الرشيد وهو جالس فى قصر الخلد من بغداد وكان البرامكة يسكنون بحذائه من الجانب الآخر وبينهم وبينه عرض دجلة ، فنظر الرشيد فرأى اعتراك الخيل وازدحام الناس على باب يحيى ابن خالد فقال لطبيبه : «جزى الله يحيى خيرا ، تصدى للأمور وأراحنى من الكد ، ووفر أوقاتى على اللذة» . ثم دخل عليه طبيبه بعد مدة وقد شرع الرشيد يتغير عليهم ، فنظر فرأى الخيول كما رآها تلك المرة ، فقال : «استبد يحيى بالأمور دونى ، فالخلافة فى الحقيقة له وليس لى منها إلا اسمها (٤)» .

٥ — دور الفضل بن الربيع : لعب الفضل بن الربيع دورا رئيسيا فى

---

(١) ابن النديم ، الفهرست ، ص ٤٧٣ .

(٢) ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، القاهرة ، ١٣٥٠ هـ ، ج ١ ص ٣١٢ .

(٣) ابن طباطبا ، ص ١٩١ .

(٤) نفس المصدر ، ص ١٩٠ .

ايغار صدر الرشيد على البرامكة والسعى للإيقاع بهم ، إذ ساءه وساء غيره من أعيان العرب استئثار الفـــرس بالمناصب الحساسة فى الدولة وسيطرتهم على شؤونها وتنحية العنصر العربى ، وقد سهلت على الفضل بن الربيع مهمة وظيفته كحاجب للرشيد . ويذكر ابن الأثير أن الفضل بن الربيع استغل قيام جعفر ابن يحيى البرمكى بتسهيل مهمة الفرار من السجن للإمام يحيى بن عبد الله بن الحسن ، وأبلغ الرشيد بذلك ، فادعى الرشيد أن هذا تم بعلمه(١) .

٦ ـــ قصة العباسيه أخت الرشيد : وزعموا أن الرشيد كان لا يصبر عن جعفر وعن أخته عباسة بنت المهدى، وكان إذا أراد الشراب دعاهما للحضور معه ،فطلب من جعفر أن يتزوجها زواجا يتيح له مجالستها والنظر إليها والاجتماع فى مجلس يضمها مع الرشيد ، واشترط عليه ألا يقربها ، فأجابه إلى ذلك، فزوجه الرشيد، وأشهد له من حضره من خدمه وخاصة مواليه ، وأخذ عليه الرشيد عهد الله ومواثيقه وغليظ أيمانه أنه لا يخلو بها ولا يظله وإياها سقف بيت إلا وأمير المؤمنين الرشيد ثالثهما ، فحلف له جعفر بذلك ، ورضى به وألزمه نفسه ، فأحبته العباسة ، وتحايلت على أن تختلى بها ،فحملت منه وولدت غلاما ، فوكلت به خادما من خدمها ، فلما خافت ظهور خبره وانتشاره وجهت الصبى والخادم والحاضنة إلى مكة وأمرتها بتربيته ، وعلمت زبيدة بالخبر وكانت تكره جعفر بن يحيى الذى لعب دورا هاما فى بيعة المأمون بعد ابنها الأمين ، فأبلغت الرشيد ، فسقط فى يده ، وتحقق الرشيد من صدقها ، فعزم على نكبة البرامكة.(٢) ويطعن ابن خلدون فى صحة هذه الواقعة وينفيها نفيا قاطعا(٣) .

---

(١) ابن الأثير، ج ٦ ص ١٧٦ .

(٢) المسعودى ، ج ٣ ص ٣٠٨ — ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٧٥ .

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ١٩ .

ولهذه الأسباب مجتمعة ، أمر الرشيد خادمه مسرور بقتل جعفر، وتم ذلك في آخر المحرم سنة ١٧٨ هـ ، ثم أمر بحبس يحيى والفضل ومصادرة أموالهم .

وبنكبة البرامكة انتصر الحزب العربي في بلاط الخليفة الرشيد بزعامة الفضل ابن الربيع ، وبدت ثمرات هذا الانتصار في وصية الرشيد لابنه الأمين إذ قدمه رغم صغر سنه على أخويه المأمون والمعتصم ، لاعتبارات أساسية أهمها أن أمه السيدة زبيدة عربية الأصل . ولكن الرشيد قبل وفاته وقع في خطأ فاحش إذ قسم دولته بين أبنائه الثلاثة ، وخص المأمون بخراسان . وهنا ظهر الفضل بن سهل الفارسي الذي كان الساعد الأيمن للمأمون في ولايته لخراسان، وتهيأ للفضل الذي كانت تغلب عليه النزعة القومية الفارسية أن يعمل على زيادة الخلاف بين الأخوين الأمين والمأمون ممهدا السبيل إلى إقصاء العرب عن السلطان وتحويله إلى الفرس على النحو الذي عرضناه من قبل .

(٢)

الحركات الدينية الهدامة والهرطقات(١)

قامت الدولة العباسية على أساس ديني قوامه إحياء السنة والدين وإعادة حكم العدل ، والعودة إلى نظام الخلافة الحقيقي الذي يغلب عليه الطابع الديني بدلا من نظام الملوكية الذي إقامة الأمويون(٢) ، وتنعكس مبادىء العباسيين الجديدة في الخطبة التي ألقاها السفاح غداة أخذ البيعة له ثم أكملها عمه داود ، فمن قول داود : « علينا أن نحكم فيكم بما أنزل الله ، ونعمل فيكم بكتاب الله ، ونسير في العامة والخاصة بسيرة رسول الله (ص) »(٣) . واتخذ العباسيون رسوما للخلافة لها صبغة دينية بحتة ، فكان خلفاؤهم يرتدون بردة النبي (ص) في المناسبات الخاصة كصلاة العيدين والجمعة وعند توليتهم الخلافة ، كرمز لسلطانهم الديني ، ويحيطون أنفسهم بالفقهاء ويستشيرونهم في مهام الدولة ومشكلاتها . ويستندون على نظرية الإمامة في الحكم توكيدا للمعنى الديني على أساس أنهم ورثة بيت الرسول بسبب قرابتهم للرسول ، وبذلك جمعوا بين الدين والسياسة وهو ما عبر عنه ابن طباطبا بقوله : « واعلم علمت الخير أن هذه دولة من كبار الدول ساست العالم سياسة ممزوجة بالدين والملك ، فكان

---

(١) فيما يتعلق بموضوع الثورات والفتن يرجى الرجوع إلى الفصل الخاص بالتعريف بالخلفاء ثم إلى الفصل الثاني الذي يتعلق بسياسة الدولة العباسية مع العلويين . أما بالنسبة للهرطقات فقد سبق أن عالجنا هذا الموضوع مجزءا وباختصار في الفصل الأول ، ولا بأس من معالجته هنا كبحث موحد ومفصل في آن واحد حتى تتم الفائدة ، وأرجو المعذرة إذا جاء التكرار في بعض الأحيان .

(٢) الدوري ، العصر العباسي الأول ، ص ٤٣ .

(٣) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤١٤ .

أخيار الناس وصلحاؤهم يطيعونها تديناً والباقون يطيعونها رهبة أو رغبة ، ثم مكثت فى الخلافة والملك فى حدود ستمائة سنة » (١) . وخيبت هذه المبادىء التى قام عليها الحكم العباسى آمال الفرس أنصار الثورة العباسية الذين كان يحدوهم الأمل فى حكومة ضعيفة سياسياً متهاونة دينياً ، يستطيعون فى ظلها تحقيق مآربهم التى تهدف إلى النيل من العرب وانتزاع السلطان من أيديهم وتحويله إلى أنفسهم . وكان قد انضم إلى الدعوة العباسية جموع هائلة من أهل خراسان لاتعرف من الإسلام إلا اليسير تدثرت بالإسلام كتقية لمحاولة إخفاء هرطقات ونحل وديانات وثنية قديمة متمسكة بها ، ولكن العباسيين نصبوا أنفسهم المسؤولين عن إعادة الدين الحق ، وتطبيق مبادىء المساواة والعدالة الاجتماعية التى كان الموالى يطالبون بها فى العصر الأموى . ولكى يحبطوا مؤامرات الشعوبية المتسترة وراء إسلامهم الظاهرى وتشيعهم السياسى للعلويين ، ناقش المنصور النفس الزكية فى حججه التى استند عليها ، مؤكداً شرعية العباسيين فى الحكم . وعندئذ اتجه الشعوبيون الفرس إلى سياسية جديدة فى محاربة العرب والإسلام قوامها إحياء الديانات القديمة فى فارس وإغراء عامة الناس والجمهور على الأخذ بما جاء فيها من تعاليم هدامة فاسدة مليئة بالمغريات على ارتكاب المحرمات ، مستهدفين من وراء ذلك تحطيم القيم الدينية الإسلامية (٢) والنيل من سلطان العرب .

---

(١) ابن طباطبا ، ص ١٢٤ .

(٢) ابن الجوزى ، المنتظم فى التاريخ ، ج٥ ، طبعة حيدرأباد الدكن ، ١٣٥٧هـ ، ص ١١٠ ؛ ويقول البيرونى إن هدف هؤلاء الشعوبيين « أن يستولى (زرد شت) على الأرض كلها ويزيل ملك العرب وغيرهم ويجمع الخلق على دين واحد » (البيرونى ، الآثار الباقية ، ص ٢١٣) .

أ — حركة بها فريد :

وأقدم الحركات الدينية المنصرية التي ظهرت في خراسان حركة قامت في صدر الدولة العباسية قبل ظهور أبي العباس السفاح ، في ركاب أبي مسلم الخراساني عندما كان يتولى زعامة الدعوة في خراسان ، وصاحب هذه الحركة رجل يقال له بها فريد من قرية روى من ابرشهر ، كان مجوسيا زردشتيا ويصلي الصلوات الخمس بلا سجود ، متياسرا عن القبلة ، وتكهن ، ودعا المجوس إلى مذهبه فاستجاب له خلق كثير » . (١)

وذكر البيروني أنه أمر أصحابه بالسجود لعين الشمس على ركبة واحدة والتوجه نحوها في الصلاة حيثما كانت وإرسال الشعور والجمم وبترك الزمزمة عند الطعام ، ونهاهم عن شرب الخمور وأكل الميتة ونكاح الامهات والبنات والأخوات وبنات الأخ ، وهي من صميم التعاليم الزردشية (٢) ، وقال بحلول الروح والرجعة ونهى عن ذبح الحيوان (٣). فوجه إليه أبو مسلم شبيب بن داح وعبد الله بن سعيد ، فعرضا عليه الإسلام ، وأسلم وسود ، ثم لم يقبل إسلامه لتكهنه . فقتل ، ولكن تعاليمه انتشرت في خراسان خاصة بعد مصرع أبي مسلم الخراساني ، أمل الشعوبية ورمزها .

ب — ثورة سنباذ : وأثار مصرع أبي مسلم غضب الجماهير في خراسان ،

---

(١) ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٤٤ .

(٢) البيروني الآثار الباقية ، ليبزج ١٩٢٣ ، ص ٢١٠ — الشهرستاني ، الملل والنحل ، تحقيق كيلاني ، ج ١ ص ٢٣٨ .

(٣) Browne (Edward) : A literary History of Persia, London 1909 . P . 308-310 — ابراهيم العدوي ، المجتمع العربي ومناهضة الشعوبية ، ص ١٩٢ .

فقد تجسدت فى أبى مسلم آمالهم ومبادؤهم التى يبطنونها وتهدف إلى إزالة دولة العرب ، فلما قتل أظهروا هذه المبادىء ، فظهر سنباذ فى خراسان يطالب بدم أبى مسلم والثأر له ، وظهر المسلمية أصحاب أبى مسلم فى بلاد ما وراء النهر .
أما سنباذ فكان مجوسيا من إحدى قرى نيسابور ، وكان من صنائع أبى مسلم وقائداً من قواده المقربين ، فلما علم الخرمية بقتل أبى مسلم خرج سنباذ من نيسابور فى عسكر كثيف من أتباعه — ومعظمهم من أهل الجبال والضياع — فغلب على نيسابور وقومس والرى وتسمى فيروز أصبهبذ ، واستولى وهو بالرى على خزائن أبى مسلم التى خلفها بالرى حين شخص إلى ابى العباس السفاح ، وكثرت جموع سنباذ من أهل الجبال وطبرستان ، فعاث فسادا فى إقليم الجبال وسبى الحرم ونهب الأموال ، وكان يظهر أنه يقصد الكعبة ويهدمها ، فوجه اليه المنصور جيشا عدته عشرة آلاف فارس بقيادة جهور ابن مراد العجلى فاشتبك مع سنباذ على طرف المفازة ما بين همذان والرى ، وعزم جهور على مطاولته ، فقدم سنباذ السبايا من النساء المسلمات على الجمال فلما رأين عسكر المسلمين قمن فى المحامل وصرخن : « وامحمداه ! ذهب الإسلام » فنفرت الإبل وتراجعت إلى معسكر سنباذ ، فاختلت صفوف عسكره فقاتلهم جهور وعسكره قتالا شديدا فولوا الأدبار ودارت عليهم الدائرة وقتل منهم ستون ألفا وسبى من ذراريهم أعداد كثيرة ، ثم قتل سنباذ بين طبرستان وقومس (١) .

ج — ثورة المسلمية : وفى نفس الوقت ثار المسلمية ، وهم فرقة من الخرمية

---

(١) اليعقوبى ، ج ٢ ص ٣٦٨ — الطبرى ، ج ٩ ص ١٦٩ (حوادث ١٣٧) — المسعودى ، ج ٣ ص ٢٩٤ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٨١ — ابن طباطبا ، ص ١٥٤ .

اتباع أبي مسلم يعتقدون بإمامته ويقولون إنه حي يرزق لم يمت حتى يظهر فيملأ الأرض عدلا (١). وتزعم الحركة المسلمية رجل اسمه إسحق الترك لاذ بالترك في بلاد ما وراء النهر، وأقام بها داعية لأبي مسلم، وادعى أن أبا مسلم محبوس في جبال الري، وأنه يخرج في وقت يعرفونه على نحو ما يزعمه الكيسانية في محمد بن الحنفية (٢). وفريق من المسلمية قطعوا بموته وقالوا بإمامة ابنته فاطمه وعرفوا لذلك بالفاطمية (٣). وزعم فريق من المسلمية ان أبا مسلم نبي أنفذه زرادشت، وادعى أن زرادشت حي لم يمت، وأصحابه يعتقدون أنه حي لا يموت وأنه يخرج حتى يقيم هذا الدين لهم (٤).

د — حركة الراوندية: ثم ظهرت الراوندية، وهي فرقه من فرق المسلمية الخرمية على رأى أبي مسلم، سميت كذلك نسبة لمدينة راوند مقر دعوتهم (٥)، وكانت هذه الفرقة قد انتشرت منذ أواخر العصر الاموى عندما اشتد السخط والتذمر بين الفرس على العرب الأمويين (٦)، فهي إذن حركة سابقة على قيام الدولة العباسية ولكنها ظهرت ظهورا ذى خطر في عصر المنصور وبالذات في

---

(١) المسعودي: ج ٣ ص ٢٩٣.

(٢) ابن النديم، الفهرست، ص ٣٤٥ — Browne, op., cit., p. 314.

(٣) المسعودي، ج ٣ ص ٢٩٣.

(٤) ابن النديم، ص ٣٤٥.

(٥) هي بليدة تقع بالقرب من قاشان وأصبهان وأصلها راهاوند بمعنى الخير المضاعف (ياقوت، معجم البلدان، مادة راوند).

(٦) يعتقد الدكتور ماجد أنه ربما كان الراوندية في الأصل أتباع فرقة إسلامية لعلها الكيسانية التي طالبت بحق آل البيت (ماجد، المرجع السابق، ص ٧٠).

أعقاب مصرع أبى مسلم الخراسانى ، شأنهم فى ذلك شأن المسلمية والخرمية والفاطمية . وكان الراوندية يعتقدون بالحلول والتناسخ (١) (بحلول روح الله فى أشخاص الأئمة من آل على ستراً للتعاليم الفارسية القديمة وراء شخصيات عربية إسلامية لتجد لها قبولاً بين ضعاف النفوس) (٢) .

ويذكر الطبرى أن رجلا من الراوندية كان يقال له الأبلق وكان أبرص زعم أن الروح التى كانت فى عيسى بن مريم صارت فى على بن أبى طالب ثم فى الأئمة فى واحد بعد واحد إلى إبراهيم بن محمد ، وأنهم آلهة ، واستحلوا [أى الراوندية] الحرمات ، فكان الرجل منهم يدعو الجماعة منهم إلى منزله فيطعمهم ويسقيهم ويحملهم على امرأته ، فبلغ ذلك أسد بن عبد الله [القسرى] فقتلهم وصلبهم . فلم يزل ذلك فيهم إلى اليوم ، فعبدوا أبا جعفر المنصور ، وصعدوا إلى الخضراء ، فألقوا أنفسهم كأنهم يطيرون ، وخرج جماعتهم على الناس بالسلاح ، فأقبلوا يصيحون بأبى جعفر : أنت أنت . قال : فخرج إليهم بنفسه فقاتلهم ، فأقبلوا يقولون وهم يقاتلون : أنت أنت» (٣) فكانوا يعتقدون أن ربهم الذى يطعمهم ويسقيهم هو أبو جعفر المنصور. وأتوا قصر المنصور بالهاشمية فجعلوا يطوفون به ويقولون: هذا قصر ربنا ، فأرسل المنصور إلى رؤسائهم فحبس منهم مائتين ، فأثار ذلك غضب عامتهم ، فعزموا على قتله ، واحتاط المنصور لنفسه ، فأمر بمنع التجمعات ، فأعدوا نعشا خاليا ، ثم مروا فى المدينة حتى اقتربوا من السجن فأخرجوا أصحابهم السجناء ، واتجهوا - وقد بلغ عددهم ستمائة - نحو القصر ،

---

(١) الطبرى ، ج ٩ ص ١٧٣ .

(٢) المجتمع العربى ومناهضة الشعوبية ، ص ١٠٥ .

(٣) الطبرى ، ج ٩ ص ٣٠٦ - ٣٠٧ .

وحاول المنصور أن يخرج لقتالهم، فمنعه معن بن زائدة ورمى بنفسه أمامه وحذره من الظهور أمامهم ، وتبادل حراس القصر والراوندية الهجوم ، ونودى فى الأسواق فأقبل الناس يحاربون الراوندية حتى قتلوهم (١) . وهكذا قضى المنصور على الراوندية فى سنة ١٤١ هـ (٧٥٨ م)

ومازال ظهور الراوندية وخروجهم على المنصور رغم عبادتهم إياه يكتنفه الغموض ، ولا يعقل أن تعزى حركتهم إلى رغبتهم فى الثأر لأبى مسلم ، لأن هذا الأخير قتل فى آخر سنة ١٣٦ وأول ١٣٧ ، فى حين أن حركتهم ضد المنصور قامت فى سنة ١٤١ . وقد ذكرنا فيما سبق أنهم قدموا إلى قصر المنصور فى عدد قليل لا يزيد عن ٦٠٠ ، وأنهم صعدوا إلى قصره الخضراء ، وأخذوا يلقون بأنفسهم كالو كانوا يطيرون وقد تسلطت على عقولهم فكرة ربوبيته لا يكترثون لما يصيبهم من الموت ، فتصدى لهم المنصور ، فكانوا يقولون : « أنت أنت » . ويورد الطبرى رواية على لسان أبى بكر الهزلى أنه قال : « إنى لواقف بباب أمير المؤمنين إذ طلع ، فقال رجل إلى جانبى : هذا رب العزة الذى يطعمنا ويسقينا . فلما رجع أمير المؤمنين ودخل عليه الناس ، دخلت وخلا وجهه ، فقلت له : سمعت اليوم عجبا ، وحدثته ، فنكث فى الأرض ، وقال : يا هذلى ، يدخلهم الله النار فى طاعتنا ويقتلهم أحب إلى من أن يدخلهم الجنة بمعصيتنا » (٢) . فلما حاربهم أبو جعفر المنصور وسجن من زعمائهم مائتين لم يعد له شرعية الحاكم فى نظرهم من الألوهية فجاز لهم قتله (٣) .

---

(١) راجع التفاصيل فى : الطبرى ، ج ٩ ص ١٧٤ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ٥٠٢ .

(٢) الطبرى ، ج ٩ ص ١٧٥ . والظاهر أن هذا القول ينطبق على حادثة وقعت قبل سنة ١٤١ عندما كان المنصور فى حاجة إلى أنصار يؤيدونه . أما وقد أصبح خليفة للإسلام وحاميا للدين فلم يعد يتقبل من المبادىء ما يتعارض مع الإسلام، ولهذا حاربهم .

(٣) الدورى ، العصر العباسى الأول ، ص ٩٠ .

ولم تكن حركة الراوندية ختاما للحركات الدينية العنصرية أو البدع والهرطقات ، ففي سنة ١٥٠ هـ خرج أستاذ سيس على المنصور في سجستان من بلاد خراسان وادعى النبوة ، وتبعه عدد كبير من الناس بلغ فيما قيل ثلاثمائة ألف مقاتل ، فتغلب بهم على عامة خراسان، وعندما تصدى له الأجشم المروروذي في أهل مرو الروذ قاتلوه قتالا عنيفا ، وهزموه وقتل الأجشم . فاضطر المنصور إلى تسيير جيش بقيادة خازم بن خزيمة لمحاربة أستاذ سيس ، وضم خازم إلى جيشه فلول الأجشم ، ونزل بموضع خندق حوله عليه وعلى عسكره ، وجعل له أربعة أبواب ، على كل منها ألف من رجاله . وأقبل أتباع أستاذ سيس وقد تسلحوا بالفؤوس ومعهم المرور ليطموا الخندق . فقاتلهم عسكر خازم على باب من الأبواب الأربعة ، ثم أنفذ أحد قواده واسمه الهيثم من أحد الأبواب التي شغل عنها أصحاب أستاذ سيس ويطوق عسكره من الخلف ، وفي هذه الأثناء خرج خازم من الخندق وقاتل أصحاب أستاذ سيس ليشغلهم ، واشتد القتال ، وإذا بأعلام الهيثم مقبلة ، فانهزم أصحاب أستاذ سيس ووضعت فيهم السيوف ، وبلغ عدد قتلاهم ٧٠ ألفا وأسراهم ١٤ ألفا ، وقبض على أستاذ سيس وصفد بالأغلال ، وحمل إلى بغداد حيث قتل في سنة ١٥١ هـ (١) .

هـ — الزنادقة : وفي عهد المهدي ظهر الزنادقة ، وأصلهم من أبرار المانوية وصديقيهم ، ويرجح أن كلمة زنديق مقتبسة من الأصل الآرامي صديق (٢) ، ثم أصبحت بالفارسية زنديك ، فعربت إلى زنديق بمعنى ملحد ، بدليل أن الزنادقة كانوا يقولون بالثنوية ويتبعون تعاليم ماني ، فقد ذكر المسعودي أنه

---

(١) اليعقوبي ، ج ٢ ص ٣٨٠ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ٥٩٢ وما يليها .

(٢) ابن النديم الفهرست ، ٣٣٣ — ٣٣٥ .

قبض فى البصرة فى زمن المأمون على عشرة من الزنادقة ممن يذهب إلى قول مانى ويقول بالنور والظلمة (١) . وكذلك يربط ابن النديم بين المنانية أتباع مانى وبين الزنادقة ويذكر أسماء رؤساء المنانية المتكلمين الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الزندقة (٢) . ثم تطور لفظ الزندقة واصبح يطلق على جميع أتباع الهرطقات والنحل الفارسية ، لافرق بين الخرمية والمزدكية والمانوية والمجوسية (٣) ، ثم تطور مرة ثانية حتى صار يشمل الملحدين أو المتشككين فى الدين .

وأول من طارد الزنادقة من خلفاء بنى العباس الخليفة المهدى ، ففى سنة ١٦٧ ه جد المهدى فى طلب الزنادقة والبحث عنهم فى الآفاق وقتلهم ، وولى عمر الكلواذى لتعقبهم ومطاردتهم ، وقبض على يزيد بن الفيض ، فأقر فسجن ولكنه هرب من سجنه (٤) . وذكر ابن طباطبا ، أن المهدى كان شديدا على أهل الإلحاد والزندقة لا تأخذه فى إهلاكهم لومة لائم (٥) . وفى أحداث سنة ١٦٩ يذكر ابن الأثير أنه اشتد فى طلب الزنادقة وقتل منهم جماعة من بينهم : على ابن يقطين ، ويعقوب بن الفضل بن عبدالرحمن بن عباس الذى أقر بالزندقة (٦) ، وولد لداود بن على العباسى (٧) ، ويضيف الطبرى إلى هذه الأسماء يزدان بن

(١) المسعودى ، ج ٣ ص ٤٢١ .

(٢) ابن النديم ، ص ٣٣٨ .

(٣) وذكر ابن النديم الفرق بين المانوية والديصانية والمرقيونية ، ونستدل من دراسة هذه المذاهب على وجود قرابة واضحة بينها .

(٤) الطبرى ، ج ١٠ ص ٩ — ابن الأثير ، ج ٦ ص ٧٥ .

(٥) ابن طباطبا ، ١٦١ .

(٦) قتله الخليفة الهادى وذلك بعد وفاة المهدى .

(٧) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٨٩ .

باذان كاتب يقطين (١) ، ويضيف اليعقوبى اسم صالح بن أبى عبيد الله كاتبه. (٢)

وأوصى المهدى ابنه الهادى يوماً وقد قدم إليه زنديق فاستتابه(٣) ، فأبى أن يتوب ، فضرب عنقه وأمر بصلبه — فقال : « يا بنى ، إن صار لك هذا الأمر فتجرد لهذه العصابة — يعنى أصحاب مانى — فإنها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد فى الدنيا والعمل للآخرة ، ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ومس الماء الطهور ، وترك قتل الهوام تحرجاً وتحوباً ، ثم تخرجها من هذه إلى عبادة اثنين : أحدهما النور والآخر الظلمة ، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات ، والاغتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق لتنقذهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور . فارفع فيها الخشب ، وجرد فيها السيف ، وتقرب بأمرها إلى الله لا شريك له ، فإنى رأيت جدك العباس فى المنام قلدنى بسيفين وأمرنى بقتل أصحاب الاثنين . فقال موسى [الهادى] بعد أن مضت من أيامه عشرة أشهر : أما والله لئن عشت لأقتلن هذه الفرقة كلها حتى لا أترك منها عيناً تطرف . ويقال إنه أمر أن يهيأ له ألف جذع ... ومات بعد شهرين » (٤) .

ومن مظاهر اهتمام المهدى بمطاردة الزنادقة وتتبعهم أنه خصص وظيفة لذلك عرف متوليها بصاحب الزنادقة ، وأول من تولى هذه الوظيفة عمر الكلواذى،

---

(١) الطبرى ، ج ١٠ ص ٢٣ .

(٢) اليعقوبى ، ج ٢ ص ٤٠٠ .

(٣) ذكر ابن الأثير أن المهدى استتاب فى سنة ١٦٦ داود بن روح بن حاتم ، واسماعيل بن مجالد ، ومحمد بن أيوب المكى ومحمد بن طيفور ، وأنه أخلى سبيلهم (ابن الأثير، ج ٦ ص ٧٣). وفى هذه السنة قتل بشار بن برد الشاعر على الزندقة .

(٤) الطبرى ، ج ١٠ ، ص ٤٢ .

فلما توفى فى سنة ١٦٨ هـ ولى مكانه محمد بن عيسى بن حمدويه ، فقتل من الزنادقة خلقا كثيراً (١) . وذكر السيوطى أنه كان « حسن الاعتقاد ، تتبع الزنادقة ، وأفنى منهم خلقا كثيرا ، وهو أول من أمر بتصنيف كتب الجدل فى الرد على الزنادقة والملحدين » (٢) .

والظاهر أن حركة الزنادقة كانت تشكل خطرا شديدا على المجتمع الإسلامى بإباحة الزندقة للموبقات والمحظورات من جهة ولأن شيوع الزندقة كان فى حد ذاته كفيلا بإضعاف الدين الإسلامى وبالتالى إضعاف سلطان الخليفة ، وهدم أساس الدولة وتفسخ مقومات المجتمع ، وعلى هذا الأساس يكون الدافع الرئيسى لظهور حركة الزندقة ، كراهية الفرس بوجه خاص للسلطان العربى وللإسلام ؛ ويعبر الجاحظ عن ذلك بقوله : « فإنما عامة من ارتاب بالإسلام إنما جاءه هذا عن طريق الشعوبية ، فإذا أبغض شيئا أبغض أهله ، وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة ، فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام إذ كانت العرب هى التى جاءت به وكانوا السلف » .

و — المقنعيـــة : وقد اقترن بظهـــور الزنادقة حركة أخرى عنصرية دينية فى مرو هدفها إحياء التعاليم المجوسية والدعوة إلى إعادة مجد إيران القديم وإنهاء السيادة العربية عليها تنسب إلى المقنع الخراسانى ، واسمه هاشم بن حكيم ، ولقب بالمقنع لأنه تبرقع بحرير أخضر فى رواية (٣) ، أو أنه اتخذ قناعا من ذهب

---

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٨٠ .

(٢) السيوطى ، ص ٢٥٣ .

(٣) البيرونى ، الآثار الباقية ، ص ٢١١ ، البغدادى ، الفرق بين الفرق ، ص ٢٥٧ .

لإخفاء وجهه في رواية ثانية (١) وربما يدل إخفاء وجهه عن أتباعه بأن الأحياء لا يستطيعون تحمل نوره. أشاع مؤرخو العرب أنه كان أعور (٢) وادعى الألوهية، وكان يقول بالحلول والتناسخ والإباحية في النساء، وكان يقول: إن الله خلق آدم، فتحول في صورته، ثم في صورة نوح، وهكذا إلى أن يصل إلى أبي مسلم الخراساني، ثم تحول إلى هاشم (أي نفسه، لأنه سمى نفسه هاشما) (٣). وتابعه في معتقداته عدد كبير من ضلال الناس وكانوا يسجدون له من أي النواحي كانوا، ويستنجدون به في الحرب فيقولون: ياهاشم أعنا (٤). وعمد الى اجتذاب الناس عن طريق الحيل التي ظن الناس في عصره أنها من المعجزات؛ ويذكر القزويني أنه، أنشأ بنخشب بئرا يصعد منها قمر يراه الناس مثل القمر، واشتهر ذلك في الآفاق والناس يقصدون نخشب لرؤيته ويتعجبون منه، وعوام الناس يحسبونه سحرا، وما كان إلا بطريق الهندسة وانعكاس شعاع القمر، لأنهم وجدوا في قعر البئر طاسا كبيرا مملوء زئبقا، (٥).

وتعتبر حركة المقنع استمرارا لحركة المسلمية الرزامية، فقد كان على دين الرزامية (٦)، والرزامية (وهم أتباع رزام بن رزم) فرق من المسلمية (٧).

---

(١) ابن الأثير، ج ٦، ص ٣٨ - ابن طباطبا، ص ١٦١.

(٢) ابن الأثير، ج٦، ص٣٨ - ابن طباطبا، ص ١٦٢. ولعله استهدف من هذا القناع إضفاء الغموض والسرية على شخصه (الفاروق عمر، حركة المقنع الخراساني، المجلة التاريخية، عدد (١)، السنة الأولى، بغداد ١٩٧٠، ص ١٣٧).

(٣) ابن طباطبا، ص ١٦٢.

(٤) ابن الأثير، ج ٦ ص ٣٩ - ابن طباطبا، ص ١٦٢.

(٥) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، طبعة صادر، بيروت، ١٩٦٠، ص٤٦٦.

(٦) البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٢٥٧.

(٧) عبد القاهر بن طاهر البغدادي، الفرق بين الفرق، القاهرة، تحقيق محي الدين عبد الحميد، ص ٢٥٦.

ويذكر الشهرستاني أن الرزامية ساقوا الإمامة إلى أبي مسلم فقالوا : له حظ في الإمامة وادعوا روح الإله فيه ، وقالوا بتناسخ الأرواح (١) . وأباح المقنع لأتباعه الأموال والمحرمات ، وحرم عليهم القول بالتحريم ، وأسقط عنهم الصلاة والصيام وسائر العبادات (٢) . وعلى هذا الأساس تكون مبادىء المقنع خرمية فارسية رزامية ذات طابع شعوبي ، لأن الرزامية نقلت الإمامة بعد السفاح إلى أبي مسلم (٣) ، وهذا يفسر رواج هذه النحلة بين أتباع أبي مسلم في بلاد ما وراء النهر ، فظهرت المبيضة ببخارى والصغد مناصرين له (٤) ، والمقصود بالمبيضة أتباع أبي مسلم في بلاد الترك ، وانتشار الحركة بين الترك ، واشتراك العناصر الناقمة على العباسيين فيها إنما يدل على أنها حركة عنصرية وسياسية .

ولما ضمن المقنع أنه كون قوة كبيرة يعتمد عليها ، بدأ يتخذ مركزا لتجميع قواته في قلعة بسنام وسنجردة من رساتيق كش سنة ١٥٩ وما إن حشد الحشود من أتباعه وحلفائه حتى بدأ يغير على النواحي المجاورة ويستولى على أموال المسلمين (٥) ثم تغلب على بعض الحصون وعلى نواكث ، وتصدى له من القواد العرب أبو النعمان والجنيد وليث بن نصر ، والتحموا معه مرة بعد مرة ، ولكنه تمكن في كل مرة من التغلب عليهم ، وقتل من العرب حسان بن

---

(١) الشهرستاني ، الملل والنحل ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، ج ١ ص ١٥٢ ، طبعة القاهرة ١٩٦١ .

(٢) البغدادي ، ص ٢٥٨ — الشهرستاني ، ج ١ ص ١٥٤ — الفاروق عمر ، حركة المقنع ، ص ١٤٠ .

(٣) الدوري ، ص ١١٧ .

(٤) البغدادي ، ص ٢٥٧ — ابن الأثير ، ج ٦ ص ٣٩ .

(٥) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٣٩ .

تميم بن نصر بن سيار ، ومحمد بن نصر وغيرهما ، ثم سير إليهم المهدى القائد جبرائيل بن يحيى وأخاه يزيد ، ولكن جيشه شغل طوال أربعة أشهر بمقاتلة المبيضة ببخارى ، فانهزم المبيضة وقتل منهم نحو سبعمائة ، ولحقت فلولهم بالمقنع ، ثم لاحقهم جبرائيل وحاربهم ، ولكن حربه السابقة مع المبيضة استنفذت قواه ، فأمده المهدى بإمدادات متتالية ، لم تؤد إلى نتائج (١).

واستفحلت حركة المقنع ، بعد انتصاراته السابقة ، فطغى وبغى ، وأصبح القضاء على حركته شاغل المهدى الاول ، فسير فى سنة ١٦١ هـ جيشا كثيفا بقيادة معاذ بن مسلم ، جعل على مقدمته سعيد الحرشى ، وخرج من زم جيش آخر بقيادة عقبة بن مسلم ، فالتقى الجيشان فى الطواويس حيث أوقعوا بأصحاب المقنع فهزموهم ، وامتنع المنهزمون بقلعة بسنام قاعدة المقنع فحصنها ، وحفر حولها خندقا ، وسعى الحرشى إلى الانفراد بالقيادة ، وقنع معاذ بن مسلم بإمداده بقسم من جيشه ، وحاصر المسلمون المقنع سنة ١٦٣ هـ حصارا شديدا ، فلما طال على أصحابه طلبوا الأمان سرا من الحرشى ، فأجابهم إليه ، فخرج منهم نحو ثلاثين ألفا ، ولم يبق مع المقنع سوى ألفين ، ثم اقتحم المسلمون الخندق ، واقتربوا من السور ، فلما أيقن بالهزيمة أبى أن يستسلم ، فجمع نساءه وأهله وسقاهم السم ، وأمر أن يحرق هو بالنار فى تنور بحصنه أذاب فيه النحاس ، حتى لا يمثل العرب بجثته ، وقيل إنه أحرق كل من فى قلعته ، ودخلت جيوش المهدى القلعة فألفوها خالية ، وكان ذلك من العوامل التى ساعدت على افتتان من بقى من أتباعه من المبيضة به (٢) إذ اعتقدوا أنه صعد

---

(١) نفس المصدر .

(٢) ابن الأثير ؛ ص ٥٢ ـ ابن طباطبا ؛ ص ١٦٢ .

إلى السماء (١) . وظلت بقية منهم حتى زمن المقدسى (٢) ، بل استمروا حتى أيام ابن العبرى (٣) .

ز — البابكية الخرمية : تعتبر هذه الحركة أخطر الحركات الدينية العنصرية فى تاريخ الدولة العباسية على الإطلاق ، وتنسب هذه الحركة إلى بابك الخرمى الذى ظهر فى عهد المأمون عندما كان مقيما فى مرو ، ووضحت خطورة بابك عندما نجح فى التغلب على جيش بعث به المأمون لقتاله فى سنة ٢٠٩ هـ (٨٢٦م) وفى أسر قائد هذا الجيش أحمد بن الجنيد الإسكافى (٤) .

وقبل أن نتعرض لموقف العباسيين منهم ، لابد أن نشير إلى أن البابكية الخرمية كانوا يذهبون مذهب الخرمية والمزدكية من إباحة اللذات والشهوات والمواساة والاختلاط ، ولكنهم يبيحون — بخلاف المزدكية — القتل والغصب والمثلة (٥) . والظاهر أن بابك اتصل فى شبابه بزعيم الخرمية فى جبل البذ واسمه جاويدان بن سهرك ، وحدث أن أصيب جاويدان فى إحدى المعارك وكانت إمرأة جاويدان تتعشق بابكا ، فلما مات جاويدان اتفقت معه على أن تعلن أمام الملأ أن جاويدان قال فى لحظة انتقاله : « إنى أريد أن أموت فى هذه الليلة وإن روحى تخرج من بدنى وتدخل فى بدن بابك وتشترك مع روحه ،

---

(١) البغدادى ، الفرق بين الفرق ، ص ٢٥٩ .

(٢) المقدسى ، ص ٣٢٣ . وظلوا أيضا فى زمن عبد القاهر بن طاهر البغدادى .

(٣) ابن العبرى ، مختصر أخبار الدول ، تحقيق الأب أنطون صالحانى اليسوعى ، بيروت ١٩٥٨ ، ص ١٢٦ .

(٤) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٣٩٠ .

(٥) ابن النديم ، الفهرست ، ص ٣٤٢ .

وأنه سيبلغ بنفسه ويكم أمرا لم يبلغه أحد ولا يبلغه بعده أحد ، وأنه يملك الأرض ، ويقتل الجبابرة [أى العرب] ويرد المزدكية ، ويعز به ذليلكم ويرتفع به وضيعكم » ، وعندما أعلنت ذلك أمام أتباع جاويدان، قبلوا وصيته وارتضوا به زعيما عليهم (١) .

وعظم أمر بابك بالبذ ، وفشل المأمون فى استنزاله ، ومنيت الجيوش التى سيرها لذلك بالهزيمة والفشل ، وعرف أصحاب بابك بالمحمرة (٢) لأنهم صبغوا ثيابهم باللون الأحمر شعارهم .

وكان البابكية يهدفون سياسيا إلى القضاء على سلطان العرب السياسى والإسلام كما وضح فى وصية جاويدان ، لإعادة المزدكية ، ونصرة العجمية ، وكانوا يذهبون إلى القول بالجهاد ضد الجبابرة المتسلطين من العرب ويسمونهم اليهود (٣) . وقد اعتبر العباسيون الخرمية البابكية هرطقة على الرغم من اتخاذ الخرمية لجميع المظاهر الإسلامية من الصوم والصلاة (٤) ، وذلك لأنهم باطنية أى يبطنون من القصد غير ما يظهرون. وكانوا يتبعون التقاليد الفارسية القديمة فى معاملاتهم التقليدية كالزواج والأعياد والرسوم الجنائزية ويبيحون المحرمات .

بدأ بابك بضم أذربيجان إلى دعوته ، ثم انتشرت دعوته فى إقليم الجبال ،

---

(١) نفس المصدر ، ص ٣٤٤ .

(٢) اليعقوبى ، ج٢ ص ٤٧١ — البغدادى ، الفرق بين الفرق ، ص٢٦٨ .

(٣) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤٧٤ .

(٤) يذكر البغدادى أنهم بنوا مساجد للمسلمين فى جبالهم وأنهم يعلمون أولادهم القرآن ولكنهم لايصلون فى السر ولا يصومون (البغدادى ، الفرق بين الفرق ص٢٦٩).

فدخلت جماعة كبيرة من أهل هذا الإقليم (من همذان وأصبهان وماسبذان ومهرجا نقذق) فى دين الخرمية ، وتجمعوا فعسكروا فى عمل همذان (١) . ثم خرجت المحمرة أصحاب بابك بالجبل فقتلوا وقطعوا الطريق وتعرضوا لحاج خراسان فهزموهم وقتلوا منهم جماعة ، فوجه المعتصم لقتالهم جيشا بقيادة هاشم بن باتيجور ، فاشتبك معهم فهزموه (٢) ، فوجه المعتصم إليهم إسحاق بن إبراهيم بن مصعب فى جيش فى شوال سنة ٢١٨ هـ ، فوافهم . وانتصر عليهم وقتل منهم فى عمل همذان ستين ألفا ، وفر باقيهم إلى بلاد الروم (٣) بينما أسر عددا من الخرمية والمستأمنة قدم بهم إلى بغداد فى ١١ جمادى الأولى .

واشتدت شوكة بابك ودخل عصمة الكردى صاحب مرند فى طاعته ، (٤) ودخل فى الخرميه جماعة من أكراد جبل البذ . وفى سنة ٢٢٠ تحايل محمد بن البعيث صاحب قلعة شاهى بأذربيجان للقبض على عصمة الكردى ونجح فى خطته ووقع عصمة أسيرا فى يده ، فقد تظاهر ابن البعيث بمشايعته لبابك ، وفتح باب حصنه لسراياه ينزلون فى ضيافته ، فوجه بابك قائده عصمة فى سرية ، فنزل عصمة فى ضيافة ابن البعيث ، فأكرمه هو وأصحابه وأغدق لهم الخمر حتى سكروا ثم وثب على عصمة فأوثقه ، وقتل من كان معه من أصحابه ولاذ بعضهم بالفرار ، ثم سير عصمة إلى المعتصم فسجنه ، وظل سجينا حتى أيام الواثق (٥) .

(١) الطبرى ، ج ١٠ ص ٣٠٥ .

(٢) اليعقوبى ، ج ٣ ص ٤٧١ .

(٣) الطبرى ، ج ، ص ٣٠٥ .

(٤) اليعقوبى ، ص ٤٧٣ .

(٥) اليعقوبى ، ص ٤٧٣ — ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤٤٨ . ولقد تعرض عصمة لاستجواب العباسيين فدلهم على عورات بابك .

وانتشرت الحركة البابكية فى طبرستان وجرجان وأرمينية ودخل فيها قسم كبير من الديالمة ، واشترك فيها عدد من الدهاقين أمثال المازيار إصبهبذ طبرستان الذى كان يكاتب بابك (١) ، ومنكجور أحد أقارب الأفشين وكان يتولى أردبيل (٢) - وقيل إنه كان يتولى أذربيجان (٣) - وعندئذ وجه المعتصم قائده الأفشين إلى بلاد بابك ، فنزل برزند (من نواحى تفليس) وعسكر بها ، وضبط الطرق والحصون فيما بين برزند وأردبيل ، ووزع الأفشين رجاله فى مواضع مختلفة تحصنوا فيها وطردوها من أتباع بابك ، واتخذوهم عيونا لهم وأدلة يدلونهم على عورات بابك ومسالك بلاده ، وكان رجال الأفشين إذا ظفروا بأحدهم حاوه إليه ، فكان يحسن إليهم ويسألهم عن الذى يعطيه لهم بابك ، فيضاعفه لهم ويقول لهم : « كونوا جواسيس لنا (٤) » .

وظهرت ثمرة هذه السياسة الموفقة عندما وجه المعتصم بغا الكبير إلى الأفشين ومعه أموال الجند ونفقاتهم ، فلما وصل بغا إلى أردبيل تهيأ بابك لاعتراضه ، فاتصل جاسوس بالأفشين وحذره ، وعلى هذا النحو أعد الأفشين عدته واشتبك مع بابك فى قتال عنيف انتهى بهزيمة بابك ، ولم يفلت من رجاله أحد ، ونجا هو فى نفر قليل من خيالته ولاذ بموقان ومنها إلى البذ ، وانتقم بعد ذلك من الأفشين ، فكان يتعرض للقوافل التى تحمل لجند الأفشين ميرتهم وأطعمتهم ويستولى عليها ، وسبب للأفشين بذلك مضايقات كثيرة (٥) .

---

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤٩٦ .

(٢ نفس المصدر ، ص ٥٠٠ .

(٣) اليعقوبى ، ص ٤٧٧ .

(٤) ابن الأثير ، ج٦ ص ٤٤٩ .

(٥) نفس المصدر ، ص ٤٥١ .

وفى سنة ٢٢١ حدثت وقائع بين الأفشين وبين بابك ، انتصر فيها بابك مرة، وانتصر الأفشين مرة ، ووقع أحد كبار قواد بابك ـ واسمه طرخان ـ أسيرا فى يد ترك ـ مولى إسحق بن إبراهيم ـ فقتله بمراغة .

وأمام اشتداد هجمات المسلمين ومرابطة الأفشين فى المنطقة ما بين برزند وأردبيل على مدار السنين ، اضطر فل بابك إلى اللجوء إلى أراضى الدولة البيزنطية حيث أفسح لهم الإمبراطور تيوفيل المجال لدخول أراضيه وقتما شاءوا ، والواقع أن تيوفيل رأى فى حركة بابك فرصة للانتقام من الخلافة العباسية التى وقفت موقفا مؤيدا من ثورة توماس الصقلبى على أبيه ميشيل العمورى ، ولهذا السبب احتضن تيوفيل أتباع بابك ، وفتح لهم أبواب بلاده فى زمن المأمون ، حيث دخلوا فى خدمة الإمبراطور ، عند ما كان يشن غاراته على الحدود الشرقية لبلاده ، واستمرت الغزوات متبادلة بين المسلمين والبيزنطيين فى عهدى المأمون وتيوفيل تبادل فيها الفريقان النصر والهزيمة ، فلما عزم المعتصم على إخماد حركة بابك عزما قاطعا ووجه قائده الأفشين وأمده بإيتاخ وجعفر الخياط ، أرسل بابك إلى تيوفيل يحرضه على مهاجمة أراضى المسلمين حتى يخفف بذلك ضغط المعتصم على بابك ، ووعده فى مقابل ذلك باعتناق المسيحية ، فاستجاب تيوفيل لرغبته ، وهاجم حصن زبطرة فى سنة ٢٢٣هـ (٨٣٧ م) وأوقع بأهلها (١)، وكان معه من المحمرة ـ أى الخرمية ـ عددا كبيرا يصل إلى ٢٠ ألفا ، ثم أغار على ملطية وسبى المسلمات ومثل بمن وقع فى يده من المسلمين وسمل أعينهم وقطع أنوفهم وآذانهم ، وعاد بعد ذلك إلى القسطنطينية مظفرا منصورا .

ولكن حملة تيوفيل لم تثن المعتصم عن خطته فى القضاء على

---

(١) ابن الأثير ، ص ٤٧٩ .

بابك ، فقد آثر ألا يبادر بالانتقام لحـــادثة زبطرة قبل أن يتخلص نهائيا من بابك ؛ وكانت قـــوات الأفشين قد اقتربت من البذ ، فتحول الأفشين من كلان روذ متجها ببطء إلى مركز قيادة الخرمية فى جبل البذ ، وكان بابك قد نصب له عددا من الكمائن ولهذا السبب حرص الأفشين على التمهل ، وكان يأمر الكوهبانية (أصحاب الأخبار) بالبحث فى قمم الجبال عن مواضع يتحصن فيها عسكره خوفا من هجمات الخرمية من المطاولة ، فتقدموا باب البذ وانطلق منهم جماعة يهاجمون أصحاب جعفر الخياط وارتفعت صرخاتهم ، وكان مع أبى داف فرقة من المتطوعة ، فتعلقوا بالبذ وتسلقوه ، وارتفعت صيحاتهم فظن كمناء بابك أن اشتباكا وقع ، فتحركوا ، فعرف الأفشين مواضعهم ؛ ثم زحف بجيشه متجنبا مواضع الكمناء ، وهاجم جعفر والمتطوعة سور البـذ ، وأوصى رجاله بأن يرفعوا الأعلام السوداء عندما تخرج لهم كمائن الخرمية ، ثم أرسل الأفشين فرقة من الرجالة النشابة عدتهم ألف رجل لتسير فى جبـال وعرة حتى تصل إلى جبل شاهق بدون أن يعلم بهم أحـد من رجـال بابك ، وأوصاهم ألا يتحركوا حتى يأتيهم خبر منه ، فإذا رأوا أعـلام الأفشـين فى الغد ركبوا أعلامهم فى الرماح وانحدروا من فوق الجبل ورموا الخرمية بالنشاب والصخر ، وعلى هذا النحو تمكن الأفشين من تطويق عسكر بابك وإحباط كائنه ، ودخل البذ ودمر قصور بابك بالنفط وأحرقها ، ووقع فى أيدى قواد المعتصم أبناء بابك ، بينما استطاع هو الفرار بقصد إعادة جمع صفوف أتباعه ومحاربة العرب من جديد ، ولكنه وقع أسيرا فى يد البطريق سهـل بن سنباط بأرمينية ، فسلمه بدوره إلى الأفشين ، فأمر الأفشين له بمليون درهم ومنطقة مغرقة بالجواهر وتاج البطرقة مكافأة لما قدمه للعرب بتسليم بابك (١) .

---

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤٦٢ — ٤٧٤ .

ثم قدم الأفشين ومعه بابك الخرمي إلى سامرا في صفر سنة ٢٢٣، فشهره المعتصم، ثم أدخل قصره، فأمر بإحضار سياف بابك، فحضر، فأمره أن يقطع يديه ورجليه، فقطعها، ثم أمره بذبحه، ففعل، وشق بطنه، وأنفذ رأسه إلى خراسان، وصلب بدنه بسامرا.

وأحصى ضحايا حرب بابك مدة عشرين سنة فكانوا ٢٥٥٠٠٠ شخص، وكان مجموع أسرى بابك من المسلمين ٣٣٠٩ شخصا، وعدد الأسرى من النساء والصبيان ٧٦٠٠ شخصا[1].

وأحدث مقتل بابك رد فعل بين أتباعه الخرمية، فثار مازيار (محمد بن قارن بن بنداد هرمز) إصبهبذ طبرستان على المعتصم في سنة ٢٢٤ هـ، وعلى الرغم من أن المصادر العربية تشير إلى أن سبب قيامه بالثورة إنما يرجع إلى خلاف قام بينه وبين عبد الله بن طاهر حول خراج طبرستان، فكان عبدالله ابن طاهر يطالب المازيار بحمل هذا الخراج إلى الخليفة في حين أصر مازيار على أن يسلمه لمندوب الخليفة، فلما قضى الأفشين على حركة بابك طمع في ولاية خراسان وأراد أن ينتزعها من ابن طاهر، فكتب يستميل مازيار ويغريه بإعلان الثورة فيسير المعتصم إلى حربه، ويتخذ الأفشين ذلك ذريعة لانتزاع خراسان من الطاهريين[2]. ويؤكد الباحثون أن لحركة المازيار واتصال هذا الأخير بالأفشين معنى بعيداً، فقد كان المازيار على اتصال ببابك، وكان يكاتبه ويحرضه ويعرض عليه النصرة، مما يدعو إلى الاعتقاد بوجود أهداف مشتركة

---

(١) المصدر نفسه، ج ٦ ص ٤٧٨.

(٢) الطبري، ج ١٠ ص ٣٤٨ - ابن الأثير، ج٦ ص ٤٩٦.

بينهما ، ويشير البغدادى إلى أن المازيار كان خرميا من المحمرة(١) ، كما يشير ابن الأثير إلى أنه كان يأمر أكرة الضياع بانتهاب أربابها(٢) ، وكان العدد الأعظم من ملاك الضياع من العرب أو من مواليهم، ولم يكتف بذلك بل إن سرخاستان عامله على سارية كان يأمر الفلاحين بقتل أرباب الضياع(٣) . وهكذا كانت حركة المازيار حركة فارسية دينية سياسية تهدف إلى التحرر من سلطان العرب بل والقضاء عليه وعلى الإسلام . وثبت من تحريات عبدالله بن طاهر وأعوانه أن الأفشين متواطىء مع المازيار، وأنه كان يبعث أيام حربه ضد بابك بجميع ما يتلقاه من هدايا إلى أشروسنة ،وكلما تهيأ لديه قدر من المال حمله أوساط أصحابه بقدر طاقتهم، فقد فتش جماعة من أعوان الأفشين وصادر المال، فكتب له الأفشين يأمره بأن يطلق أعوانه ليمضوا إلى أشروسنة(٤) ، ثم ثبت فيما بعد أن الأفشين كان يكاتب المازيار ويشجعه على الثورة وعلى مخالفة الخليفة(٥) ، ولكن المعتصم تكتم الأمر ولم يفصح عنها بنفسه للأفشين وآثر أن يقضى قبل كل شيء على المازيار ثم يتفرغ للأفشين . وكان سرخاستان أعظم قواد المازيار قد استخدم مع العرب — فى المناطق الخاضعة للمازيار — منتهى القسوة والعنف فى جمع الأموال ، فأخذ أهل آمل وأهل سارية جميعهم وكبلهم بالحديد ثم نقلهم إلى جبل يقال له هرمز أباذ وحبسهم فيه ، وكان عددهم عشرين ألفا ، ثم أمر بتخريب سور آمل وسور سارية وطميس فخربت(٦) . وفعل

---

(١) البغدادى ، الفرق بين الفرق ، ص ٢٦٨ .

(٢) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤٩٦ .

(٣) الطبرى ، ج ١٠ ص ٣٥٣ .

(٤) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٥١١ .

(٥) الطبرى ، ج ١٠ ص ٣٦٠ .

(٦) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤٩٦ .

المازيار نفس هذه الأفعال فى مدن خراسان التابعة له ، فجبى من أموال الخراج فى شهرين ما كان يؤخذ فى سنة .

وبادر المعتصم بإرسال الجيوش لمحاربة المازيار ووضع حد لأعماله العنيفة، فسير محمد بن إبراهيم بن مصعب ومعه الحسن بن قارن الطبرى من العراق ، وسير المنصور بن الحسن ـ صاحب دنباوند ـ إلى الرى ليدخل طبرستان من هذه الجهة ، وكان عبد الله بن طاهر قد أنفذ عمه الحسن بن الحسين فى جيش كثيف للدفاع عن جرجان ، كما وجه حيان بن جبله فى أربعة آلاف إلى قومس(١) وأحدقت القوات العباسية بمازيار من كل جانب ، فعمـــد مازيار إلى اصطناع أقصى وسائل التعذيب مع المعتقلين لاستصفاء أموالهم ، وعمد قائده سرخاستان إلى أن يدعم مركزه بقتل الأهالى المعروفين بميولهم نحو العرب والعباسيين ، فجمع منهم نحو ٢٦٠ فتى وقال لأتباعه من الأكرة : « ان الأبناء هواهم مع العرب والمسودة، ولست آمن غدرهم ومكرهم ، وقد جمعت أهل الظنة ممن أخاف ناحيته ، فاقتلوهم لتأمنوا ، ولا يكون فى عسكركم من يخالف هواه هواكم(٢) » . فأمر بكتفهم ودفعهم إلى الأكرة والفلاحين فقتلوهم عند قناة ورموا بجثثهم فى مجرى القناة .

وفى هذه الأثناء، ضاق حرس سرخاستان بأعماله، وتآمروا مع قوات الحسن ابن الحسين على أن يسهلوا لهم مهمة اقتحام السور ، ونصبوا العلم العباسى على السور فى معسكر سرخاستان ، وبلغ سرخاستان الخبر فخرج هاربا من حمامه فى غلالة ، وتمكن المسلمون من الاستيلاء على معسكر سرخاستان ووقع أخوه

(١) الطبرى ، ج ١٠ ص ٣٥٢ - ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤٩٦ .
(٢) الطبرى ، ج ١٠ ، ٣٥٢ .

شهريار أسيرا ، أما هو فقد قبض عليه نفر من غلمانه وسلموه إلى الحسن بن الحسين فأمر بقتله(١) ، ووجه برأسه إلى عبد الله بن طاهر . وفتت هزيمة سرخاستان ومصرعه من عزيمة مازيار ، وانشق عليه جنده لاستبداده وطغيانه بإيعاز من قوهيار ابن عم مازيار ، فاستدعى مازيار ابن عمه قوهيار وأطلعه على مكاتبات جرت بينه وبين الأفشين كان يشجعه فيها على شق عصا الطاعة على الخليفة ، ثم أسند إليه مهمة الدفاع عن منطقة جبال طبرستان التى كان يتولى إدارتها قبل قيام المازيار بثورته ، واطمأن مازيار إلى هذه المنطقة المعروفة بكثرة مضايقها ووعورة مسالكها إذ وكل بحمايتها إلى قوهيار ، ولكن قوهيار أدرك عبث محاولاته فى الدفاع عن هذه المناطق ، فكاتب الحسن بن الحسين يعرض عليه انضمامه إليه والعمل على تسليم المازيار إذا تعهدت الدولة العباسية بتوليه تلك المناطق الجبلية التى يعتبرها إرثا له عن أجداده ، كما أبلغه بخبر الكتب التى كان يتبادلها الأفشين ومازيار ، فوعده الحسن بتنفيذ كل ما طلبه وضمن له أن يعيده إلى جبله ، فرضى قوهيار بذلك وواعدهم يوما يسلم فيه الجبل ، فتسلمه عسكر الحسن ، وفى نفس الوقت كان الحسن قد سير جيشا لمحاربة درى أحد قواد مازيار ، فلم يشعر مازيار وهو فى قصره إلا والخيل على باب قصره ، فأسره الحسن بن الحسين ، وأرسله إلى عبد الله بن طاهر والى خرسان الذى سيره إلى المعتصم . وذكروا أن عبد الله بن طاهر استجوب مازيار عن أمر الكتب التى أرسلها الأفشين إلى مازيار يشجعه فيها على الثورة ويؤمله فى استرجاع دين المجوسية القديم ، واعترف مازيار بأمر الكتب ، فطلبت هذه الكتب فوجدت ، فسيرها إلى المعتصم (٢) . فلما سأله المعتصم عن الكتب لم يقر بها ، فأمر بضربه

(١) الطبرى ، ج ١٠ ، ص ٣٥٤ — ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤٩٧ .

(٢) الطبرى ، ج ١٠ ص ٣٦١ — ابن الأثير ، ج ٦ ص ٥٠٤ .

حتى الموت ، فلما مات صلبت جثته إلى جانب بابك ، وانهارت بذلك ذيول حركة بابك والخرمية .

أما الأفشين فكان المعتصم قد أمر بالقبض عليه وحبسه قبل استنزال مازيار لأسباب : منها قيام منكجور أحد قرابته بإخفاء أموال فى أذربيجان عن المعتصم وخروجه على الدولة ، ولكن المعتصم نجح فى إخماد حركته وسجنه وعندئذ اتهم الأفشين فى أمره (١) ؛ ومنها أن الأفشين تآمر على قتل المعتصم بدس السم له ، واتفق مع بعض قادته على الفرار إلى بلاد أرمينية ثم بلاد الخزر (٢) ، ومنها أن مازيار أقر على الأفشين بأنه بعثه على الخروج والعصيان لمذهب كانوا اجتمعوا عليه ، ودين اتفقوا عليه من مذاهب الثنوية والمجوس (٣) .

ثم عقد المعتصم محاكمة للأفشين فى قصره فى يوم ٥ ذى القعدة سنة ٢٢٥ بحضور الوزير محمد بن عبد الملك الزيات وأعيان الدولة ، ووجهت إليه تهمة التآمر على سلامة الدولة واتصاله بجماعة المازيارية ، وتمسكه بالثنوية (٤) ، وووجه الأفشين فى كل اتهام بالشهود والأدلة ، واتضح من محضر المحاكمة — الذى سجله الطبرى كاملا (٥) — أن الأفشين كان يبغض العرب ويعمل على

---

(١) اليعقوبى ، ص ٤٧٨ — الطبرى ص ٣٦٣ — ابن الأثير ، ج ٦ ص ٥٠٦ .

(٢) الطبرى ، ج ١٠ ص ٣٦٤ وما يليها — ابن الأثير ، ج ٦ ص ٥١٢ .

(٣) المسعودى ، ج ٣ ص ٤٧٣ .

(٤) وذكروا فى هذا الشأن أن الأفشين جلد فى أشروسنة مؤذنا وإماما أقاما مسجدا هناك ، وأنه عثر عنده على كتاب مزين بالذهب والجوهر والديباج فيه كفر بالله ، كما اتهم بأكل اللحوم المخنوقة غير المذبوحة ، وأن أهل أشروسنه كانوا يكتبون إليه «إلى إله الآلهة من عبده فلان» ، واتهم أيضا بأنه غير مختتن ، وهذه أدلة على أنه من الخرمية (راجع ابن الأثير ، ج ٦ ص ٥١٣ وما يليها) .

(٥) الطبرى ، ١٠ ص ٣٦٥ ، ٣٦٦ .

إذالتهم ، وأن إسلامه كان سطحيا مظهريا،وأنه كان يبطن الخرمية أو البوذية، إذ عثر عنده على أصنام زعموا أنها كانت تحمل معه (١) . وأمر المعتصم بحبسه، ولما مات فى سجنه أحرقت جثته .

وهكذا أسدل الستار على ذيول حركة دينية سياسية هدامة كادت تقضى على كيان الدولة العباسية .

(١) المسعودى ، ج ٣ ص ٤٧٥ .

الفصل الرابع

السياسة الخارجية للدولة العباسية

كان العالم الإسلامي عالما كبيرا يمتد وسط العالمين الشرقي والغربي، ويحيط بالعالم الإسلامي شعب الروم في آسيا الصغرى واليونان وإيطاليا الجنوبية ، ثم الفرنج في إيطاليا الشمالية وفرنسا، ثم الترك والصينيون على حدوده الشمالية والشرقية ، ثم الهنود على حدوده الجنوبية الشرقية . وقد اتصل العباسيون بجيرانهم جميعا (١) اتصال حلف على أساس اتفاقات ومعاهدات ، أو اتصال حرب — مع الروم وأحيانا مع الهياطلة الترك — تنقطع من حين إلى حين بعقد هدنات قصيرة يفادون فيها أسراهم ، ثم كانت هذه الحرب لا تمنع بعد ذلك من الاتصال السلمي ، فكانت التجارات تسير بين البلاد المتحاربة بين العرب والروم في آسيا الصغرى ، وبين أهل الأندلس والفرنجة .

والسياسة الخارجية لأي دولة هي العامل الأساسي الذي يؤثر على كيانها ، فهي أقوى من السياسة الداخلية ، والأمثلة على ذلك كثيرة في التاريخ . فسياسة

---

(١) في العصر العباسي الأول تحتل السياسة الخارجية العباسية مكانا بارزا في ظل سلام إسلامي ساعد على تسرب حضاري واسع النطاق من الهند والصين وبلاد ماوراء النهر بل ومن اليونان والغرب الأوربي ، وكان لذلك التسرب أثره الكبير في تشكيل الحضارة الإسلامية،إذ اقتبس العرب من الثقافات اليونانية والهندية والصينية والفارسية عناصر هامة كان لها فضلها في الازدهار الذي أصابه الحضارة الإسلامية في العصر العباسي . كذلك ساعد السلام الإسلامي والاحتكاك السلمي بين المسلمين وشعوب آسيا الوسطى من جهة والشعوب المجاورة لهم في الشمال الغربي على انتشار التجارة وظهور الموانيء الإسلامية الآسيوية كالبصرة وسيراف وعدن ، وتكدس الأسواق الإسلامية بمتاجر الشرق والغرب .

دولة الرسول فى المدينة خارجيا هى التى أتاحت لهـــا توحيد الجزيرة العربية وأنشأت النظام النبوى المعروف ، كذلك كانت سياسة عمر الخارجية فى الفتوح هى العامل الأول فى تشكيل الدولة العربية ، كما أن ثبات الأمويين فى مركز الخلافة مدة طويلة — رغم كراهية الشعوب لهم — يرجع فى الحقيقة إلى سياستهم الخارجية الرائعة وإلى الانتصارات المتوالية التى أحرزوها فى البر والبحر على دولة الروم .

ويتفق سقوط الدولة الأموية مع نهضة الجيش البيزنطى وإعادة تنظيمه على يد الأسرة الامبراطورية المعروفة بالايسورية ويكاد المؤرخ يرجح إرجاع سقوط الدولة الأموية إلى ضآلة الانتصارات التى أحرزتها فى حرب الروم قرب نهاية الدولة ، فأحس الناس بعـــد أن تقوى الجيش البيزنطى أن قوى الأمويين لم تعد كما كانت، ولعل النظرية القائلة بتوقف كيان الدولة على سياستها الخارجية نظرية مستمرة فى التاريخ حتى العصر الحديث . فالعلاقات الخارجية لاية دولة من الدول يجب أن توضع فى المرتبة الأولى .

أولا
سياسة الدولة العباسية مع جاراتها الاسلامية فى المغرب والمشرق

(١)

سياسة الدولة العباسية مع الأمويين فى الأندلس

نجح الأمير عبد الرحمن بن معاويه فى الإفلات من أيدى العباسيين رغم المحاولات العديدة التى قام بها هؤلاء لاقتناصه، واستطاع أن يصل سليما إلى كورة فلسطين، وهناك التقى بغلام بدر وبسالم أبى شجاع غلام شقيقته [١]، وكانا يحملان إليه نفقة وشيئا من جوهر، وانطلق معهما من موضع إلى موضع متخفيا حتى وصل إلى مصر، ثم سار منها إلى برقة، فبقى فيها مستترا مدة، ثم رحل عنها فأوغل فى أفريقية وقد توافى بها عدد من أهل بيته، وكان يلى أفريقية والمغرب منذ أيام مروان بن محمد سنة ١٢٩ هـ رجل يعرف بعبد الرحمن ابن حبيب الفهرى، استقل بولايته منذ أن قتل مروان وخرج عن طاعة الخليفة العباسى السفاح والمنصور، وخاف عبدالرحمن بن حبيب من وجود عبد الرحمن ابن معاوية فى المغرب وخاف من نشاطه السياسى وسطوته، وعمد إلى مطاردته والتخلص منه وكان عبد الرحمن بن معاويه فى الواقع يهدف إلى تكوين إمارة أموية فى المغرب أو الأندلس تكون استمرارا للدولة الأموية فى المشرق، فقد كان شابا طموحا، فى العشرين من عمره، يتدفق حماسة ويفيض أملا فى إحياء هذه الدولة فى الغرب، وكان يدفعه إلى ذلك ويجدد عزمه مازعموه من نبوءة مسلمة بن عبد الملك له وهو ابن عشر سنوات.

---

(١) المقرى، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ١ ص ٣١٢.

وقاسى عبد الرحمن بن معاوية مرارة العيش فى أرض المغرب طريدا شريدا، واحتمل آلام الفرار والاختفاء بدون ضعف أو استسلام ، واستقر به المطاف أخيرا عند أخواله من قبيلة نفزة وكانت تقيم قريبا من سبتة (١) معبر الأندلس. وكانت الأندلس وقتئذ تموج بالفوضى والاضطراب بسبب الفتن والعصبيات والقبلية ، وهنا لاحت لعبدالرحمن بن معاوية بارقة من الأمل ، فلا بد له وهو سليل خلفاء بنى أمية العظام أن يجد لنفسه وسط هذا الصراع مجالا يجـــدد فيه دولة أجداده، وتملكه هذا الأمل تملكا شديدا ، وشرع فى استغلال هذا الوضع لمصلحته ، فبدأ من جديد محاولاته التى أخفقت فى المغرب .

واتصل وهو بالمغرب بموالى المروانية - الموالين لبنى أمية - فى الأندلس عن طريق مولاه بدر ، وبفضل هؤلاء الروانية استطاع أن يعتمد على العصبية اليمنية الموتورة من المضرية والقيسية كما سبق أن أسلفنا القول ، وكان اليمنية يتلهفون للثأر من المضرية الذين أطاحوا بسلطانهم ، فلما عـــرض عليهم بدر مولى عبد الرحمن الأموى رغبة مولاه فى دخـول الأندلس بشرط أن تساعده اليمنية وتنصره رحبوا به ترحيبا بالغا (٢) ، وما إن وصلت هـــذه الأنباء الطيبة إلى عبد الرحمن حتى بادر بركوب البحر إلى الأندلس فدخلها فى آخـر ربيع الثانى سنة ١٣٨ هـ (٣) (٧٥٥ م) -ولذلك سمى بالداخل -واستقبله موالى المروانية استقبالا حافلا أنساه ماعاناه من آلام وتشريد ، وأقبل اليمنية إليه من كور الأندلس . واستطاع عبد الرحمن بفضل ألمعيته وذكائه أن يقتحم

---

(١) حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٦٩٤ .

(٢) عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، ص ١٧٩ - ١٨٢ .

(٣) أخبار مجموعة فى تاريخ الأندلس ، ص ٧٥ .

وغيره من أمراء بنى أمية المشردين هذه البلاد فى وقت نشبت فيه الإحن بين العصبيتين اليمنيــة والمضرية ، فأصفقت اليمنية على أمره وآزرته ، وبايعه كثير من جند الأندلس وتوافت إليه جنود الأمصار ، وتضخم عدد أنصاره ، واستمال قلوب الناس بحسن سياسته حتى انقاد له كل أبى وأطاعه كل عصى ، واستطاع أن يهزم والى الأندلس يومئذ يوسف بن عبد الرحمن الفهرى ومن اعتمد عليهم من القيسية بزعامة الصميل بن حاتم بن ذى الجوشن فى موقعة المصارة التى جرت فى ظاهر قرطبة فى ١٠ ذى الحجة سنة ١٣٨ هـ . وتعتبر هذه الواقعة أخت موقعة مرج راهط التى وقعت فى أرض الشام فى سنة ٦٤ هـ . وبانتصار عبد الرحمن، تجددت دولة بنى أمية فى الأندلس ، إذ دخـــل قصر قرطبة دخول الأبطال وأصبح أمير الأندلس بغير منازع (١) .

وشهدت الأندلس فى بداية عهد عبد الرحمن الداخل صراعا متواصـــلا بين الأمير الأموى وبين خصومه السياسيين والثائرين عليه من القيسية والثوريين واليمنية الذين انقلبوا عليه ، ولكن عبد الرحمن الداخل انتصر على أعـــدائه ومناوئيه بفضل دهائه وقوة شكيمته ومضاء عزمه ، كل ذلك بدون أن يتراخى عن تجديد ما طمس لبنى أمية فى المشرق من معالم الخلافة ، فشيد الدور ، وأقام القصور وبنى المسجد بقرطبة وحصن المدينة بسور يدور حولها . وإليه يرجع الفضل الأعظم فى تمصير قرطبة وتجميلها ، وتنظيم شؤون الإدارة والحكم فيها ؛ ويشير ابن حيان إلى ارتقاء الأندلس فى عهده من مجرد ولاية تابعة للخلافة فى المشرق إلى مصاف الدول الكبرى ، وإلى التطور الكبير الذى طرأ على شؤون

---

(١) راجع التفاصيل فى تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، ص ١٨٣ ـ ١٩٣ ؛ ولنفس المؤلف : قرطبة حاضرة الخلافة بالأندلس ، ج ١ بيروت ١٩٧١ ، ص ٤٥ .

الإدارة ونظم الحكم فى ظل هذا الأمير، فيقول : «لما ألفى الداخل الأندلس ثغرا قاصيا غفلا ، من حلية الملك عاطلا ، أرهف أهلها بالطاعة السلطانيه ، وحنكهم بالسيرة الملوكيه ، وأخذهم بالآداب فأ كسبهم عما قليل المروءه ، وأقامهم على الطريقه ، وبدأ فدون الدواوين وفرض الأعطيه ، وعقـد الألويه ، وجند الأجناد ، ورفع العماد ، وأوثق الأوتاد ، فأقام للملك آلته ، وأخذ للسلطان عدته ، فاعترف له بذلك أكابر الملوك ، وحذروا جانبه ، وتحاموا حوزته ، ولم يلبث أن دانت له بلاد الأندلس ، واستقل له الأمر فيها» . (١) ويرجع الفضل فى نجاح سياسته وتوطيد ملكه إلى وزرائه وحجابه الذين أحسن اختيـارهم وانتقاهم من بين من أدخلوه الأندلس من مواليه ، وأيدوه ونصروه وأخلصوا له ، وعمل عبد الرحمن الداخل على إحاطة نفسه بهالة من فخامة الملوك وأبهة الخلفاء ، فزود حاضرته قرطبة بروائع المنشآت والعمائر ، وقامت فيها حركة عمرانيه ومعمارية لم تشهد لها نظيرا من قبل ، واتخذت قرطبة منذ ذلك الحين مظهر المدن الكبيرة ، وأصبحت جديرة بأن تكون دمشق الأندلس .

ولكن أبا جعفر المنصور لم يتركه يهنأ بهذه الإمارة ، فيسعى سعيا حثيثا على خلعه وإسقاطه وتحويل الأندلس إلى ولاية عباسية ، ففي سنة ١٤٦ هـ سير إليه المنصور قائدا من قواد العباسيين هو العلاء بن مغيث اليحصبي ، عبر البحر من أفريقيـة فنزل الأندلس ولبس السواد ، ودعا لأبى جعفـر المنصور فى باجة بغرب الأندلس ، وكان المنصور قد أرسل إليه بسجل ولواء ، فاجتمع إليه خلق كثير ، وتطلع أكثر أهـل الأندلس إلى خلع عبد الرحمن (٢) ، وعلى

---

(١) المقرى ، ج ١ ص ٣١٥ .

(٢) ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، ص ٣٣ ـ أخبار مجموعة ، ص ١٠٢ ـ ابن عذارى المراكشى ، ج ٢ ص ٧٧ ـ ابن الأثير ، ج ٥ ص ٥٧٥ .

الأخص جماعات اليمنية التى عقدت العزم على التخلص من ابن معاوية . ويبدو أن العلاء بن مغيث اختار الوقت المناسب للقضاء على دولة عبد الرحمن الفتية، فقد كانت الثورات تجتاح الأندلس فى شماله وجنوبه ، وكان الأمير مشغولا وقتئذ بإخماد إحدى ثورات القيسية بمدينة طليطلة ، وعلم وهو يقيم الحصار على هذه المدينة بثورة العلاء وانضمام الثورات إليه ، فخرج لمواجهة العلاء ، ولكن العلاء زحف إليه بجموع كثيفة ، فاضطر الداخل إلى التحصن فى قرمونة الواقعة بالقرب من إشبيلية ، وتحصن عبد الرحمن الداخل بقرمونة مع مواليه وثقات رجاله ، وقدم العلاء ، ونازله بقرمونة ، وحاصره بها مايقرب من شهرين حتى ساءت حالته ، ونفذت مؤونته ودب اليأس برجاله ،وكذلك انخذل عن العلاء أكثر أنصاره لطول الحصار ، وأدرك عبد الرحمن أن هذه هى فرصته للانقضاض على عسكر العلاء . وكان لابد له أن يغامر بكل شىء ، فجمع قواته (وكانوا لايتجاوزون السبعمائة) وأمر بنار فأوقدت عند باب إشبيلية من أبواب مدينة قرمونة ، ثم أمر بإغماد السيوف فطرحت فى النار وقال لهم : واخرجوا معى لهذه الجموع خروج من لايحدث نفسه بالرجوع، (١) وسل سيفه فى مقدمة أصحابه وأندفع من باب المدينة وخلفه كماة رجاله ، وانقضوا على جيش العلاء فمزقوه شر ممزق ، حتى بلغ عدد القتلى منه سبعة آلاف (٢) ، وسقط العلاء نفسه صريعا ، فأمر عبد الرحمن ، مبالغة منه فى السخرية من خصمه المنصور ، أن يبعث رأس العلاء إليه فأخذ رأس العلاء، وصبره ولفه فى السجل واللواء ، ووضعه فى سفط ، وبعث به مع رجل من أهل قرطبة كان قاصدا مكة لأداء الحج ، وأمره أن يضع السفط فى مكة أمام سرادق

---

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ص ٧٧ .

(٢) المقرى ، نفح الطيب ، ج ١ ص ٣١١ .

المنصور الذى كان يحج هذا العام ، ففعل القرطبي ما أمره به الأمير ، فلما نظر إليه المنصور ارتاع ، وقال : «إنا لله ، عرضنا بهذا المسكين للقتل ، الحمد لله الذى جعل البحر بيننا وبين هذا الشيطان» (١) .

وقد شهد له أبو جعفر المنصور بقوة الحيلة وشدة البأس وطول المراس، فذكروا أنه قال يوما لبعض جلسائه : «أخبرونى من صقر قريش من الملوك؟ قالوا : ذاك أمير المؤمنين [يقصدونه هو] الذى راض الملوك ، وسكن الزلازل، وأباد الأعداء ، وحسم الأدواء . قال : ما قلتم شيئا . قالوا : فمعاوية . قال : لا . قالوا : فعبد الملك بن مروان . قال : ما قلتم شيئا . قالوا : يا أمير المؤمنين ، فمن هو ؟ قال : صقر قريش عبد الرحمن بن معاوية الذى عبر البحر ، وقطع القفر ، ودخل بلدا أعجميا منفردا بنفسه . فمصر الأمصار ، وجند الأجناد ، ودون الدواوين ، وأقام ملكا عظيما بعد انقطاعه بحسن تدبيره ، وشدة شكيمته، إن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان ، وذللا له صعبه ، وعبد الملك ببيعة أبرم عقدها ، وأمير المؤمنين بطلب عترته ، واجتماع شيعته ، وعبد الرحمن منفرد بنفسه ، مؤيد برأيه ، مستصحب لعزمه . وطد الخلافة بالأندلس ، وافتتح الثغور ، وقتل المارقين ، فأذل الجبابرة الثائرين . فقال الجميع : صدقت والله يا أمير المؤمنين (٢) » .

وفى خلافة المهدى العباسى . بدأت الدولة العباسية من جديد فكرة القضاء على إمارة عبد الرحمن الداخل فى الأندلس ، واستفادت الدولة العباسية هذه المرة من التجربة الأولى الفاشلة . فلم تبعث داعية من دعاتها هذه المرة ، ولا جيشا

---

(١) ابن القوطية ، ص ٣٤ - ابن عذارى ، ج ٢ ص ٧٨ .

(٢) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٨٨ - ٨٩ ؛ المقرى ، ج ١ ص ٣١٠ .

من أفريقية لغزو الأندلس ، وإنما اعتمد المهدى على الدهاء والدس ، فقد اتفق المهدى مع بعض ثوار الأندلس من العرب المعارضين للوجود الأموى على أن يعلنوا ثلاث ثورات فى آن واحد فى الداخل، فينتهز شارلمان بن ببين القصير ملك الفرنجة الذى كانت تربطه بالخليفة العباسى علاقات ودية الفرصة ويغزو الأندلس ، ويسقط النظام الأموى .

أما الثوار العرب الذين اعتمد عليهم فى الأندلس فهم :

١ — عبد الرحمن بن حبيب الفهرى الصقلبى، وسمى بالصقلبى لأنه كان طويلاأشقر أزرق أسعر (١) ، وقد ثار ابن حبيب بتدمير فى سنة ١٦٢ ﻫ .

٢ — سليمان بن يقظان الأعرابى والى برشلونة ، وثار معه بسرقسطة حسين ابن يحيى الأنصارى من ولد سعد بن عبادة .

٣ — الرماحس بن عبد العزيز الكنانى ، والى الجزيرة الخضراء ، وقد ثار سنة ١٦٤ ﻫ .

ولم يكن شالمان يرهد فى امتلاك الأندلس ، فقد كان قد فرغ من حروبه فى أوروبا ، وضم إليه لمبارديا وسكسونيا وبافاريا ، وامتد ملكه حتى الدانوب (٢).

وكان قارلة (شارلمان) يحلم بطرد المسلمين من الأندلس (٣) ، ويطمع فى ضم مملكة القوط القديمة إلى إمبراطوريته .

---

(١) أخبار مجموعة ، ص ١١٠ — ابن عذارى ، ج ٢ ص ٨٣ .

(٢) Levi — Provencal, Histoire de l' Espagne Musulmane, Leiden 1950, T, I, P. 120.

(٣) فى رؤيا رآها شارلمان باداه القديس جيمس قائلا : إن جثمانه الذى لايعرفه =

ويبدو أن المؤامرة دبرت بعلم المهدى وموافقته ، وليس أدل على ذلك من التجاء الرماحس بن عبد العزيز الكنانى إليه بعد أن فشلت ثورته على ابن معاوية فى الجزيرة الخضراء . وهناك دليل آخر هو رسالة أرسلها صاحب الأندلس إلى المهدى العباسى ثلبه فيها وسبه ولعنه ، فرد عليه المهدى برسالة مماثلة عدد فيها مثالب بنى أمية (١) .

وبدأ عبد الرحمن بن حبيب الفهرى الصقلبى بالعبور إلى أفريقيـة ، ثم عاد بجيش كبير من البربر نزل به فى مدينة تدمير ، وبادر بمكاتبة سليمان بن يقظان بالدخول فى أمره ومحاربة عبد الرحمن الأموى والدعاء إلى طاعة المهدى (٢) ، وكان سليمان ببرشلونة ، فلم يجبه ، فاغتاظ عليه ، وقصد بلده فيمن معـه من البربر ، فهزمه سليمان ، فعاد الصقلبى إلى تدمير . وكانت مهمـة سليمان بن يقظـان الأعرابى الزحف إلى سرقسطة وإعلان الثورة مع أحد المغامرين العرب وهـو حسين بن يحيى الأنصارى . أما الرماحس فكان عليه أن يعلن الثورة فى جنوب الأندلس فى نفس الوقت حتى يعجز عبد الرحمن الداخل عن القضاء على الثورات جميعا . ولكن الثوار لم يتضامنوا فيما بينهم ، واختلفوا فى توقيت حركاتهـم ، فاستطاع عبد الرحمن الداخل أن يقضى على كل ثورة على حدة .

فبدأ عبد الرحمن بأخطرهم وهـو عبد الرحمن بن حبيب الفهـرى الصقلبى ، فسار إليه الأمير فى العدد والعدة ، وأحرق السفن تضييقا عليه فى الحرب (٣) ،

= المسلمون والمسيحيون يرقد فى تلك الأرض النائية ، ثم أمر شارلمان بأن ينهض وأن يستخلص جليقية من يد المسلمين . وتكرر ظهور الرؤيا ثلاث مرات ، ولم يسع شارلمان إلا أن يلبى النداء فى المرة الرابعة (كارلس ديفز ، شارلمان ، ترجمة الدكتور الباز العرينى ، القـاهرة ١٩٥٥ ، ص ٩٨) .

(١) الطبرى ، ج ١٠ ص ١٣ .

(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ٥٤ .

(٣) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٨٣ — ابن الأثير ، ج ٦ ص ٥٤ .

فهرب الصقلبي إلى جبل منيع بناحية بلنسية ، ومن هنـاك أرسل إلى سليمان بن يقظان ببرشلونة يدعوه إلى الدخول في أمره ويسأله أن يمده بمعونته ، ولـكن سليمان لم يجبه ، فامتعض الفهري ، ولجأ عند رجـــل من البربر يقال له مشكار البربري ، فاطمأن إليه الصقلبي ، وكان عبد الرحمن الداخل قد أعلن أنه يبذل ألف دينار لمن يأتيه برأسه ، فاغتاله مشكار طمعا في المكافأة وأتى برأسه، وتم ذلك في أواخر سنة ١٦٢ هـ (٧٧٨م) (١) .

ثم صرف عبد الرحمن الداخل همه بعد ذلك لمقاتلة الرماحس ، فأرسل إليه وزيره عبد الله بن خالد على رأس جيش ، باغته بالهجوم على قصره في الجزيرة الخضراء ، ففر الرماحس على مركب جاز به البحر ، حتى قدم إلى الخليفة العباسي .

وأما سليمان الأعرابي، فقد ثار بسرقسطة ، وثار معه حسين بن يحيى الانصاري ، في أواخر سنة ١٦٣ هـ ، فبعث إليهما ابن معاوية قائده ثعلبة بن عبيد الجذامي في عسكر كثيف ، فقاتلهما ثعلبة قتالا عنيفـا ، وعاد يوما إلى مخيمه ، فاغتنم سليمان غرته ، فخرج عليه وأسره ،فتفرق عسكره ، وعمل على الإفادة من أسيره ،فترك على سرقسطة صاحبه حسين بن يحيى الأنصاري ومضى هو وأسيره إلى إفرنجة حيث قابل شارلمان وسلمه ثعلبة وحرضه على دخول الأندلس(٢) .

(١) أخبار مجموعة ، ص ١١٢ .

(٢) ويرى ليفي بروفنسال أنه من المحتمل أن يكون سليمان قد توجـه إلى إفرنجـة وفي صحبته أحد الخارجين من العرب على عبد الرحمن بن معاوية وهو أبو ثور ، وكان واليا على وشقة ، ويستند ليفي في ذلك على فقرة من الحوليات الملكية لدولة الفرنجـة وتروى أن ملك الفرنجـة تلقى في سنة ٧٧٨ م (١٦٣ هـ) من أبي ثور صاحب وشقـة وابن الأعرابي صاحب برشلونة وجرندة مددا من الرهائن .

(Lévi - provençal op, cit., p. 123)

ويذكر ابن الأثير أن سليمان « استدعى قارلة ملك الافرنج ، ووعده بتسليم البلد وثعلبة إليه ، فلما وصل إليه لم يصبح بيده غير ثعلبة ، فأخذه ، وعاد إلى بلاده ، وهو يظن أنه يأخذ به عظيم الفداء ، فأهمله عبد الرحمن مدة ، ثم وضع من طلبه من الفرنج ، فأطلقوه » (١) .

وأيا ما كان الأمر، فقد كان شارلمان ملتزما بالاتفاق المعقود بينه وبين المهدى ، ولهذا لم يتردد فى السير إلى الأندلس ، فخرج على رأس جيوشه فى ربيع سنة ٧٧٨ م متجها نحو جبال البرتات (البرانس) ، فاجتازها إلى رنشفالة ، وهاجم بنبلونه واستولى عليها ، ثم واصل زحفه إلى سرقسطة ، وهو يعتقد أنها ستفتح له أبوابها ، إذ كان سليمان قد مهد السبيل أمامه لدخولها . ويبدو أن حسين بن يحى الأنصارى طمع فى الانفراد بولايتها ، فأغلق أبوابها أمام جيوش شارلمان ، وأصم أذنيه عن توسلات صاحبه سليمان . وطال وقوف شارلمان إمام المدينة عبثا حتى يئس من فتحها ، وكانت قد وصلته أنباء مزعجة مؤداها قيام اضطرابات وفتن فى بلاده ، فاضطر إلى رفع الحصار عن المدينة ، وقفل عائدا إلى بلاده ، وقد أرغم سليمان على التراجع معه لعجزه عن تحقيق ما وعده به من إدخاله المدينة .

انسحب شارلمان بجيشه إلى غالة ، ولما بلغ بنبلونة سحب حاميتها الفرنجية وهدم أسوار المدينة ، ولكن عبد الرحمن الداخل لم يتركه يرحل فى سلام ، فقد أثار عليه قبائل البشكنس(٢) ، وكانوا ينقمون على شارلمان تخريبه عاصمتهم بنبلونة ، فترصدوا مؤخرة جيشه الكبير وهو يجتاز أحد دروب شعاب

---

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٦٤ .

(٢) أخبار مجموعة ، ص ١١٤ .

رنشفالة وأمطروها وابلا من السهام وكتل الحجارة حتى قضوا على هذه المؤخرة قضاء مبرما ، وقتل فى رنشفالة عدد كبير من أعظم قـواده نذكر منهم إيجيهار Eggihard وأنسيلم Anselme كما قتل صفيه وأعظم قواده رولان Roland ، فحزن شارلمان لقتله ، وكان مصرعه موضوع أنشودة من شعر الملاحم الفرنسى تعرف بأنشودة رولان .

وفى أثناء المعركة تمكن ولدا سليمان الأعرابى من تخليصه ، ورجعـا به إلى سرقـسطة . وهكذا انتصر الأمير عبد الرحمن على المتآمـرين عليه ، واضطر شارلمان إلى مهادنته ليتفـرغ لمشاكله الداخليـة ، وفى ذلك يقول المقـرى : «وخاطب عبد الرحمن قارلة (أى شارلمـان) ملك الإفرنج ، وكان من طغـاة الإفرنج ، بعد أن تمرس به مدة ، فأصابه صلب المكسر ، تام الرجولية ، فمال معه [أى شارلمان] إلى المداراة ، ودعاه إلى المصاهـرة والسلم ، فأجابه للسلم ولم تتم المصاهرة»(١) . ويؤيد ليفى بروفنسال ما ذكره المقرى مستندا إلى أن شارلمان لم يقم بأى مغامرة أخرى فى أسبانيا منذ حملته الفاشلة التى قام بهـا فى سنة ٧٧٨ حتى سقوط برشلونة فى سنة ٨٠١(٢) . وأيقن شارلمان أنه لن يتمكن من بسط نفوذه على الأندلس طالما لا يرتكن فى أسبانيا نفسهـا على قوى مناوئة للأمـير الأموى ، كما وضح لديه استحالة تغلبه على الإسلام فى أسبانيا ما لم يؤمن بلاد الفرنجة والغرب المسيحى ، ولذلك عمد فى نفس السنة التى رجع فيها إلى بلاده من حملته الفاشلة إلى ضم مقاطعة أقطانية إلى مملكته بقصد مراقبة نشاط أمراء الأندلس الموالين لقرطبة أو الخارجين عن طاعتها على تخـوم البرانس ، أو

---

(١) المقرى ، ج ١ ص ٣١٠ .

(٢) Lévi - provençal, op. cit., t. I, p. 121

الحد من هذا النشاط . ومنح شارلمان هذه المملكة الكارولنجية إلى ابنه لويس الذى سمى فيما بعد باسم لويس التقى ، وتألفت من المملكة الكارولنجية ومملكتى غسقونية وسبتمانية جبهة قوية تواجه أملاك المسلمين فى أسبانيا ؛ وقد أثمرت هذه السياسة الواقعية ، إذ سلم أهالى جرندة مدينتهم فى سنة ٧٨٥ م إلى ممثلى السلطات الفرنجية ، وتبع ضياع جرندة سقوط مدينة برشلونة فى يد الفرنجة سنة ٨٠١ .

وبينما كان جيش شارلمان يتراجع عن سرقسطة كان جيش عبد الرحمن الداخل يتأهب للسير نحوها للقضاء على سليمان الأعرابى وصاحبه الانصارى ، وقبل أن يصل الداخل إلى سرقسطة أوعز حسين بن يحيى الأنصارى إلى أحد أتباعه بقتل الأعرابى فى المسجد سنة ١٦٤ هـ (٧٨٠م) حتى ينفرد بحكم سرقسطة، ولكن عبد الرحمن الداخل حاصر المدينة ودخلها .

وهكذا فشلت المؤامرة الدولية الكبرى التى دبرها المهدى بالاتفاق مع ثوار الاندلس وشارلمان . ولكن سلسلة المؤامرات العباسية لم تنته بعد ، واستمرت فى عهد خلفاء عبد الرحمن الداخل ممثلة فى تأييد الاغالبة — التابعين للدولة العباسية — فى أفريقية لثوار الاندلس الناقمين على أمرائها ، وعلى الاخص الثائر عمر بن حفصون الخارج على الأمير الاموى عبد الله (٢٧٥ — ٣٠٠ هـ)، وكان ابن حفصون يطمع فى الاستيلاء على الاندلس كلها وولايتها هو وأولاده من بعده بدلا من بنى أمية ، بدليل أنه أظهر الميل إلى الدعوة العباسية وكاتب ابن الاغلب أمير افريقية، ولكن هذه المحاولة فشلت كسابقاتها، وفقد العباسيون الأمل نهائيا فى إسقاط الحكم الاموى بالاندلس .

(٢)

سياسة الدولة العباسية مع دويلات المغرب الاسلامى

أ ـ موقف العباسيين من الخوارج فى المغرب :

ذكرنا من قبل أن عبد الرحمن بن حبيب استقل بأفريقية فى خلافة المنصور، وسبب استقلاله عن العباسيين أنه لما سقطت الدولة الأموية أعلن عبد الرحمن ابن حبيب دخوله فى طاعة السفاح، فلما توفى السفاح وبويع لأبى جعفر المنصور بالخلافة أقر عبد الرحمن بن حبيب على ولاية أفريقية، وأرسل إليه خلعة سوداء، وهو أول سواد دخل المغرب . ثم كتب إلى عبد الرحمن يدعوه إلى الطاعة فأجابه ودعا له وأهداه بعض الهدايا، وكتب إلى المنصور ينهاه عن طلب سبى أو مال لأن أفريقية أصبحت فى عهده إسلامية كلها ، فغضب المنصور وكتب يتهدده، فلما وصل كتاب المنصور جمع عبد الرحمن الناس للصلاة. ثم صعد المنبر وأخذ يسب أبا جعفر ويقول : « إنى ظننت أن هذا الخائن يدعو إلى الحق ويقوم به حتى تبين لى خلاف ما بايعته عليه من إقامة العدل، وإنى الآن قد خلعته كما خلعت نعلى هذا . وقذفه من رجله ، ثم دعا بخلع السواد وأمر بتخريقه»(١) . ولكن أنصار الدولة العباسية تآمروا على قتله وتنصيب أخيه إلياس مكانه وإعادة الدعوة لأبى جعفر، ويبدو أن عبد الرحمن أحس بشىء من تلك المؤامرة ، فولى أخاه إلياس على تونس ، فأتاه إلياس ليودعه قبل أن يرحل إلى مقر عمله ثم قتله، ففر حبيب بن عبد الرحمن إلى عمه عمران خوفاً من إلياس ، واتفقا على محاربة إلياس ولكن إلياس اتفق معهما على أن يكون لحبيب قفصة وقسطيلية ، ولعمران تونس وصطفورة وباقى أفريقية لإلياس ، وتم ذلك الاتفاق فى سنة ١٣٨ وكان إلياس يضمر السوء بأخيه عمران ويسعى

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٧٦ .

للتخلص منه ، فغدر به وقتله واسترجع تونس(١) ، وبعث بطاعته إلى أبى جعفر المنصور مع وفد من العرب(٢) .

فاستعان حبيب بن عبد الرحمن بموالى أبيه وزحف على القيروان واشتبك مع عمه إلياس فى قتال عنيف ، فلما أمسى حبيب أوقد نارا وأوهم عمه أنه يقيم ثم أسرى فدخل القيروان واستولى عليها(٣) ، وهناك كثرت جموعه ، وعاد إلياس إلى محاربته ، ولكن أكثر جنده تخلى عنه وانضموا إلى عسكر حبيب ، فطلب حبيب من عمه أن يخرج ليبارزه ، فخرج أمام عسكره ، فضربه حبيب ضربة أسقطته وحز راسه(٤) .

ونزل أخوة إلياس بعد مصرعه بقبيلة ورفجومة وكانوا من غلاة الخوارج الصفرية ، فطلب حبيب من عاصم بن جميل امير ورفجومة أن يرد أعمامه ، ولكن عاصم نصرهم ، فزحف إليه حبيب واشتبك معه فى موقعة انتهت بهزيمة حبيب وتراجع إلى قابس ، وقوى أمر ورفجومة ، وكان عاصم زعيمهم كاهنا ادعى النبوة والكهانة وبدل الدين وأزاد الصلاة وحرف فى الأذان . فلما رأى أهل القيروان تغلب عاصم على أميرهم حبيب ، كتبوا إلى عاصم يدعونه للولاية عليهم على أن يدعو لأبى جعفر المنصور ، فزحف عاصم بجموع ضخمة من البربر ومن انضم إليهم من العرب إلى القيروان ، فخاف قاضى القيروان من

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٧٨ .

(٢) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٠٩ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣١٤ .

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ٧٩ .

(٤) نفس المصدر ، ج ١ ص ٨٠ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣١٥ — ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٠٩ — السلاوى ، الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ، الدار البيضاء ١٩٥٤ ، ج ١ ص ١٢١ .

ارتكاب ورفجومة المحارم إذا ما دخلت القيروان ، فخرج مع ألف رجل يقاتلون حتى الموت ، فقتل ومعظم أصحابه ، ودخل بربر ورفجومة القيروان فى ذى الحجة سنة ١٢٨ فاستحلوا المحارم وارتكبوا الكبائر ، وربطوا دوابهم فى جامع القيروان (١) ، أما حبيب فقد فر إلى جبل أوراس فطارده عاصم ونشب القتال بينهما ، وانتهى بسقوط عاصم قتيلا ، وعاد حبيب إلى القيروان ليخرج عبد الملك بن أبى الجعد نائب عاصم منها ، فهزمه عبد الملك وقتله فى المحرم سنة ١٤٠ (٢) .

خضعت أفريقية لورفجومة المتطرفة التى ارتكب قبيلها الكثير من الفظائع فسفكوا دماء أهل القيروان وهتكوا الحرمات وأساءوا إلى الإسلام . وكان إقليم طرابلس وكل سكان المغرب الأوسط (الجزائر) إباضية ، فبايعوا أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى إماما عليهم فى طرابلس سنة ١٤٠ أى بعد دخول الصفرية القيروان ، وكان نفوذه يمتد من خليج سرت إلى قابس ، ولم يلبث سكان المغرب الأوسط من الإباضية أن انضووا تحت لواء أبى الخطاب وبايعوه بالإمامة ، وعلى هذا النحو أصبحت إمامة الإباضية تضم إقليم طرابلس وقسما كبيرا من المغرب الأوسط (٣) ، وأصبح المغرب الإسلامى كله بعد انقراض

---

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣١٥ .

(٢) ابن الأثير ، ص ٣١٦ ــ ابن عذارى ، ج ١ ص ٨١ .

(٣) من المعروف أن الخارجية غلبت على المغرب فى عصر الدولة الأموية ، فقد استغل عدد من الخوارج استياء أهل المغرب من مظالم الأمويين وتنكيلهم بهم واستالوا بمبادئهم القائمة على العدل والمساواة بين البربر مستغلين نزاع اليمنية والقيسية واشتغال الولاة بهذه العصبيات ، ووجد دعاة الخوارج من العرب فى المغرب أرضا خصبة لغرس تعاليمهم القائمة على المساواة بين المسلمين والثورة على الظلم ، ولكن البربر اختلفوا فى مدى تقبلهم لهذه التعاليم ، فبربر القسم الشمالى من المغرب الأقصى والأوسط تقبلوا المذهب الإباضى المعتدل ، بينما شم

دولة بنى حبيب الفهرى فى قبضـــة الخوارج الإباضية والصفرية والمراطقة البرغواطيين فى إقليم تامسنا (١) .

فلما استولت ورفجومة على القيروان سامت أهلهـــا الظـلم والعسف ، وأسرفوا فى ارتكاب المعاصى ، ففر كثير من أهل القيروان إلى طرابلس لائذين بحمى أبى الخطاب عبد الأعلى ، وطالعوه بما ارتكبه الورفجوميون من الفساد واستباحة الأعراض وتدنيس المساجد . وكان عبد الأعلى عربيا من وجوه العرب الذين تقبلوا مبادىء الخوارج على المذهب الإباضى المعتدل ، فلما بلغـه ذلك غضب وأنكر من ورفجومة سلوكهـا ، فتحركت فى نفسه عوامل الغـيرة على الإسلام ، فاستنفر أتبـــاعه الإباضية ، وشايعه بربر طرابلس وفى مقدمتهم هوارة ، وزحف بجموعه نحو القيروان لتطهيرها من دنس ورفجومة ، وتحرير أهل القيروان من استبدادها وطغيانها . وما إن علم عبد الملك بن أبى الجعد بذلك حتى خرج من القيروان ، واشتبك الفريقان بالقرب من القيروان فى

القبائل بربر القسم الجنوبى من المغرب الأقصى مذهب الصفرية المتطرف وكان الغلاة وقد داخلتهم الشعوبيـة البربرية يدعون إلى إقامة حـكومة بربرية دينها الإســلام أو إسلام متبربر واللغة البربرية . وأول من نشر الإباضية فى المغرب سلمة بن سعد فى أوائل القرن الثانى وعنه أخذ عبد الرحمن بن رستم الفارسى وعاصم السدراتى وأبو الخطاب عبد الأعلى ابن السمح ، ثم أعلن البربر ثورتهم على العرب بعد أن فشلوا فى مقابلة هشام بن عبد الملك بدمشق ويئسوا من الإصلاح ونجحوا فى هزيمة العرب فى موقعتين حاسمتين : الأشـراف ١٢٢ هـ (٧٣٩ م) وبقدورة على وادى سبـو ١٢٤ هـ (راجــع : عبد العزيز سالم ، المغـرب الإسلامى ، ص ٢٩٣ ـ ٣٢٧) .

(١) كان زعيمهم طريف بن شمعون قد شرع لهم تشريعا مخالفا للإسـلام ، فلمـا مات خلفه ابنه صالح ، فادعى أنه أنزل عليه قرآن الصفرية ، وزعم أنه المهدى الذى يكون فى آخـر الزمان . (راجع : ابن عـذارى ، ج ١ ص ٦٠ ، ٦١ ـ ابن الخطيب ، أعمـال الأعلام ، القسم الثالث ، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادى ، ص ١٨٤) .

صفر سنة ١٤١ هـ واشتد القتال ، ودارت الدائرة على عبدالملك ، إذ خذله أهل القيروان ، وانهزموا عنه ، فأثخن فيهم عبد الأعلى ، وهزمهم ، وقتل منهم أعدادا كبيرة ، من بينهم عبد الملك نفسه ، ودخل عبد الأعلى القيروان (١) . واستخلف عليها زميله فى الكفاح عبد الرحمن بن رستم الفارسى أحد كبار علماء الإباضية ، وعاد هو إلى طرابلس استعدادا لملاقاة القوات العباسية التى سيرها الخليفة أبو جعفر المنصور لمقاتلته .

وكان قد وفد على أبى جعفر المنصور بعض أجناد العرب وشيوخهم منهم قاضى أفريقية عبد الرحمن بن أنعم يستصرخونه لإنقاذ أفريقية من فساد ورفجومة، كما وفد إليه أيضا جميل السدراتى أحد جنود عبد الأعلى الخارجين عليه ، فولى المنصور محمد بن الأشعث الخزاعى على مصر وأفريقية ، وسير من مصر جيشا من المسودة بقيادة أبى الأحوص عمر بن الأحوص العجلى لاسترجاع أفريقية؛ وكان ذلك هو السبب فى عودة عبد الأعلى إلى طرابلس سريعا بعد تغلبه على عبد الملك بن أبى الجعد ، فاشتبك عبد الأعلى مع القوات العباسية فى بلدة سرت وهزمهم فى سنة ١٤٢ هـ فعاد فلهم إلى مصر (٢) فعزل المنصور محمد بن الأشعث عن ولاية مصر وولاه قيادة الجيوش إلى المغرب ، وأقام مكانه على مصر حميد بن قحطبة . فخرج ابن الأشعث على رأس جيش كثيف عدته خمسون ألف مقاتل (٣) وكان فى جملة عساكره عدد من كبار القواد العباسيين نذكر منهم

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٢ ـــ ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣١٧ ـــ ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٤١٠ ـــ السلاوى ، ج ١ ص ١٢٤ .

(٢) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣١٧ ـــ ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤١١ .

(٣) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣١٧ . وذكر ابن عذارى أن عدة جيشه بلغت ٤٠٠ ألف مقاتل (ج ١ ص ٨٣) وهو رقم مبالغ فيه بدليل أنه يذكر فى موضع آخر أنه خرج فى أربعين ألفا عليهم ٢٨ قائدا .

الأغلب بن سالم التميمى (جد الأغالبة الذين سيستقلون بتونس) والمحارب بن هلال والمخارق بن غفار الطائى . وكان جيش عبد الأعلى يضم عسكرا من بربر زناتة وهوارة ، فتنازعت القبيلتان ، واتهمت زناتة عبدالأعلى بميله إلى هوارة ومحاباتها ، ففارقه جماعة كبيرة من الزناتيين ، فى الوقت الذى أقبلت فيه جيوش العباسيين ، وعندما بلغ ابن الأشعث تخلى الزناتيين عن عبد الأعلى قوى عزمه ، ثم إنه تظاهر بأن المنصور أمره بالعودة إلى مصر ، وتباطأ فى سيره وتراجع بالفعل مسيرة ثلاثة أيام ، بحيث إن جواسيس عبد الأعلى عادوا يخبرونه برجوعه إلى مصر ، فتفرق عنه كثير من أتباعه واطمأن الباقون ، فعاد ابن الأشعث سريعا وفاجأ قوات عبد الأعلى الباقية وهى على غير استعداد للحرب وهاجمها ، فوضع العباسيون السيوف فيهم ، واشتد القتال ، وأسفر عن مصرع عبد الأعلى وعامة أصحابه فى صفر سنة ١٤٤ هـ (١) ؛ ودارت هذه المعركة بالقرب من تورغا الواقعة إلى الشرق من طرابلس ومسراطه ، وأبدى فيها الإباضية رغم قلة أعدادهم وعدم استعدادهم للقتال الكثير من ضروب الشجاعة والإقدام حتى استشهدوا جميعا ، فاحتز ابن الأشعث رأس أبى الخطاب وأرسله إلى المنصور .

وكان عبد الأعلى ــ بعد أن علم بقرب وصول ابن الأشعث ــ قد استنفر الإباضية للجهاد ، فلما انتصر ابن الأشعث على قواته أبى الخطاب وقتله فى عامة رجاله ظن أنه ضمن القضاء نهائيا على الإباضية ، ولكنه فوجىء بوصول أبى هريرة الزناتى أحد قادة أبى الخطاب فى ١٦ ألفا من زناتة وغيرهم (٢) جاءوا ملبين لنداء أبى الخطاب ولكن بعد فوات الأوان ، فتلقاهم ابن الأشعث ومزق صفوفهم ،

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣١٧ .

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٣ ــ ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣١٧ .

وهزمهم فى ربيع الأول سنة ١٤٤ . كذلك كان عبد الرحمن بن رستم قد تأهب لنجدة أبى الخطاب ، فلما وصل إلى قابس قادما من القيروان بلغه ما انتهى إليه مصير صاحبه أبى الخطاب ، فحمل ولده وخرج من القيروان ولحق بإباضية المغرب الأوسط ، فنزل فى قبيلة لماية البربرية لحلف كان بينه وبينهم ، فالتفوا حوله وبايعوه بالإمامة ، ورأى ابن رستم أن يقيم مدينة تكون قاعدة له فى المغرب الأوسط ، فشرع فى بناء مدينة تاهرت فى سنة ١٤٤ ، وأتمها واستقر بها فى سنة ١٤٥ هـ (١) .

وكان ابن رستم قد استخلف أحد اتباعه على القيروان ، فاوثقه أهلها فى الحديد وولوا على أنفسهم أحد شيوخ العرب ظل يقوم بأمرهم إلى أن وصل ابن الأشعث إلى القيروان ودخلها فى غرة جمادى الأولى من نفس السنة (٢) . ثم كتب ابن الأشعث بانتصاراته إلى المنصور ، وأخذ يولى عماله على المغرب ، فأقام على طرابلس القائد المخارق بن غفار الطائى ، كما ولى على طبنة والزاب الاغلب بن سالم (٣) . وأخذ ابن الأشعث وهو مقيم بالقيروان يطهر أرض ليبيا وتونس من الإباضية ، وفرض سطوته على البربر فأذعنوا له بالطاعة . ولم يشأ ابن الأشعث أن يقاتل الإباضية فى المغرب الأوسط ، واكتفى باستيلائه على أفريقية ، إذ كان العباسيون يحرصون على الاحتفاظ بها فى أيديهم لتكون سدا منيعا أمام حركة الخارجية .

---

(١) السلاوى ، ج ١ ص ١٣٨ .

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٤ .

(٣) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤١١ .

ب - سياسة العباسيين فى المغرب :

ظل ابن الأشعث يتولى أفريقية حتى سنة ١٤٨ (١)، وفى هـــذه الفترة اشتعلت نار العصبية العربية من جديد فى المغرب، فقد كان ابن الأشعث يمنيا بينما كان معظم عسكره من المضرية، فاصطدم بصراع العصبيات، وانتهى الأمر بأن خلعه المضرية وولوا عليهم رجلا من خراسان اسمه عيسى بن موسى بن عجلان الخراسانى، فاستمر عيسى يقـــوم بإمارة المغـرب حتى ولى المنصور على أفريقية الأغلب بن سالم التميمى (١٤٨ — ١٥٠) وكان من أصحاب أبى مسلم الخراسانى وأسهم فى نشر الدعوة العباسية بخراسان، اختاره المنصور لولاية أفريقية لما عهد فيه من الحزم والشجاعة وحسن الرأى ولكونه مضريا يرضاه المضريون، ولكنه قتل فى سنة ١٥٠ على يد بعض الجند. وخلفه عـــدد من الولاة من قبل بنى العباس هم على التوالى :

١ — أبو جعفر عمر بن حفص المعروف بهزار مرد : ولقب بهزارمرد بمعنى ألف رجل بسبب شجاعته وشدة بأسه، وتولى هزارمرد بأمر المنصور، وقد أبدى فى المعارك التى خاضها ضد البربر الإباضية كثيراً من ضروب البسالة والإقدام حتى قتل فى ١٥ ذى الحجة من سنة ١٥٤ وهو يقاتلهم ؛ وكان سبب محاربته لهم أن المنصور اغتر بالنفوذ العباسى فى أفريقيـة، فتطلع إلى امتـلاك المغـرب الأوسط، فأمر هزارمرد بالتوجه إلى طبنة وتحصينها لتكون قاعدة للعمليات العربية المقبلة ضد عبد الرحمن بن رستم. وأحس الخوارج بالخطر الذى يتهددهم، فاتفق ابن رستم مع أنصاره فى طرابلس وتلمسان على محاربة العباسيين، فى غياب هزارمرد عن القيروان، وتمكنوا من إيقاع الهزيمة بجيش

---

(١) ابن الأثير، ج ٥ ص ٣١٩.

العباسيين فى القيروان وسحقوهم ، ثم توجهت حشود البربر الخوارج إلى طبنة ، واشترك فيها أبو قرة الصفرى وعبد الرحمن بن رستم الإباضى وعاصم السدراتى وأبو حاتم يعقوب بن حبيب الإباضى ، ولكن على الرغم من قلة ما لدى هزارمرد من قوات فقد تمكن بفضل تأثير الأموال من تفريق كلمة البربر ، فانسحب الخوارج ، وعاد هزارمرد إلى القيروان لاستنقاذها ، ولكنه سقط قتيلا فى اشتباكه مع قوات أبى حاتم الإباضى (١) .

٢ — يزيد بن حاتم : كانت أخبار الثورات التى أشعلها البربر فى المغرب الأدنى قد وصلت إلى مسامع المنصور ، فبادر بتولية يزيد بن حاتم بن قبيصة ابن المهلب على المغرب وسيره فى جيش عدته ستون ألفا (٢) . وعزم يزيد على القضاء على ثورة البربر الإباضية ، فالتقى مع قوات أبى حاتم ، وسقط نحو ٣٠ ألفا من رجاله صرعى ، وظل العباسيون يقتلون الإباضية فى جبل نفوسة شهرا حتى سحقوهم . وكان يزيد من خيرة ولاة أفريقية ، فقضى على الثورات وضبط البلاد وأمن الناس على معاشهم وأموالهم . وتوفى يزيد فى رمضان سنة ١٧٠ فى خلافة الرشيد (٣) .

٣ — روح بن حاتم بن قبيصة : فى عهده ساد الهدوء فى أفريقية ، فقد هادن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم بتاهرت ووادعه (٤) ، ولم يطل عهده إذ توفى فى القيروان فى ٢٣ رمضان سنة ١٧٤ هـ .

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٩ — ابن الأثير ج ٥ ص ٥٩٩ .

(٢) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٦٠١ — ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤١٤ .

(٣) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٦٠٢ — ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤١٥ — ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٩ .

(٤) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤١٥ .

٤ — الفضل بن روح بن حاتم : ولاه الرشيد ولاية أفريقيـة فى سنة ١٧٧ ، وفى عهده تجددت الثورات فى البلاد ، وثار الجند بقيادة ابن الجارود المعروف بعبد ربه الأنبارى والتف حوله كثير من الساخطين على الفضـل ، فسير الفضل إليهم جيشا هزمه ابن الجارود ، الذى أقبل يحاصر القيروان وتمكن من اقتحامها فى جمادى الآخرة سنة ١٧٨ ، وقتل الفضل (١) .

٥ — هرثمة بن أعين : لما بلغ الرشيـد مقتل الفضـل بن روح وما أثاره ذلك من عوامل الفوضى والاضطراب فى أفريقية ، ولى عليها هرثمة بن أعين (الذى سيغامر فيما بعد ويسعى إلى اختراق السياج الحديدى الذى فرضه الفضل بن سهل على المأمون فى خراسان ، ويذهب ضحية شجاعته وعروبته الصادقة) ؛ وأرسل الرشيد إلى ابن الجارود الثائر يحيى بن موسى ليستميل ابن الجارود حتى يعاود الطاعة قبل وصول هرثمة . ونجح يحيى بن موسى فى استمالة جند ابن الجارود الفرس وعلى رأسهم محمد بن الفارسى ، ولكن ابن الجارود قتل محمد ابن الفارسى وهـــزم عسكره ، فتراجع يحيى بن موسى إلى طرابلس حيث وصلها هرثمة . وفى غرة ربيع الآخر ١٧٩ وصل هرثمة إلى القيروان فهدأ نفوس أهلها ، وأقام على الزاب القائد إبراهيم بن الأغلب . وكان هرثمة مولعا بالبناء فأقام رباط المنستير سنة ١٨٠ وبنى سور طرابلس مما يلى البحر (٢). وفى سنة ١٨٠ هـ قامت ثورة جديدة فى البلاد ضـد هرثمة ، وعلى الرغم من نجاحه فى إيقـاع الهزيمة بالثوار فقـد كتب إلى الرشيد يطلب الاستعفاء

---

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٦ — ابن الأبار ، الحلة السيراء ، تحقيـق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٦٣ ، ج ١ ص ٧٧ — ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٣٧ .

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٠ — ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٣٩ .

لكثرة ما رآه فى أفريقية من الاختلاف وتقلب أهواء جندها ، فأمره الرشيد بالقدوم عليه ، فترك أفريقية فى رمضان سنة ١٨١ ، واستعمله على فلسطين (١) .

٦ - محمد بن مقاتل العكى : كان أخا الرشيد فى الرضاع فاستعمله الرشيد على أفريقية بعد هرثمة ، فقدم إليها فى أول رمضان سنة ١٨١ . ولم ينجح ابن مقاتل فى تهدئة نفوس الجند بل على الضد من ذلك أثار عليه كراهية الجند لسوء سيرته وقبيح ما يؤثر من أخباره ؛ من ذلك اقدامه على قتل البهلول بن راشد أحد أئمة البربر الكبار فى الشريعة بسبب وعظه له ومعارضته له فى تصرفاته لاسيما عند ما أمد البيزنطيين فى صقلية بالأسلحة ؛ كذلك إساءته السيرة فى الجند وفى الرعية واقتطاعه أرزاق الجند ، فتسبب فى قيامهم عليه (٢) ، فثار عليه الجند استهجانا لتصرفاته ، وزحف أبو الجهم التميمى عامله على تونس لدخول القيروان واشتبك مع ابن مقاتل فانهزم الأخير ، ودخل أبو الجهم القيروان فى رمضان سنة ١٨٣ ، فأمن العكى على دمه وماله ، فخرج العكى من القيروان بعد أن أمنه أبو الجهم ، وسار إلى طرابلس ، فأدركه قوم من الخراسانيين دخل بهم طرابلس وأقام بها وفى هذه الأثناء استاء إبراهيم بن الأغلب التميمى من خروج بن الجهم على الوالى الشرعى ، فجمع جيشا من الزاب سيره إلى القيروان ، ودخلها ، وكتب إلى بن مقاتل بطرابلس يدعوه إلى دخول القيروان ، فعاد ابن مقاتل ، وانزعج الناس لعودته ولاذوا بأبى الجهم فى تونس . فلما استشعر أبو الجهم أن لديه قوة كافية ، عزم على مهاجمة القيروان ، فتصدى له إبراهيم بن الأغلب ، فانهزم أبو الجهم وانسحب إلى تونس

---

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٤١ .

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١١ — ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٥٤ و

وحاصره ابن الأغلب فاضطر إلى طلب الأمان فأمنه ، وسيره إلى بغداد ، فأمر الرشيد بحبسه فى المطبق (١) وأصبح ابن الأغلب رجل أفريقية القوى بعد أن هزم أبا الجهم وأعاد ابن مقاتل إلى مقر ولايته ، ولكن الجند والأهالى كانوا قد سئموا حكم ابن مقاتل وكرهوا استبداده ، فاتصل جماعة من الجند والأهالى بابن الأغلب وطلبوا منه أن يتولى شؤونهم بدلا من ابن مقاتل ، وحملوه على أن يكتب إلى الرشيد طالبا منه أن يقره على إمارة أفريقية ، فكتب إليه فى ذلك ، وأبلغه أنه مستعد فى مقابل تمتعه بالإمارة أن يتنازل عن المائة ألف دينار التى كانت تبعثها حكومته كل عام معونة لأفريقية بالإضافة إلى استعداده لإرسال أربعين ألف دينار إليه (أى إلى الخليفة) كل عام . فلما عرض الرشيد الأمر على هرثمة يستشيره ، أشار عليه بأن يوافق على منحه ولاية أفريقية لكفايته وحزمه ومقدرته الحربية فى إخماد الثورات بالإضافة إلى شعبيته . فكتب له الرشيد عهدا بولاية أفريقية فى جمادى الآخر سنة ١٨٤ ، ويسجل هذا التاريخ قيام دولة بنى الأغلب مستقلين استقلالا جزئيا عن الخلافة (٢) .

* * *

وشهد المغرب الإسلامى منذ أواخر القرن الثانى الهجرى قيام دويلات مستقلة فى سائر أجزائه . ففى المغرب الأدنى بالقيروان قامت دولة الأغالبة ، وفى المغرب الأوسط بتاهرت قامت دولة الرستميين الخوارج الإباضية ، وفى المغرب الأقصى بفاس قامت دولة الأدارسة الحسنيين ، وفى سجلماسة قامت دولة

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤١٩ .

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١١٦ — ابن الأثير ، ٦ ص ١٥٥ — ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤١٩ — السلاوى ، ج ١ ص ١٣٥ .

بنى المدرار الخوارج الصفرية ، وفى نكور والريف الغربى قامت دولة بنى صالح ابن منصور الحميرى ، وفى شالة بتامسنا قامت دولة بنى صالح بن طريف البرغواطى المراطقة . وجميع هذه الدويلات كانت مستقلة عن الخلافة العباسية باستثناء دولة الأغالبة التى كانت ترتبط اسميا بالخلافة العباسية . وعلى هذا الأساس يمكن التنبؤ بسياسة الدولة العباسية فى المغرب ، فهى سياسة عدائية بالنسبة للدويلات المستقلة التى قامت فيما وراء أفريقية . أما سياستها نحو دولة الأغالبة فكانت ودية ، لأن هذه الدولة كانت تدين بالولاء لبنى العباس ، ساعد الرشيد على تأسيسها بعهد منه، لتكون حاجزا بين البلاد الخاضعة للدولة العباسية والقوى غير السنية فى المغرب بين الأوسط والأقصى خاصة قوة الأدارسة الذين كانوا يتطلعون إلى توحيد المغرب والمشرق الإسلاميين تحت قيادتهم(١) ، فقد وجه إدريس بن عبد الله مؤسس دولة الأدارسة رسالة إلى المصريين يمكن أن نستنتج منها مدى اتصال الأدارسة بأهل مصر (٢) .

أما أسرة الأغالبة(٣) فأسرة راقية فى مضمار الحضارة عملت على نشر

---

(١) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ١٧ هامش رقم ٢ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) أقنعت أحداث أفريقية المتوالية من معارك خاضها العرب ضد الصفرية والإباضية ومن حركات التمرد والشغب التى قام بها الجند ، ومن فتن طاحنة متواصلة ، الرشيد بأن انفصال المغرب عن الدولة العباسية بات حقيقة واقعة، وقد دفعه هذا الشعور بالواقع إلى قبول ما عرضه عليه إبراهيم بن الأغلب عامل الزاب من قبل ابن مقاتل ، والتسليم باستقلال ولاية أفريقية استقلالا جزئيا عن الخلافة العباسية والاكتفاء بتبعية إسمية لها مقابل مبلغ من المال يبعثه إلى الخليفة . هذا الوضع الجديد الذى وافق عليه الرشيد يؤكده لقب الإمارة الذى خلعه على بنى الأغلب وإقرار كل خليفة عباسى بهذا اللقب

(Marçais, la Berberie musulmane et l'Orient au Moyen âge (Paris , 1946, p. 59) ولاشك أن الرشيد بإرساله عهد ولاية أفريقية إلى ابن الأغلب إنما كان يقر استقلاله الفعلى بهذه البلاد مع التبعية الأسمية للخلافة .

الحضارة الإسلامية فى البلاد التى خضعت لنفوذهما أى فى أفريقية وطرابلس وصقلية ، كما أن أمراءها أقاموا المدن والقصور ، وشيدوا المساجد والحصون والأربطة ، وشجعوا الآداب والعلوم والفنون وحمى أمراء الأغالبة المشرق الأدنى الإسلامى من خطر التغلغل الشيعى والخارجى ، واضطروا إلى الاصطدام عسكريا بالرستميين الخوارج وبالدعاة الإسماعيلية حينا آخر . وظلت دولة بنى الأغلب موالية للعباسيين ، ينعكس ذلك على الإسم الذى أطلقه إبراهيم بن الأغلب على المدينة التى أسسها فى سنة ١٨٥ جنوبى القيروان فسماها العباسية إمعانا فى إظهار ولائه للعباسيين(١) ، وعلى مؤامرات إبراهيم بن الأغلب ضد دولة الادارسة الفتية (٢) ، إلى أن تولى المأمون العباسى الخلافة ، وأرسل إلى زيادة الله بن إبراهيم الأغلبى (٢٠١ — ٢٢٣ ﻫ) التقليد بالإمارة ، فأخلص له زيادة الله حتى عندما توثب إبراهيم بن المهدى على الخلافة ببغداد وتسمى بالمبارك (٢٠٢ — ٢٠٤ ﻫ) ، فلما دخل المأمون بغداد فى سنة ٢٠٤ ﻫ وخلصت له الخلافة شكر له ذلك(٣) . ولكن عندما كتب إليه المأمون يأمره بالدعاء لعبد الله بن طاهر على منابر أفريقية غضب غضبا شديدا وبعث مع رسول الخليفة إليه كيسا به ألف دينار مضروبة بأسماء بنى إدريس(٤) ، وفى ذلك تهديد واضح للخليفة بخروج الأغالبة على العباسيين وانضمامهم إلى الأدارسة لو فكر العباسيون فى مس استقلال بنى الأغلب الذاتى .

كذلك ينعكس ولاء الأغالبة للعباسيين فى قيامهم بمحاربة البيزنطيين فى

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة العباسية .

(٢) سنتعرض لذلك فى حينه .

(٣) ابن الخطيب ، ص ١٦ .

(٤) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٢٢ — ابن الخطيب ، ص ١٧ .

صقلية منذ سنة ٢١٢ (١) ، وفى مساندة ابن حفصون الثائر على بنى أمية فى الأندلس . وسقطت دولة الأغالبة فى سنة ٢٩٦ هـ على يد أبى عبد الله الشيعى داعى دعاة الشيعة الإسماعيلية .

أما دولة الأدارسة فقد أسسها إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على فى المغرب الأقصى فى وليلى وذلك فى سنة ١٧٢ هـ أى بعد مصرع الحسين ابن على بن الحسن وهزيمة أصحابه فى موقعة فخ بمكة بثلاث سنوات . وكان إدريس قد اشترك فى القتال مع الحسين بن على ، ونجح فى الإفلات مع المهزومين من بنى الحسن (٢) ، فاستتر بعض الوقت ، فلما ألح العباسيون فى طلبه قصد إلى مصر مع مولاه راشد ، وساعده واضح مولى صالح بن المنصور — وكان يتشيع لعلى — على الفرار إلى المغرب ، فيقال إنه حمله على البريد إلى المغرب الأقصى هو وراشد ، فنزلا بوليلى من أعمال طنجة (٣) فى غرة ربيع الأول سنة ١٧٢ ، فنزل على إسحق بن عبد الله الأوربى ، أمير قبيلة أوربة البربرية فأجاره وأكرمه ، فأقام فى كنفه ستة أشهر تمكن خلالها من نشر دعوته ، ونجح بفضل فصاحة لسانه وبلاغته فى التأثير فى نفوس البربر — خاصة بعد أن عرفوا قرابته من الرسول — فتعلقت آمالهم به واجتمعت عليه قبائل

---

(١) راجع فى ذلك : ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣٥ — ابن الأثير ، ج ٦ ص ٣٣٣ ومايليها — ابن خلدون ج ٤ ص ٤٢٧ . Marçais , op. cit., p. 65 - احسان عباس ، العرب فى صقلية ، القاهرة ١٩٥٩ ص ٣٢ - عبد العزيز سالم ، المغرب الإسلامى ، ص ٣٨٥ .

(٢) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٩٣ - ابن خلدون ج ٤ ص ١٣ .

(٣) البكرى المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب ، الجزائر ١٩١١ ، ص ١١٩ - ابن الأثير ، ج ٦ ص ٩٣ ـ المغرب الإسلامى ، ص ٤٦٨ .

أوربة ومغيلة وصدينة ، وزناته ، وبايعوه بالامامة ، وتمكن إدريس من تكوين جيش وجهه بادىء ذى بدء إلى المناطق التى تسكنها قبائل على دين اليهودية والمجوسية وخاصة مناطق شالة وتادلا التى لم يكن الإسلام قد انتشر فيها بعد (١) . وبفضل غزواته وفتوحاته أمكنه أن يؤسس إمارة قوية بالمغرب الأقصى (٢) .

واتصل بالرشيد ما بلغه إدريس فى المغرب من دخول البربر فى طاعته وافتتاحه مدن المغرب الأقصى بسيفه ، وأبلغ بحزمه وقوته ، فعظم عليه الأمر ، وخاف أن يقضى الأدارسة بفضل دعوتهم على النفوذ العباسى فى أفريقية وطرابلس ، كما خاف أن يمتد نفوذهم إلى مصر ، ولاشك أن اصطناع إدريس ابن عبد الله لسياسة الغزو المسلح فى نواحى تامسنا وتادلا وتلمسان كان يعبر عن رغبته فى التوسع ومد نفوذه على المغرب كله ، وكان لذلك صدى عميق فى المشرق الإسلامى ، وأصبح الخليفة قلقا على مصير المغرب ومصر ، بل إن صاحب كتاب الروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس يذكر ان الرشيد أخبر بعزم إدريس على غزو أفريقية ، فخاف أن يعظم أمره فيصل إليه ، لما يعلم من فضله وكماله ، ومحبة الناس فى أهل بيت

---

(١) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ١٩٢ — ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٤ — الجزنائى ، كتاب زهرة الآس فى بناء مدينة فاس ، نشره ألفريد بل ، الجزائر ١٩٢٢ ، ص ١٠ .

(٢) لمزيد من التفصيل راجع : ليفى بروفنسال ، الإسلام فى المغرب والأندلس ، ترجمة عبد العزيز سالم ، القاهرة ١٩٥٨ — والمغرب الكبير ، ج٢ : المغرب الإسلامى لعبد العزيز سالم ، ص ٤٦٥ — ٤٠٤ .

النبى صلى الله عليه وسلم ، فاغتم لذلك غما شديداً «وعظم عليه شأنه» (١) ،
ففكر الرشيد فى اللجوء إلى السيف للقضاء على الدولة الإدريسية الناشئة ،
ولكن الأمر لم يكن من السهل تحقيقه ، فالنفوذ العباسى الفعلى لم يكن
يتجاوز حدود مصر الغربية ، وعلى أقصى تحديد الحدود التونسية
الجزائرية ، وذلك إذا اعتبرنا أن أفريقية (أى تونس) ترتبط بالخلافة
العباسية ارتباط ولاء . فاضطر الرشيد إلى استشارة يحى بن خالد
البرمكى ، «وأخبره بأمر ادريس واستشاره فيه . وقال له : إنه ولد على بن
أبى طالب وابن فاطمة بنت النبى صلعم ، وقد قوى سلطانه ، وكثرت جيوشه
وعلا شأنه ، واشتهر أمره واسمه ، وفتح مدينة تلمسان وهو باب أفريقية ،
ومن ملك الباب يوشك أن يدخل الدار . وقد عزمت على أن أبعث له جيشا
عظيما لقتاله ، ثم إنى فكرت فى بعد البلاد وطول المسافة ، وتنائى المغرب عن
المشرق ، ولا طاقة لجيوش العراق على الوصول إلى السوس من أرض المغرب ،
فرجعت عن ذلك ، وقد هالنى أمره ، فأشر على برأيك فيه» (٢) . فأشار
عليه البرمكى بأن يبعث إلى إدريس رجلا تتوفر فيه صفات الذكاء والمكر
والدهاء مع البلاغة والجرأة ليغتاله ، ووقع اختيار يحي على سليمان بن جرير (٣)،
وقيل سليمان بن جدير (٤) وقيل ابن حريز (٥) المعروف بالشماخ (٦) . وكان

(١) انظر النص المذكور فى : Lévi — Provençal, Extraits des historiens arabes du Maroc, Paris, 1948, P. 18.

(٢) Ibid., p. 18.

(٣) Ibid. — الجزنائى ، ص ١٠ .

(٤) ابن الخطيب ، ص ١٩٣ .

(٥) البكرى ، ص ١٢٠ — ابن خلدون ، ص ٢٥ .

(٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٩٩ .

وكان سليمان هذا من أهل الشجاعة والدهاء والفصاحة ، فأخبره يحيى بالمهمة التى يعهد إليه بها ، ووعده برفعة المنزلة والصلات السنية ، وغمره بالأموال والتحف المستطرفة ، وجهزه بما يحتاج إليه ، وأعطاه قارورة فيها غالية (عطر) مسمومة ، ثم وجه معه رجلا يثق به وبشجاعته ، فانطلق سليمان مع صاحبه من بغداد ، وهو متنكر فى هيئة طبيب ، ومازال يجد فى السفر حتى وصل إلى وليلى ، فاتصل بإدريس ، فسأله عن إسمه ونسبه ووطنه ، وسبب قدومه إلى المغرب ، فذكر له أنه من بعض موالى أبيه ، وأنه اتصل به خبره فأتاه برسم خدمته بسبب محبته لأهل البيت ، فأنس إليه إدريس وسربه ، واتخذه صاحبا ونديما ، لا يجلس إلا معه ، ولا يأكل إلا إذا أكل معه ، إذ كان ادريس فى هذا البلد البربرى ، يحن إلى مجالسة العرب ومحادثتهم ، وكان سليمان هذا قد أبدى من علمه وأدبه وبلاغته وحواره ماجعل إدريس يتعلق به ويرفعه إلى تلك المنزلة (١) . وأخذ سليمان الشماخ يترصد فرصة يغتال فيها إدريس بالسم ، فلم يتهيأ له ذلك لملازمة راشد له ، وظل يترقب فرصه مواتية لتنفيذ خطته ، إلى أن اغتنم غياب راشد ذات يوم لبعض شؤونه ، فدخل على إدريس فألفاه وحده ، فجلس بين يديه على عادته ، وتحدث معه مليا فلم يظهر راشد ، فانتهز الفرصة ، واغتنم الخلوة فقال : ياسيدى جعلت فداك ، إنى جئت من المشرق بقارورة طيب أتطيب بها ، ثم إنى رأيت هذه البلاد ليس بها طيب ، فرأيت أن الإمام أولى بها منى فخذها تتطيب بها ، فقد آثرتك على نفسى ، وهو من بعض مايجب لك على . ثم أخرجها من وعاء وقدمها له ، فشكره إدريس ، وفتح السدادة وشمها . فلما تأكد الشماخ من ذلك استأذن وخرج ، ثم ركب فرسا له قد أعدها لذلك ، وفر

---

(١) ابن الخطيب ، ص ١٩٣ — الجزنائى ، ص ١٠ — الروض القرطاس من كتاب « منتخبات المؤرخى العرب فى المغرب » ، ص ١٩ .

من وليلى . أما إدريس فقد غشى عليه وسقط بالأرض ، والقوم من حوله لايفهمون ماحل به . وقضى إدريس فى غشيته إلى عشى النهار ، فتوفى فى مستهل ربيع الآخر من سنة ١٧٧ هـ ،(١) ، وقيل فى سنه ١٧٥ هـ (٢) وهو الأرجح. وانتبه راشد مولى إدريس إلى غيبة الشماخ ، فعلم أنه هو الذى سمه ، فركب فى طلبه ، ومازال يغذى سيره فى اتجاه الشرق حتى لحق به بوادى ملوية ، فضربه بسيفه ضربة قطع بها يده ، ولكنه لم يتمكن من الإجهاز عليه ، إذ كبا به فرسه ، وتمكن الشماخ من عبور الوادى واحتمى فى البرابرة (٣) ، فأمن الشماخ من مطاردة راشد له ، وعصب جراحه ، ووصل إلى بغداد (٤) ، فولاه الرشيد على بريد مصر (٥) . ودفن إدريس بخارج باب وليلى فى فناء رابطة ليتبرك الناس بتربته .

وهكذا نفذت مؤامرة الرشيد ويحيى البرمكى ، ونجحا فى التخلص من إدريس . ولكن إدريس توفى وقد ترك جارية له حاملا فى السابع من أشهر الحمل ، فاتفق راشد مع زعماء البربر على أن يقوم بأمرهم إلى أن تضع الجارية ، فإذا جاء المولود ذكرا بايعوه ، وإذا كانت بنتا نظروا لأنفسهم (٦). ووضعت

---

(١) الروض القرطاس — الاستقصا ، ج ١ ص ١٥٩ .

(٢) البكرى ، ص ١٢١ — ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٩٩ — ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٥ — القلقشندى ، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، ج ٥ ص ١٨٠ — الجزنائى ، ص ١١ .

(٣) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٥ .

(٤) البكرى ، ص ١٢١ — ابن عذارى ، ص ٢٩٩ — ابن الخطيب ، ص ١٩٥ — السلاوى ، ج ١ ص ١٥٩ .

(٥) البكرى ص ١٢١ — ابن الأثير ص ٩٣ .

(٦) ابن الخطيب ، ص ١٩٦ — ، ج ١ ص ١٦٠ .

الجارية فى ربيع الآخر سنة ٧٥ (١) ، وجاء المولود غلاما أشبه الناس بأبيه إدريس ، فأخرجه راشد إلى رؤساء البربر فأعجبوا من شبهه الكبير بأبيه ، فقالوا : وهذا إدريس كأنه لم يمت، (٢) ، فسمى باسم أبيه ، وقام راشد بأمره وكفله حتى شب ، فأحسن تأديبه وأقرأه القرآن وأحفظه إياه ولم يتجاوز إدريس من العمر ثمانى سنوات بعد ، ثم علمه السنة والفقه وأشعار العرب وأيامهم وسير الملوك ، ودربه على ركوب الخيل والمصاولة وأحكام الرماية بالسهام (٣) ، ولما أتم إدريس من العمر عشر سنوات جدد له راشد البيعة بجامع وليلى .

ويذكر ابن خلدون أن إبراهيم بن الأغلب صرف همه إلى تمهيد المغرب الأقصى ، إذ ساءه استفحال أمر إدريس براشد ، فلم يزل يدس إلى البربر ويسرب فيهم الأموال ويستميلهم حتى قتلوا راشدا وسيق رأسه إليه وذلك فى سنة ١٨٦ (٤) ، وفى ذلك يقول إبراهيم بن الأغلب يخاطب الرشيد ، ويكذب ادعاء محمد بن مقاتل العكى الذى نسب إلى نفسه محاولة قتل راشد :

ألم ترنى أهلكت بالكيد راشدا .·. وأنى لأخرى لابن إدريس راصد
وتاه أخو عك بمهلك راشد .·. وقد كنت فيه ساهرا وهو راقد (٥)

وتجمع معظم المصادر على أنه قام بكفالة إدريس بعد مقتل راشد رجل

---

(١) البكرى ، ص ١٢٢ — ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٢٤ — ابن الخطيب ، ص ١٩٦ .

(٢) ابن الخطيب ، ص ١٩٦ — السلاوى ج ١ ص ١٦٠ .

(٣) نفس المصدر — الجزنائى ص ١٢٣ .

(٤) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٥ ، ٤٢٠ — ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٧٤ .

(٥) ابن الخطيب ، ص ١٩٧ .

اسمه أبو خالد بن يزيد بن إلياس العبدى (١)، وجددت لإدريس الثانى البيعة في ٧ ربيع الأول سنة ١٨٧ هـ (٢)، وهو ابن ١١ سنة، وبايعته جميع القبائل من زناتة واوربة وصنهاجة وغمارة وسائر قبائل البربر، فاستقام له الأمر بالمغرب الأقصى، وتوطد ملكه وعظم سلطانه، وقوى عسكره ووفد إليه الناس من سائر البلدان (٣). وكان ممن وفد عليه نحو ٥٠٠ فارس من أفريقية والأندلس من القيسية والأزد والخزرج ومداج وبنى يحصب، فسر إدريس بوفادتهم عليه وقربهم منه وجعلهم بطانته (٤)، واستوزر منهم عمير ابن مصعب الأزدى.

ولما رأى إبراهيم بن الأغلب — الذى كان أكثر الأغالبة ولاء للعباسيين — عظم قوة إدريس استمال إليه كبير أوربة أبا ليلى إسحق بن محمود الاوربى، ويبدو أن إدريس تبين له تغير إسحق عليه وميله لابن الأغلب، فقتله فى ٦ من ذى الحجة سنة ١٩٢ (٥)، ثم كثرت حاشية إدريس وأنصاره، وضاقت وليلى بهم وبمن وفد عليه من عرب القيروان والبربر فأسس لهم ربض القرويين من مدينة فاس فى سنة ١٩٣ (٦) هـ، ثم انتقل من المنطقة التى عرفت فيما بعد بعدوة الأندلسيين — ولم تكن هذه العدوة

---

(١) البكرى، ص ١٢٢ — ابن الأثير، ج ٦ ص ١٧٤.

(٢) نفس المصدر، ص ١٢٢ — ابن عذارى، ج ١ ص ٢٩٩ — ابن خلدون، ج ٤ ص ٢٦.

(٣) الجزنائى، ص ٢٣.

(٤) ابن خلدون، ج ٤ ص ٢٦ — الجزنائى، ص ١٣.

(٥) البكرى، ص ١٢٣ — ابن خلدون، ج ٤ ص ٢٦.

(٦) نفس المصدر، ص ١٢٣ — ابن عذارى، ج ١ ص ٢٩٩ — ابن خلدون، ج ٤ ص ٢٦.

من فاس قد أسست بعد — إلى عدوة القرويين حيث بنى دار القيطون وأسس بجوارها جامع الشرفاء بفاس (١) .

ويبدو أن إدريس اتخذ بالإضافة إلى وزيره العربي عمير بن مصعب وزيرا من البربر اسمه بهلول بن عبد الواحد المظفرى ، فلما أخضع إدريس خوارج المغرب الأوسط لطاعته . وامتد نفوذه حتى وادى شلف ، وأصبح يهدد نفوذ العباسيين بأفريقية ، فاضطر ابن الأغلب إلى أن يدافع عن حماه، فلاطف بهلول واستماله إليه بالكتب والهدايا حتى انحرف عن دعوة الأدارسة إلى الدعوة العباسية ، ثم وفد إلى القيروان ، ومنذ ذلك الحين استراب إدريس بالبربر فاستكثر من العرب وصالح ابن الأغلب (٢) . وتركت الخلافة العباسية دولة الأدارسة وشأنها .

أما دولة الرستميين أصحاب تاهرت فكانت علاقة العباسيين معهم علاقة عداء، وتنسب هذه الدولة إلى عبد الرحمن بن رستم الإباضى الفارسى ، ومن المعروف أن المذهب الإباضى انتشر فى المغرب انتشارا سريعا ،وساعد على سرعة انتشاره منذ أول القرن الثانى الهجرى أن الدولة العباسية كانت أشد وطأة على الخوارج من الدولة الأموية ، فاستبد العباسيون بالدولة ورفعوا السيف على كل من ناوأ سلطانهم . وكان مؤسس هذه الدولة وهو ابن رستم أحد علماء خمسة عرفوا بحملة العلم ، رحلوا إلى البصرة مقر أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة إمام الإباضية ، وقد رأينا فيما سبق أن الإباضية والصفرية تغلبوا على الأمويين فى المغرب وأطاحوا بنفوذهم ، ولكن قيام الدولة العباسية كان كارثة بالنسبة

(١) ابن الخطيب ، ص ٢٠١ — الجزنائى ، ص ١٤ ، ٢٠ .

(٢) نفس المصدر — ابن خلدون ، ص ٢٣٧ ، ٢٤٠ .

لهم ، إذ أن أبا جعفر المنصور ساءه أن يضيع نفوذ بنى العباس فى المغرب ، ولهذا السبب عزم على القضاء على الدولة الإباضية التى أسسها أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى وتمكين السيطرة العباسية على أفريقية ، فأخذ يعبىء طاقاته ويحشدها لهذا الغرض ، ثم كانت حملة ابن الأشعث التى انتهت بمصرع أبى الخطاب فى جملة من خيار أصحابه يبلغ عددهم ١٢ ألفا(١) وكان عبد الرحمن بن رستم يتأهب لنجدة صاحبه أبى الخطاب عندما بلغه وهو فى طريقه إليه خبر الهزيمة الشنعاء التى منى بها جيشه ، فآثر أن يترك المغرب الأدنى وشأنه ، ويمضى إلى المغرب الأوسط حيث لا يصل نفوذ العباسيين ، وحيث يتركز جمهور الإباضية الذين انتصروا لأبى الخطاب وله ، فيمكنه هناك أن يؤسس دولة إباضية على نسق دولة أبى الخطاب .

ومن المعروف أن عبد الرحمن بن رستم هذا من أعقاب رستم قائد جيش الفرس فى القادسية ، وإن كان بعضهم يرفع نسبه إلى بهرام كور كسرى فارس(٢) ، وسلك ابن رستم فى فراره إلى المغرب الأوسط مسالك صعبة وطرقا وعرة إلى أن نزل على وادى سوفجج ، وكان عامرا بالإباضية ، وهناك تسارعت قبائل هوارة ولواته ولماية بالانضمام إليه . ولما علم ابن الأشعث فى القيروان بنجاح ابن رستم فى الفرار إلى المغرب الأوسط والتفاف القبائل حوله ، جهز جيشا خرج به إلى هذا الجبل بقصد استنزال ابن رستم قبل أن يستفحل أمره .

---

(١) ابن عذارى ، ص ٨٣ ـ ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤١١ ـ أبو الربيع سليمان البارونى ، مختصر تاريخ الإباضية ، تونس ١٩٣٨ ، ص ٣٤ .

(٢) البكرى ، معجم ما استعجم ، مادة تاهرت ـ ياقوت ، معجم البلدان ، مادة تاهرت . ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٧٧ . وكان ابن رستم مولى لعثمان بن عفان ، ثم وفد إلى المغرب مع العرب الفاتحين .

فلما قدم بجيشه عسكر فى سفح الجبل، وحفر خندقا حول معسكره وبدأ يحاصر ابن رستم ، واستمر يحاصره فترة طويلة عجز خلالها عن الوصول إلى معقل خصمه ولما طال الحصار سئم جنده البقاء لاسيا وقد تفشى وباء الطاعون بينهم ، فاضطر ابن الأشعث إلى رفع الحصار والعودة إلى القيروان ثم أسس ابن رستم مدينة تاهرت واتخذها مركزا لدولته ، وذلك فى سنة ١٤٤ هـ . وازدهرت تاهرت وأصبحت مركز الهجرات لما شاع من عدل ابن رستم فى رعيته وحسن سيرته فيهم، ففتحت أبوابها لكل من طرقها من الخارجين على الدولة العباسية ومن ضاقت نفوسهم من عسف خلفاء بنى العباس . ولم يبايع ابن رستم بالإمامة الإباضية إلا فى سنة ١٦٠ بعد أن رست قواعد دولته ورسخت دعائمها وأصبحت قادرة على الدفاع عن نفسها .

ثم بدأت مرحلة الصراع بين العباسيين ممثلين فى الأغالبة وبين الرستميين ، فقد كان العباسيون يهدفون إلى القضاء على الصفرية فى تلمسان والإباضية فى تاهرت . ولم يكن إباضية طرابلس قد ألقوا سلاحهم بعد استشهاد إمامهم أبى الخطاب فى سنة ١٤٤ ، وإنما ظلوا يخوضون المعارك ضد العباسيين ، متخذين من جبل نفوسة حصنا ومعقلا يتحصنون فيه. ففى ولاية الأغلب بن سالم تمكنت زناتة البربرية فى تلمسان من جمع شملها تحت لواء أبى قرة بن دوناس الصفرى، وكان الأغلب ينوى الاشتباك مع هذه القبيلة، ولكنه فى إحدى المعارك مع العرب أصيب بسهم أرداه قتيلا فى سنة ١٥٠ . وخلفه عمر بن حفص المعروف بهزار مرد ، وكان يهدف إلى تحصين طبنة واتخاذها مركزا لشن غاراته على الإباضية والصفرية، فما كاد يخرج إلى طبنة فى سنة ١٥٤ ، وتخلو أفريقية من عسكر العباسيين حتى ثار بها البربر باتفاق مسبق مع صفرية تلمسان وإباضية تاهرت وطرابلس وهاجم البربر الجنيد بن بشار فى القيروان ، واجتمع الإباضية فى

طرابلس وبايعوا أبا حاتم يعقوب الإباضى بالإمامة سنة ١٥٤ . فلما هوجم الجنيد، استنجد بهزارمرد، فأمده بعسكر لمواجهة الموقف. ولكن قوات الإباضية أبادتهم ، وفر فلهم إلى قابس، فحاصرهم بها أبو حاتم، وتجمعت حشود الخوارج من كل ناحية حتى قيل إن عدد جيوشهم بلغ ١٢ جيشا توجهت جميعا إلى الزاب، ولكن هزارمرد تمكن من فك الحصار عن نفسه عن طريق الرشوة بالمال ، فتراجع ابن رستم إلى تاهرت. أما إباضية طرابلس ، فعلى الرغم من انتصارهم بقيادة أبى حاتم على هزار مرد فى القيروان ، فقد انتهى أمرهم بالهزيمة على أيدى قوات يزيد بن حاتم وذلك فى جبال نفوسة سنة ١٥٠ ، وقتل أبو حاتم وصفوة قواده(١) .

أما ابن رستم فقد تفرغ للإصلاح الداخلى، وبمرور الزمن استطاع أن يسير بدولته فى طريق القوة والمنعة ، فهابه روح بن حاتم الوالى العباسى بأفريقية ، ورغب فى موادعته ، فهادنه فى سنة ١٧١ هـ(٢) ، كما وادع عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم من بعده(٣) .

ولما قامت دولة الأغالبة ، كان من الطبيعى أن يعتبروا الرستميين خصوما لهم بحكم موالاة الأغالبة للعباسيين ، فبدأ أمراء الأغالبة ينازعون الرستميين أملاكهم بنفوسة، فلما استغاثت قبيلة هوارة بالإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن ابن رستم فى سنة ١٩٦ ضد أبى العباس عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب(٤) ، لم

---

(١) مختصر تاريخ الإباضة ، ص ٣٤ .

(٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٢٨ .

(٣) نفس المصدر ، ج ٤ ص ٤١٥ .

(٤) فى سنة ١٩٦ ثارت قبائل هوارة بجبل نفوسة على العباسيين وأعلنت استقلالها فاستنجد عاملها بإبراهيم بن الأغلب ، فسير ابنه أبا العباس عبدالله على رأس جيش عدته =

يتردد فى نجدتها. وزحف إلى طرابلس بجيش ضخم، فتحصن عبد الله الأغلبي داخل اسوار طرابلس ، وعندئذ حاصره الرستميون ، وكان عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب قد أغلق أبواب المدينة ولم يترك منها مفتوحا سوى باب هوارة لكى يخرج منه لمقاتلة الرستميين(١) . وواصل عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم حصاره لطرابلس إلى أن علم عبد الله الأغلبي بوفاة أبيه إبراهيم فى ٢٠ شوال سنة ١٩٦ ، فعزم على العودة إلى القيروان للظفر بالإمارة قبل أن يغتصبها منه أحد أخوته ، فاصطلح مع عبد الوهاب بن رستم على أن تكون أعمال طرابلس كلها للدولة الرستمية بينما يحتفظ الأغالبة بمدينة طرابلس والساحل(٢) .

وظلت العلاقات متوترة بين الرستميين والأغالبة ، وكانت تاهرت قد ازدهرت فى عهد أفلح بن عبد الوهاب (٢١١ — ٢٤٠ هـ) وأصبحت بحق حاضرة المغرب كله ، إذ اجتذبت إليها الخارجين على دولة الأغالبة من الجند وأهالى القيروان، وتضخم ملك الرستميين وتألق نجمهم فى سماء المغرب، وعندئذ عمد أبو العباس محمد بن الأغلب (٢٢٦ — ٢٤٢ هـ) إلى محاربة الرستميين ، عن طريق إنشاء مدينة تجاور تاهرت وتنافسها . ففى سنة ٢٢٧ هـ ،أسس مدينة بالقرب من تاهرت سماها العباسية ، فسكت الإمام أفلح ولم يحاول أن يثنيه عن

= ١٣ ألف فارس ، فانهزم الهواريون، ودخل الأمير الأغلبي طرابلس ،وعندئذ استغاثت هوارة بالإمام عبد الوهاب .

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٢٧٠ — البارونى ، كتاب الأزهار الرياضية فى أئمة ملوك الإباضية ، ص ١٤٤ .

(٢) ابن الأثير ، ص ٢٧٠ — ابن خلدون : ج ٤ ص ٤٢١ — الأزهار الرياضية ص ١٤٥ — محمد بن تاويت الطنجى ، دولة الرستميين ، صحيفة المعهد المصرى بمدريد ، المجلد الخامس ، ١٩٥٧ ص ١١٩ .

إقامتها أو يعترض على تخطيطها ، إلى أن أتم أبو العباس بناءها ، ونظم أسواقها، وعندئذ فقط تحرك أفلح ، فوثب عليها بجيوشه وأجلا سكانها عنها ثم أضرم فيها النيران(١) . ومع ذلك فقد لزم أبو العباس الصمت ولم يعمل على محاربة الرستميين لعجزه ، وظل الأغالبة يكيدون للرستميين ويترقبون الفرص لضربهم إلى أن تمكن إبراهيم بن أحمد الأغلبي (٢٦١ — ٢٨٩) من إيقاع الهزيمة بجيش الرستميين بقيادة أفلح بن العباس فى واقعة قصر مانو سنة ٢٨٣ هـ ، وفى هذه الموقعة استنفذ الطرفان قواهما ، وكان ذلك مقدمة لسقوط كل من دولتى الأغالبة والرستميين على أيدى الشيعة الإسماعيلية .

وكان من الطبيعى أن يلتقى أمراء بنى أمية فى قرطبة بأئمة الرستميين فى تاهرت ، وتقوم بينهم صلات ودية(٢) لعامل مشترك هو أن العباسيين كانوا يعادون الأمويين فى الأندلس والرستميين الإباضية ، كما كان من الطبيعى أن يتحالف ثوار الأندلس مع الأغالبة التابعين للعباسيين ، ويستمر الحال على ذلك إلى أن تقوم الدولة الفاطمية وتقضى على الدولتين الأغلبية والرستمية وتطيح بنفوذ العباسيين نهائيا من بلاد المغرب .

---

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٩ .

(٢) كان أبو اليقظان محمد بن أفلح الرستمى «لايقدم ولا يؤخر فى أموره ومعضلاته إلا عن رأى الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط أمير قرطبة (ابن عذارى ج ٢ ص ١٦١ — ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الخاص بالأندلس ، تحقيق ليفى بروفنسال ، ص ٢٤).

(٣)

سياسة العباسيين مع الترك والهنود والصينيين

أ — مع الترك . كانت سياسة الدولة العباسية نحو جيرانها من الترك سياسة سلمية ، وقد آثر العباسيون السلم فى هذه النواحى الشرقية لأنهم وجدوا من جيرانهم الترك تقبلا للدعوة الإسلامية ، وتهافتا على اعتناق الإسلام ، ودور العباسيين فى انتشار الإسلام ولو سلميا لا يقل عن دور الأمويين . وقد صحب قيام الدولة العباسية ظهور أطماع صينية سافرة فى الأقاليم الشرقية الواقعة على أطراف إقليم ما وراء النهر ، وهذه الأطماع لم تكن سياسية على أى حال وإنما كان الهدف منها السيطرة على طرق القوافل التى تعبرها متاجر الشرق الأقصى إلى بلاد ما وراء النهر والشرق الأدنى الإسلامى وأوروبا .

وتتمثل الأطماع الصينية فى قيام الصينيين بغزو أطراف بلاد ما وراء النهر ومهاجمتهم لإقليم الشاش ، ويذكر ابن الأثير فى أحداث سنة ١٣٣ ﻫ أن إخشيد فرغانة نازع ملك الشاش ، «فاستمد إخشيد ملك الصين فأمده بمائة ألف مقاتل، وحاصروا ملك الشاش فنزل على حكم ملك الصين » ، وعندئذ سير أبو مسلم الخراسانى لمحاربتهم القائد زياد بن صالح فى جيش من المسلمين ، فهزمهم المسلمون وقتلوا منهم أعدادا كبيرة وأرغموهم على الانسحاب إلى الصين(١).

وفى سنة ١٣٤ غزا أبو داود خالد بن إبراهيم أهل كش فقتل ملكهم واستولى منهم على عدد من « الأوانى الصينية المنقوشة المذهبة مالم ير مثلها، ومن السروج ومتاع الصين كله من الديباج والطرف شيئا كثيرا(٢) » . ولكن هذين النصرين

---

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٤٩ .

(٢) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٥٣ .

لم يضعا حدا لأطماع الصين ، فقد عاودوا الظهور ، وقاموا بمحاولة جديدة لإثارة الحكام الوطنيين فى بلاد الترك على العرب ، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل ، ونتج عن ذلك أن الصين خرجت من ميدان المعركة بين العرب وبين الترك فى شرق بلاد ما وراء النهر . وأصبح لزاما على هذه الشعوب التركية أن تعتمد على نفسها فى مواجهة العرب ، واستطاع العرب — بعد أن تفرقت وحدة الترك وأصبحوا لا يشكلون خطرا على إقليم ما وراء النهر — أن يوقفوا عدوان الأتراك الشرقيين ويقضوا فى آن واحد على الخطر الصينى(١) .

ثم تأتى مرحلة الفتح المعنوى عن طريق نشر الإسلام والثقافة بين الأتراك وعدم اللجوء إلى السيف إلا عند الضرورة وفى الأوقات التى يلوح فيها عدوان على أراضى المسلمين أو تقوم خلالها فتن وثورات ، (٢)وقد كان لتمكين نفوذ العباسيين السياسى فى بلاد ما وراء النهر أثره الكبير فى حالة الأمن التى سادت هذه المناطق مما أتاح الفرصة وساعد بطريق غير مباشرة على امتداد الإسلام وانتشاره ، وواصل العباسيون سياسة دعم هذا الاستقرار السياسى عن طريق اصطناع العنصر التركى فى الجيش وفى الإدارات ، فأنشأ الفضل بن يحيى البرمكى

---

(١) حسن محمود ، العالم الإسلامى فى العصر العباسى ، ص ١٧١ .

(٢) فى أيام المنصور حارب العرب أمير فرغانة وأرغموه على طلب الصلح ودفع الجزية . وفى أيام المهدى أخضع العباسيون إخشيد الصغد وصاحب أشروسنة وملك فرغانة وحكام القرلوق وخاقان الأغوز ، وتغلغل العباسيون حتى أخضعوا ملك التبت . وفى عهد الرشيد توغل العرب فى مناطق لم يكونوا قد طرقوها من قبل ومدوا نفوذهم إلى أشروسنة وقلب آسيا الوسطى ، نخضعت لهم هذه البلاد ، وتوالت سفاراتهم إلى بلاط المأمون لتقديم فروض الطاعة والولاء ، وهكذا وصل نفوذ العرب حتى أسوار الصين . (راجع : البلاذرى ، فتوح البلدان ، ج ٣ ص ٥٢٨ ، ٥٢٩ ـ حسن محمود ، العالم الإسلامى فى العصر العباسى ، ص ١٧٢) .

فرقة تركية فى خراسان بلغ عددها نحو ٥٠ ألف مقاتل ، سير منهم إلى بغداد ٢٠ ألفا عرفوا باسم الفرقة العباسية ، كما اشترك فى قوات على بن عيسى رجال من الصغد والخوارزمية .

وفى عصر المأمون دخل كثير من زعماء الأتراك فى خدمة الخليفة ، وأصبح بلاطه يغص بزعمائهم ، كما اشترك عـدد من فرسان الأتراك فى الحرس الخلافى ، وظلت هذه السياسة قائمة إلى أن اعتلى المعتصم دست الخلافة فاستكثر منهم بحيث أصبح العنصر التركى فى خلافته دعائم الخلافة ، وقد ساعد ذلك على تقوية حركة نشر الإسلام فى المناطق المتاخمة لإقليم ما وراء النهر ؛ ومن الملاحظ أن الوثنية لا تقوى أمام الأديان السماوية ، ولذلك لم يكن غريبا أن ينتشر الإسلام فى بلاد ما وراء النهر بمثل هذه القوة بحيث تغلب على هذا الإقليم بأكمله ، بل تجاوزه إلى ما وراء سيحون وجيحون والبقاع المتاخمة ، وسار التجار بقوافلهم وتجاراتهم إلى الصين ، فنشروا معهم الدين الإسلامى ، ولهـذا السبب عقـدت علاقات سلمية بين الصين والترك وبين الخلافة العباسية ، ويقال إن المنصور عقد صلحا مع أمبراطور الصين .

ولم يكن الدافع لنشر الإسلام الدين لذاته ، وإنما كان الدافـــع الحقيقى اكتساب قلوب الترك ، فإن اكتساب القلوب كان فى كل عصر أجدى من اتخاذ الحصون وشحنها بالحاميات والرجـوع إلى السيف . ولقد جـرى الخليفتان المأمون والمعتصم على هـذه السياسة ، فكانـا يرسلان إلى هـذه النواحى رسلهم تعرض الإسلام على قادة الترك وعلى أبناء ملوكهم ، كما كانت تعـرض عليهم الدخول فى الجنـدية والنزوح إلى أرض الإسلام ، فدخل فى الإسلام وقتئـذ خلق كثير .

وهناك دافع آخر دعا المأمون ومن بعده المعتصم إلى الاستكثار من العنصر التركي في الجيش، هو الحد من نفوذ العرب والفرس في آن واحد وإيجاد نوع من التوازن بين القوتين وذلك باستخدام العنصر التركي .

ب — مع الهنود : استطاع الأمويون فتح بلاد السند على أيام الوليد بن عبد الملك بفضل الجهود التي بذلها محمد بن القاسم الثقفي ، ولكن تقلص ملك المسلمين في السند في عصر هشام وارتد عدد كبير من الهنود إلى الهندوكية ، وأدرك الأمويون (قرب نهاية دولتهم) أن تمكين الفتح العربي للسند لا يمكن أن يتم بدون إنشاء قواعد عربية، فاضطروا لذلك إلى تأسيس مدينتي المحفوظة الواقعة بالقرب من شاطىء السند غير بعيد من برهمنا باد والمنصورة التي تقع هي الأخرى بالقرب من المحفوظة (١) ، وبفضل هذين المصرين استقرت الأمور نوعا ما ورضى القوم بحكم العرب(٢). وفي العصر العباسي ، احتفظ العباسيون بإمارة قنوج وأحرزوا بعض الانتصارات ، ويشير البلاذري إلى أنه في عهد المنصور قام القائد هشام بن عمرو التغلبي بفتح ما استغلق من السند وتمكن عمرو بن جمل من استرجاع قشمير(٣) ، وفتح الملتان والقندهار في السفن ، وهدم البد وبنى في موضعه مسجدا .

وفي عهد المهدي غزا المسلمون بلاد الهند سنة ١٥٩ ، وحاصروا مدينة باربد بالمنجنيق وفتحوها عنوة ، وأشعلوا النار في البد ، وكان قد احتمى

(١) عبد العزيز سالم ، تاريخ الدولة العربية ، ٦٢٧ — ٦٣٢ .

(٢) البلاذري ، ج ٣ ص ٥٤٣ — ابن الأثير ، ج ٤ ص ٥٩٠ .

(٣) نفس المصدر ، ج ٣ ص ٥٤٣ ، ٥٤٥ .

فيه بعض الأهالى فاحترق بعضهم وقتل الباقون . ولكن المسلمين أصيبوا بوباء خطير فمات منهم نحو ألف رجل منهم الربيع بن صبيح ، ثم رجع المسلمون بحرا إلى ساحل فارس ، فلما بلغوا ساحلا يقال له بحر حمران عصفت بهم الريح فتحطمت معظم سفنهم وغرق بعضهم ونجا البعض(١) .

وفى عصرا المأمون والمعتصم تابع المسلمون توسعهم شرقا، فانتشرالإسلام فى المناطق الواقعة بين كابل وقشمير والملتان ، وأسس المسلمون فى ولاية عمران بن موسى مدينة البيضاء فى عهد المعتصم وشحنوها بالجند . وفتح عمران مدينة قنداييل ، وغزا الميد .

ج — مع الصينيين : العلاقات بين الصين والمسلمين علاقات قديمة بدأت منذ العصر الأموى ، ومن المعروف أن الإسلام دخل إلى الصين عن طريق تجار سلكوا الطريق البحرى الذى كانت تسلكه السفن التجارية(٢) ويبدأ من البصرة حيث تقلع المراكب حاملة البضائع من الأبلة فرضة البصرة إلى الصين مارة بعمان ومسقط والبحرين وهرمز بخليج فارس(٣) ، ثم ترسو السفن فى ملايبار وسيلان ومأبد وسومطرة وجاوة وتنسج كنج (تنكين) . وكانت أهم مدن الصين المفتوحة لتجارة العرب كانتون التى كانت تعرف فى المصادر العربية باسم خانفو أعظم مراكز التجارة فى الهند الصينية(٤) .

---

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤٦ .

(٢) زكى محمد حسن ، الصين وفنون الإسلام ، القاهرة ، ١٩٤١ ، ص ٩ .

(٣) بدر الدين حى الصينى ، العلاقات بين العرب والصين ، القاهرة ١٩٥٠ ص ١٠٩ .

(٤) جورج فاضلو حورانى ، العرب والملاحة فى المحيط الهندى ، ص ٢١٦ — محمد محمود زيتون ، الصين والعرب عبر التاريخ ، سلسلة اقرأ ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ١٥ .

وقد تزايد اهتمام العباسيين بالشرق الأقصى والصين فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى ، ويعبر عن هذا الاهتمام مكتبة جغرافية غنية بوصف المسالك والحديث عن السفن والمتاجر ، سجلها جيل أول من الرحالة المسلمين نذكر منهم سلام الترجمان الذى قام برحلة إلى سور الصين الشمالى ، وابن وهب القرشى الذى ركب البحر من البصرة إلى سيراف ، واجتاز ممالك الهند حتى بلغ مشارق الصين ثم انتهى إلى ميناء خانفو والتمس مقابلة ملك الصين ، فأكرمه مدة إقامته فى الصين وناقشه فى الدين والسياسة ، وعرض عليه صور بعض الأنبياء كانت تحتل قصوره ، ثم عاد ابن وهب القرشى إلى العراق(١) . وقد كانت هذه الرحلات الناجحة مقدمة لرحلات أخرى كثيرة إلى الهند والصين منها رحلة سليمان السيرافى التى ذيل عليها أبو زيد حسن السيرافى فى القرن الرابع الهجرى . ونستدل من أقوال الرحالة سليمان السيرافى على وجود جاليات إسلامية بالصين كانت تتمتع فى زمانه بامتيازات خاصة(٢) . ومعظم هذه الجاليات من التجار الذين كانوا يحملون من الصين المسك والكاغد والفخار والدار صينى(٣) ، ومن مليبار كانوا يأتون بخشب الساج الذى كان يستخدم فى عمارة الدور وفى صناعة السفن . وقد أعجب المسلمون بالتحف الفنية الصينية كالتصاوير الدقيقة التى تمثل الواقعية(٤) والخزف الصينى المذهب(٥) الذى

---

(١) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ١ ص ١٦١ .

(٢) Sauvaget, Relation de la Chine et de l' Inde, Paris, 1948

(٣) ابن خرداذبه ، المسالك والممالك ، ليدن ١٨٨٩ ، ص ١٥٣ — ابن الفقيه الهمذانى ، ص ٢٧٠ .

(٤) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ١ ص ١٦٣ ، ١٦٥ .

(٥) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٥٣ .

قاده المسلمون فى بغـداد والفسطـاط والرى ، ولا سيما فى مصر فى العصر الفاطمى ، فقد حاول الخزاف المشهور سعد ومن حذا حذوه من تلاميـذه أن يصنعوا نوعا من الخزاف ذى الزخارف المحفورة تحت الدهان ، وكانوا يقلدون به خزف سونج الصينى (١) .

ثانيا

سياسة الدولة العباسية مع البيزنطيين والفرنجة

(١)

مع البيزنطيين

ورث العباسيون فى جملة ما ورثوه من الأمويين الجهاد التقليدى ضد بيزنطة بحكم الحدود المشتركة(٢) ، ولكن صراع العباسيين مع البيزنطيين اتسم بسمات دينية فحسب فكان هدفهم المثاغرة والجهاد فى حين كان الأمويـون يتطلعون إلى قهر القسطنطينية والسيطرة على البحر المتوسط الشرقى . وعلى هذا الأساس أصبحت الحرب بين العرب والبيزنطيين فى العصر العباسى لا تعدو تبادل الغارات وما يصحب ذلك من تدمير وتخريب وقتل وسبى ، ولعل سبب ذلك يرجع إلى قلة اهتمام البيزنطيين بالبحرية من جهة وتحول السياسة الإسلامية للعباسيين بعد قيام دولتهم إلى الشرق .

<u>فى خلافة السفاح</u> : وقـد استغل البيزنطيون انشغـال العباسيين بتثبيت

(١) زكى حسن ، المرجع السابق ، ص ٣٤ .

(٢) عبد العزيز الدورى ، ص ٩١ .

قواعد دولتهم الجديدة زمن السفاح فهاجم الإمبراطور قنسطنطين الخامس منطقة الثغور الجزرية ودمر تحصينات الفرات بما فى ذلك ملطية والحدث. وفى هذه الغزوة يقول اليعقوبى: « وغزا بالناس فى أيامه — سنة ١٣٣ — أقبل طاغية الروم وهو قسطنطين، حتى أناخ على ملطية، فحصرها، فصولح عنها، وزحف إليه موسى بن كعب التميمى فلم يكن بينهما لقاء. وكتب أبو العباس (السفاح) إلى عبد الله بن على يعلمه أن العدو قد كاب بالغفلة عنه، وأمره أن ينفذ بالجيوش التى معه، فيبث جيوشه فى نواحى الثغور، وزحف حتى قطع الدرب، ولم يزل يعبىء حتى أتاه خبر وفاة أبى العباس، فانصرف » (١).

وذكر البلاذرى هذه الغزوة فقال: « لما كانت سنة ثلاث وثلاثين ومئة أقبل قسطنطين الطاغية عامداً لملطية، وكمخ يومئذ فى أيدى المسلمين، وعليها رجل من بنى سليم. فبعث أهل كمخ الصريخ إلى أهل ملطية، فخرج إلى الروم منهم ثمانى مئة فارس، فواقعتهم خيل الروم فهزمتهم، ومال الرومى (يقصد قسطنطين) فأناخ على ملطية فحصر من فيها، والجزيرة يومئذ مفتونة وعاملها موسى بن كعب بحران. فوجهوا رسولا لهم إليه، فلم يمكنه إغاثتهم. وبلغ قسطنطين ذلك فقال لهم: يا أهل ملطية، إنى لم آتكم إلا على علم بأمركم وتشاغل سلطانكم. انزلوا على الأمان واخلوا المدينة وأخربها وأمضى منكم. فأبوا، فوضع عليها المجانيق. فلما جهدهم البلاء واشتد عليهم الحصار، وسألوه أن يوثق لهم، ففعل. ثم استعدوا للرحلة وحملوا ما استدق لهم، وألقوا كثيراً مما ثقل عليهم فى الآبار والمخابىء، ثم خرجوا .... وتوجهوا نحو الجزيرة فتفرقوا فيها، وهدم الروم ملطية، فلم يبقوا منها الا هريا، فإنهم شعثوا منه

---

(١) اليعقوبى، ج ٢ ص ٣٦٢.

شيئا يسيرا ، وهدموا حصن قلوذية » (١) .

في خلافة المنصور : فلما تولى أبو جعفر المنصور الخلافة عمل على تحصين مناطق الثغور الجزرية والشامية وشحنها بالمرابطة ؛ ففي سنة ١٣٩ كتب المنصور إلى صالح بن علي العباسي يأمره ببناء ملطية وتحصينها ، ثم رأى المنصور أن يجعل لهذه المنطقة الثغرية كيانا إداريا قائما بذاته ، ومنطلقا لغزو الروم ، فولى على الجزيرة وثغورها عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام ، كما أمر في نفس سنة ١٣٩ بعمران حصن المصيصة وكان قد قل سكانها وتفرق سورها ، فوجه صالح بن علي إليها جبريل بن يحيى البجلي فأسكنها أهلها وبنى سورها في سنة ١٤٠ هـ (٢) وسماها المعمورة ، وبنى فيها مسجدا جامعا في موضع هيكل كان بها (٣) ، وفرض المنصور فيها لألف رجل ثم نقل أهل الخصوص وهم فرس وصقالبة وأنباط نصارى كان قد أسكنهم مروان بن محمد .

أما ملطية فقد توجه إليها عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام ومعه الحسن بن قحطبة في جنود خراسان ، فاستدعى جند الشام والجزيرة ، فتوافى معه سبعون ألفا ، عسكر بهم على ملطية ، ثم جمع الفعلة من كل بلد ، فأخذ في بنائها . وكان الحسن يطعم الناس من ماله ، ويحمل الحجر بنفسه ويناوله للبناء طلبا لثواب الله . وجد الناس في العمل حتى انتهوا من بناء ملطية ومسجدها في ستة أشهر ، وبنى للجند الذين سكنوها لكل عرافة بيتان سفليان وعليتان فوقها واصطبل ، والعرافة عشرة نفر إلى خمسة عشر رجلا ، وبنى لها مسلحة على بعد ثلاثين ميلا

---

(١) البلاذري ، ج ١ ص ٢٢٢ .

(٢) البلاذري ، ج ١ ص ١٩٧ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٩٦ .

منا ومسلحة على نهر قباقب الذى يصب فى الفرات . ثم أسكن المنصور ملطية أربعة آلاف مقاتل من أهل الجزيرة لأنها من ثغورهم ، ووضع فيها شحنتها من السلاح ، وأقطع الجند المزارع، كذلك بنى حصن قلوذية . وفى سنة ١٤١ أقبل إليها محمد بن إبراهيم فى جند من أهل خراسان ،فرابط بها حتى لا يطمع فيها البيزنطيون ، ولهذا السبب اجتذبت المدينة عددا من السكان المدنيين ، ورجع إليها من كان باقيا من أهلها (١) .

وفى سنة ١٤٢ ، بنيت مدينة أذنة وعسكر عليها جند من الخراسانيين مع مسلم بن يحيى البجلى ، وجند من الشاميين مع مالك بن أدهم الباهلى ، وجههما صالح بن على العباسى لهذا الغرض (٢) . كذلك اهتم صالح بن على بترميم حصن مرعش بعد أن خربته القوات البيزنطية إبان الفتنة التى قامت زمن مروان بن محمد ، وحصن صالح بن على هذا الحصن وندب الناس إليه على زيادة العطاء .

وهكذا نظم صالح بن على بتوجيه من المنصور مناطق الثغور وحصنها وحدد أسلوب القتال وتقاليده من صوائف وشواتى ، ووضع بذلك حدا لمطامع قسطنطين الخامس . وظهر فى أيامه قائد من قواد العرب العظام هو مالك بن عبد الخثعمى ، غزا بلاد البيزنطيين فى سنة ١٤٦ وغنم غنائم كثيرة وأبلى بلاء حسنا فسمى لذلك بمالك الصوائف (٣).

---

(١) نفس المصدر ، ص ٢٢٤ .

(٢) البلاذرى ج ١ ص ١٩٩.

(٣) المصدر نفسه ، ج ١ ص٢٢٧ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ٥٧٦ .

في خلافة المهدي : وتابع المهدي نفس سياسة أبيه من حيث الاهتمام ببناء الحصون الثغرية وشحنها بالأجناد ، فحصن طرسوس وشحنها بالمقاتلة وكانت خرابا وأمر الحسن بن قحطبة ببنائها ، كما أمره ببناء حصن الحدث ، فبدأ بالحدث وانتهى بطرسوس (١) . وفرض المهدي بالمصيصة لألف رجل ، وكانت الطوالع تأتيها من أنطاكية كل عام إلى أن وليها سالم البرلسي (٢) .

وفي عهد المهدي ، سير الإمبراطور ليو الرابع المعروف بالخزري (٧٧٥ — ٧٨٠) حملة ضد سميساط في سنة ١٥٩ (٧٧٦م) ، فرد عليه المهدي بحملة قوية بقيادة العباس بن محمد بلغت أنقرة (٣) . ولكن البيزنطيين خرجوا في عام ١٦١ بقيادة ميخائيل (لعله ميشيل العموري قبل أن يرتقي العرش) من درب الحدث في ثمانين ألفا ، فأتى عمق مرعش فقتل وسبى من المسلمين عددا كبيرا وأحرق ما قابله من عمران ، وما زال يمعن في الغزو حتى وصل إلى مدينة مرعش ، وبها عيسى بن علي وكان قد غزا في تلك السنة ، فحاصر ميشيل مرعش ، وعندئذ خرج إليه موالي عيسى وأهل المدينة ومقاتلتهم فرشقوه بالنبال والسهام ، فتظاهر بالانسحاب ، ثم كر عليهم فقتل من موالي عيسى ثمانية نفر واعتصم الباقون بالمدينة ، فحاصرهم بها ، ثم رفع الحصار ومضى إلى جيحان . وبلغ الخبر ثمامة بن الوليد العبسي وهو مقيم بدابق ، وكان قد تولى قيادة الصائفة سنة ١٦١ ، فوجه إلى ميشيل خيلا كثيفة ، فأصيب البيزنطيون إلا من نجا منهم (٤) .

---

(١) البلاذري ج ١ ص ٢٠٠ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٩٧ .

(٣) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤١ .

(٤) البلاذري ، ص ٢٢٥ — ابن الأثير ، ج ٦ ص ٥٥ .

وأغار البيزنطيون على حصن الحدث فى العام التالى فهدموا سوره (١)، وكان الخليفة قد وجه الحسن بن قحطبة بالصائفة فساح فى بلاد الروم وثقلت وطأته على أهلها حتى إنهم صوروه فى كنائسهم وسموه التنين، ومر الحسن فى غزوته عبر درب الحدث، فشاهدها خربة، فحدث المهدى فى بنائها وبناء طرسوس وذلك عقب عودته من الغزو، فأمر المهدى بتقديم بناء الحدث، فأعيد بناؤها سنة ١٦٩ وسميت المحمدية أو المهدية، وفرض على بن سليمان لمدينة الحدث لأربعة آلاف فأسكنهم فيها ونقل إليها ألفى رجل من ملطية وشمشاط وكيسوم ودلوك ورعبان، ولكن الحدث لم تلبث أن تثلمت وتشعث بنيانها ولم يتم ترميمها وتحصينها إلا فى زمن الرشيد (٢).

وفى سنة ١٦٣ تجهز المهدى لغزو بلاد البيزنطيين، فخرج على رأس جيش كثيف، واستصحب معه ابنه هارون، ثم عبر الفرات إلى حلب، ومن هناك عهد إلى ابنه هارون بمواصلة الغزو، وسير معه بصحبته عيسى بن موسى وعبد الملك ابن صالح والربيع الحاجب والحسن بن قحطة والحسن وسليمان ابنا برمك ويحى ابن خالد بن برمك، وخرج المهدى مع الحملة مودعا لابنه هارون حتى قطع الدرب وبلغ جيحان وارتاد بها المدينة المسماة المهدية، وعندئذ ودع هارون عند نهر جيحان وعاد إلى حلب، أما هارون فقد تابع حملته حتى نزل على حصن سمالو فحاصره ٣٨ يوما ونصب عليه المجانيق وفتحه بالأمان (٣)، كما فتح فتوحا أخرى كثيرة. وفى العام التالى أغزى المهدى عبد الكبير بن عبد الحميد بن

(١) ابن الأثير، ج ٦ ص ٥٨.

(٢) البلاذرى، ج ١ ص ٢٢٦، ٢٢٧.

(٣) المصدر نفسه، ج ١ ص ٢٠٢ — الطبرى، ج ٩ ص ٣٤٥ — ابن الأثير، ج ٦ ص ٦٠.

عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب من درب الحدث ، فتصدى له ميخائيل البطريق وطا زاد الأرمنى البطريق فى نحو من تسعين ألف مقاتل ، فدب الرعب فى قلب عبد الكبير ، وخاف أن يشتبك مع البيزنطيين ، فمنع الناس من القتال ، وعاد بهم فأراد المهدى قتله ، فشفع فيه ، فاكتفى بحبسه فى المطبق (١) .

وعزم المهدى فى العام التالى (١٦٥ هـ) أن يسير ابنه هارون إلى بلاد الروم كرد فعل لتراجع عبد الكبير . ففى هذه السنة ، وجه المهدى الصائفة يوم ١١ من جمادى الآخرة بقيادة هارون لغزو بلاد الروم ، وضم إليه الربيع مولاه ، فتوغل هارون فى بلاد الروم ، فافتتح ماجدة وتصدى له البيزنطيون بقيادة نقيطا Niceta قومس القوامسة ، فبارزه يزيد بن مزيد الشيبانى فأثخنه بالجراح ، وانهزم البيزنطيون ؛ وواصل هارون توسعه فى قلب آسيا الصغرى متجها إلى نقمودية (نيقوميديا) ليحارب الدمستق صاحب المسالح ، وكانت عدة جيش هارون ٩٥٧٩٢ مقاتلا ، ومازال يجد فى زحفه حتى خليج القسطنطينية ، وكان إمبراطور بيزنطة فى ذلك الوقت أيرين أرملة ليو الرابع والوصية على ابنها قسطنطين السادس . ويعبر الطبرى عن ذلك بقوله : «حتى بلغ خليج البحر الذى على القسطنطينيه وصاحب الروم يومئذ أغسطة امرأة أليون ، وذلك أن ابنها كان صغيرا قد هلك أبوه وهو فى حجرها» (٢) . وخافت أيرين أن ينجح المسلمون فى التغلب على القسطنطينية العظمى ، وآثرت أن تشترى سلم المسلمين بالجزية ، فجرت بينها وبين هارون الرسل والسفراء فى طلب الصلح والموادعة ودفع

---

(١) البلاذرى ، ص ٣٤٦ — ابن الأثير ، ج ٦ ص ٦٣ .

(٢) ويرجع اليعقوبى تاريخ هذه الغزوة إلى سنة ١٦٤ خطئا ، فى حين يحدده البلاذرى بسنة ١٦٥ (انظر اليعقوبى ، ج ٢ ص ٣٩٦ — البلاذرى ، ج ١ ص ١٩٩ ؛ وقارن ذلك بما أورده كل من الطبرى ، ج ٩ ص ٣٤٧ ؛ ابن الأثير ج ٦ ص ٦٦) .

الجزية، فقبل هارون ذلك منها ، واشترط عليها الوفاء بما أعطت له وأن تقيم له الأدلاء والأسواق فى طريقه ، وذلك أنه دخل مدخلا صعبا مخوفا على المسلمين، فأجابته إلى ما سأل ، والذى وقع عليه الصلح بينه وبينها تسعون أو سبعون ألف دينار تؤديها فى نيسان الأول فى كل سنة وفى حزيران ، فقبل ذلك منها ، فأقامت له فى الأسواق فى منصرفه ووجهت معه رسولا إلى المهدى بما بذلت على أن تؤدى ما تيسر من الذهب والفضة والعرض ، وكتبوا كتاب الهدنة إلى ثلاث سنين وسلمت الأسارى»(١) .

وفى هذه الغزوة الموفقة يقول الشاعر مروان بن أبى حفصة :

أطفت بقسطنطينية الروم مسندا ∴ إليها القنا حتى اكتسى الذل سورها
ومارستها حتى أتتك ملوكها ∴ بجزيتها والحرب تغلى قدورها(٢).

فى خلافة الرشيد : وهكذا أثبت هارون الرشيد أنه لم يكن الخليفة اللاهى العابث كما تصوره القصص والروايات ، وإنما أوتى من بعد النظر واتساع الأفق وحسن القيادة ما جعله يظفر بما ظفر به من انتصارات ، وإليه يرجع الفضل الأعظم فى تحصين منطقة الثغور وإنشاء منطقة العواصم فى أول خلافته ، والعواصم منطقة ثغرية جديدة تضم قسما من أرض قنسرين والجزيرة ، فصلها عن الثغور جميعاً وجعل قاعدتها منبج ، ورتب لها جيشاً ثابتاً على طول الحدود (٣) . وفى سنة ١٧٠ أمر الرشيد هرثمة بن أعين قائد الصائفة لعام ١٧١ بعمارة طرسوس وبنائها وتمصيرها ، فعهد هرثمة إلى فرج بن سليم الخادم بعمارتها، فلما أتم بناءها وتحصينها وبناء مسجدها نزلتها فرقة أولى خراسانية قوامها

(١) الطبرى ، ج ٩ ص ٣٤٧ — ابن الأثير ، ج ٦ ص ٦٦ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٤٧ .

(٣) ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٠٨ .

ثلاثة آلاف رجل وفرقة ثانية تضم ألف رجل من أهل المصيصة وألفا آخر من أهل أنطاكية ، زيد فى عطائهم عشرة دنانير لكل منهم ، وأقطع أهل طرسوس الخطط فى شهر ربيع الآخر سنة ١٧٢ هـ (١) . كذلك أمر الرشيد فى سنة ١٨٠ ببناء مدينة عين زربة وتحصينها ، وندب إليها ندبة من أهل خراسان وغيرهم فأقطعهم منازلها (٢) ، كما أمر فى سنة ١٨٤ هـ ببناء الهارونية التى نسبت إليه فبنيت وشحنت بالمقاتلة ومن نزح إليها من المطوعة ، كما أمر ببناء مدينة الكنيسة السوداء وتحصينها وندب إليها المقاتلة (٣) .

ولم تنقطع غزوات المسلمين عن بلاد البيزنطيين فى عهد الرشيد ، وذلك بعد انتهاء فترة الهدنة ، وأهم الغزوات التى قام بها المسلمون فى هذه المرحلة غزوة قام بها الرشيد فى سنة ١٨١ ، من نتائجها افتتاح حصن الصفصاف . وفى نفس السنة غزا عبد الملك بن صالح آسيا الصغرى ، فبلغ أنقرة وافتتح مطمورة (٤) .

وفى سنة ١٨٢ (٧٩٧م) غزا عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح بالصائفة ، فبلغ أفسوس (٥) . وفى هذه السنة انقلبت الإمبراطورة أيرين على ولدها قسطنطين السادس وأمرت بالقبض عليه وسمل عينيه ، وفى ذلك يقول ابن الأثير : « وفيها سملت الروم عينى ملكهم قسطنطين بن أليون ، وأقروا أمه

---

(١) البلاذرى ، ج ١ ص ٢٠١ .

(٢) البلاذرى ، ص ٢٠٢ — ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٥٣ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٢٠٣ .

(٤) ابن الأثير ، ص ١٥٨ .

(٥) نفس المصدر ، ص ١٦١ .

ريني وتلقب أغسطة، (١). وواجهت أيرين عند توليها العرش كثيرا من الصعوبات وأهمها غزوات المسلمين فى أراضيها بآسيا الصغرى، فاضطرت لكى تتفرغ لمشكلاتها الداخلية والخارجية الأخرى أن تعقد مع الرشيد معاهدة صلح مماثلة للمعاهدة الأولى مقابل جزية سنوية تدفعها. ولكن العسكريين فى بيزنطة قاموا بحركة انقلاب ضد أيرين فى أكتوبر سنة ٨٠٢ آخر سنة (١٨٦ هـ)، فخلعاها واختاروا نقفور الأول القيم على الخزانة الإمبراطورية إمبراطورا (٢)، وشغل نقفور فى عامه الأول ببعض المشاكل الداخلية، فاستغل المسلمون هذه الفرصة وزحف القاسم بن الرشيد — وكان أبوه قد عينه أميرا للعواصم — فى آسيا الصغرى وذلك فى شعبان من سنة ١٨٧ هـ، فترك على حصن قرة Corum، ومن هناك سير القائد العباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث إلى حصن سنان فحاصره حتى جهد أهله، ولكن قلة المياه والأقوات حملته على أن يقبل الانسحاب فى مقابل أن يفرج البيزنطيون له عن ٣٢٠ أسيرا من المسلمين (٣). ولكن نقفور بعد أن ثبت أقدامه، واستوثق له البيزنطيون بالطاعة، كتب إلى الرشيد يتحداه، فقال: «من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب، أما بعد. فإن الملكة التى كانت قبلى أقامتك مقام الرخ وأقامت

(١) نفس المصدر، ص ١٦١.

(٢) ومنذ أن تولى نقفور العرش نقض الهدنة وامتنع عن دفع الجزية التى كانت تدفعها أيرين، ويعبر الطبرى عن ذلك بقوله: «وفى هذه السنة نقض صاحب الروم الصلح الذى كان جرى بين الذى قبله وبين المسلمين، ومنع ما كان ضمنه الملك لهم قبله. وكان سبب ذلك أن الصلح كان جرى بين المسلمين وصاحب الروم، وصاحبتهم يومئذ رينى ... فعادت الروم على رينى وخلعتها وملكت عليها نقفور. والروم تذكر أن نقفور هذا من أولاد جفنة من غسان وأنه قبل الملك كان يلى ديوان الخراج، ثم ماتت رينى بعد خمسة أشهر من خلع الروم إياها» الطبرى، ج ١٠ ص ٩٢.

(٣) الطبرى، ج ١٠ ص ٩١ — ابن الأثير، ج ٦ ص ١٨٤.

نفسها مقام البيدق، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثالها إليها، لكن ذاك ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابى فاردد ما حصل قبلك من أموالها، وافتد نفسك بما يقع من المصادرة لك وإلا فالسيف بيننا وبينك».

فلما قرأ الرشيد الكتاب استفزه الغضب، فدعا بدواة وكتب على ظهر الكتاب: «بسم الله الرحمن الرحيم، من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم. قد قرأت كتابك ياابن الكافرة والجواب ما تراه دون أن تسمعه، والسلام (١)».

ثم زحف على الفور على رأس حشود كثيفة من الجند واقتحم منطقة الثغور مجتاحا ما يقابله حتى نزل على باب هرقلة، ففتح وغنم وخرب وحرق، وأرغم نقفور على طلب مواد عته وسلمه على جزية سنوية يؤديها للمسلمين، فأجابه إلى ذلك. وما كاد يصل الرشيد فى منصرفه من الغزاة إلى الرقة حتى نقض نقفور العهد وخان الميثاق، وهو يظن أن المسلمين لا يغزون فى الشتاء، فلما علم الرشيد بذلك كر راجعا حتى أناخ بأرضه ولم يبرحها حتى بلغ ما أراد (٢).

وفى العام التالى غزا إبراهيم بن جبريل الصائفة ودخل أرض الروم من درب الصفصاف، وفى هذه الغزوة قتل من البيزنطيين فيما قيل أربعون ألفا وسبعمائة (٣)».

وفى سنة ١٨٩ (٨٠٥م) تم أول فداء جرى بين المسلمين والبيزنطيين فى العصر العباسى ببلدة اللامس الواقعة على بعد نحو ٣٥ ميلا من طرسوس فى

---

(١) نفس المصدر، ص ٩٢ — ابن الأثير، ج٦ ص ١٨٥.

(٢) الطبرى، ج ١٠ ص ٩٣، ابن الأثير، ص ١٨٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ٩٥ — ابن الأثير ج ٦ ص ١٩٠.

خلافة الرشيد ، وكان الإمبراطور البيزنطى وقتئذ هو نقفور بن استبراق (نقفور بن ستوراكيوس) . ومثل الدولة العباسية فى الفداء أبو سليم فرج خادم الرشيد ، وسالم البرلسى مولى بنى العباس فى ثلاثين ألفاً من المرتزقة وحضره من أهل الثغور ومن الأمصار نحو خمسمائة ألف ، قدموا فى العدد والخيل والسلاح ، وملأوا السهل والجبل وضاق بهم الفضاء ، وقدمت مراكب الروم الحربية تحمل أسرى المسلمين وبلغ عدد من فودى به من المسلمين خلال ٢٢ يوما ثلاثة آلاف وسبعمائة أسير (١) ، ولم يبق فى بلاد بيزنطة أسير مسلم إلا وفودى به .

ويبدو أن نقفور نكث عهده من جديد فامتنع عن دفع الجزية ، وحاول أن يستعرض قوته ، فخرج إلى عين زربة وكنيسة السوداء فأغار بقواته هنالك وخرب عين زربة ، ولكن حامية المصيصة هاجموا قواته واسترجعوا معظم ما ظفر به من غنائم وأسرى وأسلاب (٢) ، فوجه القاسم بن الرشيد وهو مقيم بدابق من حصن عين زربة وزاد فى شحنتها (٣) وغضب الرشيد لهذا الاعتداء وعزم على تأديب نقفور ، فخرج فى سنة ١٩٠ (٨٠٦م) على رأس جيش ضخم عدته ١٣٥ ألف مرتزق سوى الأتباع والمطوعة ومن لا ديوان له ، وافتتح هرقلة فى شوال وأخربها وسبى أهلها وذلك بعد شهر واحد من الحصار ، وبث السرايا والجيوش فى داخل الأراضى البيزنطية ، فافتتح قائده شراحيل بن معن بن زائدة حصن الصقالبة ودبسة ، وافتتح يزيد بن مخلد الصفصاف

(١) المسعودى ، التنبيه والإشراف ، بغداد ، ١٩٣٨ ص ١٦٠ ومايليها .

(٢) الطبرى ، ج ١٠ ص ٩٨ — البلاذرى ، ج ١ ص ٢٠٣ .

(٣) البلاذرى ، ج ١ ص ٢٠٣ .

وملقوبية ، وزحف الرشيد إلى الطوانة Tyana فعسكر بها ، ثم رحل عنها بعد أن خلف عليها عقبة بن جعفر وأمره ببناء منزل بها (١) . وأبدى نقفور عجزه عن مواجهة جيوش المسلمين لانشغاله بمحاربة البلغار واستعداده لحملته التى خرج فيها إلى أدرنة (سنة ٨٠٧ م) ، واضطر لذلك إلى طلب الصلح ، وأرسل إلى الرشيد بالجزية وقدرها خمسون ألف دينار ، منها عن رأسه أربعة دنانير وعن رأس ابنه استبراق (ستوراكيوس) ديناران ، وأهدى إلى الخليفة مائة ثوب ديباج ومائتى ثوب بزيون واثنى عشر بازيا ، وأربعة من كلاب الصيد ، وثلاثة براذين ، وعقدت معاهدة للصلح اشترط فيها نقفور على الخليفة ألا يخرب حصون ذى الكلاع وصملة وسنان فيعيدها إلى بيزنطة سالمة ، كما اشترط عليه الرشيد ألا يعمر هرقلة وعلى أن يحمل نقفور إليه ٣٠٠ ألف دينار (٢) .

وشغل الرشيد بخراسان ، فانتهز نقفور هذه الفرصة ونقض معاهدة الصلح من جديد ، فسير الرشيد لغزو الصائفة لعام ١٩١ هـ قائده هرثمة بن أعين على رأس جيش يتألف من ثلاثين ألف محارب من جند خراسان ، ثم مضى الرشيد إلى ضرب الحدث ، فرتب عليه عبد الله بن مالك ، وعهد بمرعش إلى سعيد بن سالم ابن قتيبة . وحدث أن أغار البيزنطيون فى هذه الآونة على مرعش ، وأصابوا فيها عددا من المسلمين (٣) .

---

(١) الطبرى ، ج ١٠ ص ٩٩ .

(٢) أغلب الظن أن هذا المبلغ هو جملة المبالغ التى تأخر فى سدادها منذ أن اعتلى عرش الدولة البيزنطية .

(٣) الطبرى ، ج ١٠ ص ١٠٠ .

وفى سنة ١٩٢ كان الفداء الثانى باللامس ، وكان القائم بالفداء من جانب المسلمين ثابت بن نصر بن مالك الخزاعى أمير الثغور الشامية ، وحضر الفداء مئات الألوف من الناس ، وفودى فى هذا العام من المسلمين فى سبعة أيام نحو ألفين وخمسمائة رجل وامرأة (١) .

ثم توفى الرشيد فى ٣ من جمادى الآخرة سنة ١٩٣ ، وشغل المسلمون عن غزو البيزنطيين بفتنة الأمين والمأمون ، كما شغل البيزنطيون عنهم بحرب البلغار ومصرع نقفور الأول فى ١٩٤ (٨١١ م) (٢) ، وتوليه ستوراكيوس ثم ميخائيل رانجابى صهره فى نفس السنة ، ثم عزل هذا الأخير (فى سنة ٨١٢) على يد ليو الأرمنى الذى اعتلى العرش الإمبراطورى (فى الفترة من ٨١٣ إلى ٨٢٠ م) .

فى عصر المأمون : وتوقفت الأعمال الحربية والغارات الإسلامية فى أراضى بيزنطة إبان فتنة الأمين والمأمون ، إلى أن أعاد المأمون وحدة الدولة ، وبدأ يتفرغ لمواجهة البيزنطيين . وكان ميخائيل الثانى العمورى قد وثب بليو الأرمنى وذبحه ذبحاً فى سنة ٨٢٠ م وارتقى مكانه على العرش ، ولكن أحد زملائه فى الجيش ويدعى توماس الصقلبى ثار عليه فى الفترة من ٨٢١ إلى ٨٢٣م ، وتعتبر هذه الثورة من أهم الأحداث البارزة فى تاريخ بيزنطة فى القرن التاسع الميلادى ، وكان توماس هذا قد اشترك فى سنة ٨٠٣ فى ثورة بردانيوس على نقفور

---

(١) المسعودى ، التنبيه والإشراف ، ص ١٦١ — ابن الأثير ، ج ٦ ص ٢٠٩ ؛ وقيل بالبدندون Pondendus وليس باللامس (الطبرى ، ج ١٠ ص ١٠٩) .

(٢) يحدد الطبرى (ج ١٠ ص ١٣٨) وابن الأثير تاريخ الوفاة خطأ فى سنة ١٩٣ م (ابن الأثير ، ج ٦ ص ٢٢٦) .

الأول ، فلما فشلت هذه الثورة فر توماس إلى بغداد وأقام فى حمى الخليفة إلى أن اعتلى المأمون الخلافة فى سنة ٨١٣ (١٩٨ هـ). فلما قتل ليو الأرمنى فى سنه ٨٢٠، استغل توماس الفرصة للقيـــام بثورته على ميشيل العمورى مدفوعا فى ذلك بنبوءة بمقتضاها يرتقى إلى العرش الإمبراطورى ، فاستولى على بعض نواحى أرمينية وبلاد بنطس الشرقية ، واجتذبت حركته الجماهير البائسة من سكان آسيا الصغرى وذلك منذ أن نادى بأنه محرر الفقراء من الظلم . وانتهز المأمون هذه الفرصة فأمده بقوات إسلامية من عناصر مختلفة بعضها من العرب والبعض من الفرس والأرمن والكرج ، إذ كان يدرك أن بإمكانه اصطناع توماس والإفادة من ذلك ببعض المكاسب الاستراتيجية ، فلم يتردد المأمون فى عقد حلف مع توماس تعهد فيه بأن يزوده بجيش قوى يعينه على محاربة ميشيل، كما أمر المأمون بطريرك أنطاكية ـ واسمه أيوب ـ بأن يتوج توماس إمبراطورا . ولكن تأييد المأمون لتوماس ماديا وعسكريا لم يلبث أن فتر بسبب انشغاله بثورة خطيرة هى ثورة الخرمية البابكية ، ولذلك لم يكتب لثورة توماس أن تنتصر ، وفشلت بمصرعه فى سنة ٨٢٣ م . ثم شغل ميشيل بحادث آخر نغص عليه البقية الباقية من حياته ، وهو سقوط إقريطش فى أيدى غزاة البحر الأندلسيين ، ونزول الأغالبة فى صقلية وذلك فى سنة ٨٢٦ م (٢١٢ هـ) .

فلما تولى تيوفيل بن ميشيل العرش (٨٢٩ — ٨٤٢) بعد أبيه، رأى فى ثورة الخرمية البابكية سيفاً مسلطاً على الدولة العباسية ، ولم يكن قد نسى بعد موقف المأمون من ثورة توماس الصقلبى على أبيه ميشيل ، ولهذا السبب احتضن تيوفيل أتباع بابك الخرمى وفتح لهم أبواب بلاده فى زمن المأمون ، وكان من الطبيعى أن يتحرك المأمون للرد على هذا العدوان ، ففى المحرم سنة ٢١٥ هـ (٨٣٠ م) غزا الصائفة بنفسه ، فسار إلى منبج ثم إلى دابق فأنطاكية ،

فالمصيصة فطرسوس ومنها تعمق فى الأراضى البيزنطية ، كما دخل ابنه العباس أراضى بيزنطة من ملطية ، فأقام المأمون الحصار على حصن قرة (١) حتى فتحه عنوة وهدمه كما فتح حصن ماجدة بالأمان ، وسير أشناس القائد إلى حصن سندس ففتحه وظفر بالقيم عليه ، ووجه عجيفا وجعفرا الخياط إلى حصن سنان فأطاعهما صاحب الحصن . ثم قفل المأمون عائدا من غزوته إلى دمشق ومنها إلى مصر (٢) عندما بلغه أن أهل البشرود الأقباط قد ثاروا ، وذكر الطبرى أنه لقى ابنه العباس ومعه منويل برأس العين وذلك بعد أن عاد من مصر ، والظاهر أن منويل هذا هو نفس مانويل البطريق الذى ذكره اليعقوبى وأشار إلى أنه أحد قواد بيزنطة الكبار ، فر هارباً من أنقرة ولاذ بالمسلمين (٣) .

واستغل تيوفيل فرصة قفول المأمون من الصائفة وهاجم الثغور الشامية ، فقتل من أهل طرسوس والمصيصة ألفاً وستمائة ، ولهذا السبب عاد المأمون لغزو بلاد البيزنطيين فى عام ٢١٦ هـ (شهر جمادى الأولى حتى منتصف شعبان) . وذكروا أن سبب دخوله الأراضى البيزنطية إنما يرجع إلى أن تيوفيل كتب إليه بادئاً بنفسه (٤) ، فاستاء من ذلك وتوغل فى أرض الروم حتى نزل على

---

(١) يذكر اليعقوبى أنه افتتح أنقرة نصفا بالسيف ونصفا بالصلح وأخرجها وهرب منها البطريق مانويل (اليعقوبى ، ج ٢ ص ٤٦٥) .

(٢) الطبرى ، ج ١٠ ص ٢٨٠ — ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤١٩ .

(٣) اليعقوبى ، ج٢ ص ٤٦٥ .

(٤) ذكر اليعقوبى أن تيوفيل عاد إلى الكتابة إليه مقدما اسم المأمون على اسمه ، وسأله أن يقبل منه مائة ألف دينار وسبعة آلاف أسير مسلم بشرط أن يدع البيزنطيين ما افتتحه من مدن الروم وحصونهم ، ويكف عنهم الحرب خمس سنين ، ولكن هذا العرض لم يلق قبولا من المأمون (اليعقوبى ، ج٢ص ٤٦٦) .

أنطيغوا فدخلها صلحاً ، ثم سار إلى هرقلة ، فخرج أهلها على صلح . ووجه أخاه المعتصم فافتتح ثلاثين حصناً ومطمورة (منها ١٢ حصنا البقية مطامير أى نقاط محصنة) ، كما وجه يحيى بن أكثم من طوانة فأغار على النواحى المجاورة وقتل وأحرق ما صادفه من عمران ، وقفل المأمون بعد ذلك إلى دمشق (١) .

وفى العام التالى (٢١٧ هـ) عبر المأمون الدروب الثغرية إلى أراضى بيزنطة ، فنزل على لؤلؤة وحاصرها مائة يوم أقام خلالها حصنين أنزل فيهما أخاه المعتصم ، ثم رحل عنها بعد أن ترك عليها عجيفا بن عنبسة ومضى هو إلى قرية يقال لها سلغوس ، فكر أهل لؤلؤة بعجيف ، فوقع فى أيديهم وأسروه ، فمكث فى أيديهم شهرا ، وكاتبوا تيوفيل فأقبل إليهم فهزمه المسلمون بالحصنين وظفروا بعسكره فاحتووا على ما كان به ، فلما طال الحصار بأهل لؤلؤة اتفقوا مع عجيف أن يخلوا سبيله على أن يؤمن لهم أرواحهم فأطلقوه ، وافتتح المسلمون الحصن على الأمان (٢) . وفى هذه السنة كتب تيوفيل إلى المأمون يسأله الصلح ، وجاء من فقرات هذا الكتاب :

« . . . وقد كنت كتبت إليك داعيا إلى المسالمة راغباً فى فضيلة المهادنة لتضع أوزار الحرب عنا ولنكون كل واحد لكل واحد وليا وحزبا ، مع اتصال المرافق والفسح فى المتاجر وفك المستأسر وأمن الطرق والبيضة ، فإن أبيت فلا أدب لك فى الخمر ولا أزخرف لك فى القول ، فإنى لخائض إليك غمارها ، آخذ عليك أسدادها ، شان خيلها ورجالها ، وإن أفعل فبعد أن

(١) الطبرى ، ج ١٠ ص ٢٨١ — ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤١٩ .

(٢) اليعقوبى ، ج ٢ ص ٤٦٧ — الطبرى ، ج ١٠ ص ٢٨٣ — ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤٢١ .

قدمت المعذرة ، وأقمت بيني وبينك علم الحجة والسلام » . فرد عليه المأمون قائلا :

« أما بعد فقد بلغني كتابك فيما سألت من الهدنة ودعوت إليه من الموادعة ، وخلطت فيه من اللين والشدة مما استعطفت به من شرح المتاجر واتصال المرافق وفك الأسارى ورفع القتل والقتال ، فلولا ما رجعت إليه من أعمال التؤدة والأخذ بالحظ في تقليب الفكرة . . . لجعلت جواب كتابك خيلا تحمل رجالا من أهل البأس والنجدة والبصيرة ينازعونكم عن ثكلكم ، ويتقربون إلى الله بدمائكم ، ويستقلون في ذات الله ما نالهم من ألم شوكتكم ، ثم أوصل لهم من الأمداد ، وأبلغ لهم كافياً من العدة والعتاد ، هم أظمأ إلى موارد المنايا منكم إلى السلامة من مخوف معرتهم عليكم ، موعدكم إحدى الحسنيين . عاجل غلبة ، أو كريم منقلب . غير أني رأيت أن أتقدم إليك بالموعظة التي يثبت الله بها عليك الحجة من الدعاء لك ولمن معك إلى الوحدانية والشريعة الحنيفية ، فإن أبيت ففدية توجب ذمة وتثبت نظرة ، وإن تركت ذلك ففي يقين المعاينة لنعوتنا ما يغني عن الإبلاغ في القول والإغراق في الصفة والسلام على من اتبع الهدى »(١).

وفي سنة ٢١٨هـ وجه المأمون ابنه العباس إلى أرض الروم ، وأمره بنزول الطوانة وبنائها ، فابتدأ البناء على مسطح مساحته ميل في ميل ، وجعل لها أربعة أبواب ، وبنى على كل باب منها حصنا ، ثم أمر بأن تسكنها فرق استقدمت من أجناد دمشق وحمص والأردن وفلسطين ومصر والجزيرة (٢) .

---

(١) الطبري ، ج ١٠ ص ٢٨٤ .

(٢) نفس المصدر .

وفى نفس هذا العام عزم المأمون على غزو بلاد الروم وضرب القسطنطينية نفسها ، ويذكر اليعقوبى أنه قال : « أوجه إلى العرب فآتى بهم من البوادى ، ثم أنزلهم كل مدينة أفتتحها حتى أضرب إلى القسطنطينية » (١) . فأتاه رسول من الإمبراطور تيوفيل يدعوه إلى عقد الصلح والمهادنة ، فلم يقبل هذه الدعوة ، وواصل المأمون زحفه حتى قرب من حصن لؤلؤة ، فأقام أياما ، ثم نزل على نهر يقال له البذندون يقع بين لؤلؤة وطرسوس ، فاعتل هناك ، ثم توفى ، وحمله ابنه العباس وأخوه المعتصم إلى طرسوس ، فدفناه بدار خاقان خادم الرشيد (٢) .

فى خلافة المعتصم : شغل المعتصم منذ توليه الخلافة بحركة بابك وثورة الزط . وكانت الحركة البابكية قد استفحلت وأصبحت تشكل خطرا يهدد كيان الدولة العباسية ، فسخر المعتصم كل قواه العسكرية لضرب هذه الحركة وتوقف عن غزو بلاد الروم . فلما جرد المعتصم جيوشا ضخما بقيادة الأفشين وأيتاخ وجعفر الخياط للقضاء على بابك ، أرسل بابك إلى تيوفيل يحرضه على مهاجمة أراضى المسلمين مستهدفا من ذلك أن يخفف الضغط عليه ، فاستجاب تيوفيل لندائه وخرج سنة ٢٢٣ فى جيش عدته أكثر من مائة ألف ، منهم من الجند نيف وسبعون ألفا وبقيتهم أتباع ، ومنهم من المحمرة الذين كانوا خرجوا بالجبال ، فلحقوا بالروم حين قاتلهم إسحق بن إبراهيم بن مصعب جماعة رئيسهم بارسيس ، وكان ملك الروم قد فرض لهم وزوجهم وصيرهم مقاتلة يستعين

(١) اليعقوبى ، ج ٢ ص ٤٦٩ .

(٢) الطبرى ، ج ١٠ ص ٢٩٥ — ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤٣٢ .

بهم فى أهم أموره إليه (١) . وذكر المسعودى أنه اشترك فى جيش تيوفيل وملوك برجان والبرغر (البلغار) والصقالبة ، (٢) ، وزحف تيوفيل بهذا الجيش الضخم إلى زبطرة قاعدة الثغور الجزرية ، فافتتحها بالسيف وقتل الصغير والكبير وسبي النساء والذرارى ، وأحرق المدينة ودمر عمرانها ، ومثل بمن ظفر به من المسلمين وسمل أعينهم وقطع أنوفهم وآذانهم (٣) ، ثم أغار تيوفيل على المناطق المحيطة بها وعلى بلاد ملطية وحاصر شمشاط وأحرقها ، وضج الناس فى الامصار ، واستغاثوا فى المساجد والديار ، ودخل إبراهيم بن المهدى على المعتصم فأنشده قائما قصيدة طويلة يذكر فيها ما نزل بمن وصفنا ويحضه على الانتصار ويحثه على الجهاد ، فمنها :

يا غارة الله قد عاينت فانتهكى .·. هتك النساء وما منهن يرتكب

هب الرجال على أجرامها قتلت .·. ما بال أطفالها بالذبح تنتهب

فخرج المعتصم من فوره نافرا ، عليه دراعة من الصوف بيضاء ، وقد تعمم بعمامة الغزاة فعسكر فى غربى دجلة ، وذلك يوم الإثنين لليلتين خلتا من جمادى الاولى من سنة ثلاث وعشرين ومائتين ، ونصبت الأعلام على الجسر ، ونودى فى الامصار بالنفور والسير مع أمير المؤمنين ، فسارت إليه العساكر والمطوعة من سائر الإسلام ، (٤) . ويذكر ابن الأثير أنه بلغه أن امرأة هاشمية صاحت وهى أسيرة فى أيدى الروم : وامعتصماه ! ، فأجابها وهو جالس على سريره :

(١) نفس المصدر ، ج ١٠ ص ٣٣٤ – ابن الأثير ، ج٦ ص ٤٧٩ .

(٢) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ٤٧٢ .

(٣) اليعقوبى ، ج٢ ص ٤٧٢ – الطبرى ، ج١٠ ص ٣٣٥ – ابن الأثير ، ج٦ ص ٤٧٩

(٤) المسعودى ، مروج الذهب ، ج٣ ص ٤٧٢ .

لبيك لبيك ، ونهض من ساعته وصاح فى قصره : النفير النفير . . . »(١) .
وذكر اليعقوبى أنه لما انتهى خبر ما اجترمه تيوفيل قام من مجلسه نافرا ، حتى جلس على الأرض وندب الناس للغزو (٢) . ثم خرج المعتصم فى العدد والعدة بجهاز ، لم يتجهز مثله قبله خليفة قط من السلاح والعدد والآلة وحياض الأدم والبغال والروايا والقرب وآلة الحديد والنفط ، ثم جعل على مقدمته أشناس ويليه محمد بن إبراهيم وجعل على يمينه إيتاخ وعلى ميسرته جعفر بن دينار الخياط ، وعلى القلب عجيف بن عنبسة (٣) . وتحرك المعتصم من مدينة سامرا فى ٦ جمادى الأولى سنة ٢٢٣ (أبريل ٨٣٨م) بجيش اختلفوا فى تقدير أعداد عسكره بين مكثر ومقل ، فالمكثر يقول خمسمائة ألف والمقل يقول مائتى ألف .
فلما دخل بلاد الروم نزل على نهر اللامس وهو بسلوقية بالقرب من طرسوس، وهناك أقام بعض الوقت وقسم الجيش إلى ثلاثة جيوش كل منها يسير من جهة معينة على أن تلتقى الجيوش عند أنقرة ، فأمر الأفشين أن يمضى إلى مروج عبر درب الحدث وسير أشناس عبر درب طرسوس وأمره أن ينتظره بالصفصاف، ثم قدم المعتصم وصيفا بعد رحيل أشناس . أما المعتصم فرحل بعد يومين من رحيل أشناس ، وكتب إلى أشناس يأمره أن يبعث فرقة من طلائع الجيش يلتمسون رجلا روميا ليستجوبه على خط سير الإمبراطور تيوفيل .

وفى هذه الأثناء اتبع الأفشين طريق سيواس بعد أن عبر الحدث من ناحية الارمنياق ، وعلم الإمبراطور بسيره ، فاستخلف ابن خاله على عسكره لإعاقة

---

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤٨٠ .
(٢) اليعقوبى ، ج ٢ ص ٤٧٥ .
(٣) الطبرى ، ج ١٠ ص ٣٣٥ - المسعودى ، ج ٣ ص ٤٧٢ .

زحف المعتصم ، ومضى هو بمعظم الجيش البيزنطى فى اتجاه الأفشين . وكان أشناس قد أسر عددا من عسكر الإمبراطور واستجوبهم ، فعرف منهم وجهة الإمبراطور ، فسيرهم أشناس إلى المعتصم ، فكتب إلى الأفشين يحذره من مسير تيوفيل إليه ويأمره بأن يتوقف عن الزحف ، ولكن الكتاب لم يصـــل إلى الأفشين الذى اشتبك مع تيوفيل بمعظم جيشه قرب دازيمون فى موقعة عنيفة انكشف فيها تيوفيل ومن كان معه من المحمرة ممن كان استأمن إليه من أذربيجان والجبال (١) ، وانتهت بهزيمة ساحقة لجيش تيوفيل ، وانفتح على أثرها الطريق أمام الأفشين إلى أنقرة حيث يتم لقاء الجيوش الإسلامية . وأمام أنقرة اجتمعت الجيوش الثلاثة فوحدها المعتصم جيشاً واحـــدا ، جعل أشناس على الميسرة والأفشين على الميمنة ، واحتفظ المعتصم بالقلب ، ثم انقسم كل من الميسرة والميمنة والقلب إلى ساقتين ميمنة وميسرة فرعيتين .

وكانت أنقرة قد أخليت ، وأمر تيوفيل بتركيز الدفاع فى عمورية تحت قيادة خاله ياطس Aetius ، أما هو فقد رحـــل إلى القسطنطينية ليتأهب للدفاع عن عاصمته .

أما المسلمون فقد دخلوا أنقرة ، وأنزلوا بها الدمار والخراب ، ولما تم لهم ذلك زحفوا بكل عـــددهم وعدتهم نحو عمورية مسقط رأس الأسرة الإمبراطورية الحـــاكمة وعين النصرانية ، فحاصروها وتولى كل قائد

---

(١) المسعودى ، التنبيه والإشراف ، ص ١٤٤ . وقتل فى هذه الموقعة أكثر بطارقة الإمبراطور وأعظم قواده . وذكروا أن تيوفيل أرسل بعد هزيمته رسالة إلى المعتصم يعتذر فيها عن مذابح زبطرة ويؤكد أنها حدثت على غير رغبته ، ويعده بأن يقوم ببنائها وبإطلاق سراح من سبى من أهلها وإطلاق جميع الأسرى ، على أن يعقد الصلح . ولكن المعتصم رفض مقابلة رسوله حتى سقطت عمورية (اليعقوبى ، ج ٢ ص ٤٧٦) .

منهم مسؤولية ما بين البرجين إلى عشرين برجا من أبراج أسوارها ، ودلهم رجل من المسلمين كان قد أسره أهل عمورية وتنصر وتزوج فيهم ، دلهم على ثغرة فى سور المدينة قد بنيت على عجل بناء غير محكم ، فأمر المعتصم فنصب خيمه فى ذلك الموضع ، ونصب المجانيق على ذلك البناء ، فتفتح السور من موضع الثغرة ، وحاول أهل عمورية أن يسدوا الثغرات بكتل الخشب ، ولكن محاولاتهم أخفقت لكثرة ضربات المجانيق وتواليها ، فكتب ياطس إلى تيوفيل بالقسطنطينية يبلغه بسقوط جزء من السور وأن عسكر المسلمين قد أحاطوا بالمدينة فى جموع كثيفة ، وأنه أخطأ بدخول المدينة ، وأنه قد اعتزم على أن يفتح أبوابها ليلا فى غفلة من المسلمين ويخرج دفعة واحدة بقواته مجتمعة حتى يتخلص من الحصار ، ولكن الكتاب وقع فى يد المعتصم وأدرك نوايا ياطس ، فأمر عسكره بالتيقظ والحذر ، وركز الهجوم على موضع الثلمة ، فكثرت الجراحات فى عسكر بيزنطة وتفشى فيهم القتل ، وأيقن القائد واندو(١) المسؤول عن القطاع المثلم من السور بعبث المقاومة ، فعزم على التسليم(٢) . فدخل المسلمون المدينة فى ١٣ أغسطس بعد أسبوعين من الحصار ، ووقع ياطس أسيرا ، وأقام المسلمون عليها أربعة أيام يهدمون ويحرقون ويقتلون ، وتم قتل ٣٠ ألفا من الحامية (٣) البيزنطية وسبي ثلاثين ألفا آخرين . ويذكر المسعودى أن المعتصم أراد السير إلى القسطنطينية والنزول على خليجها والتحايل على فتحها برا وبحرا ، ولكن أتاه ما أزعجه ، ونغص عليه ودعاه إلى العدول عن خطته ، فقد بلغه أن

---

(١) يسميه المسعودى لاوى (ج ٣ ص ٤٧٢) .

(٢) راجع التفاصيل فى الطبرى ، ج ١٠ ص ٣٤١ — ٣٤٣ ؛ ابن الأثير ، ج ٦ ص ٤٨٠ — ٤٨٣ .

(٣) المسعودى ، ج٣ ص ٤٧٣ — السيوطى ، ص ٣١١ .

العباس بن المأمون تآمر على قتله وأن جماعة من الناس بايعوه ، وأنه كاتب تيوفيل (١) ثم قفل إلى طرسوس وقد هدم عمورية وعفى آثارها ، وأمر بأخذ باب حديدى ضخم من أبوابها ، فأحضره معه إلى بغداد ، ونصب على أحد أبواب قصر الخلافة وعرف بباب العامة (٢) .

وكان للهزائم المتواصلة التى منى بها البيزنطيون فى عهد تيوفيل فى أنقرة وعمورية ، بالإضافة إلى سقوط جزيرتى إقريطش وصقلية فى أيدى المسلمين أثر كبير فى قيامه بإرسال ثلاثة وفود أو سفارات : أحدها إلى لويس التقى إمبراطور الفرنجة يلتمس منه أن يمده بجيش لمهاجمة مصر والشام بهدف استنزاف قوة الخليفة العباسى ، والثانى برياسة قراطيوس الرومى أرسله إلى الأمير عبد الرحمن الأوسط أمير الأندلس المناهض للعباسيين يستحثه على التعاون معه ضد الخليفة العباسى المعتصم والعمل على طرد جماعة الأندلسيين الذين استولوا على إقريطش . والثالث أرسله إلى البندقية فى سنة ٨٤٠ لإقامة حلف مع البنادقة ضد الأغالبة الذين استولوا على صقلية . ولكن هذه السفارات لم تؤد إلى نتائج مثمرة .

ولما عاد المعتصم إلى سامرا مدحه أبو تمام بقصيدته المشهورة التى قال فيهـا :

---

(١) نفس المصدر ، وذكر الطبرى أنه بلغه أن ملك الروم يريد الخروج فى أثره (ج ١٠ ص ٣٤٣) .

(٢) ابن طباطبا ، ص ٢١٠ .

السيف أصدق أنباء من الكتب .·. فى حده الحد بين الجد واللعب
والعلم فى شهب الأرماح لامعة .·. بين الخميسين لا فى السبعة الشهب
يا يوم وقعة عمورية انصرفت .·. عنك المنى حفلا معسولة الحلب
أبقيت جد بنى الإسلام فى صعد .·. والمشركين ودار الشرك فى صبب

فى خلافة الواثق : وفى عهد الواثق انصرف الخليفة عن الغزو فى أراضى بيزنطة بمشاكل داخلية عديدة ، كما شغل البيزنطيون عن الإغارة فى أراضى المسلمين بسبب وفاة تيوفيل وتولية ابنه الصغير ميشيل الثالث ، وانشغال البيزنطيين فى عهده بالفتن الدينية ، خاصة الفتنة المعروفة بفتنة فوتيوس .

وقد تم الفداء الثالث فى عهد الواثق ويعرف بفداء خاقان نسبة إلى خاقان الخادم التركى ، وحدث هذا الفداء فى المحرم سنة ٢٣١ باللامس ، وكان عدد من فودى من المسلمين فى عشرة أيام ٤٣٦٢ أسيرا وقيل ٤٠٤٧ (١) وقيل أكثر من ذلك (٤٤٦٠) . وفى هذا الفداء أخرج أهل زبطرة ، كما فودى مسلم بن أبى مسلم الجرمى وكانت له معرفة بأهل الروم ومسالكها ، وله مصنفات فى أخبار الروم وملوكهم وذوى المراتب منهم وبلادهم وطرقها ومسالكها وأوقات الغزو إليها والغارات عليها ، ومن جاورهم من الممالك . وحضر هذا الفداء من قبل أحمد بن أبى دؤاد قاضى القضاة رجل اسمه أحمد بن سعيد ابن مسلم الباهلى ، كان يمتحن الأسرى من المسلمين وقت المفاداة ، فمن قال منهم بخلق القرآن ونفى الرؤية فودى به ، ومن أبى ترك بأرض الروم (٢) .

---

(١) المسعودى ، التنبيه والإشراف ، ص ١٦٢ .

(٢) المسعودى ، التنبيه والإشراف ، ص ١٦٢ .

ويصف ابن الأثير عمليات الفداء ، فيقول : « اجتمع المسلمون ومن معهم من الأسرى على النهـــر ، وأتت الروم ومن معهم من الأسرى ، وكان النهر بين الطائفتين ، فكان المسلمون يطلقون الأسير فيطلق الروم الأسير من المسلمين فيلتقيان فى وسط النهر ، ويأتى هذا إلى أصحابه ، فإذا وصل الأسير من المسلمين كبروا . وإذا وصل الأسير إلى الروم صاحوا ، حتى فرغوا ، وكان عدة أسرى المسلمين أربعة آلاف وأربع مائة وستين نفساً ، والنساء والصبيان ثمانى مائة ، وأهل ذمة المسلمين مائة نفس ، وكان النهر مخاضة تعبره الأسرى ، وقيل بل كان عليه جسر » (١) .

ولما فرغ المسلمون من الفداء ،غزا أحمد بن سعيد بن مسلم — وكان الواثق قد عقد له على الثغور والعواصم — شاتيا فأصاب عسكره ثلج ومطر ، فمات منهم مائتا شخص وأسر ما يقرب من هذا العدد ، كما غرق بنهر البدندون عدد كبير ، وعندما تصدى له جماعة من الروم يقودهم بطريق من البطارقة أحجم عن اللقاء فحرضه عسكره ، وحثوه على مواجهة الروم ، ففعل وغنم نحوا من ألف بقـــرة وعشرة آلاف شاة ، وقفل عائدا ، فعزله الواثق واستعمل مكانه نصر بن حمزة الخزاعى (٢) .

---

(١) ابن الأثير ، ج ٧ ص ٢٤ .

(٢) نفس المصدر ، ج٧ص ٢٥ .

(٢)

مع شارلمان

تنفرد المصادر اللاتينية (١) دون العربية والشرقية بالإشارة إلى قيـــام صلات دبلوماسية بين الدولة العباسية والدولة الكارولنجية في عصر كل من الرشيد وشارلمان ، وقد أدى انفراد هذه المصادر اللاتينية بالإشارات المذكورة ـ على اضطرابها وغموضها ـ إلى قيـــام خلاف كبير بين المؤرخين المحدثين بشأنها ، فمع أن جميع هؤلاء المؤرخين يقررون صحتها ـ باستثناء بارتولد ـ فإنهم يختلفون في تفسير نتائج هذه الصلات . وأيا ما كان الأمر ، فلابد قبل مناقشة الموضوع أن نذكر طبيعة هذه العلاقات وفقا لما روته المصادر اللاتينية .

تذكر المصادر اللاتينية أن شارلمان أرسل إلى الرشيد سفارتين الأولى في سنة ٧٩٧ والثانية في سنة ٨٠٢ . أما الأولى فقد كانت تتألف من شخصيتين هما سجسموند ولانتفريد ومن يهودي اسمه اسحاق مهمته تنحصر في ترجمة ما كان يدور بين الخليفة هارون وبين السفيرين . وقد أمضى السفيران ثلاث سنوات ماتا خلالها بعد أن أنجزا مهمتها (٢) بدليل أن هارون رد على

(١) هذه المصادر لاتعدو كتابا صنفه اينهارد Einhard عن حياة شارلمان Vita Caroli Magni Imperatoris ، والأخبار الملكية الفرنجية Annales Regni Francorum وأخيرا روايات الراهب سان كول الذي كتب بعد وفاة شارلمان بنحو خمسين سنة مستندا في رواياته على اينهارد . ومعظم روايات سان كول أسطورية بينما يميل اينهارد في كتاباته إلى تفخيم سيده . أما الأخبار الملكية فمقتضبة لاتعين على تحديد طبيعة هذه الصلات .

(٢) كارلس ديفز ، شارلمان ، ص ٢٠٢ ـ مجيد خدوري ، الصلات الدبلوماطيقية بين هرون الرشيد وشارلمان ، بغداد ، ١٩٣٩ ص ٢٥ ـ عبدالعزيز الدوري ، ص ١٥٠ .

هذه السفارة بسفارة إسلامية تتألف من مبعوثين أحدهما فارسي والثاني من افريقية يمثل الأغالبة ، وصلا في سنة ٨٠٢ م ولحق بهما إسحق اليهودي الذي حمل لشارلمان فيلا أهداه هارون الرشيد إليه (١) . أما الثانية فقد أرسلها شارلمان إلى الرشيد في سنة ٨٠٢ ، وتشهد الأخبار الملكية إلى هذه السفارة دون أن تذكر أسماء السفراء ولامهمتهم ، بينما يذكر إينهارد في كتابه عن حياة شارلمان أن سفراء الإمبراطور الكارولنجي حملوا معهم هبات لكنيسة القيامة وأنهم رحلوا بعد ذلك إلى الرشيد ، وعندما عرض السفراء عليه رغبات شارلمان أجابها دون تردد بل أوكل إلى شارلمان أمر حماية الأماكن المقدسة . وقد رد الرشيد على هذه السفارة بسفارة إسلامية وصلت إلى بلاط شارلمان في سنة ٨٠٧ ، ويمثلها رسول من الخليفة اسمه عبد الله كان يحمل معه هدايا نفيسة لشارلمان منها صوان ملون بألوان متعددة وأواني نحاسية كبيرة وقطع من النسيج الإسلامي الفاخر وعطورا وشمعدانات وسرادق ، وأهمها ساعة مائية غريبة تدق الساعات ، وفي دائرتها ١٢ نافذة تخرج منها في الساعة الثانية عشرة فرسان تتلاقى بعد خروجهم ثم تفتح من جديد ليعودوا (٢)، كذلك وعد الرشيد أن يعمل تحت سلطان شارلمان بيت المقدس والضريح المقدس .

وينكر بارتولد قيام أية صلات بين الرشيد وشارلمان استنادا على الحقائق الآتية (٣):

---

(١) ظل هذا الفيل خلال ٩ سنوات أروع ما كان يزدان به مظهر الإمبراطور شارلمان الحربي ، وقد نفق في سنة ٨١٠ (ديهل ، ص ٢٠٣) .

(٢) ديهل ، ص ٢٠٣ — خدوري ، ص ٣٧ .

(٣) Bucklar, Harun al-Rashid and Charles the Great, Massachusettes, 1931 .

١ — لايعقل أن يكون الرشيد أرسل الفيل مع إسحق اليهودى بينما أرسل سفراءه قبله دون أن يحملوا معهم أى هدية ، ولهذا يرجح أن إسحق المذكور لم يكن مترجما وإنما كان تاجرا .

٢ — سكوت المصادر العربية عن ذكر مثل هذه العلاقات يعنى نفيها قاطعا لقيامهما .

٣ — أن العلاقات بين شارلمان والبيزنطيين كانت إبان السفارة الأولى (٧٩٧) حسنة ، ففى سنة ٧٩٨ أرسلت أيرين وفدا إلى شارلمان للمفاوضة فى عقد حلف ، واقترحت عليه الزواج .

على أننا رغم صمت المصادر العربية عن ذكر أى إشارة لأية علاقات بين الدولة العباسية زمن هارون الرشيد والدولة الكارولنجية أيام شارلمان نميل إلى قيام مثل هذه الصلات . فالأوضاع السياسية فى العالم شرقيه وغربيه منذ قيام الدولة العباسية بخلافة السفاح فى سنة ٧٥٠ م والدولة الكارولنجية بتتويج ببين القصير ملكا على دولة الفرنجة فى سنة ٧٥١ م حتم قيام أحلاف دولية بين الدولتين ضد الدولة الأموية فى الأندلس التى تعتبر فى نظر خلفاء بنى العباس غير شرعية والدولة البيزنطية التى أصبحت فى نظر الكنيسة بسبب سياسة أباطرتها اللا أيقونية خاصة فى عهد الإمبراطور الايسورى قنسطنطين الخامس (٧٤١ - ٧٧٥) مما أدى إلى اتجاه البابوات إلى ملوك الفرنجة لمساعدتهم ضد هجمات اللومبارديين ، وهكذا ساعدت الخصومات القائمة بين العباسيين والأمويين فى الأندلس من جهة وبين الفرنجة والأمويين من جهة ثانية وبين الفرنجة والبيزنطيين من جهة ثالثة وبين البيزنطيين والعباسيين من جهة رابعة ، على التقاء أهداف مشتركة بين الأطراف المتنازعة ؛ فبيزنطة تقاربت مع قرطبة ، وبغداد تقاربت

مع آخن . وإذا كانت الصلات السياسية بين الدولة البيزنطية والأموية فى الأندلس قد قامت متأخرة منذ سنة ٨٣٩ م ، فإن الصلات بين الدولة العباسية والفرنجة سبقتها بعهد طويل ؛ ففى سنة ٧٦٥ أوفد ببين القصير (٧٤١ - ٧٦٨) سفارة إلى بلاط الخليفة أبى جعفر المنصور (٧٥٤ ٧٧٥) عادت بعد ثلاث سنوات مصحوبة برسل من المنصور إلى ببين ، يحملون إليه عددا من الهدايا(١). ونعتقد أن الهدف من هذه السفارة هو توكيد الشعور بالتقارب السياسى والأهداف المشتركة منذ أن أرسل المنصور إلى الأندلس القائد العلاء بن مغيث اليحصبى فى سنة ٧٦٣ (١٤٦ هـ) لقلب الحكم الأموى بحكم اشتراكهما فى العداء لبنى أمية فى الأندلس، ثم توقفت هذه العلاقات الوديه بعد وفاة ببين القصير واستمرت راكدة حتى ظهور شارلمان ، والظاهر أن العلاقات الدبلوماسية تجددت بينه وبين المهدى العباسى (٧٥٥ — ٧٨٥) استنادا على المؤامرة الكبيرة التى تدخل بمقتضاها شارلمان حربيا فى الأندلس ، وإن كانت المصادر اللاتينية والعربية تلتزم الصمت عن تبادل السفارات فى عهد هذين العاهلين ، فتدخل شارلمان لا يمكن أن يتحقق ما لم يكن هناك اتفاق بينه وبين أصحاب المصلحة فى هذا التدخل وأعنى بهم العباسيين الذين ـ بحكم بعد الأندلس عن متناول أيديهم ـ اعتمدوا على الثوار والمتزين لتحقيق مآربهم ، بدليل أن أحد هؤلاء الثوار وهو الرماحس الكنانى ، لجأ إلى بغداد بعد فشل ثورته ، وأن سليمان الأعرابى اتصل بشارلمان ليدعوه إلى دخول الأندلس .

وفى خلافة الرشيد توترت العلاقات بينه وبين أيرين ؛ فى الوقت الذى

(١) ورد على أبى جعفر المنصور بعد تأسيسه بغداد رسول من قبل الفرنجة يسميه الطبرى « بطريقا من بطارقة الروم » وقد أمر المنصور وزيره الربيع بن يونس بأن يطوف به بغداد (الطبرى ، ج ٩ ص ٢٦٢ ـ ابن الأثير ، ج ٥ ص ٥٧٤)

توثقت فيه الصلات بين شارلمان والبابوية وتدهورت بين البابوية وبين الدولة البيزنطية ، وقد ساعد ذلك بطبيعة الحال على وجود تقارب واضح بين الرشيد وشارلمان. فالبابا كان يرغب فى توثيق صلاته بكنائس القدس وأنطاكية والإسكندرية فشاركهم ضد حركة اللاأيقونية، وهذه المشاركة دعته إلى مناصرة الفرنج ودعم سيادتهم على الغرب المسيحى عن طريق تتويج شارلمان فى سنة ٨٠٠ م إمبراطورا للدولة الرومانية المقدسة ، وقد أثار ذلك سخط بيزنطه لأن أباطرتها يعتبرون أنفسهم أحق من الكارولنجيين فى وراثة الإمبراطورية الرومانية، وهم وحدهم أصحاب الحق الشرعى فى تمثيل الإمبراطورية الرومانية (١) .

ويعلل بكلر قيام العباسيين بغزو أراضى الدولة البيزنطية زمن هارون الرشيد والمأمون بانقطاع العلاقات الدبلوماسية بين بيزنطة والغرب وأن ما حدث فى سنة ٨٠٦ من استيلاء شارلمان على البندقية ودلماشيا أى فى الوقت الذى غزا فيه الرشيد أملاك بيزنطة فى آسيا الصغرى ربما يشير إلى تحالف بين شارلمان وهارون ، وأن هذا التحالف هو الذى أرغم الإمبراطور البيزنطى ميشيل رانجابى على الاعتراف بشارلمان إمبراطوراً فى سنة ٨١١ م (٢)

---

(١) مجيد خدورى ، الصلات الدبلوماطيقية ، ص ٢٠ .

(٢) ديفز ، شارلمان ، ص ٣٠٣ — Buckler, op. cit., p. 170. وقد حاولت بيزنطة بعد ذلك — كرد فعل على الصلات الودية بين العباسيين والفرنجة — أن تحسن علاقتها بالكارولنجيين ذلك عندما أوفد تيوفيل سفارة إلى لويس التقى فى سنة ٨٣٩ ، فى نفس الوقت الذى عمد فيه إلى تدعيم علاقاته ببنى أمية فى الأندلس وإنشاء حلف معهم ضد الأغالبة الذين هددوا الممتلكات البيزنطية فى إيطاليا وضد العباسيين الذين شجعوا الأغالبة على غزو سواحل قلورية ، والإريطشيين على غزو جزر بحر إيجة وسواحل آسيا الصغرى الغربية . أما الحلف مع الفرنجة فلم يكن ليتم على الإطلاق بسبب حالة العداء القائمة بين الأمويين فى الأندلس والفرنجة والتى استمرت حتى وفاة الأمير محمد فى سنة ٢٧٣ هـ (٨٨٦ م) ، وأما حلفهم مع الأمويين فى الأندلس فلم يتم هو الآخر ، واقتصرت العلاقات بين الفرنجة والأمويين على تبادل السفارات الودية .

أما ما يتعلق بقبول الرشيد لفكرة قيام شارلمان بالإشراف على الأماكن المقدسة ، فربما كان القصد منه التخلص من النفوذ البيزنطي فى بيت المقدس ، ويستدل بكلر على ذلك بمثل يأتى به تعبيرا عن كراهية رجال الدين المحليين لرجال الدين البيزنطيين ، فقد أرسل رهبان دير جبل الزيتون فى سنة ٨٠٨ إلى البابا يخطرونه بأن رئيس دير القديس سابا ، رماهم بالهرطقة وطردهم من كهف كنيسة المهد فى بيت لحم ، ومن الواضح أنهم كانوا يأملون فى حماية ملك الفرنجة منافس نقفور وحليف الرشيد من ظلم البيزنطيين المتغطرسين .

الفصل الخامس

الإدارة ونظم الحكم

(١)

الخلافة

الإمامة أو الخلافة رئاسة دينية ودنيوية نيابة عن النبى (ص) أو على حد قول الماوردى « الإمامة موضوعة لخلافة النبوة فى حراسة الدين وسياسة الدنيا »(١)، أو على حد قول ابن خلدون : « حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها ، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع [أى المشرع] إلى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا به »(٢) . والخليفه على هذا الأساس هو رئيس دينى وسياسى يجمع بين السلطتين الدينية - باعتباره إماما للمسلمين يؤمهم للصلاة ويسهر على تطبيق العدالة ويحمى الدين ويذب عنه — والدنيوية لأنه ينظر فى مصالح المسلمين الدنيوية . والخلافة نظام مستحدث حتمته الظروف بعد وفاة النبى (ص) دون أن ينص على الخلافة عينا لأحد من الناس ، لا لأبى بكر ولا لعلى ، وكأنما أراد رسول الله بذلك أن يترك الأمر شورى للمسلمين ليختاروا من يصلح لها من بينهم جريا على النظام القبلى الذى ألفه العرب . والإمامة لا تورث بإجماع الفقهاء وإنما بالاختيار . و نظام الحكم الوراثى على هذا

(١) الماوردى ، الأحكام السلطانية ، مصر ١٢٩٨هـ ، ص ٣ .

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، طبعة بيروت ١٩٦١م ، ص ٣٣٨ .

أحد وغير معترف به في الإسلام (١) ، ومع ذلك فقد أقر الفقهاء أن جواز انعقاد الإمامة بولاية العهد ثابت بالإجماع أسوة بأبي بكر الذي عهد بها إلى عمر فأثبت المسلمون إمامة عمر بعهد أبي بكر (٢) استنادا على أن الإمام هو ولى المسلمين والأمين عليهم وأنه هو الذي ينظر في مصالح الأمة لدينهم ودنياهم . ويذكر ابن خلدون أنه يشترط في الخليفة خمسة شروط : العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس والأعضاء والنسب القرشي (٣) ، وقد استمرت الخلافة سارية في عصر الخلفاء الراشدين أي المرشدين من قبل النبي السير على نهجه في الحكم . ثم تحول نظام الخلافة منذ قيام الدولة الأموية إلى ملك استبدادي وراثى على غرار ما كان معروفا عند الفرس والروم ، وقد أطلق العرب على هذا النظام أسماء مختلفة منها « الفرعونية » بمعنى حكم الفرد المستبد أو حكم الجبور والطغيان ، والكسروية والهرقلية وكلاهما يحمل نفس المعنى ، مع زيادة المظاهر الملوكية من الأبهة والترف وإضافة نظام الوراثة (٤) ، فقد عدل الأمويون في حكم الدولة من تطبيق نظام الخلافة الراشدة القائم على الشورى والمستند على الدين إلى نظام الملك القائم على التغلب والمستند على الدنيا ، واستحالت الخلافة بذلك إلى نظام أقرب ما يكون إلى النظام الملكي مع تمسك شكلي بفكرة البيعة التقليدية والالتزام بمعاني الخلافة من تحري الدين ومذاهبه والجري على منهاج الحق (٥) باستثناء

---

(١) محمد ضياء الدين الريس ، النظريات السياسية الإسلامية ، القاهرة ١٩٥٢ ، ص ١٦٩ .

(٢) الماوردي ، ص ٨ .

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ص ٢٤٢ .

(٤) ضياء الدين الريس ، ص ٩٤ .

(٥) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٦٧ .

الخلفاء المتأخرين من بنى أمية الذين سخروا طبيعة الملك لتحقيق أغراضهم الدنيوية ومقـــاصدهم من ركوب الشهوات والملذات ومن استخفاف بحق الرئاسة (١) ، ولم يتغير نظام الخلافة فى العصر الأموى من حيث الشكل عنه فى عصر الراشدين من حيث ارتكازه على قاعدة دستورية ثابتة هى الإجماع .

ثم ظهر التغير فى نظام الخلافة ومدلوله منذ قيام الدولة العباسية وبالذات منذ خلافة أبى جعفر المنصور ، الذى تصدى لمشاكل عديدة واجهته وتغلب عليها جميعاً ، ولذلك يعد المنصور صاحب الفضل فى إرساء الأساس الحقيقى للنظام العباسى ، وحرص خلفاؤه من بعده على الدفاع عن هيبة الخلافة وعلى تحقيق صورتها المركزية فيما يتعلق بالولايات التابعة لسلطانها ، فناضل المنصور وخلفاؤه من أجل تأكيد سلطان الخلافة وتحقيق المركزية ، إلا أنه عندما فشل الخلفاء فى تمكين سلطانهم فى المغرب بسبب غلبة التيارات الإقليمية عمدوا إلى تطوير نظام المركزية وذلك بتفويض قسم من السلطات إلى نائبين عن الخليفة فى شرق العالم الإسلامى وغربه يستمدانها من الخليفة ، والإقرار بالنزعات الإقليمية . ويتمثل ذلك فى دولة الأغالبة فى المغرب الأدنى التى أقامها الرشيد لكى يحمل على عاتقها أعباء الخلافة فى الغرب ، والدولة الطاهرية التى أقامها المأمون فى خراسان وأسند رئاستها إلى قائده الفارسى طاهر بن الحسين . وبمسايرة الخلافة العباسية للظروف الإقليمية ،ضمنت الإبقاء على نفوذها الروحى . ويعبر التقسيم الذى أجراه الماوردى فى نظام الإمارة على البلدان إلى إمارة استكفاء فى حالة محافظة الخلفاء على المركزية (١) وإمارة استيلاء فى

---

(١) ابن خلدون ،نفس المصدر ، ص ٤٢٢ .

(١) حرص الخلفاء فى هذه المرحلة على تغيير الولاة وتبديلهم ضمانا لاستمرار نفوذ السلطة المركزية وتجنبا لقيام مراكز قوى فى الدولة .

حالة الإقرار بالإقليمية ، يعبر هذا التقسيم عن التطور الذى طرأ على نظام الخلافة من صورته المركزية إلى صورته الإقليمية .

كذلك استجابت الخلافة للظروف الجديدة فى ناحية أخرى وهى الجمع بين نظامى الخلافة والإمامة (١) ، وأدى ذلك بطبيعة الحال إلى جنوح الخليفة إلى الاستبداد بالسلطة، وقد يكون ذلك ناتجا من احتفاظه بالسلطان الروحى المستند على نظرية عصمة الإمامة على نحو ما فعله الشيعة الإمامية والإسماعيلية ، أو على أساس الإجماع على عدم جواز تعدد الإمامة بما يكفل نوعا من السيطرة على أقاليم الدولة الإسلامية (٢) ،أو ناتجا عن تأثره بنظرية الحق الملكى المقدس التى كان يقول بها الفرس، بمعنى أن الخليفة يحكم بتفويض من الله لا من الشعب(٣) من جهة، واستنادا إلى أن خلفاء بنى العباس هم ورثة النبى من جهة ثانية . وقد ترتب على ذلك أن خلفاء بنى العباس سعوا إلى الاحتفاظ بالخلافة فى دولة ثيوقراطية أساس السيادة فيها لزعماء الدين ، إبرازا للتطور الذى طرأ على السلطة الخلافية منذ العصر الأموى (٤) . فكان الخليفة يرتدى بردة الرسول عند توليه الخلافة أو فى بعض الحفلات الدينية بحكم كونه نائبا عن النبى فى حكم المسلمين ، والتزم الخلفاء بلقب الإمام ، وإن كان هذا اللقب فقد دلالته الأولى من حيث إمامة المسلمين فى الصلاة ، وادعى الخلفاء أنهم يعملون على

---

(١) حسن محمود ، العالم الإسلامى، ص ١٢٢ .

(٢) الريس ، النظريات السياسية الإسلامية ، ص ١٧٣ .

(٣) وقد عبر المنصور بقوله : « إنما أنا سلطان الله فى أرضه » .

(٤) حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الإسلام السياسى ، ج ٢ : العصر العباسى الأول ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ٢٥٠ .

إحياء السنة وإعادة الحكم القائم على العدل والمساواة ، فأحاطوا أنفسهم بالفقهاء واستشاروهم فى مشاكل الدولة ، واتخذوا من الدين دعامة لتثبيت مركزهم السياسى . وما دامت الخلافة العباسية أصبحت تستند على نظرية الحق الملكى المقدس فهى تقـــر نظام الوراثة فى البيت العباسى ، وليس ضروريا أن تكون وراثة مستقرة فى الابناء ، وإنما كانت الخلافة تسند إلى الأقدر على تحمـــل تبعاتها من أفراد البيت العباسى ، ويتم ذلك عن طريق أهل الحل والعقد أو أهل الاختيـار وعلى رأسهم الخليفـة ومن يحيط بـه من الخـاصـة وكبـار القـادة والوزراء . وكان قرار تعيين ولى العهد قرارا ملزما يعطى لصاحبه حقا فى عنق من بايعوه ، ولقد سار العباسيون على سياسة تولية العهد لأكثر من واحـد ، ولم يتعظوا بما سببه ذلك من نكبات للدولة الأموية دفعتها إلى السقوط ، ولهذا السبب اعتبر إبدال ولاة العهد بعد تعيينهم بآخرين نكثا بالعهد ، وكان من نتائجه نثر بذور العداء والحقد بين أفراد البيت العباسى ، ونجمت عنه أزمات خطيرة ظهرت آثارها فى فتنة الأمين والمأمون .

(٢)

الـــوزارة

استند العباسيون على الفرس فى تطوير نظمهم الإدارية كما استنـدوا عليهم فى تأسيس دولتهم إلى حد رسخت معه التقـاليد الإدارية الفارسية القديمة فى صميم نظم الإدارة العباسية ، بحيث يمكننا أن نطلق على العصر العباسى الأول بحق العصر الفارسى الأول أو عصر إحياء التقاليد الفارسية . غير أن الاتجـــاه إلى إحياء التقاليد الفارسية لم يصدر دفعة واحدة فى العصر العبـاسى ، فقد سبقته مرحلة تمهيدية منذ خلافة عمر بن الخطاب الذى اقتبس نظام الديوان من الإدارة

الفارسية متبعا فى ذلك مشورة الهرمزان (١). وتابع الأمويون سياسة الاقتباس من الإدارة الفارسية ، فأخذوا عن الفرس نظام الدواوين واتخذوا الحاجب ليقوم مقام الخليفة فى بعض المهام الخلافية ويحجب الخليفة عن العامة ويغلق بابه دونهم ، كما اتخذوا الطراز الذى أصبح مظهرا من أبهة الملك وفخامة السلطان .

وبقيام الدولة العباسية، ازداد النظام الفارسى الذى كان يعمل به زمن الساسانيين قوة . وسيطرت التقاليد الفارسية على أجهزة الدولة سيطرة شاملة، وحلت جماعات من الموظفين الفرس محل الأرستقراطية العربية التى كانت تحيط بالخليفة الأموى ، واستحدث منصب الوزارة بنفس اختصاصاته المعروفة عند الفرس ، ولم تكن سلطات الوزير قد تحددت بعد فى بداية قيام الدولة بصورة واضحة (فى وزارة أبى سلمة الخلال) ، إلا أنها ستتدرج فى النمو وتتضح بمضى الوقت حتى تتخذ شكلها النهائى فى أواخر العصر العباسى الأول.

وليس من شأننا أن نتحدث عن لفظ الوزارة ومشتقاته اللغوية (٢) ، كما أنه ليس من شأننا أن نتتبع تطور استعمال لفظ الوزارة عند العرب منذ العصر

---

(١) الجهشيارى ، الوزراء والكتاب ، القاهرة ١٩٣٨ ، ص ١١ .

(٢) راجع فى دراسة مشتقات اللفظة فى اللغة العربية : الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص ٢٠ ـ ابن طباطبا ص ١٣٦ ـ ابن منظور ، لسان العرب ، المجلد الخامس ، بيروت ١٩٥٦ ، ص ٢٨٢ ـ الفيروز بادى ، القاموس المحيط ، ج ١ القاهرة ١٣٤٤ هـ ، ص ٣٦٣ ـ الزبيدى ، تاج العروس ، ج ٣ القاهرة ١٣٠٦ ص ١١ ـ أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ج ١ القاهرة ١٩٥٢ ، ص ١٧٦ — Dominique Sourdel, Le vizarat Abbasside, vol. I, Damas, 1959, pp. 43 – 46.

الجاهلي (١) ، فهذا يخرج بنا عن موضوع الدراسة ، ولكن إذا كانت الوزارة كاختصاص ومهام ولقب قد استحدثت في العصر العباسي ، فإنها عرفت كاختصاص فقط دون اللقب في العصر الأموي ، فكان عبد الحميد بن يحيى بن سعيد كاتب مروان بن محمد يقوم في الخلافة مقام الوزير (٢) من حيث تقريب الخليفة له واعتماده عليه في المشورة والرأي .

ولم يكتف العباسيون باقتباس نظام الوزارة من نظم الإدارة الفارسية القديمة ، بل عملوا على اختيارهم وزرائهم من الفرس ، وكان أبو سلمة الخلال أول من وزر لبني العباس (٣) ، وسمي وزير آل محمد (٤) ، ويعلق ابن خلكان على استيزار السفاح له بقوله : «أن أبا سلمة أول من وقع عليه اسم الوزير ، وشهر بالوزارة في دولة بني العباس ، ولم يكن قبله من يعرف بهذا النعت لا في دولة بني أمية ولا في غيرها من الدول » . (٥)

وكان اختصاص الوزراء الأول لبني العباس كاختصاص الكتاب عند الأمويين ، فكان الخلفاء العباسيون يحرصون دائما عند اختيارهم لوزرائهم أن

---

(١) أنظر في ذلك : المسعودي ، التنبيه والإشراف ، ص ١٩٤ — ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، القاهرة ١٩٣٢ ، ص ٢٥٢ — ماجد ، تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٣١ .

(٢) الإربلي ، خلاصة الذهب المسبوك ، ص ٥٨ .

(٣) الإربلي ، ص ٥٤ .

(٤) الجهشياري ، ص ٥٦ — ابن طباطبا ، ص ١٣٨ .

(٥) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ١ ، ص ٤٤٦ .

يكونوا ممن يجيد الكتابة (١) ، ويعبر ابن طباطبا عن ذلك بقوله : «والوزارة لم تتمهد قواعدها وتتقرر قوانينها إلا فى دولة بنى العباس ، فأما قبل فلم تكن مقننة القواعد ، ولامقررة القوانين ، بل كان لكل واحد من الملوك أتباع وحاشية ، فإذا حدث أمر استشار بذوى الحجى والآراء الصائبة ، فكل منهم يجرى مجرى وزير ، فلما ملك بنو العباس تقررت قوانين الوزارة ، وسمى الوزير وزيراً ، وكان قبل ذلك يسمى كاتبا أو مشيراً» (٢) . ولما قتل أبو سلمة الخلال لم يتلقب أحد ممن استوزرهم السفاح بعده بلقب الوزارة تطيرا مما لحق به ، فخالد بن برمك على الرغم من مكانته السامية التى تبوأها كان يعمل عمل الوزراء ولم يتسم بالوزير (٣) ، كذلك تلقب أبو أيوب المورياني الذى استوزره المنصور العباسى وأسند إليه عمل الدواوين بكاتب الخليفة (٤) . وظلت الوزارة فى خلافة المنصور إسما على غير مسمى لاستبداده المطلق وتركيز السلطات فى يده ، وفى ذلك يقول ابن طباطبا : «لم تكن الوزارة فى أيامه طائلة لاستبداده واستغنائه برأيه وكفاءته ، مع أنه كان يشاور فى الأمور دائما ، وإنما كانت هيبته تصغر لها هيبة الوزراء ، وكانوا لا يزالون على وجل منه

---

(١) كان أبو سلمة فصيحا عالما بالأخبار والأشعار والسير والجدل والتفسير ، حاضر الحجة ، فلما بويع السفاح استوزره وفوض الأمور إليه وسلم إليه الدواوين ولقب وزير آل محمد (ابن طباطبا ، ص ١٣٨) ، وكان الربيع بن يونس وزير المنصور فصيحا كافيا عاقلا فطنا خبيرا بالحساب والأعمال ، وكان أبو عبد الله يعقوب بن داود وزير المهدى كاتبا لنصر بن سيار أمير خراسان (ابن طباطبا ، ص ١٦٦) .

(٢) ابن طباطبا ، ص ١٣٦ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٣٩ .

(٤) الجهشيارى ، ص ٧٧ ، ٧٩ .

وخوف ، فلا يظهر لهم أبهة ولا رونق »(١) . ولهذا السبب اتسمت الإدارة العباسية فى العصر العباسى الأول بالمركزية المطلقة ، فكان الخليفة مصدر السلطات ، أما الوزير فكان مجردا من كل سلطان ، ولم يعظم مركز الوزارة وتستقر قواعدها إلا منذ أيام المهدى ، وكان وزيره أبو عبيد الله معاوية بن يسار هو الذى رتب الديوان وقرر القواعد ، وكان كاتب الدنيا ، وأوحد الناس حذقا وعلما وخبرة (٢) . وليس أدل على ارتفاع مكانة الوزير فى دولة بنى العباس بعد المهدى (٣) من الإشارة إلى المكانة التى تبوأها البرامكة فى خلافة الهادى والرشيد ، فقد قبضوا على أزمة الحكم وأصبحت شؤون الدولة فى أيديهم يتصرفون فيها كما شاءوا ، إلى أن نكبهم الرشيد فى سنة ١٨٧ هـ . ومن الأمثلة الدالة كذلك على سمو مكانة الوزير ، استبداد الفضل بن سهل وأخوه الحسن بدولة المأمون ، والفضل بن الربيع بدولة الأمين .

وكانت الوزارة فى العصر العباسى تنقسم إلى نوعين (٤) :

---

(١) ابن طباطبا ، ص ١٠٦ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٦٣ .

(٣) يقول ابن خلدون معبرا عن ضخامة سلطات الوزراء : « فلما جاءت دولة بنى العباس ، واستفحل الملك وعظمت مراتبه وارتفعت ، عظم شأن الوزير وصارت إليه النيابة فى إنفاذ الحل والعقد ، وتعينت مرتبته فى الدولة ، وعنت لها الوجوه وخضعت لها الرقاب ، وجعل له النظر فى ديوان الحسبان (ديوان المال) لما تحتاج إليه خطته من قسم الأعطيات فى الجند فاحتاج إلى النظر فى جمعه وتفريقه ، وأضيف إليه النظر فى القلم والترسيل لصون أسرار السلطان . . . فصار اسم الوزير جامعا لخطتى السيف والقلم وسائر معانى الوزارة والمعاونة حتى لقد دعى جعفر بن يحيى بالسلطان أيام الرشيد إشارة إلى عموم نظره وقيامه بالدولة ولم يخرج عنه من الرتب السلطانية كلها إلا الحجابة » .

(٤) الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص ١٨ .

١ — وزارة تنفيذ (وهى أيضا وزارة القلم وسلطتها محدودة) : وهى التى اقتصر مهمة الوزير فيها على تنفيذ أوامر الخليفة وعدم التصرف فى شؤون الدولة من تلقاء نفسه ، وإنما كان يعرض الأمور على الخليفة ويتلقى أوامره ضمنها ، وبذلك كانت مهمة الوزير أشبه ما تكون بمهمة الوسيط بين الخليفة والشعب .

٢ — وزارة تفويض (وتعرف أيضا بوزارة السيف) : وهى أن يوكل الخليفة الوزارة إلى شخص يثق فيه ويفوض إليه النظر فى أمور الدولة والتصرف فى شؤونها دون الرجوع إليه بحيث لا يبقى للخليفة بعد ذلك من السلطان إلا ولاية العهد وحق عزل من يوليهم الوزير . ومن أشهر وزراء التفويض فى العصر العباسى الأول آل برمك وآل سهل والفضل بن الربيع الذى كان حاجبا للرشيد ثم استوزره بعد نكبة البرامكة . ومن دلائل ارتفاع منزلة الوزير إبان الفتنة بين الأمين والمأمون تلقب الفضل بن سهل وزير المأمون بذى الرئاستين لجمعه بين السيف والقلم ، وتلقبه بالوزير الأمير [1] ، واستوزار المأمون بعده الحسن بن سهل وزواجه من ابنته بوران وتلقيبه بلقب ذى الكفايتين [2] . ومن أشهر وزراء التنفيذ فى عهد المأمون والمعتصم : أحمد بن أبى خالد ، وأحمد ابن يوسف ومحمد بن عبد الملك الزيات .

---

(١) ابن طباطبا ، ص ٢٠٢ . ويقصد بالرئاستين : رئاسة الحرب ورئاسة التدبير (الجهشيارى ، ص ٢٥٠) وقد عقد له المأمون على سنان ذى شعبتين ، وأعطاه مع العلم علما قد كتب عليه لقبه . وكان الفضل بن سهل أول وزير اجتمع له اللقب والتأمير (الجهشيارى ، نفس المصدر) .

(٢) الصابى ، رسوم دار الخلافة ، تحقيق ميخائيل عواد ، بغداد ١٩٦٤ ص ١٣٠ ،

وكان يشترط فى الوزير لأهمية منصبه — باعتباره وسيطا بين الخليفة والرعية — أن يكون فى طبعه جانب يناسب طباع الملوك وجانب يناسب طباع العوام حتى يتمكن من معاملة كل من الفريقين بما يعينه على الاحتفاظ عند كل منهما بالقبول والمحبة والرضا ، وأن يكون أمينا صادقا شجاعا ، وأن تتوفر فيه الكفاية والفطنة والدهاء والحزم ، بالإضافة إلى صفات أخرى لا غناء له عنها ، كالفضل والكرم ، ليصطنع الأنصار ، والرفق والأناة والتثبت فى الأمور ، والحكم والوقار ونفاذ القول (١) .

وفى ضوء هذه الشروط كان الوزراء يختارون بدقة ، فقد روى عن المأمون أنه قال : « إنى التمست لأمورى رجلا جامعا لخصال الخير ، ذا عفة فى خلائقه واستقامة فى طرائقه . قد هذبته الآداب وأحكمته التجارب ، إن اؤتمن على الأسرار قام بها ، وإن قلد مهمات الأمور نهض فيها ، يسكته الحلم ، وينطقه العلم وتكفيه اللحظة وتغنيه اللمحة ، له صولة الأمراء وأناة الحكماء ، وتواضع العلماء ، وفهم الفقهاء ، إن أحسن إليه شكر ، وإن ابتلى بالإساءة صبر ، لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده ، يسترق قلوب الرجال بخلابة لسانه وحسن بيانه » ومع ذلك ففى كثير من الأحيان كانت تتدخل بعض العوامل فى اختيار الوزير ، فكان أحيانا يقلد الوزارة مكافأة له على جهد بذله أو عون قدمه لشخص الخليفة . على أنه لم يعد ضروريا أن يراعى فى اختياره لا الجمع بين الصفات السابقة ولا ما قدمه للدولة أو الخليفة من أفضال ، وذلك عندما أصيبت الخلافة العباسية بالانحلال والضعف وأصبح اختيار الوزراء يتم وفقاً لأغراض أخرى

(١) الماوردى ، ص ١٨ .

من أبرزها الرشوة التي أصبحت الوسيلة العملية للترشيح لهذا المنصب الكبير .

وكان من مهام الوزراء في العصر العباسي الأول الإشراف على دواوين الدولة والشؤون المالية وشؤون الترسيل والمكاتبات والشؤون الحربية ، ولهذا أصبح الوزير يجمع في عمله بين السلطتين المدنية والحربية ، أو بمعنى آخر بين السيف والقلم . كذلك كان من مهامه النظر في قضايا الناس ومطالبهم ، وتعيين الولاة .

ومن الملاحظ أن معظم من تولى الوزارة في العصر العباسي الأول منذ قيام الدولة حتى خلافة الرشيد كانوا يتفقون في أمرين : الأول أنهم من الفرس ، والثاني ميلهم للعلويين وسعيهم في الخفاء على نقل الخلافة إليهم ، وكان ذلك من العوامل التي ساعدت الخلفاء على نكبتهم لهم والتنكيل بهم (١) .

وفي عصر المعتصم لم يعد للوزراء ما كان لهم من نفوذ وسلطان زمن المأمون بسبب اتساع نفوذ قواد الجيش الأتراك من جهة وسيطرة الخليفة على النواحي السياسية والإدارية من جهة ثانية . وهناك ظاهرتان واضحتان في وزراء هذا العصر هما : —

١ — لم يكن من بين وزراء المعتصم والواثق على كثرتهم من كان أديبا حسن المعرفة بالعلم إلا محمد بن عبد الملك الزيات ، فالفضل بن مروان أول وزراء المعتصم لم يكن من الكتاب وإنما كان عاميا لا علم لديه ولا معرفة وكان سيء السيرة جاهلا بالأمور ، وكذلك كان أحمد بن عمار بن شاذى وزير المعتصم بعد الفضل — رغم ثرائه — جاهلا بآداب الوزارة قليل الثقافة .

---

(١) إبراهيم سلمان ، نظام الوزارة في العصر العباسي الأول ، ص ٢٥ وما يليها .

٣ — كان معظم وزراء هذا العصر ضحايا مطامع الخلفاء فى أموالهم ، فكثيراً ما نكبهم الخلفاء وصادروا أموالهم واستصفوا أملاكهم كما حدث الوزير الفضل بن مروان فى عصر المعتصم وابن الزيات فى خلافة الواثق .

(٣)

الحجابة

فى عصر الدولة الأموية ظهرت وظيفة فى البلاط لها أهميتها بالنسبة للخليفة هى وظيفة الحاجب ، من اختصاصاته حجب الخليفة عن الناس وتنظيم مثولهم أمام الخليفة وفقا لمراكزهم وأهمية أعمالهم ، ويعتبر معاوية أول من أرخى الستور من الخلفاء فى الإسلام (١) واتخذ الخلفاء الأمويون من بعده حجابا لهم تشبها بالملوك والأكاسرة وحرصا على أنفسهم من خطر الاغتيالات السياسية ، فكان الحجاب يحجبون الخليفة عن العامة ويغلقون بابه دونهم (٢) . والحجابة مما اقتبسه العرب من الإدارة الفارسية ، عندما أخذوا بمظاهر الكسروية ، ومن أشهر حجاب الأمويين : خالد وسعيد موليا الوليد بن عبد الملك وحاجباه (٣) ، وأبو عسكر مولى سليمان بن عبد الملك وحاجبه (٤) ،

(١) ابن خلدون ، المقدمة ص ٢٢٤ ، كان الحجاب يمنعون الناس من الدخول على الخلفاء إلا بأذن خاص ، ولم يستثنوا على حد قول عبد الملك بن مروان إلا صاحب الطعام والأذان للصلاة والبريد .

(٢) الإربلى ، ص ٣ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٧ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٢١ .

وحبيش ومزاحم موليا عمر بن عبد العزيز وحاجباه (١) ، وسعيد مولى يزيد ابن عبد الملك وحاجبه (٢) ، وغالب مولى هشام وحاجبه ، والابرش الكلبي حاجبه ، وكان هذا الحاجب يدخل عليه فيقول فلان بالباب وفلان ، فيقول : ائذن ، فلا يزال الناس يدخلون عليه حتى إذا انتصف النهار وضع الطعام ورفعت الستور (٣) . ومن حجاب الأمويين أيضا قطرى مولى الوليد بن يزيد (٤) ، وقطر مولى يزيد بن الوليد بن عبد الملك وحاجبه وحاجب إبراهيم ابن الوليد بن عبد الملك (٥) ، وصقلاب مولى مروان بن محمد وحاجبه (٦) .

واتخذ الخلفاء العباسيون الحجاب أيضا وبالغوا فى ذلك تشبها بالاكاسرة وحماية لأنفسهم من الساخطين عليهم ، وزادوا فى منع الناس عن ملاقاتهم إلا فيما عظم من الأمور ، وازدادت أهمية هذه الوظيفة منذ عهد المهدى العباسى ، ومن أشهر حجابه : الربيع بن يونس والفضل بن الربيع والربيع بن حصين والحصين بن سليمان(٧) . ومما يدل على أهمية الحجابة أن الربيع بن يونس كان وزيرا للمنصور ، وظل يقوم بمهمة الوزارة إلى أن مات المنصور بمكة ، وقام الربيع بأخذ البيعة للمهدى العباسى ، فشكر له المهدى ذلك ولم يستوزره وإنما

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٢٦
(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٧ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ٣١ .
(٤) المصدر نفسه ، ص ٤٤ .
(٥) المصدر نفسه ، ص ٤٧ .
(٦) المصدر نفسه ، ص٤٨ .
(٧) المصدر نفسه ، ص ٩٢ .

جعله حاجبه ، وذكروا أنه لم ير فى الحجابة أعرق من الربيع ومن ولده الفضل الذى حجب لهرون الرشيد ولمحمد الأمين ، ومن عباس بن الفضل الذى حجب الأمين ، بمعنى أن عباس هـذا كان حاجبا إبن حاجب إبن حاجب، وقد مدحهم أبو نواس بقوله :

ساد الملوك ثلاثة ما منهم ∴ أن حصلوا إلا أغر قريع
عباس عباس إذا احتدم الوغى ∴ والفضل فضل والربيع ربيع (١)

ويأتى ابن طباطبا بمثل آخر يعبر عن أهمية منصب الحاجب ، فيذكر أن الربيع بن يونس لما قدم من مكة بعد موت المنصور وأخذ البيعة للمهدى وفد إلى باب أبى عبيد الله معاوية بن يسار (كاتب المهدى ونائبه قبل أن يلى الخلافة، وكان غالبا على أمور المهدى لايعصى قولا، ولهذا استوزره المهدى ، وفوض إليه تدبير الدولة وسلم إليه الدواوين) لزيارته زيارة مجاملة، قال : فوصل الربيع إلى باب أبى عبيد الله الوزير ، فوقف ساعة حتى خرج الحاجب ، ثم دخل فاستأذن له ، فأذن له ، فلما دخل عليه لم يقم له (مع أن الربيع بن يونس كان وزيرا للمنصور) ثم سأله عن سيره وحاله فأخبره ، وشرع الربيع يحدثه بما جرى فى مكة من موت المنصور واجتهاده فى أخذ البيعة للمهدى ، فسكته ، وقال : لقد بلغنى الخبر فلا حاجة إلى إعادته . فاغتاظ الربيع ، ثم قام ، فخرج ، وقال لابنه الفضل : على كذا وكذا إن لم أبذل مالى وجاهى فى مكروهه وإزالة نعمته . ومضى الربيع إلى المهدى فاستحجبه واختص به كما كان مع أبيه . وما زال الربيع بن يونس يكيد له فى شخص ابنه (أى ابن أبى عبيد الله) لدى

---

(١) المصدر السابق ، ص ١١٣ .

الخليفة تارة يرميه ببعض حرم المهدى وتارة يرميه بالزندقة حتى رسخ فى ذهن المهدى زندقة ابن الوزير ، فأمر وزيره أبا عبيد الله بقتل ابنه ، فقام الوزير وعثر ووقع وارتعد ، فأعفاه من قتله وأمر بعض الحاضرين بقتله ، فضربت عنقه . واستمر الوزير فى خدمة المهدى ، إلى أن أمر المهدى حاجبه الربيع بحجبه عنه فحجبه (١)

وعن طريق الربيع بن يونس استوزر المهدى يعقوب بن داود ، لصداقة كانت بين الربيع وبينه ، فجعل يثنى على يعقوب فى خلواته بالمهدى حتى استوزره(٢) وغلب على المهدى حاجبه الفضل بن الربيع(٣) . ومن حجاب الرشيد بشر بن ميمون مولاه ومحمد بن خالد بن برمك(٤) ثم الفضل بن الربيع(٥) أما المعتصم فقد استحجب وصيفا التركى ، كما استحجبه أيضا الواثق .

(٤)

الكتاب

كان يعين الوزراء وأصحاب الدواوين فى مهامهم أعوان من أرباب الأقلام عرفوا بالكتاب ، وكانت لهذه الطائفة أهمية خاصة لارتباطهم بالوزراء وأصحاب الدواوين ، بدليل أن الكثير منهم يتدرج فى الرقى حتى يصل إلى منصب الوزارة ولأهمية الكتاب ألفت فيهم الكتب ، فمن بين من كتب فى

---

(١) ابن طباطبا ، ص ١٦٤ — ١٦٦ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١٠٦ .

(٣) اليعقوبى ، ج ٢ ص ٤٠٦ .

(٤) الإربلى ، ص ١٧١ .

(٥) الجهشيارى ، ص ١٨٤ . صرف الرشيد محمد بن خالد البرمكى عن حجابته وقلدها الفضل بن الربيع فى سنة ١٧٩ هـ .

هذا الباب : ابن قتيبة الذى صنف كتابه أدب الكاتب ، وابن درستويه الذى ألف كتاب الكتاب ، ومحمد بن داود بن الجراح صاحب كتاب الوزراء ، والجهشيارى صاحب كتاب الوزراء والكتاب . وقد تعددت اختصاصات الكتاب فمنهم من كان من كتاب الرسائل أى مخاطبة العمال والأمراء ، ومنهم من تولى كتابة الخراج ، ومنهم كتاب الجند يقيدون أسماءهم وصفاتهم وطبقاتهم وأعطياتهم ونفقات سلاحهم ، ومنهم كتاب الشرطة ، وكتاب القضاة . وأعظم هؤلاء الكتاب جميعا فى المكانة كتاب الرسائل الذين يعتبرهم الحكام نظام الأمور وكمال الملك وبهاء السلطان وهم الألسنة الناطقة عن الملوك وخزان أموالهم وأمناؤهم على رعيتهم وبلادهم(١). ولحساسية عملهم وأهميته كان الخلفاء يتخيرون الكتابة أشخاصا تتوفر فيهم صفات معينة . وفى ذلك يقول ابن خلدون : « إن صاحب هذه الخطة لابد من أن يتخير أرفع طبقات الناس وأهل المروءة والحشمة منهم ، وزيادة العلم وعارضة البلاغة ، فإنه معرض فى أصول العلم لما يعرض فى مجالس الملوك ومقاصد أحكامهم . من أمثال ذلك ما تدعو إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب والتخلق بالفضائل مع ما يضطر إليه فى الترسيل وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها » (٢) .

وقد شارك الكتاب ومن وصل منهم إلى منصب الوزارة فى نشر الثقافة ، لأنهم بحكم مناصبهم كانوا مضطرين إلى معرفة أحوال الناس الاجتماعية وأن يعرفوا من اللغة والأدب وعلوم الدين والفلسفة والتاريخ طرفا ، لاحتياجهم

---

(١) الجهشيارى ، ص ٣ .

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٣٨ . ويأتى ابن خلدون برسالة لعبد الحميد الكاتب إلى الكتاب فيها تضمين لما يتوفر فيهم .

إلى هذه العلوم فى مواقفهم(١)، كما أن الكثير منهم بجمعهم بين الآداب العربية والفارسية ، أسهموا بدور كبير فى إحياء الثقافة الفارسية القديمة ، وبفضلهم اتسعت آفاق الفكر وترعرعت شجرة الثقافة الإسلامية(٢) ، وترجم إلى العربية العديد من الكتب الفارسية واليونانية ، وقد لمع من هؤلاء الكتاب أسماء كثيرة منها عبد الله بن المقفع ويحيى بن خالد وأحمد بن يوسف وأحمد بن أبى دؤاد والفضل بن سهل ومحمد بن عبد الملك الزيات ، وامتاز هؤلاء الكتاب بحسن الكتابة وغزارة العلم وسعة الاطلاع ، فكان جعفر البرمكى « كاتبا بليغا ، وكان إذا وقع نسخت توقيعاته وتدورست بلاغاته »(٣) . وكان أحمد بن يوسف ابن صبيح كاتب الرشيد على حظ كبير من الثقافة الإسلامية وكان كاتبا فاضلا أديبا شاعرا فطنا بصيرا بأدوات الملك وآداب السلاطين(٤) .

(٥)

الدواوين

توسع العباسيون فى الدواوين بحكم اصطناعهم لنظم الإدارة الفارسية(٥) . وكلمة الديوان كلمة فارسية تعنى السجل الذى يكتب فيه ما يختص بشؤون

(١) أحمد أمين ، ضحى الإسلام ، ج ١ ص ١٧٢ .

(٢) مصطفى الشكعة ، الأدب فى موكب الحضارة الإسلامية ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٣٠٣ .

(٣) الجهشيارى ، ص ١٥٨ .

(٤) ابن طباطبا ، ص ٢٠٦ .

(٥) دواوين الدولة العباسية هى : ديوان الخراج وديوان الدية وديوان الزمام وديوان الجند وديوان البريد وديوان زمام النفقات وديوان الرسائل وديوان الحوائج وديوان الأحشام وديوان المنح أو المقاصة ، وديوان الأكرية وديوان الزنادقة .

الإدارة ، ثم أصبحت تدل على المكان الذى يعمل فيه الكتاب على اختلاف مهامهم ، وقد أصبح لموظفى الدواوين فى العصر العباسى شأن كبير فى الدولة ، وكانت لهم علامات تميزهم عن غيرهم من رجال الدولة كالدواة والكرسى والوسادة والمسند والحصبة ، وهى أدوات كانت تستخدم فى الكتابة والجلوس فى الديوان . ويرجع الفضل فى تنظيم إدارة الدواوين فى العصر العباسى الأول إلى خالد بن برمك ، فقد كان سبيل ما يثبت فى الدواوين أن يثبت فى صحف ، فكان خالد أول من سجله فى دفاتر(١) ، وهو الذى أشار على السفاح — عندما عوم على التخلص من أبى مسلم الخراسانى — أن يأمر بإسقاط من لم يكن من أهل خراسان من الجند فى ديوان الجند ، فأسقط عدداً كبيراً من أصحاب أبى مسلم(٢) ولما تولى أبو جعفر المنصور ،صرف خالد بن برمك عن الديوان وقلده أبا أيوب الموريانى . وإلى المهدى يرجع الفضل فى إنشاء ديوان الزمام سنة ١٦٢ لجمع ضرائب العراق وهو أول من أحدث هذا الديوان ؛ وفيما يلى أهم الدواوين فى الدولة العباسية :

١ — ديوان الرسائل :

وكانت مهمة صاحبه إذاعة المراسيم والمنشورات وتحرير الرسائل السياسية وختمها بخاتم الخلافة . وقد تفقد هذا الديوان فى العصر العباسى عنه فى العصر الأموى ، وتعددت اختصاصاته وكثر عدد من يعملون فيه ، وذلك حتى يرقى إلى مستوى السياسة العباسية ومواجهة احتياجات الدولة ومشاكلها ، وقد استقرت دعائم هذا الديوان منذ أيام المنصور ، وجعله الخليفة قريباً من قصره

---

(١) الجهشيارى ، ٥٩ .

(٢) نفس المصدر ٣٦٠ ب .

فى بغداد وأسنده إلى أبان بن صدقة (١) ، وقد تعرض هـذا الديوان للتطور فى العهود التالية وفصلت المراسلات الخاصة بالخليفة عن مراسلات الدولة التى أصبح يشرف عليها الوزراء إشرافا مباشرا ، وأصبحت لصاحب ديـــوان الرسائل مكانة بارزة عنـد الخليفة بحـكم اتصاله به ، وكان الخليفة يستشيره ويدنيه منه(٢) .

وكان يعمل بديوان الرسائل موظفون تعددت مهامهم ، فقد وجـد كتاب رؤساء يقومون بالإنشاء وكتابة الردود والتوقيعات(٣) وآخرون يساعدونهم فى التلخيص والتبييض، وأصبح لهذا الديوان محفوظات خاصة يتولى الإشراف عليها الخازن(٤) ، فـكانت أصول المراسلات ونسخها الواردة تنظم فى ملفـات يقال لها أضابير توضع عليها بطاقات تدل على محتوياتها ليسهل الرجـوع إليهـا عند الضرورة . وكان الـكاتب يصدر السجلات من الديوان ويكتب فى آخرها اسمه ويختم عليها بخاتم الخليفة ـ وهو طابع منقوش فيه اسم الخليفة أو شارته يغمس فى طين أحمر مذاب بالماء يسمى طين الختم ـ ويطبع به على طرف السجل عند طيه وإلصاقه ، وعرف التوقيع الخلافى فى العصر العباسى بالعلامة(٥) .

---

(١) المسعودى ، ج ٧ ص ٢٨٥ .

(٢) حسن محمود ، العالم الإسلامى ، ص ١٤٤ .

(٣) كانت أرزاق الرؤساء فى زمن المنصور ٣٠٠ درهم للرجل ، وظل الحال كذلك حتى زمن الفضل بن سهل فى خلافة المأمون فوسع الجارى (الجهشيارى ، ص ٨٩) .

(٤) ماجد ، تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص ٣٦ .

(٥) كذلك عرف التوقيع الخلافى فى عصر الدولة الفاطمية بالعلامة (راجع مجموعة الوثائق الفاطمية ، نشرها الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة م ١٩٥٨) .

٢ — ديوان الخاتم :

كانت مهمة صاحب هذا الديوان حزم الأوامر الخلافية والرسائل وختمها بالشمع ثم الضغط عليه بخاتم صاحب الديوان حتى لا تتعرض للتزوير .

٣ — ديوان البريد :

استحدثه معاوية بن أبي سفيان حتى تصل الأخبار إليه بسرعة ، وتوسع فيه العباسيون وطوروه بحيث وصل في عصرهم إلى درجة عالية من الكمال. ومن المعروف أن الفضل في تطويره وتحسين نظمه ووسائله يرجع إلى أبي جعفر المنصور ، مستهدفا في ذلك الوقوف على أحوال الولايات والكشف عن حركات التمرد والثورة والقضاء عليها في وقتها ، وقد زاد ارتباط عمال البريد في عهده بالعاصمة بغداد مباشرة دون أن يخضعوا لنفوذ الولايات ، وكان هؤلاء العمال البريديون إلى جانب عملهم الأساسي — وهو نقل الرسائل — يشتغلون بالتجسس على كبار الموظفين ومراقبة الولاة في الأقاليم التابعة للخلافة العباسية، ولهذا السبب حظى صاحب ديوان البريد في عصر المنصور بمكانة عالية تسمو مكانة الوالى نفسه(١) . وفي عصر المهدى زادت أهمية البريد ، فأقيمت له سنة ١٦٦ محطات

---

(١) كان المنصور يقول : « ما كان أحوجني إلى أن يكون على بابي أربعة نفر لا يكون على بابي أعف منهم ، قيل له : يا أمير المؤمنين ، من هم ؟ قال : هم أركان الملك لا يصلح الملك إلا بهم ، كما أن السرير لا يصلح إلا بأربعة قوائم ، إن نقصت واحدة تداعى وهي : أما أحدهم فقاض لا تأخذه في الله لومة لائم ، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى ، والثالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية ، فإني عن ظلمها غني ، والرابع ثم عض على أصبعه السبابة ثلاث مرات يقول في كل مرة آه آه . قيل له : ومن هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : صاحب بريد يكتب إلى بخبر هؤلاء على الصحة » (الطبرى ، ج ٩ ص ٢٩٧) .

بين مكة والمدينة واليمن(١) ، واتخـــذت له البغال والإبل خاصة بعـد ثورة الحسنيين فى الحجـاز ، وأصبح لديوان البريد أهميته إبانـــ النزاع بين الأمين والمأمون ، فعندما تبين المأمون نوايا الأمين ضده بادر بقطـع البريد عنه فى سنة ١٩٤ هـ ، كما ظهرت أهمية البريد فى عصر المعتصم عندما تولى عجيف مهمة القضاء على حركات الزط بالبصرة وأمكنه بفضل البريد من إبلاغ الخليفة بكل أخبار قمعه لها ، فقد أمر الخليفة بترتيب الخيـل فى كل سكـة من سكك البرد تركض بالأخبار « فكان الخبر يخـرج من عند عجيف فيصل إلى المعتصم من يومه »(٢) . كذلك أدى البريد خدمات جليلة للمعتصم عندما تصدى للقضاء على حركة الخرمية والمحمـرة ، ولولا سهولة الاتصـال بمواضع البابكية عن طريق سكك البرد لما أمكن لقادة المعتصم أن يقضوا على بابك . وكان المعتصم يوجـه إلى الإفشين كل يوم منذ أن رحل من برزند إلى أن وافى سامرا فرسا وخلعة، وكان المعتصم لشدة اهتمامه بأمر بابك وأخباره ، ولفساد الطريق بسبب الثلـج وغيره « جعل من سامرا إلى عقبة حلوان خيلا مضمرة على رأس كل فرسخ فرسا معه مجرمرتب ، فكان يركض بالخبر ركـضا حتى يؤديه من واحد إلى واحد يدآبيد ، وكان ما خلف حلوان إلى آذربيجان قد رتبوا فيه دواب المرج ، كل دابة على رأس فرسخ ، وجعل لهم ديادبة [حراس] على رؤس الجبال بالليل والنهار ، وأمرهم أن ينعـروا إذا جاءهم الخبر ، فإذا سمع الذى يليه النعير تهيأ فلا يبلغ إليـــه صاحبه الذى نعـر حتى يقف له على الطريق فيأخـذ الخريطة

---

(١) الطبرى ، ج ١٠ ص ٨ ، السيوطى ، ص ٢٥٤ .

(٢) ابن منظور ، لسان العرب ، مادة برد ج ٣ طبعة صادر ص ٨٦ .

[الرسالة] منه ، فكانت الخريطة تصل من عسكر الأفشين إلى سامرا فى أربعة أيام وأقل »(١) .

وما دمنا بصدد الحديث عن البريد فلا بد من معرفة أصل لفظة بريد ومشتقاتها. ومن المعروف أن هناك تفسيرات مختلفة لكلمة بريد، فبعضهم يجعل البريد لفظا عربيا مشتقا من المصدر برد أو أبرد بمعنى أرسل البريد(٢) أى أرسل الرسل على دواب البريد ، وقيل إنها لفظة فارسية — وهو الأصح — مشتقة من كلمة « بريده دم » ومعناها مقصوص الذنب، وذلك أن الفرس كانوا يقصون ذنب بغل البريد تمييزا له عن غيره من البغال . وقد انتقلت كلمة بريد العربية إلى اللاتينية Veredus بمعنى خيول للبريد(٣) ، ومن وسائل النقل فى البريد الخيل والبغال والإبل ، التى كانت تقام لها مراكز أو منازل فى الطرق الرئيسية الموصلة إلى أقاليم الخلافة . كذلك استخدم الحمام الزاجل فى نقل الرسائل وكان يعرف باسم جناح المسلمين ، وتوسع المسلمون فى استخدامه إبان الحرب الصليبية .

٤ — ديوان الزمام أو الأزمة :

استحدث هذا الديوان فى خلافة المهدى فى سنة ١٦٢ ، وفى ذلك يقول الجهشيارى : « وقلد عمر بن بزيع دواوين الأزمة فى سنة اثنتين وستين ومائة، وقد قيل إن المهدى أول من أحدثها »(٤) ، فلما تضعضعت حال عمر بن بزيع فى

---

(١) الطبرى ، ج ١٠ ص ٣٠٦ .

(٢) الطبرى ، ج ١٠ ص ٣٣٢ .

(٣) Steingass, Persian English Dictionary, London, 1947, p 182 — Charlton lewis, A latin dictionary, Oxford, 1966, p. 1973.

(٤) الجهشيارى ، ص ١٠٦ — الطبرى ، ج ٩ ص ٣٤٢ .

سنة ١٦٨ قلد المهدى عليا بن يقطين زماما على الأزمة(١) ، فلما تولى الهادى الخلافة أقر الربيع بن يونس على ديوان الأزمة ، إلى أن توفى الربيع فى سنة ١٦٩ ، فقلد الهادى إبراهيم بن ذكوان الحرانى هذا الديوان(٢) ، وظل إبراهيم يتقلد هذا الديوان إلى أن نكبه الرشيد ونصب مكانه أبا عبيد الله معاوية بن عبيد الله وزير المهدى ، ولكنه استعفى لكبر سنه(٣) ، وكانت من اختصاصات صاحب هذا الديوان مراجعة حسابات الدواوين فيما يتعلق بالوارد والنفقات، وفى ذلك يقول الطبرى : « وذكر أحمد بن موسى بن حمزة عن أبيه قال : أول من عمل ديوان الزمام عمر بن بزيع فى خلافة المهدى ، وذلك أنه لما جمعت له الدواوين تفكر فإذا هو لا يضبطها إلا بزمام يكون له على كل ديوان ، فاتخذ دواوين الأزمة ، وولى كل ديوان رجلا ، فكان واليه على زمام ديوان الخراج إسماعيل بن صبيح ،ولم يكن لبنى أمية دواوين أزمة »(٤) ، وكان يتولى زمام خراج العراق النعمان بن عثمان(٥) .

(٦)

نظام القضاء

لم تكن السلطة التنفيذية منفصلة عن السلطة القضائية فى زمن الرسول (ص)

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٢٥ — الطبرى ، ج ١٠ ص ١٠ . ويسمى الطبرى هذا الديوان زمام الأزمة .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٢٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٣٦ .

(٤) الطبرى ، ج ١٠ ص ١٠ .

(٥) الطبرى ، ج ٩ ص ٣٤٢ .

فقد كان صلى الله عليه وسلم يتولى الفصل فى الخصومات بنفسه تطبيقا لأحكام الشريعة الإسلامية . ومنذ أن انتشرت الدعوة الإسلامية فى الجزيرة أذن الرسول لبعض الصحابة بالقضاء بين الناس بالكتاب والسنة والاجتهاد، كما أذن لبعضهم بالفتيا . وفى خلافة أبى بكر أسند القضاء إلى عمر ، ولكن منذ أن اتسعت الدولة العربية بالفتوحات فى زمن عمر وارتبط العرب بغيرهم من الشعوب، استلزم الأمر إدخال نظام تشريعى لفض الخصومات ، فكان عمر أول من عين القضاة فى الأقاليم للفصل فى الخصومات وفقا لأحكام الشريعة . وظل القضاء فى العصر الأموى بسيطا كما كان الأمر فى عصر الخلافة الراشدة ، وكان القاضى يعتمد على الاجتهاد فى الأحكام مستعينا بالكتاب والسنة والإجماع وكان يصدر أحكامه مستقلا فى رأيه عن أى تأثير خارجى عليه ، بخلاف ما حدث فى العصر العباسى ، إذ كان الخليفة الإمام يخول لنفسه الحق فى أن يقضى على استقلال القضاة ، وكان يتدخل فى الأحكام ويوقف بعضها إذا صدرت على غير هواه ، إذ كان يخشى أن تتعارض أحكام القضاء مع مبادئه ،[1] بل إن الخليفة كان يبيح لنفسه أن يختار قضاته على الأقاليم بنفسه فى كثير من الأحيان[2] وأول من ولى قضاة الأمصار من خلفاء العباسيين المنصور[3] .

وقد تعقد نظام القضاء فى العصر العباسى لتعقد الحياة الاجتماعية وما طرأ

---

(١) حسن إبراهيم حسن ، النظام الإسلامية ، القاهرة ١٩٣٨ ص ٢٨١ . وقد حمل ذلك الكثير من القضاة على الاعتذار عن عدم قبول مناصبهم القضائية .

(٢) الكندى ، كتاب الولاة وكتاب القضاة ، طبعة جست ، ١٩١٢ ص ٣٧١ .

(٣) نفسه ؛ ابن أيبك ، درر التيجان وغرر تواريخ الأزمان ، مخطوطة رقم ٤٤٠٩ بدار الكتب المصرية ، ورقة ٢٤٩ .

على المجتمع العراقى فى هـذا العصر من أساليب جديدة فى الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية ، هذا بالإضافة إلى ظهور المذاهب الأربعة مما ترتب عليه ضعف روح الاجتهاد فى الأحكام ، بحكم التزام القضاة فى أحكامهم بأحد هذه المذاهب ، فكان قاضى العراق يحكم وفق مذهب أبى حنيفة ، بينما ساد فى مصر المذهب الشافعى وفى الشام والمغرب والأندلس المذهب المالكى . وقد نتج عن ذلك أن أصبح فى كل ولاية قضاة يمثلون المذاهب الأربعة ، ينظر كل منهم فى النزاع الذى يقوم بين من يدينون بعقائد مذهبه(١) .

وكان يشترط فى اختيار القضاة الذكورية والبلوغ والعقل والحرية والإسلام والعدالة والسلامة فى السمع والبصر والعلم(٢) ، هذا بالإضافة إلى شروط أخرى إلزامية كالشرف والأناة والتفقه . وقد اتسعت سلطة القضاة، فبعد أن كان عملهم يقتصر على الفصل فى الخصومات أصبح يجمع إلى ذلك استيفاء بعض الحقوق العامة للمسلمين والنظر فى أموال المحجور عليهم من المجانين واليتامى والمفلسين وأهل السفه ، وفى وصايا المسلمين وأوقافهم ، وتزويج الأيامى عند فقد الأولياء ، والنظر فى مصالح الطرقات والأبنية ، وتصفح الشهود والأمناء والنواب(٣) . ونظراً لتوسع مهام القضاة وتعدد اختصاصاتهم كان بينهم مساعدون ونواب يعرفون بنواب الحكم ، وكان القاضى يتخذ شهودا عرفوا بالأمانة والتفقه فى الدين ولذلك سموا بالشهود العدول أى الذين لا يشك فى ذممهم ، وكان المجلس الذى يتولى فيه القاضى الحكم يعرف بمجلس الحكم وكان

---

(١) حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الإسلام السياسى ، ج ٢ ص ٢٨٩ .

(٢) الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص ٤٤ .

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، ٣٩٢ .

يعقد فى المسجد الجامع[1] ، ثم أصبح يعقد فى دار القاضى ، وذلك بعد أن تعددت المساجد الجامعة فى المدينة الواحدة ، وكان يعقد فى قصر الخلافة فى حالة إذا ما كان القضاء متعلقا بالمظالم[2]. ويتألف مجلس الحكم من القاضى والشهود العدول والموقعين الذين يسجلون محضر الجلسة والحجاب الذين يقومون بإدخال الخصوم . وكان القاضى فى عصر الدولة الأموية يجلس بمجلسه بدون مراسم ، إلا أنه منذ العصر العباسى أصبح يتخذ لنفسه بعض الرسوم ، كأن يضع الطيلسان على منكبيه ويعقد بوسطه سيفا ويتوشح بالسواد أو البياض حسب مذهبه ، وأول من مين لباس القضاة والعلماء هو القاضى أبو يوسف ، فأصبح القاضى يعتم بعمامة سوداء على قلنسوة طويلة[3] .

ثم استحدث فى زمن الرشيد منصب قاضى القضاة ، وهو يقابل منصب وزير العدل فى العصر الحديث ، إذ كانت له الرئاسة على جميع القضاة فكان يستنيب عنه القضاة فى الأقاليم وأول من تولى هذا المنصب القاضى أبو يوسف يعقوب صاحب أبى حنيفة لعلمه ودرايته بالشؤون القضائية والإدارية ، فقد كان أبو يوسف ، أفقه أهل عصره ، فلم يتقدم عليه عليه أحد فى زمانه ، وكان بالنهاية فى العلم والحلم والرياسة والقدر والجلالة ، وهو أول من وضع الكتب فى أصول الفقه على مذهب أبى حنيفة ، وأملى المسائل ونشرها وبث علم أبى حنيفة فى أقطار الأرض[4] . وأبو يوسف يعقوب هذا هو يعقوب بن إبراهيم بن

---

(١) ماجد ، تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص ٤٨ .

(٢) ابن خلدون ، المقدمة .

(٣) الكندى ، كتاب الولاة وكتاب القضاة ، ص ٣٧٨ .

(٤) ابن العماد ، شذرات الذهب ، ج ١ ص ٣٠١ — الإربلى ، ص ١٢٩ .

حبيب بن حبتة الانصارى ، سمع أبا أسحق الشيبانى وسليمان التيمى ويحيى بن سعيد والأعمش وهشام بن عروة بن الزبير ، ولاه الهادى القضاء ، ثم استخدمه الرشيد . وعرف بصاحب أبى حنيفة ، إذ كان يتردد عليه وهو فقير ، وكان أبو يوسف يقول : « توفى والدى وخلفنى صغيرا فى حجر أمى فأسلمتنى الى قصار أخدمه ، فكنت ادع القصار وأمضى إلى حلقة أبى حنيفة فأجلس ، وكانت أمى تجىء خلفى فتأخذ بيدى وتذهب بى الى القصار ، وكان أبو حنيفة يعنى بى لما يرى من حرصى على التعلم ، . . . ثم لزمته فنفعنى الله بالعلم ورفعنى حتى تقلدت القضاء ، وكنت أجالس الرشيد آكل معه على مائدته (١) » .

وارتفعت منزلة القضاة فى عصرى المأمون والمعتصم ، فقد عهد المأمون إلى قاضيه أبى محمد يحيى بن أكثم بامتحان القضاة الذين يراد توليتهم من وجوه الفقهاء وأهل العلم فى بغداد (٢) كذلك أدناه المأمون إليه، وكان إذا ركب مع المأمون فى سفر ركب معه بمنطقة وقبـاء وسيف بمعاليق وشاشية ، وإذا كان الشتاء ركب فى أقبية الخز وقلانس السمور والسروج المكشوفة (٣) . وبلغ من أهمية القاضى بن أبى دؤاد أن المعتصم لم يكن يبت فى أمر إلا برأيه (٤) . وكان القضاء ينقسم إلى قضاء شرعى وقضاء مدنى ، وكان القاضى الشرعى يفصل فى المسائل المتعلقة بالزواج والطلاق والمواريث والأوقاف ، أما القضاء المدنى فيشتمل على ثلاثة خطط هى : النظر فى المظالم والشرطة المدنية والحسبة .

---

(١) الإربلى ، ص ١٣١ .

(٢) ابن طيفور ، بغداد فى تاريخ الخلافة العباسية ، بغداد ١٩٦٨ ، ص ٤٠ .

(٣) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ٤٣٥ .

(٤) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، طبعة القاهرة ١٩٤٨ ، ج ٥ ص ١٩٨ .

١ – النظر فى المظالم :

هو منصب قضائى هام تختلط فيه سطوة السلطنة ونصفة القضاء ويحتاج إلى علو يد وعظيم رهبة ، ويقضى برفع الظلم عن كاهل المظلوم ، وكان متولى النظر فى المظالم يمضى ما عجز القضاء عن إمضائه ، لأن سلطته تفوق سلطة القاضى عندما يتظلم المتقاضون من حكم جائر . وكان يرأس محكمة المظالم الخليفة نفسه أو من ينوب عنه من كبار رجال الدولة . وأول من جلس للنظر فى المظالم فى الدولة الأموية عبد الملك بن مروان الذى خصص يوما لبحث الشكايات (١) ، وظلت المظالم ترفع إلى الخليفة مباشرة حتى قيام الدولة العباسية ، فعهدوا بالنظر فيها إلى قاض يعرف بصاحب المظالم ينوب عن الخليفة ، ولا يشترط فيه أن يكون قاضيا ، فقد يكون وزيرا . وكان مقر النظر فى المظالم قصر الخليفة أو المسجد الجامع . ويعتبر المهدى أول من اهتم من خلفاء بنى العباس بالنظر فى المظالم (٢)، وكان يجلس فى كل وقت لرد المظالم ، وروى عنه أنه كان إذا جلس للمظالم قال : « أدخلوا على القضاة ، فلو لم يكن ردى للمظالم إلا للحياء منهم لكفى » (٣)، وتابع الخلفاء العباسيون بعده الجلوس للمظالم ، ومن هؤلاء الخلفاء الهادى الذى كان يجلس للمظالم ويفصل فيها بنفسه ، ولكنه كان يستغل جلوسه لمضايقة من كان يحقد عليهم ؛ ويذكر الجهشيارى أنه كان يحقد على عمارة بن حمـــزة (متولى الخراج بالبصرة) أيام كان وليا للعهد ، فلما ولى الخلافة دس إليه رجلا يدعى عليه أنه غصبه الضيعة المعروفة بالبيضاء بالكوفة ، وكانت قيمتها ألف ألف

(١) الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ٧٤ .

(٢) المسعودى ، ج ٣ ص ٣١٢ .

(٣) ابن طباطبا ، ص ١٦١ .

درهم ، « فبينا الهادى ذات يوم قد جلس للمظالم وعمارة بحضرته ، وثب الرجل فتظلم منه ، فقال الهادى لعمارة : ما تقول فيما ادعاه الرجل ؟ فقال : إن كانت الضيعة لى فهى له ، وإن كانت له فهى له ، وانصرف عن المجلس » (١) .

وذكروا أنه تأخر عن الجلوس للمظالم أياما ، فدخل عليه على بن صالح وقال له إن العامة لا تستقيم أمرها إن لم تجلس للمظالم ، فقال : ائذن للناس على بالجفلى لا النقرى . فخرج على بن صالح وهو لا يدرى ما أراد وخاف مراجعته ، فسأل أعرابيا عن الجفلى والنقرى ، فأفهمه أن الجفلى دعوة العموم والنقرى دعوة الخصوص ، فأمر على بن صالح برفع الستور وفتح الأبواب ، فدخل الناس ولم يزل ينظر فى المظالم إلى الليل (٢) .

وفى عصر الرشيد فوض إلى جعفر النظر فى قصص المتظلمين ، فكان جعفر يجلس للنظر فيها (٣) ثم تابع المأمون سياسة المهدى والهادى ، وكان يجلس للمظالم ، ويروى ابن طيفور أن المأمون قعد يوما للمظالم ، « فقدم سلم صاحب الحوائج بضعة عشر رجلا ، فنظر فى مظالمهم ، وأمر فقضى حوائجهم ، وكان فيهم نصرانى من كشكر كان قد صاح بالمأمون غير مرة وقعد له فى طريقه ، فلما بصر به المأمون أثبته معرفة فقال : ابطحوه ، فضربه عشرين درة ، ثم قال لسلم : قل له تعود تصيح بى ؟ فقال له سلم وهو مبطوح ، فقال النصرانى : قل له أعود وأعود وأعود حتى تنظر فى حاجتى . فأبلغه سلم ما قال . فقال : هذا مظلوم

(١) الجهشيارى ، ص ١٠٨ .

(٢) الإربلى ، ص ١٠٤ .

(٣) الجهشيارى ، ص ١٦٤ .

موطن نفسه على القتل أو قضاء حاجته ، ثم قال لابن هياد : اقض حاجة هذا كائنا ما كانت الساعة »(١) . ولم يكن المأمون يكتفي بالنظر في المظالم في المجلس وإنما كان ينصف المتظلمين الذين يترصدون موكبه ، والأمثلة عديدة في كتب التاريخ والأدب ، منها أنه اعترضه — وهو راكب بالشماسية ببغداد وخلفه أحمد بن هشام — رجل من أهل فارس وصاح به : « الله الله يا أمير المؤمنين ، فإن أحمد بن هشام ظلمني واعتدى علي » فقال له المأمون : « كن بالباب حتى أرجع » ، فلما جاز الموضع التفت المأمون إلى أحمد وعنفه ، ثم أمره بأن ينصفه من نفسه ، وقال له « لا تجعل لنا ذريعة إلى ما تكره من أئمتك ، فوالله لو ظلمت العباس ابني كنت أقل نكيرا عليك من أن تظلم ضعيفا لا يجدني في كل وقت ، ولا يجلوا له وجهي وسيما من تجشم السفر البعيد وكابد حر الهواجر وطول المسافة »(٢) .

وكان صاحب المظالم ينظر في القضايا التي يقيمها الأفراد على الولاة إذا تبع اشتطاطهم في جمع الضرائب أو الجزية أو منع بناء كنائس أو من سوء معاملة الموظفين للأهالي ، كما ينظر في ظلامات من نقصت أرزاقهم . وكان المتظلم يقدم تظلمه كتابة عن طريق رقعة أو قصة يقال لها مخاصمة أو شكوى أو ظلامة ، فتعرض هذه الظلامة على مجلس المظالم .

ب ـ الحسبة :

ليست هذه الوظيفة في الواقع منصبا قضائيا ، وإنما هي منصب ديني

---

(١) ابن طيفور ، ص ٥٥ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٥٦ .

أخلاق أساسه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ملحق بالقضاء لأن فيه حكما ، ثم تعدت الحسبة هذا المعنى الدينى إلى أمور مادية تتفق مع مصالح المسلمين ، فأصبحت الحسبة أشبه بخدمة إجتماعية إقتصادية لسكان المدن كالمحافظة على نظافة الطرق ومراقبة الاسواق ، والكشف عن صحة الموازين والمكاييل ، والرأفة بالحيوان، ومنع معلمى الصبيان من ضرب الأطفال ضربا شديدا ، ومنع الناس عن شرب الخمور . ولكن العمل الأساسى للمحتسب لم يلبث أن تطور بعد أن تطورت الحياة فى المدن فأصبح اقتصاديا يقوم على منع الغش فى الصناعة والمعاملات ، وخاصة الإشراف على صحة الموازين والمكاييل، وكان المحتسب يسير بنفسه فى الأسواق ومعه أعوانه من الخبراء فى شئون الاسواق يعرفون بالعرفاء ، يحملون الموازين والمكاييل الصحيحة ، فيدس المحتسب أحد أعوانه على البائعين ويختبر وزن السلعة أو كيلها .

وكانت للمحتسب سلطة تنفيذية مفوضة إلى رأيه وهو ما يعرف بالتعزير (الزجر) الذى يعنى نوعا من العقاب لم يقرره القرآن ، ولكن أتفق عليه فى البلاد التابعة للخلافة العباسية ، وكان يستعين فى تنفيذ العقاب بالأعوان . والعقاب أنواع منه الردع على شيء محرم والتوبيخ بالقول أو الضرب بالسياط أو الدرة ، والنفى من البلد ، أو التشهير والتجريس .

وكثيرا ما كان القضاء والحسبة يسندان معا إلى رجل واحد رغم ما بين العملين من الاختلاف ، فعمل القاضى مبنى على التحقيق والأناة فى الحكم ، وعمل المحتسب قوامه الشدة والسرعة فى العمل (١) .

---

(١) حسن إبراهيم ، تاريخ الإسلام السياسى ، ج ٢ ص ٢٩٥ .

هـ ـ الشرطة :

هم جماعة من الجند كان يعتمد عليهم الخليفة أو الوالى فى حفظ النظام والقبض على المجرمين ، ويقترن عملهم بنظام الحراسة والعسس فى الليل ، وكانت فى الأصل ملحقة بالقضاء لأنها تقوم على تنفيذ الأحكام القضائية ، وصاحبها يتولى إقامة الحدود . وكان أصل وضعها فى الدولة العباسية « لمن يقيم أحكام الجرائم فى حال استبدائها أولا ، ثم الحدود بعد استيفائها ، فإن التهم التى تعرض فى الجرائم لا نظر للشرع إلا فى استيفاء حدودها . وللسياسة النظر فى استيفاء موجباتها بإقرار يكرهه عليه الحاكم إذا احتفت به القرائن ، لما توجبه المصلحة العامة فى ذلك . فكان الذى يقوم بهذا الاستبداد وباستيفاء الحدود بعده إذا تنزه عنه القاضى يسمى صاحب الشرطة وربما جعلوا إليه النظر فى الحدود والدماء بإطلاق وأفردها من نظر القاضى ، ونزهوا هذه المرتبة ، وقلدوها كبار القواد وعظماء الخاصة من مواليهم »(١) .

وكان صاحب الشرطة يختار عادة من أهل العصبية والقوة ، لأن عليه تقع مسؤلية المحافظة على الأمن فى البلاد ومطاردة المجرمين وأهل الفساد ، وكان يسمى عند العامة بصاحب الليل إذ كانت خطته تعنى الطوائف بالليل ، وكان من مهامه بث العسس فى الأزقة والشوارع للقبض على اللصوص والشطار وهم طائفة من عامة الناس اشتهروا بالسرقات وكانوا يستدرجون ضحاياهم ويسلبونهم ما معهم بحيل لا يفطنون إليها مع التظاهر بالبراءة (٢) ، ونشطت حركتهم فى أعقاب الفتنة بين الأمين والمأمون .

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٤٥ .

(٢) التنوخى ، الفرج بعد الشدة ، ج ٢ ص ٣٣ ، القاهرة ١٩٥٥م.

ومن الشخصيات البارزة التي تولت الشرطة القائد الكبير طاهر بن الحسين، ولاه المأمون الشرطة في سنة ٢٠٥ (١) . وذكروا أنه نما إليه بعد توليه الشرطة أن في الحبس رجلا تنصر ، فأمر حاجبه يحيي البوشنجي بأن يحمل السيف والنطع ويأتي به دار المأمون إلى مجلسه ، ثم استدعى الرجل وقال له : « ياعدو الله تنصرت بعد الإسلام ؟ قال : أصلح الله الأمير ، والله ماتنصرت وما انا إلا مسلم ابن مسلم ، ولكن حبست في كساء بدرهمين سنتين ، فلما رأيت أمرى طال ، وليس لى مذكر يذكرني قلت إني مصراني ، وأنت أيها الأمير مصراني ، وهذا وهذا مصراني ، وأنا رجل من أصحابك أيها الأمير فكبر طاهر ، ودخل على المأمون فأخبره الخبر ، وأمر أن يوهب له ثلثمائة درهم وأن يخلى سبيله ، فأمر طاهر بذلك » (٢) .

ويعتبر الرشيد أكثر خلفاء بني العباس حرصا على توفير الأمن في البلاد ، فقد دس شبكة من العيون بإمرة صاحب الشرطة حتى يمنع الاضطراب الذى يحدث من كثرة الوافدين إليها ، وأقام الحراس بالليل للمحافظة على الدروب(٣).

وكان صاحب الشرطة يعاقب المفسدين إما بالحد والزجر وهي عقوبة من يشرب الخمر ويعمل المنكر ، أو بقطع اليد اليمنى من مفصل المرفق للسارق لاول مرة أو الرجم بالحجارة أو الجلد بالسياط أو السجن في المطبق وهو الحبس .

---

(١) ابن طيفور ، ص ١٣ .
(٢) ابن طيفور ، ص ١٤ .
(٣) الدورى ، ص ١٧٦ .

(٧)

القوى الدفاعية

ا ـ الجيش :

اعتمد الخلفاء العباسيون حتى عصر المعتصم على العناصر الخراسانية بوجه خاص والفرس بوجه عام أكثر من اعتمادهم على العرب ، وأصبح للفرس فى المكانة ما كان للشاميين فى العصر الأموى ، ومع ذلك فقد كانت فرق الفرسان عند العباسيين تتشكل من العرب فى حين كانت فرق المشاة من الفرس وخاصة أهل خراسان .

وعلى الرغم من أن العصر العباسى الأول شهد غلبة الفرس فى قيادات الجيش والإدارة والوزارة والحجابة مما أثار بعض العناصر العربية على الدولة العباسية (١) ، فإن العنصر العربى ظل يحتفظ بوجوده وكيانه فى كثير من المناصب القيادية والإدارية وإن كان قد تخلى عن السيادة ، والأمثلة على ذلك كثيرة : فعندما أراد السفاح القضاء على ثورة منصور بن جمهور فى الهند فى سنة ١٣٤ اصطنع قائداً عربياً هو منصور بن كعب سعيد على رأس جيش من ٣ آلاف من العرب والموالى وألف رجل من بنى تميم خاصته . وعندما قامت

---

(١) مثل ثورة عبد الله بن مروان بن محمد الأموى فى الشام سنة ١٦١ فى خلافة المهدى ، وعلى الأخص ثورة نصر بن شبث بالجزيرة بعد مصرع الأمين ، وكانت ثورته موجهة ضد النفوذ الفارسى وليس ضد الحكم العباسى ، فعندما ذهب بعض العلويين وطلب منه البيعة لعلوى رفض بقوله : « إنما هواى مع بنى العباس ، وإنما حاربتهم محاماة عن العرب لأنهم يقدمون عليهم العجم » .

حركة سنباذ فى اعقاب مصرع أبى مسلم ، تولى إخمادها قائد عربى هو أبو جعفر جهور بن مرار (١) . كذلك تولى القائد العربى خازم بن خزيمة إخماد حركة أستاذ سيس المسلمية كما سبق أن أشرنا إلى ذلك . وتألقت أسرات عربية فى الجيش العباسى منهم : آل قحطبة وآل المهلب وآل هرثمة . ثم تضعضع مركز العرب بالتدريج وسرى فيهم الضعف نتيجة للصراع بين اليمنية والنزارية ، وبالتدريج فقد العرب مراكزهم البارزة فى الجيش .

ولما تولى المعتصم الخلافة ، رأى أن يطعم جيشه بعنصر حربى جديد يعتمد عليه فى حماية الدولة العباسية ، فاستكثر من الأتراك فى الجيش ، وآثرهم على العرب والفرس ، ومعظم أجناده الترك كان يجلبهم من أشروسنة وفرغانة وبلاد الشاش وما وراء النهر ، وعمل على عزل هذه العناصر التركية عن سائر الناس ، فبنى لهم مدينة سامرا ، وأفرد لهم قطائع متميزة حتى لا يختلطوا بالعرب والفرس ، وبالغ فى ذلك إلى حد أنه — حرصاً منه على أن يحتفظوا بنقاء دمائهم — اشترى لهم الجوارى ، فأزوجهم منهن ، ومنعهم من أن يتزوجوا ويصاهروا إلى أحد من المولدين إلى أن ينشأ لهم الولد ، فيتزوج بعضهم من بعض ، وأجرى لجوارى الأتراك أرزاقا قائمة ، وأثبت أسماءهن فى الدواوين ، فلم يكن أحد منهم يقدر يطلق إمرأته ولا يفارقها ، (٢) . كذلك اتخذ لأجناده الأتراك زيا خاصاً ، فألبسهم أنواع الديباج والمناطق الذهبية والحلية الذهبية ، وميزهم فى الزى عن سائر جنوده (٣) .

---

(١) اليعقوبى ، ج ٢ ص ٣٦٨ .

(٢) اليعقوبى ، البلدان ، ص ٢٦ .

(٣) المسعودى ، ج ٣ ص ٤٦٥ .

ومع هذا الاهتمام بالأتراك ، اتخذ المعتصم فرقة من عرب مصر من القيسية واليمنية سماهم المغاربة (١) ، كما اشترك في جيشه فرق من الفرس من أصبهان وفرغانة والجبل وأذربيجان وغيرها وبالإضافة إلى هذه الفرق ، اشترك في الجيش العباسي في زمن المعتصم جماعة من العرب المطوعة ، كان يستخدمهم الأتراك في مقدمة الجيش لإنهاك قوى العدو قبل الدخول في المعركة .

ونستدل من وصف الحملات التي قادها الرشيد والمعتصم ضد البيزنطيين ، وخاصة حملة المعتصم على عمورية ، أن الجيش كان ينقسم إلى كراديس بين كل كردوس وكردوس قدر رمية سهم (٢) ، منهـا كراديس للرجالة وكراديس للفرسان ، وبعض كراديس الرجالة ناشبة تحمل النشاب . وكانت الكراديس تقسم جميعاً إلى مقدمة وميمنة وميسرة وقلب يتولى على كل منها قائد ، ثم يلي ذلك الساقة وفيها الأثقال والمجانيق وآلات الحديد والأنطاع والأزواد كحياض الأدم والروايا (٣). وكان يشترك في الجيش طليعة من الأدلاء يعرفون المسالك والطرق والجبال . ونستدل من وصف المسعودي لحصار جيش المأمون بغداد أن المتحاربين كانوا يتخذون على رؤوسهم خوذا من الخوص ودرقا أو تروسا من الخوص ، أما الفرسان فكانوا يضمون على صدورهم الجواشن وهي كسوات حديدية من حلقات متصلة تغطي الصدور وقد تصـل إلى الخوذات وتسمى بالوردبانية السابلة ، ويكسون خيولهم التجافيف ، ويمسكون بالرماح والدرق التبتية (أي المصنوعة في التبت) (٤) .

(١) نفس المصدر .

(٢) الطبري ، ج ١٠ ص ٣٢٠ .

(٣) الطبري ، ج ١٠ ص ٣٣٦ .

(٤) المسعودي ، ج ٣ ص ٤٠٣ .

ب – البحرية :

توقف النشاط البحرى للمسلمين فى مصر والشام فى بداية العصر العباسى فترة دامت ما يقرب من خمسين سنة بسبب انصراف الدولة العباسية – التى انتهجت منذ قيامها سياسة شرقية وتطلعت بوجهها نحو خراسان – عن شؤون البحر ، ونفض يدها من محاربة البيزنطيين فى البحر المتوسط (١) ، بسبب تفرغها لمشاكلها الإقليمية والخارجية . وقد ساعد على تجميد النشاط البحرى الإسلامى فى شرق البحر المتوسط انصراف الدولة البيزنطية هى الأخرى عن المصادمات البحرية مع المسلمين بسبب الفتن الداخلية والمشاكل الخارجية التى عصفت بها كالنزاع اللاأيقونى الذى تجدد منذ أن اعتلى ليو الخامس الأرمنى العرش البيزنطى، وثورة توماس الصقلبى التى احتدمت نارها فى أعقاب مصرع ليو الخامس فى سنة ٢٠٥ ه (٨٢٠ م) ، والصراع مع البلغار منذ عهد قسطنطين السادس وأمه إيرين ، كما ساعد على ذلك أيضا انفصال المغرب الإسلامى والأندلس عن المشرق سياسيا . وتطلعه إلى القيام بنشاط بحرى فعال ، واعتماده فى ذلك على مقوماته الذاتية مع استغلاله للظروف السيئة التى كانت تجتازها الإمبراطورية البيزنطية .

ومع ذلك كله فقد أبدى خلفاء بنى العباس ابتداء من الرشيد اهتماما خاصا بالشؤون البحرية ، فالبلاذرى يشير إلى ذلك بقوله : «وقد رأينا من اجتهاد أمير المؤمنين هارون فى الغزو ، ونفاذ بصيرته فى الجهاد أمرا عظيما : أقام من

(١) فتحى عثمان ، الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربى والاتصال الحضارى ، ج ١ ص ٣٨٢ ، ج ٢ ص ٣٤٧ ، القاهرة ١٩٦٧ .

الصناعة (أى دار صناعة الأسطول) ما لم يقم قوله ، وقسم الأموال فى الثغور والسواحل ، وأشحن الروم وقهم ، وأمر المتوكل على الله بترتيب المراكب فى جميع السواحل ، وأن تشحن بالمقاتلة ، (١) . والرشيد - كما يشير الطبرى - ولى حميد بن معيوف سواحل بحر الشام ومصر فى سنة ١٩٠ هـ ، فغزا جزيرة قبرص عندما نكث أهلها العهد مع المسلمين ، « وهدم وحرق وسبى من أهلها ستة عشر ألفا ، فأقدمهم الرافقة ، فتولى بيعهم أبو البخترى ، فبلغ أسقف قبرص ألفى دينار ، (٢) ، كما غزا جزيرة إقريطش (٣) . وعلى هذا النحو بدأ العباسيون يسعون منذ خلافة الرشيد إلى استعادة السيادة البحرية الإسلامية فى البحر المتوسط الشرقى (٤) لإيجاد نوع من التوازن مع المغاربة والأندلسيين الذين آلت إليهم السيطرة على نصفه الغربى ولكن الأوضاع فى البحر المتوسط الشرقى أخذت تتغير بالتدريج لصالح المسلمين ، ليس بفضل الجهود التى بذلها الرشيد والمتوكل فحسب بل بفضل جهاد غزاة البحر الأندلسيين (٥)

---

(١) البلاذرى ، ج ١ ص ١٩٣ .

(٢) الطبرى ، ج ١٠ ص ٩٩ — إبن الاثير ٦ ص ١٩٦ — السيوطى ٢٦٨ .

(٣) البلاذرى ، ج ١ ص ٢٧٩ .

(٤) ومما يثبت هذا السعى والاهتمام أن الرشيد رام أن يوصل ما بين بحر الروم وبحر القلزم مما يلى بلاد الفرما نحو بلاد تنيس ، فنصحه يحيى بن خالد البرمكى بالانصراف عن تنفيذ ذلك المشروع وخوفه من دخول مراكب الروم فى البحر الأحمر وتهديد الحجاز ، فعدل الرشيد عن المضى فى تنفيذه (المسعودى ، ج ٢ ص ٢٦٤ — السيوطى ، ٢٦٦) .

(٥) راجع ما كتبته فى : تاريخ مدينة ألمرية الإسلامية ، بيروت ١٩٦٩ ص ٣٠ — ٥٣ ؛ تاريخ الإسكندرية وحضارتها فى العصر الإسلامى ، ص ١٢٨ — ١٤٥ ؛ تاريخ البحرية الإسلامية فى المغرب والأندلس ، ص ٤٧ — ٨٢ ، ١٢٢ — ١٢٦ .

ونشاط البحرية الأغلبية (١) وذلك عندما تمكنت طائفة من الغزاة البحريين الأندلسيين من النزول فى إقريطش ، والاستيلاء عليها فى ٢١٢هـ فى الوقت الذى كان القاضى أسد بن الفرات قائد الأمير زيادة الله بن الأغلب ينزل مع قواته فى مازر من موانئ صقلية ويشرع فى فتح هذه الجزيرة الكبرى (٢)

ومنذ أن تمركز الأندلسيون فى إقريطش ، استأنفت البحرية الإسلامية نشاطها فى مصر والشام ، فلم تلبث إقريطش أن دخلت فى طاعة الخليفة العباسى لتستظل بحمايته ، بسبب ما منحهم من بلاده وحماية جزيرتهم من سواحل مصر(٣) ، وأصبحت إقريطش فى التقسيم الإدارى للدولة العباسية إقليما تابعا لمصر (٤) ، حتى سقوطها فى أيدى البيزنطيين فى سنة ٣٥٠ (٩٦١ م) ، وكانت مراكب إقريطش تمير أهل مصر بخيرات جزيرتهم وأطعمتهم ، وكانت هداياهم تصل إلى عمال مصر ، (٥) ويشير النويرى السكندرى إلى أنه كان يحمل من إقريطش

---

(١) راجع أيضا : المغرب الكبير ، ج ٢ ص ٣٨٥ — ٣٩٢ ؛ تاريخ البحرية الإسلامية فى المغرب والأندلس ، ص ٩٥ ، ١١١ ، ١٢١ ، ١٢٢ ؛

(٢) مارتينو ماريو مورينو ، المسلمون فى صقلية ، بيروت ١٩٥٧ ، ص٨ ــ سالم ، تاريخ البحرية الإسلامية فى المغرب والأندلس ، ص ١٠٤ .

(٣) انظر نص رسالة عبد الرحمن الأوسط إلى الإمبراطور تيوفيل فى : ليفى بروفنسال ، الإسلام فى المغرب والأندلس ، ترجمة عبد العزيز سالم ، ص ١١٥ — ١١٨ .

(٤) ابراهيم أحمد العدوى ، إقريطش بين المسلمين والبيزنطيين فى القرن التاسع الميلادى ، المجلة التاريخية المصرية ، أكتوبر ١٩٥٠ ، المجلد الثالث ، العدد الثانى ، ص٥٩ .

(٥) القاضى النعمان ، قضية إقريطش فى عهد المعز لدين الله ، تحقيق فرحات الدشراوى ، حوليات الجامعة التونسية ، العدد الثانى ١٩٦٥ ص ٣٣ .

« العسل النحل والجبن الكثير لمصر والشام ويسمى بلغة الفرنج كنديا » (١) نسبة إلى مدينة كنديا أو الخندق ، قاعدة إقريطش وكانت مصر تتولى تزويدهم بالسلاح والمعدات ، كما كانت دار صناعة دمياط تزودهم بما يلزمهم من السفن التي تنتجها من أخشاب إقريطش . وبفضل هذا الأسطول تمكن أهل هذه الجزيرة من مهاجمة جزر بحر الأرخبيل ، وفرضوا سيادتهم في حوض البحر المتوسط الأوسط ، وبالتدريج أصبحت إقريطش منذ النصف الثاني من القرن الثالث أهم قاعدة بحرية للمسلمين في النصف الشرقي من حوض البحر المتوسط ، وبفضل جهاد أهل إقريطش في البحر وتضامنهم مع أهل مصر والشام وازدياد نشاطهم في غزو سواحل الروم وجزر بحر إيجة ، استعادت البحرية الإسلامية في العصر العباسي في مصر والشام نشاطها واستردت حيويتها .

وإقريطش تتمتع بموقع استراتيجي ممتاز في وسط البحر المتوسط ، فهي تؤلف جسرا يربط بين شبه جزيرة البلوبونيز وشبه جزيرة الأناضول ، ولهذا فهي تتحكم بحكم هذا الموقع في الممرات المائية إلى بحر إيجة وسواحل آسيا الصغرى ومقدونيا ، ثم هي تجاور عددا لا يحصى من جزر بحر إيجة مثل جزيرة رودس وسكربنتو وميلوس وساموس وخيوس ولمنوس وتاسوس وميتيلين التي تشكل جميعا خطا دفاعيا أماميا لسواحل الإمبراطورية البيزنطية المطلة على بحر إيجة وبحر مرمرة ، ولهذا السبب يتيسر لقراصنة هذه الجزيرة تهديد الإمبراطورية البيزنطية تهديدا مباشرا . وجزيرة إقريطش بالإضافة إلى ذلك

(١) النويري ، الإلمام بما قضت به الأحكام ، ص ١٢٣ أ . ويسميه ابن الأثير « قند » (ابن الأثير ، الكامل ، ج ٧ ص ٦٩) .

كله غنية بالأشجار التي يمكن أن يستغلها المسلمون في إنشاء الأساطيل ، وغنية بأراضيها الخصبة الممتدة على السهول الساحلية في شمال الجزيرة ولقد فطن معاوية بن أبي سفيان إلى أهمية هذه الجزيرة ، فغزاها في أيامه جنادة بن أبي أمية ، ولكنها لم تلبث أن خرجت من دائرة النفوذ الإسلامي بعد سنوات قليلة من حركة جنادة ، على أثر الفشل الذي انتهى إليه حصار المسلمين الأول للقسطنطينية في سنة ٦٠ هـ (٦٧٩ م) . ثم غزاها حميد بن معيوف الهمداني الذي ولاه الرشيد سواحل بحر الشام (في سنة ١٩٠) في خلافة الرشيد ، ففتح جانبا منها (١) ، ولكن النفوذ الإسلامي لم يلبث أن انحسر عن الجزيرة مباشرة على أثر رحيل الغزاة وظلت جزيرة إقريطش تابعة للبيزنطيين الذين حرصوا على الاحتفاظ بها في أيديهم بسبب ما تتمتع به من استراتيجية تكفل لمن تكون في حوزته السيطرة على مداخل بحر إيجة ، والتحكم في الجزر الصغيرة الممتدة ما بين سواحل آسيا الصغرى وبلاد الإغريق ، إلى أن تمكنت قوة من المغامرين الأندلسيين — وهم طائفة من الغزاة البحريين كانت قد أرغمتهم الظروف بعد إحدى غزواتهم على إرساء سفنهم على ساحل منطقة الرمل بالإسكندرية في سنة ١٩٨ هـ (٨١٤ / ٨١٥ م) لابتياع ما يصلحهم من المعاش وشحن سفنهم بالمؤن والأقوات التي تكفيهم لموسم غزوهم التالي ، على نحو ما كانوا يفعلون من قبل في كثير من غزواتهم البحرية — (٢) من استغلال الأوضاع السياسية السيئة في البلاد المصرية ، واضطراب الحرب المتهمين

---

(١) البلاذري ، ج ١ ص ٢٧٩ .

(٢) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي (طبعة النجف) ج ٣ ص ١٧٤ — الكندي ، كتاب الولاة وكتاب القضاة ، تحقيق جست ، ص ١٥٨ — سالم ، تاريخ الإسكندرية ص ١٣٧ .

بالإسكندرية ونواحيها من لخم وبني مدلج ، فدخلوا طرفا في النزاع ، وأيدوا عمر بن هلال الحديجي على خصومه وأعادوه إلى ولاية الإسكندرية ، وتهيأ لهم بذلك المجال للنزول بأرض الإسكندرية والإقامة في برها على الأقل أثناء فصل الشتاء الذي يتوقف فيه النشاط البحري ، بدلا من البقاء على ظهور السفن ، ثم انقلبوا على ابن هلال واشتبكوا مع اللخميين في قتال عنيف ، فهزموهم ، ودخلوا الإسكندرية عنوة في ذي الحجة سنة ٢٠٠ هـ (٨١٦) واستبدوا بشؤونها .

وعزم المأمون العباسي على وضع حد للاضطرابات الداخلية في مصر ، فسير جيشا من الخراسانيين إليها في سنة ٢١٠ (٨٢٥ م) تولى قيادته عبد الله بن طاهر ، وبعث ابن طاهر في طلب بعض السفن العباسية المرابطة في الثغر (طرسوس) إلى تنيس ، وتمكن بفضل قواته من السيطرة على الموقف ، وحاصر الأندلسيين بالإسكندرية ، فصالحوه على أن يخرجوا منها إلى حيث أرادوا من جزائر الروم ، فاختاروا إقريطش (١) التي سبق لهم أن أغاروا عليها وعلى غيرها من الجزر اليونانية في عام ٢١١ هـ ، يقودهم أميرهم أبو حفص عمر بن شعيب في أربعين سفينة إلى جزيرة إقريطش حيث نزلوا في خليج سودا (٢) . ويذكر البلاذري أنهم افتتحوا من إقريطش حصنا واحدا ، ثم توسعوا بعد ذلك ، ففتحوا إقريطش حصنا حصنا (٣) ، حتى أتموا فتحها فيما

---

(١) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٦٣ ، ج ١ ص ٤٥ .

(٢) Vasiliev, Byzance et les Arabes, t. , la Dynastie D' Amorium, Bruxelles, 1935, p. 54.

(٣) البلاذري ج ١ ص ٢٧٩ .

بقرب من سنة ٢٣٠ هـ (٨٤٤ م)(١) مستغلين فى ذلك حالة الضعف التى أصيب بها البيزنطيون فى أعقاب فتنة توماس .

وكان طبيعيا أن يلتمس مسلمو إقريطش الأمان فى ظل سلطة إسلامية تظللهم بحمايتها ، فدخلوا فى ذلك الدولة العباسية ، ثم أخذوا يمارسون نشاطهم البحرى ضد البيزنطيين ، فهاجموا جزر بحر إيجة ، وهددوا سواحل آسيا الصغرى واليونان ، وأدرك ميشيل العمورى مدى الخسارة التى أصابت بيزنطة بضياع جزيرة إقريطش التى أصبحت على حد قول ياقوت « من أعظم بلاد المسلمين نكاية على الروم »(٢) . فبذل محاولات يائسة لاستردادها ، ولكنها باءت جميعها بالفشل ، وأدى الفشل المتلاحق الذى منيت به حملاته البحرية على الجزيرة إلى تخليه نهائيا عن فكرة استردادها وما إن كف البيزنطيون عن محاولاتهم لغزو الجزيرة فى عهد تيوفيل حتى تفرغ أهلها للجهاد البحرى ، وأحرزوا على الأسطول البيزنطى الكثير من الانتصارات (٣) ، وظلوا يشكلون خطرا جديا على الدولة البيزنطية التى عجزت تماما عن القيام بصدهم أو وضع حد لغاراتهم .

وإلى جانب هذه القاعدة البحرية الهامة للعباسيين فى شرق البحر المتوسط ، كانت لدى العباسيين قواعد بحرية هامة منها :

١ ـ الاسكندرية :

حرص ولاة العباسيين فى مصر على مواصلة الاهتمام بها بحيث أصبحت

---

(١) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ٢ ص ٢٢٧ .

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ١ ، مادة إقريطش .

(٣) سالم ، البحرية الإسلامية فى مصر والشام ، بيروت ١٩٧٢ ص ٤٢ ، ٤٣ .

المركز الرئيسى للعمليات العسكرية فى المغرب المتمرد على العباسيين . ففى سنة ١٢٦ هـ سير أبو العباس السفاح الجيوش العباسية إلى المغرب بقيادة عامر بن إسماعيــــل ، كما أمر بإرسال المثنى بن زيا الخثعمى إلى الإسكندرية ليجهز المراكب منها للإقلاع نحو طرابلس الغرب (١) .

٢ - دمياط :

تعتبر دمياط من القواعد البحرية الهــــامة فى العصر العباسى بوجه خاص لوقوعها على البحر المتوسط من جهة وعند مصب الفرع الشرقى للنيل الذى سمى باسمها من جهة ثانية . وكان من مزايا هذا الموقع المزدوج أن أصبحت تجمع بين التجارة الداخلية عبر النيل والتجارة الخارجية مــــع الأقطار المطلة على حوض البحر المتوسط . ولم تبرز دمياط كقاعدة هامة منافسة للإسكندرية إلا منذ أن استولى غزاة البحــــر الأندلسيون على إقريطش ، إذ ارتبطت إقريطش بدمياط ارتباطا مباشرا ، وكانت دمياط تزودها بكل ما تحتاج إليه من أسلحة وعتاد وسفن وقلوع من إنشاء دار صناعة دمياط أو جزيرة الروضة .

٣ - طرسوس :

كانت تمتد ما بين الإسكندرية وطرسوس حصون ومسالح الروم أخلاها أهلها وانتقلوا إلى داخل الدولة البيزنطية خوفا من غزوات المسلمين فى العصر الأموى ، فتشعثت هذه الحصون بمرور الزمن ، فكان المسلمون إذا غزوا البلاد البيزنطية ألفوها خالية خربة . وكانت طرسوس حصنا من هذه الحصون الخربة التى كان يمر بها المسلمون عند غزوهم لبلاد الروم . وتقع طرسوس على

---

(١) سالم ، تاريخ الاسكندرية ص ١٢١ .

الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى في خليج إسكندرونة ، ويشقها نهر صغير يقال له البردان (١) ، وأول من أوصى بإعادة بنيانها وتحصينها لتكون قاعدة لجيوش المسلمين القائد الحسن بن قحطبة الطائي ، إذ أحس بأهميتها أثناء مروره بها في سنة ١٦٢ هـ ، في عهد المهدي العباسي ، ولكن تعميرها وتحصينها لم يتما إلا في سنة ١٧١ هـ على يد الرشيد . ولما أحكم بناؤها (٢) نزلها طائفة من أهل خراسان عدتهم ثلاثة آلاف للدفاع عنها ، ثم نزلها ألف من أهل المصيصة ، وألف من أهل أنطاكية ، فأقطعت لهم الإقطاعات والخطط ، وأصبحت طرسوس منذ ذلك الحين مركزا هاما للرباط ، وأعظم القواعد البحرية في الثغور الشامية .

---

(١) الكندي ، كتاب الولاة وكتاب القضاة ، ص ٢٢٩ .

(٢) اليعقوبي ، ج ٢ ص ٤١٠ — الطبري ، ج ١٠ ، ص ٥٥ .

الفصل السادس

التنظيمات الإجتماعية والعمرانية والإقتصادية

أولا

صورة المجتمع المدنى فى العراق فى العصر العباسى الاول

(١)

مجتمع الخاصة

نقصد بمجتمع الخاصة مجتمع الطبقة الحاكمة من كبار موظفى الإدارة المركزية والقواد والقضاة والوزراء والكتاب والحجاب . ويتميز هذا المجتمع بشيوع الترف والغلو فى اصطناع الأبهة ومظاهر الملوكية بحكم التأثر بتقاليد الفرس القديمة والنزوع الى الرفه فى الأطعمة والأشربة والأزياء والفرش والآنية ، والتأنق فى الحياة والتماس المتعة فى المساكن والمبانى بإقامة القصور المنمقة الجدران الموزونة الأعمادوغرس الرياض والجنان والركون إلى الدعة ، وبمعنى آخر تجاوز ضرورات العيش إلى الرفه والكمالى (١) .

وإلى المهدى العباسى يرجع الفضل فى إضفاء مظاهر الأبهة والفخامة التى غلبت على بلاط الخلفاء العباسيين وسادت المجتمع الخاص منذ بداية خلافته ، فابن طباطبا يقول عنه : « وفى أيامه ظهرت أبهة الوزارة . . . »(٢) ، والمسعودى يذكر أنه كان مسرفا فى العطاء « وبسط يده فى الإعطاء فأذهب جميع ما خلفه المنصور وهو ستمائة ألف ألف درهم وأربعة عشر ألف ألف دينار سوى ما جباه فى أيامه . . . وقيل إنه فرق فى عشرة أيام من صاحب

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ص ٢٩٥ .

(٢) ابن طباطبا ، ص ١٦٣ .

ماله عشرة آلاف ألف درهم (١). وتابع خلفاء بنى العباس بعده سياسة الإسراف، والغلو فى حياة الترف والاستمتاع بالحياة لم يلتزم بها الخليفتان المؤسسان للدولة وأعنى بهما: السفاح والمنصور، وكلاهما التزم حد الاعتدال فى حياته الخاصة، واتسم عهد كل منهما بالاقتصاد فى الترف على الرغم من قوتهما وعظم سطوتهما، ولا شك أنهما كان يدركان حق الإدراك مسؤولياتهما الكبرى باعتبارهما مؤسسين لدولة فتية على أنقاض دولة قوية كان فى مقدور صنائعها إحياءها من جديد فى قلب العالم الإسلامى، لولا يقظة مؤسسى الدولة العباسية. ومع ذلك فقد توصل أمير من سلالة بنى أمية إلى تحقيق هذا الهدف فى أقصى الأطراف الغربية للعالم الإسلامى مؤسسا دولة بنى أمية فى الأندلس. وعلى هذا النحو تفرغ السفاح والمنصور لتسكين الفتن وإخماد الثورات التى احتدمت فى عهديهما، ونجح المنصور فى ان يترك لابنه المهدى ملكا ثابتا وطيد الأركان يسوده السلام والأمن.

ويعبر عن حياة الترف التى طرأت على المجتمع العراقى فى العصر العباسى الأول الهدايا النفيسة التى اعتاد كبار رجال الدولة تقديمها إلى الخلفاء فى المناسبات المختلفة، ويشير البيهقى إلى أن الرشيد تلقى من الهدايا ألف غلام تركى بيد كل منهم حاملان ملونان من الششترى (٢) والأصفهانى (٣)

---

(١) المسعودى، ج ٣ ص ٣١٢.

(٢) الششترى نوع من النسيج الفارسى اشتهرت به تستر (ياقوت، معجم البلدان، مجلد ١ ص ١٩٦. Dozy, Supplément aux dictionnaires Arabes, Vol. I, p. 755, Beyrouth 1968.).

(٣) نسيج اشتهرت به أصفهان (Dozy, op. cit., p. 26.).

والسقلاطون (١) والملحم من الديباج التركي والديداري (٢) وغير ذلك من الأنواع. ووقف السلطان بهذه الحلل وعلى أثرهم جاءت ألف جارية تركية بيد كل واحدة كأس من ذهب يحتوي على الياسمين وملؤه المسك والكافور والعنبر وأصناف العطر وطرائف البلاد، ثم مائة غلام هندي ومائة جارية هندية في غاية الجمال مرتدين ملابس ثمينة، وبيد الغلمان سيوف هندية من أجود ما عرف من السيوف، وكانت الجواري يحملن الثياب الرقيقة في أسفاط من القصب، ويتقدن أفيال خمسة منها اثنين عليهما سروج الديباج ومراياها من الذهب والفضة والاثنين منهما عليهما مهدان من الذهب أحزمتها وعدتهما مرصعتان بالجواهر البدخشية (٣) والفيروز، ثم خيول جيلانية ومائتا فرس من خراسان بسروج من الديباج، وعشرون عقابا وعشرون شاهينا، وألف جمل منها مائتان بعدد وألجمة مغطاة بالحرير والديباج، وثلاثمائة أخرى عليها المحامل والمهود، عشرون منها عليها محامل مذهبة، وما بين خمسمائة وثلاثمائة قطعة من البلور من شتى الأصناف ومائة زوج من الأبقار، وعشرون عقدا من الجوهر الغالي القيمة وثلاثمائة ألف حبة من اللؤلؤ، ومائتا قطعة من الصيني الفغفوري من الصحون والكؤوس وغيرها مما لم يشهد مثلها في قصر أي ملك، وألفا قطعة أخرى من الصيني من الأواني الكبيرة والكاسات الواسعة وزهريات صينية كبيرة وصغيرة وأنواع أخرى، وثلاثمائة من الستائر الملكية

---

(١) نسيج من الحرير المطرز بخيوط الذهب وأصله الختم المرقوم بالذهب (Dozy, op. cit., p. 663)

(٢) نوع من الثياب الحريرية (Dozy, op. cit., Vol I, p. 481).

(٣) نسبة إلى مدينة بدخش أو بذخشان من بلاد الشاش (ياقوت، معجم البلدان، مجلد ١ (ص ٥٢٧).

ومائتان من سجاد القصور ومائتان من السرر (١) كذلك قدرت الهدايا التي أهداها يحيى بن خالد البرمكي للرشيد باثني عشر ألف ألف دينار (٢)، وهو مبلغ ضخم يدل على عظم جاه البرامكة وثرائهم. ويروى ابن طباطبا أن الرشيد بعد أن نكب البرامكة حرم على الشعراء أن يرثوهم، فاعتقل بعض الحرس رجلا في يده رقعة فيها شعر يتضمن رثاء البرامكة، ينشده ويبكي، فلما مثل أمام الرشيد وسأله عن ذلك واعترف رغم تحريم الرشيد لرثاء البرامكة، قال للرشيد: يا أمير المؤمنين إن أذنت لي في حكاية حالي حكيتها ثم بعد ذلك أنت ورأيك، فسمح له الرشيد، فذكر له أنه كان كاتبا من أصغر كتاب يحيى بن خالد وأرقهم حالا، فطلب منه يحيى يوما أن يضيفه هذا الكاتب في داره، فطلب منه الرجل أن يمهله بعض الوقت حتى يصلح داره ويهيء أسباب الدعوة، فأمهله حتى أصلح شأنه، ثم دعا الوزير وابنيه جعفر والفضل، فلما أكلوا قام يحيى يتمشى في الدار حتى انتهى إلى جدار منها وطلب بناء، فاعترض الكاتب صاحب الدار على هدم الجدار خشية أن يفتح هذا الجدار على بيوت جيرانه، فألح الوزير، وفتحوا الجدار وخرجوا من الفتحة إلى بستان حسن كثير الأشجار والماء يتدفق فيه وبه من المقاصير والمساكن والآلات والفرش ما يروق كل ناظر، فقال له يحيى: «هذا المنزل وجميع ما فيه لك»، وأخبره أنه منذ أن حدثه في أن يضيفه قد أرسل واشترى الأملاك المجاورة له وعمرها دارا ضخمة ونقل إليها من كل شيء. ثم أنه وهب كاتبه ضيعة لتدر عليه مالا

---

(١) البيهقي، تاريخ البيهقي، ترجمة الدكتور يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٥٦ ص ٤٤٢.

(٢) الباحسين، البرامكة، بغداد، ١٩٦٢ ص ٨٢.

يستطيع أن ينفق منه على الدار والخدم ، ووهبه عشرة آلاف دينار على الفور (١) . وتبين لنا حفلات الأعراس التي يحييها الخلفاء وأبناؤهم عن حياة الأبهة والفخامة التي تتوفر في مجتمع الخاصة ، من ذلك زواج الرشيد بزبيدة، فقد ذكر أنه قدم لها من الآلة وصناديق الجوهر والحلي والتيجان والأكاليل وقباب الفضة والذهب والطيب والكسوة ، ولما زف اليها في ١٦٥ بقصر الخلد جمع الناس من الآفاق ونثر عليهم الأموال ، فكانت الدنانير توضع في جامات (أي أطباق مستديرة) من الفضة بينما كانت الدراهم الفضية توضع في جامات الذهب ، وفرق عليهم نوافج المسك وأقداح العنبر وقوارير الطيب، وخلع الوشي المنسوجة ، وبلغ ما أنفقه الرشيد من ماله الخاص خمسين ألف ألف درهم (٢) . ومنها زواج المأمون ببوران بنت وزيره الحسن بن سهل، فقد ذكروا أن المأمون أمهرها بمائة ألف دينار وخمسة ملايين درهم، وقيل أمهرها ليلة زفافها بألف حصاة من الياقوت ، ويصف المسعودي ما قدمه الحسن بن سهل يوم زفاف ابنته فقال : « ونثر الحسن في ذلك الإملاك من الأموال ما لم ينثره ولم يفعله ملك في جاهلية ولا في إسلام ، وذلك أنه نثر على الهاشميين والقواد والكتاب والوجوه بنادق مسك فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوار وصفات دواب وغير ذلك ، فكانت البندقة إذا وقعت في يد الرجل فتحها فقرأ ما فيها ، فيجد على قدر إقباله وسعوده فيها ، فيمضي إلى الوكيل الذي نصب لذلك فيقول له : ضيعة يقال لها فلانة الفلانية من طسوج كذا من

---

(١) ابن طباطبا ، ص ١٨١ .

(٢) الشابشتي ، الديارات ، تحقيق كوركيس عواد ، بغداد ١٩٥١ ص ١٠٠ .

رستاق كذا ، وجارية يقال لها فلانة الفلانية ، ودابة صفتها كذا . ثم نثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك ، وبيض العنبر ، وأنفق على المأمون وقواده وعلى جميع أصحابه ومن كان معه من جنوده أيام مقامه عنده حتى المكارين والحمالين والملاحين وكل من ضمه العسكر من تابع ومتبوع مرتزق وغيره ، فلم يكن أحد من الناس يشترى شيئاً فى عسكر المأمون مما يطعم ولا مما تعتلفه البهائم »(١). وذكر ابن طباطبا أن الحسن بن سهل قد فرش للمأمون حصيرا منسوجا من الذهب ونثر عليه ألف لؤلؤة من كبار اللؤلؤ ، وبلغت جملة ما أخرج يومئذ خمسون ألف ألف درهم(٢) .

وذكروا أن المعتصم كافأ الأفشين — بعد أن أخمد حركة بابك وقبض عليه — بأن توجه بتاج من الذهب مرصع بالجوهر وإكليل ليس فيه من الجوهر إلا الياقوت الأحمر والزمرد الأخضر قد شبك بالذهب ، وألبسه وشاحين ، وزوج المعتصم الحسن بن الأفشين بأترجة بنت أشناس وزفت إليه وأقيم لها عرس تجاوز المقدار فى البهاء والجمال(٣) .

هذه أمثلة قليلة للتعبير عن مدى الثراء الذى كان ينعم به الخلفاء والوزراء وكبار رجال الدولة ، ولكى نكمل صورة هذا المجتمع لابد من تصوير حياتهم الخاصة داخل القصور . فمن المعروف أن خلفاء بنى العباس أسرفوا فى التفنن فى الأبهة والتأنق وحرصوا على إنشاء الصروح العالية والقصور التى تعهد إلى

(١) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ٤٤٣ .

(٢) ابن طباطبا ، ٢٠٣ .

(٣) المسعودى ، ج ٣ ص ٤٧١ .

الذاكرة إيوان كسرى وقصور غمدان والخورنق والسدير ، ولعل خير شاهد على ذلك القصور التى أسسها المنصور فى بغداد ومنها قصر الخليفة المسمى قصر باب الذهب أو قصر القبة الخضراء ، إذ كانت تعلوه عند منتصف أسقفه قبة عظيمة خضراء اللون بأعلاها تمثال فارس فى يده رمح ، ومنها قصر الخلد الواقع خارج باب خراسان على ضفاف دجلة(١) ، ومنها قصر الرصافة الذى أسسه المنصور فى سنة ١٥١ هـ (٧٦٨ م) لابنه المهدى وتم بناؤه فى سنة ١٥٩ هـ (٧٧٦ م) على الضفة الشرقية لدجلة قبالة مدينة المنصور ، ومنها القصر الذى شيده جعفر البرمكى ليكون موضع لهوه ومكان أنسه بالقرب من الرصافة ، وعرف القصر الجعفرى ، ثم تبدل اسمه فى عهد المأمون فسمى بالقصر المأمونى حينا والقصر الحسنى (نسبة للحسن بن سهل الذى أقام فيه بعض الوقت) حينا آخر ، ومنها قصران آخران أسسها جعفر البرمكى على ضفاف دجلة وفيا وراء البساتين الممتدة هما الفردوس والتاج ، وقدمها هدية للمأمون(٢) .

اتخذ الخلفاء داخل هذه القصور المجالس والقاعات وفرشوها بفاخر الفرش وكسوا أرضياتها بنفيس الطنافس وجدرانها بروائع الصور والزخـــرفة والتنسيقات . وفى هذه القاعات أقيمت مجالس اللهو والطرب والشراب . وكان السفاح رغم قسوته وعنفه يطرب من وراء الستارة أى دون ان يظهر للمغنين والموسيقيين ، ويصيح بالمطرب له من المغنين : أحسنت والله أعد هذا الصوت . وكان لا ينصرف عنه أحد من ندمائه ولا من مطربيه إلا بصلة من مال أو كسوة .

---

(١) جى لسترنج ، بغداد فى عهد الخلافة العباسية ، ترجمة بشير يوسف فرنسيس ، بغداد ١٩٣٥ ص ٤٠ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٢٠٨ — ٢١٠ .

ويقول : لا يكون سرورنا معجلا ومكافأة من سرنا وأطربنا مؤجلا ، (١)
أما المنصور فقد شغل بالفتن والثورات ، فانصرف عن عقد مجالس اللهو والغناء والطرب . فإذا حضر مجلسا للغناء لم يكن يظهر نفسه قط ، ويجعل بينه وبين الستارة عشرين ذراعا وبين الستارة والندماء مثلها . وإذا غناه المغنى فأطربه حركت الستارة بعض الجوارى ، فأطلع إليه الخادم صاحب الستارة فيقول : قل له أحسنت بارك الله فيك (٢) ، وكان بخيلا وشبه فى ذلك بعبد الملك فى بنى أمية ، وذكروا أنه شوهد يوما وعليه قميص مرقوع ، وكان من عادته الا يمنح أحد من ندمائه ومغنيه شيئا من المال ، وروى فى ذلك أن سلام الحادى الذى كان يضرب به المثل فى الحداء حدا به يوما فطرب حتى كاد يسقط من الراحلة ، فأجازه بنصف درهم ، فقال سلام : « يا أمير المؤمنين ، والله لقد حدوت لهشام [بن عبد الملك] فأمر لى بثلاثين ألف درهم ، فقال المنصور : تأخذ من مال المسلمين ثلاثين ألف درهم من أجل حداء ، يا ربيع : وكل به من يستخلص منه هذا المال . قال الربيع . فما زلت أمشى بينهما وأروض المنصور فما سكت حتى قبل سلام على نفسه أن يحدر المنصور فى ذهابه وإيابه بغير مؤونة(٣) » .

ويتولى المهدى الخلافة فالقت فنون الغناء والموسيقى وأبيح للناس ذلك

---

(١) المسعودى ، ج ٣ ص ٢٦٥ .

(٢) الجاحظ ، التاج فى أخلاق الملوك ، القاهرة ١٩١٤ ص ٣٤ ، وأول من ظهر للندماء من بنى العباس الخليفة المهدى (السيوطى ، ص ٢٥١) .

(٣) الإبشيهى ، المستطرف من كل فن مستظرف ، القاهرة ١٢٩٢ هـ ، ج ١ ص ١٧٢ — السيوطى ، ص ٢٤٩ .

حتى غلبت شهوة الغناء والطرب على طبقات المجتمع العباسي على اختلافها .
وكان المهدي من أكثر خلفاء بني العباس حبا لهذا الفن ، وكان بلاطه يكتظ بالمغنين وذوي المواهب الفنية أمثال حكم الوادي وسياط وإبراهيم الموصلي . ويشير ابن خلكان إلى أنه كان أحسن الناس صوتا ، وكان يضع الأصوات ويلحن للطرب وليس التكسب ، كما كان يتقن الإيقاع على الطبل والزمر الناي(١) ، وقد بالغ المهدي في ولعه بالطرب وترك أمور الدولة لوزيره يعقوب بن داود إلى حد أن بشار بن برد يسخر منه ويستثير بني أمية على استغلال هذه الظروف فيقول :

بني أمية هبوا طال نومكم ∴ إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا ∴ خليفة الله بين الناي والعود(٢)

وكان أبو إسحاق إبراهيم بن المهدي العباسي من كبار المغنين والموسيقيين في بلاط الرشيد والأمين ، وعد إبراهيم هذا زعيم الحركة الموسيقية الإبداعية الفارسية بخلاف إسحق الموصلي الذي تزعم المدرسة التقليدية العربية(٣) . وكان عالما بفن الموسيقى والغناء ، فألف كتابا في الغناء(٤) .

---

(١) سمير شيخاني ، أشهر المغنين عند العرب ، بيروت ١٩٦٢ ، ص ٦٥ .
(٢) الجهشياري ، ص ١١٨ — ابن الأثير ، ج ٦ ص ٧٠ .
وفي الجهشياري بين الزق والعود) .
(٣) فارمر ، ص ١٤٢ .
(٤) ذكر ابن النديم أنه كان لإبراهيم بن المهدي « صنعة في الغناء يتقدم بها كل أحد ، وكان إسحق وإبراهيم قبله يأخذان عنه ويتحاكم المغنون إليه في صناعتهم » (الفهرست ، ص ١١٦) .

وكان الهادى رغم قصر عهده مغرما بالغناء والموسيقى، ولهذا فقد قرب إليه ثلاثا من المغنين هم : إبراهيم الموصلى وابن جامع وحكم الوادى . أما هارون الرشيد فقد أسرف فى عنايته بالمغنين والمغنيات والموسيقيين ، وأنفق فى ذلك الأموال الطائلة حتى تجمعت لديه من أصحاب المواهب شخصيات عديدة لامعة، منهم : ابن جامع ، ويحيى المكى ، وزلزل ، ويزيد حوراء ، وفليح بن أبى العوراء ، وعبد الله بن دحمان ، وإسحق الموصلى، ومخارق ، والغنوى ، وعبد الرحيم الدفاف ، وابن قيلاء الطنبورى ، ومسكين المدنى ، وفريدة ، وعلوية، وابن الحارث ، وعمرو الغزال ، وبرصوما الزامر ، ومحمد الدف(١) . ومن العوامل التى ساعدت على ظهور هذه الأعداد الهائلة من المغنين والمغنيات اشتغال كثير من الناس بتجارة الرقيق والنخاسة فى بغداد ، واتساع ثرواتهم لذلك ، وشغف الناس بالغناء مما استلزم اهتمام النخاسين بتلقين الجوارى أصول فن الغناء والموسيقى مع القدرة على العزف بالآلات وتحصيل قدر واف من فنون الشعر والأدب(٢) .

وكانت مجالس الرشيد تغص بكبار المغنين والجوارى المغنيات والموسيقيات، وروى أنه اتخذ ألف جارية لكل منها ميزة خاصة تميزها عن غيرها ، تصحبن ثلاثمائة قينة للغناء والموسيقى ما بين جنكية (أى ضاربة على الجنك) وعودية ودفية وقانونية وزامرة وراقصة ومغنية وسنطرية (أى ضاربة على السنطرة وهى آلة وترية) وذكروا أنهن حضرن يوما بين يديه ، فغنته المغنيات منهن ،

---

(١) فارمر ، ص ١١٢ .

(٢) الحفنى ، إسحق الموصلى الموسيقار النديم ، سلسلة أعلام العرب ، رقم ٥٤ ، ص ٥٨ .

فطرب جدا وامر بمال فنثر عليهن ، وكان مقدار ما حصلته كل مغنية فى ذلك اليوم ثلاثة آلاف درهم(١) . وكان لهارون الرشيد جماعة من المغنين منهم إبراهيم الموصلى وابن جامع وغيرهما ، وكان له زامر يقال له برصوما ، « وكان إبراهيم أشدهم تصرفا فى الغناء وابن جامع أحلاهم نغمة . فقال الرشيد يوما لبرصوما: ما تقول فى ابن جامع ؟ قال : يا أمير المؤمنين وما أقـــول فى العسل الذى من حيثما ذقته فهو طيب قال : فإبراهيم الموصلى . قال : بستان فيه جميع الأزهار والرياحين(٢) » .

وكان الأمين بن الرشيد مولعا باللهو والطرب، حتى آثره على جميع لذاته ، وروى إبراهيم بن المهدى أن الأمين بعث فى طلبه أيام كان محاصرا ، فذهب إليه « فإذا هو جالس فى طارمة خشبها من عود وصندل عشرة فى عشرة ، وإذا سليمان بن أبى جعفر المنصور معه فى جوف الطارمة ، وهى قبة كان اتخذ لها فراشا مبطنا بأنواع الحرير والديباج المنسوج بالذهب الأحمر وغير ذلك من أنواع الإبريسم ، ، فسلم وجلس بإزاء سليمان ، وكان أمام الأمين قدح بلورى مخروز فيه شراب وبين يدى سليمان مثله ، فقال له الأمين : « دعوتكما لأفرح بكما وبحديثكما ، فأقبلا يحدثانه حتى سلا عما كان بجده ، ودعا بجارية من خواص جواريه فغنت(٣) . وذكر الطبرى أنه وجه إلى جميع البلدان فى طلب الملهين ، وضمهم إليه، وأجرى عليهم الأرزاق ، واحتجب عن أخويه وأهل بيته واستخف بهم وبقواده ، وقسم ما فى بيوت الأموال ، وما بحضرته من الجواهر فى فتيانه

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٠ ص ٢٢٠ .

(٢) الابشيهى ، ج ٢ ص ١٨٢ .

(٣) المسعودى ، ج ٣ ص ٣٩٣ — ابن الأثير ، ج ٦ ص ٢٨٠ .

وجلسائه ومحدثيه ، وأمر ببناء مجالس لمتنزهاته ومواضع خلواته ولهوه ولعبه ، وعمل خمس حراقات فى دجلة على صورة الأسد والفيل والعقاب والحية والفرس ، وأنفق فى عملها أموالا ضخمة(١) . وانغمس الأمين فى اللهو والملذات حتى أغفل شؤون الدولة ، وذكروا أنه إذا طرب امر نفسه . وذكر أنه ابتنى سفينة عظيمة أنفق عليها ثلاثة آلاف ألف درهم واتخذ أخرى على شكل دلفين بحرى(٢) . وروى الطبرى عن شارق قال : « ما مرت بى ليلة ما مررت بى مثلها قط ، انى انى منزلى بعد ليل ، إذ أتانى رسول محمد وهو خليفة [يقصد محمد الأمين] فركض بى ركضا ، فانتهى بى إلى داره ، فأدخلت ، فإذا إبراهيم بن المهدى قد أرسل إليه كما أرسل إلى ، فوافينا جميعا ، فانتهى إلى باب مفض إلى صحن فإذا الصحن مملوء شمعا من شمع محمد العظام ، وكأن ذلك الصحن فى نهار ، وإذا محمد فى كرج(٣) ، وإذا الدار مملوءة وصائف وخدما ، وإذا اللاعبون يلعبون ومحمد وسطهم فى الكرج يرقص فيه ، فجاءنا رسول يقول : قال لكما قوما فى هذا الموضع على هذا الباب مما يلى الصحن ثم ارفعا أصواتكما مبلغ ما تقدرا عن السورناى [آلة موسيقية] . واتبعناه فى لحنه ، قال : وإذا السورناى والجوارى واللاعبون فى شىء واحد :

« هذى دنانير تنسانى وأذكرها »

---

(١) الطبرى ، ج ١٠ ص ٢١٥ — ابن الأثير ، ج ٦ ص ٢٩٤ .

(٢) الطبرى ، ج ١٠ ص ٢١٦

(٣) يتكون من تماثيل خيل مسرجة من الخشب تعلق بأطراف أقبية تلبسها النساء يحاكين بها امتطاء الخيل ، فيكرون ويفرون ويتثاقفون فى الولائم والأعراس والأعياد ومجالس الفراغ واللهو (ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٧٦٦) .

وتبع الزمار، قال : فلو الله مازلت وإبراهيم قائمين نقولها، آنشق بها حلوقنا حتى انفلق الصبح ، ومحمد فى الكرج ما يسأمه ولا يمله حتى أصبح يدنو منا ، أحيانا نراه وأحيانا يحول بيننا وبينه الجوارى والخدم (١) » .

وروى الطبرى عن ابراهيم بن المهدى أنه غنى محمد بن زبيدة :

هجرتك حتى قيل لا يعرف القلى ∴ وزرتك حتى قيل ليس له صبر

فطرب محمد وقال : « أوقروا زورقه ذهبا » (٢) .

أما المأمون فلم يكن يميل كثيرا للطرب ، حتى قيل إنه أقام بعد عودته إلى بغداد عشرين شهرا لم يسمع فيها غناء ، ثم أخذ يسمعه من وراء حجاب (٣) .

وكان الواثق بن المعتصم أعلم الناس بالغناء ، وكان يضع الألحان العجيبة ، ويغنى بها شعره وشعر غيره ، فقال الواثق لإسحق الموصلى يوما : « يا أبا محمد لقد فقت أهل العصر فى كل شىء ، فغنى شعرا أرتاح إليه وأطرب عليه يومى هذا ، فغناه إسحق هذه الأبيات :

ما كنت أعلم ما فى البين من حرق ∴ حتى تنادوا بأن قد جىء بالسفن
قامت تودعنى والدمع يغلبها ∴ فهمهمت بعض ما قالت ولم تبن
مالت إلى وضمتنى لترشفنى ∴ كما يميل نسيم الريح بالغصن
وأعرضت ثم قالت وهى باكية ∴ يا ليت معرفتى إياك لم تكن

---

(١) الطبرى ، ج ١٠ ص ٢٢٥ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٢٢٣ .
(٣) شيخانى ، ص ١٢٦ .

قال إسحق : « فخلع على خلعة كانت عليه ، وأمر لى بمائة ألف درهم »(١).

ولم تكن مجالس الطرب قاصرة فقط على الخلفاء وإنما كانت شائعة لدى الخاصة من الوزراء والكتاب ، فكان جعفر بن يحيى البرمكى يجلس للشراب والمنادمة مع ندمائه الذين يأنس بهم ، وكانوا إذا جلسوا بمجالس الشراب واللهو لبسوا الثياب الحمر والصفر والخضر ، ثم تدار عليهم المكاريس وتخفق العيدان (٢) . ويروى إبراهيم بن المهدى أنه دعى يوما فى خلوة لجعفر بن يحيى مع ندمائه ، قال : « فأتيته عند الفجر فوجدت الشموع قد أوقدت بين يديه وهو ينتظرنى فى الميعاد ، فما زلنا فى أطيب عيش إلى وقت الضحى فقدمت إلينا موائد الأطعمة عليها من أفخر الطعام وأطيبه ، فأكلنا وغسلنا أيدينا ثم خلعت علينا ثياب المنادمة ، وضمخنا بالخلوق ، وانتقلنا إلى مجلس الطرب ، ومدت الستائر ، وغنت القينات ، فظللنا بأنعم يوم »(٣) .

وقد اهتم العباسيون بتدوين الغناء ومذاهبه ، وأول من دون الغناء يونس بن سليمان الكاتب المعروف بيونس المغنى فى العصر الأموى ، فوضع كتابا فى النغم (٤) ، وإسماعيل بن أحمد الذى صنف كتابا فى الموسيقى ، قيد فيه الألحان وأصناف النغم (٥) ، ويحيى بن أبى مرزوق المكى الذى ألف كتابا فى الأغانى جمع فيه اثنى عشر ألف صوت . وألف إسحق الموصلى كتبا فى الأغانى

---

(١) الإبشيهى ، المستطرف ، ج ٢ ص ١٨٥ .

(٢) ابن طباطبا ، ١٨٧ .

(٣) الإبشيهى ، ج ٢ ص ١٨٦ .

(٤) ابن النديم ، الفهرست ص ١٤٥ .

(٥) نفس المصدر ، ص ٤٣ .

وأخبار عزة الميلاء وكتاب أغاني معبد، وكتاب الأغاني الكبير (١) ؛ ومن كبار الكتاب في الأغاني أبو الحسن علي بن هارون بن علي ، ألف رسالة في الفرق بين إبراهيم بن المهدي وإسحق الموصلي في الغناء (٢) . وممن كتب في الأغاني من المشتغلين بالموسيقى والغناء : جحظة البرمكي وكان حاذقا بصناعة غناء الطنبور، وصنف كتاب الطنبوريين (٣) ، وأبو أيوب المدني المغني الذي ألف عدة كتب في أخبار المغنين، وقريص المغني من حذاق المغنين ، وألف كتاب صناعة الغناء وأخبار المغنين .

وفي العصر العباسي الأول دخلت أنواع جديدة من آلات النغم ، فقد أدخل زلزل نوعا من العيدان سمي بالعود الكامل والعود الشبوط (٤)، وأدخل زرياب وترا خامسا في العود ، واتخذت آلات جديدة كانت معروفة عند الفرس كالكرج والجنك والقبوز والناي والكوس ، وظهرت التخصصات في طائفة من المغنين والموسيقيين : فزلزل كان إمام العوادين ، وبرصوم كان أبرع من عزف بالناي والمزمار ، وجعفر الطبال كان خير من وقع الطبل والكوبة ، وإبراهيم الموصلي أول من وقع بالقضيب (٥) .

---

(١) المصدر السابق ، ص ١٤١ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٤٤ .

(٣) المصدر السابق ، ص ١٤٥ .

(٤) فارمر ، ص ١٣٠ .

(٥) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، القاهرة ١٩٤٩ ، ج ٦ ص ٣٢ .

(٢)

مجتمع العامة

وهو مجتمع عامة الشعب وسواده الأعظم ، وهم طبقتان :

١ ـ طبقة وسطى تشتمل على فئات من الناس أقل نسبيا فى المستوى الاجتماعى من الخاصة ، ومنهم المؤدبون والوعاظ والشعراء والمغنون والتجار والأطباء .

٢ ـ طبقة العامة ، ومنهم الزراع والشطار والعيارون وأرباب الحرف والصناعات والباعة والخدم .

أما الطبقة الأولى من العامة وهى التى سميناها الطبقة الوسطى فكانت موضع احترام وتقدير الخاصة والعامة على السواء ، ومنهم المؤدبون الذين تقربوا إلى الخلفاء والوزراء وكبار رجال الدولة بعلمهم وثقافتهم ، وكان الخاصة يعهدون إليهم بتأديب أبنائهم ويذكر الجاحظ أن المعلمين على ضربين « منهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد العامة إلى تعليم أولاد الخاصة ، ومنهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد الخاصة إلى تعليم أولاد الملوك أنفسهم المرشحين للخلافة » (١) ، وكانت مهمة المعلمين أو المؤدبين لا تعدو تعليم الفقه والأدب وأشعار العرب وتاريخهم (٢) ، وآداب الملوك وقواعد السلوك التى يلتزم بها الخاصة . كمنع الضحك إلا فى وقته ، وشغل أوقات الفراغ بما يفيد ، والتقويم بالملاينة ثم بالشدة والغلظ والتعريف بمواقع الكلام وبدأه (٣) والتحبب إلى

---

(١) الجاحظ ، البيان والتبيين ، طبعة دار الفكر للجميع ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ١٧٠ .

(٢) الجاحظ ، نوادر الجاحظ ، بيروت ١٩٦٣ ، ص ٨٢ .

(٣) المسعودى ، ج ٣ ص ٣٥١ .

الناس (١) ، ومن أشهر مؤدبي أبنـــاء الخلفاء الكسائي عالم اللغة المشهور وكان مؤدبا الرشيد ثم الأمين والمأمون (٢) ، ويحيي بن المبـــارك اللغوى مؤدب المأمون (٣) ، والأحمر النحوى مؤدب الأمين (٤)، وجعفر بن محمد بن الأشعث، والفضل بن يحيي مؤدبا الأمين (٥) .

وكان يحيي بن خالد البرمكي قيما بأمر الرشيد ، وكان الرشيد يدعوه دائما بالأبوة (٦) ، وكان سعيد الجوهرى قيما بأمر المأمون ، وكان مؤدبه أبو محمـــد اليزيدى ، وكان يستخدم الدرة لتقويمه ،(٧) وكان اليزيدى من كبار اللغويين في العصر العباسي الأول ، وكان يتولى تأديب ولد يزيد بن منصور الحميرى خال المهدى ، فنسب إليه ، ثم اتصل بالرشيد فجعل المأمون في حجره يؤدبه، بينما كان الكسائي يؤدب الأمين ، وعلم اليزيدى المأمون القراءات والشعر (٨) .

ومن أشهر مؤدبي الخاصة أبو عمرو إسحاق بن مرار الشيباني (ت ٢١٣) وكان راوية واسع العلم باللغة ثقة في الحديث كثير السماع (٩) ، ومنهم أبو عبيد

---

(١) الجهشيارى ، ص ١٣٧ .
(٢) الإربلي ص ١٥٧ — ابن النديم ص ٦٥ .
(٣) ابن النديم ، ص ٦٥ .
(٤) المسعودى ، ج ٣ ص ٣٥١ .
(٥) الجهشيارى ، ص ١٤٨ .
(٦) المسعودى ، ج ٣ ص ٣٣٣ — الإربلي ، ص ١٦١ .
(٧) الإربلي ، ص ١٨٦ .
(٨) الإربلي ، ص ٢٠٦ .
(٩) ابن النديم ، ص ٦٨ .

القاسم بن سلام (ت ٢٢٤) وكان حمالا ثم اشتغل مؤدبا لبنى هرثمة (١).
ومن مؤدبى العامة أبو جعفر محمد بن سعدان الضرير (ت ٢٣١) وكان معلما للعامة وأحد القراء (٢).

وكان المؤدبون بوجه عام من الشخصيات المرموقة فى المجتمع العباسى، وكانوا يتقاضون رواتب كبيرة تختلف حسب الطبقة التى يعملون فيها، كما كانوا يحصلون على كثير من الهبات والعطايا.

ويمكن أن نعتبر الوعاظ من نفس مرتبة المؤدبين، مع الاختلاف الواضح بين عمليهما، فالواعظ ينصح الكبار بعظاته التى اكتسبها بدراسته للسير والتاريخ، أما المؤدب فعمله يقتصر على تعليم الصغار آداب الملوك واللغة والفقه وما إلى ذلك. ومن الوعاظ المعروفين زمن المهدى صالح بن عبد الجليل، وكان ناسكا مفوها، يعظ المهدى فيبكيه طويلا (٣). ومنهم أبو العباس محمد بن صبيح الواعظ المعروف بابن السماك وكانت له مواعظ كثيرة ومقامات عظيمة، وكان يعظ الرشيد حتى يبكيه (٤)

ويدخل فى عداد الطبقة الأولى من مجتمع العامة الأطباء والجراحون والكحالون والأسنانيون وأطباء النساء والمحاظى وأطباء المجانين، وقد اشتهر فى هذا العصر عدد من الأطباء منهم آل بختيشوع النصارى الفرس وأولهم جورجيوس بن جبرائيل الذى خدم المنصور، وكان حظيا عنده رفيع المنزلة

(١) نفس المصدر، ص ٧١.
(٢) نفس المصدر، ص ٧٠.
(٣) الجهشيارى، ص ١٠٩.
(٤) الإربلى، ص ١٣٤، ١٣٥.

ونقل له كتبا كثيرة من اليونانية إلى العربية، وكان المنصور يجزل عليه الأموال (١)، وتألق بختيشوع بن جورجيس فى عهد الرشيد، وفاق أطباء البلاط العرب وعلى رأسهم أبو قريش عيسى وعبد الله الطيفورى (٢)، وكان ابنه جبرائيل ابن بختيشوع مشهورا بالفضل جيد التصرف فى المداولة والعلاج حظيا عند الخلفاء رفيع المنزلة عندهم، ونال منهم هبات كثيرة لم ينلها غيره من الأطباء، وكان صاحب الفضل فى علاج حظية الرشيد، بدون أدهان، فأمر الرشيد له بخمسمائة ألف درهم وأحبه مثل نفسه وجعله رئيسا على جميع الأطباء، وكان الرشيد يقول لأصحابه: «كل من كانت له إلى حاجة فليخاطب بها جبرائيل لأنى أفعل كل ما يسألنى فيه ويطلبه منى»، فكان القواد يقصدونه فى كل أمورهم (٣). ولما تولى محمد الأمين الخلافة أدناه إليه جبرائيل وأكرمه ووهب له أموالا جليلة أكثر مما كان الرشيد يهب له، وكان الأمين لا يأكل ولا يشرب إلا بإذنه (٤)، كذلك حظى بتقدير المأمون، وأمر له مرة بألف ألف درهم وألف كر من الحنطة (٥).

كذلك برع من الأطباء عبد الله الطيفورى وابنه زكريا الصيدلانى، ويزيد بن زيد بن يوحنا متطبب المأمون، وسهل الكوسج طبيب هرثمة بن أعين، وموسى بن إسرائيل الكوفى متطبب إبراهيم بن المهدى، وسلمويه

---

(١) ابن أبى أصيبعة، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، ص ١٨٣.

(٢) نفس المصدر، ص ١٨٧.

(٣) نفس المصدر، ص ١٨٨.

(٤) نفس المصدر، ص ١٨٩.

(٥) نفس المصدر، ص ١٩٠.

ابن بنان متطبب المعتصم ، وجبرائيل كحال المأمون، وماسويه طبيب الرشيد، وابنه يوحنا طبيب الأمين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل وغيرهم(١) . وقد ترتب على عظم مكانة الأطباء وسمو منزلتهم تضخم ثرواتهم ، فجبرائيل ابن بختيشوع قدرت ثروته التى كونها من خدمته إلى الخلفاء والخاصة بنحو ٩٠ مليون درهم (٢) ، كما أن أباه بختيشوع اكتسب من عمله في خدمة الخلفاء من السفاح إلى الرشيد ما لم يكتسبه أحد (٣) .

ويعتبر الصابى التجار — لكثرة ثرواتهم — من طبقة الخاصة ، ولكننا نعدهم من العامة لتعاملهم مع الأهالى والعامة واحتكاكهم بسبب التجرة بالسوقة والدهماء، ولجوء الكثير منهم إلى الغش والكذب ، وكان معظم تجار العراق فى العصر العباسى الأول من اليهود الرهدانية الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والأفرنجيــة والأندلسية والصقلبية (٤) ، ثم أقبل المسلمون على التجارة عندما نشطت الحركة التجارية بسبب كثرة الوارد والصادر وظهور الشركات التجارية . والتجار فى العصر العبـاسى الأول ثلاثة أنواع : التـاجر الخازن ، الذى يخزن نوعا من السلع لايظهره إلا عند ارتفاع ثمنه بسبب عدم توفره فى السوق ، والتاجر الركاض ، الذى ينتقل من موضع إلى موضــع ويركب السهل والصعب ويشترط فيه المعرفة والتبصر ، وأخيرا التاجر المجهز

---

(١) راجع : ابن أبى أصيبعة ، ص ٢١٤ — ٢٧٣ .

(٢) ابن أبى أصيبعة ، ص ١٩١ — القفطى ، تاريخ الحكماء ، ص ١٤٣ .

(٣) القفطى ، تاريخ الحكماء ، ليبزج ، ١٩٠٣ ص ١٠١ .

(٤) ابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، ص ١٥٣ .

المستقر فى السوق ببلده (١) . وأهم هؤلاء التجار جميعا أولئك الذين ينتقلون فى أقطار الأرض ، فيقصدون الصين والهند والمغرب والأندلس وبلاد الروم والبلغار والخزر والصقالبة ، فيستوردون ويصدرون ، وقد أورد لنا الجاحظ قائمة بأسماء السلع التى كانوا يستوردونها كالسيوف والحرير والفضار (الخزف) والكاغد والياقوت والصندل والأبنوس والأدم والعقيق والمسك والسمور والفنك (دواب ذات أفرية) والطنافس والثياب الموشية ، واللؤلؤ ، والعبيد والرقيق (٢) .

وقد أثرى هؤلاء التجار ثراء فاحشا لكثرة ما كانت تدره تجارتهم عليهم من الأرباح ، إلى حد أن بعضهم أقرض إبراهيم بن المهدى مالا كثيرا عندما وثب على الخلافة ، وبطبيعة الحال كانوا ينعمون بحياتهم ويعيشون فى قصور فخمة ، ويقتنون الجوارى والإماء ، ولهذا أثروا فى المجتمع العباسى تأثيرا عميقا .

أما المغنون والشعراء فكانت لهم منزلة عليا فى الدولة العباسية ، لولوع الخلفاء بمجالس الأدب والطرب ، وقد ظهر فى العصر العباسى الأول عدد كبير من المغنيات أو الجوارى المغنيات امتزن بجمال الصوت ورقته ، وبسمو الثقافة ، وكان إبراهيم الموصلى يقتنى منهن الكثيرات ، يشتريهن من أسواق النخاسة ثم يتولى تدريبهن حتى يتقن الغناء ، ويبيعهن إلى الأمراء والوزراء والخاصة وأصحاب النفوذ بأسعار مرتفعة ، وقد بلغت منهن دنانير جارية يحيى بن خالد البرمكى ، وذات الخال التى اشتراها الرشيد بسبعين ألف درهم ، وبذل جارية

(١) صلاح حيدرى ، المجتمع العراقى فى العصر العباسى الأول ، ص ١٠٧ .

(٢) راجع : الجاحظ ، التبصر بالتجارة ، ص ٣٣ — ٤٢ .

الأمين ، وعريب جارية المأمون ، ومتيم الهاشمية جارية المعتصم، وكانت لشدة أناقتها أول من عقدت زنارا وخيطا من الحرير فى طرف الإزار .

وحفل العصر العباسى الأول كذلك بعدد هائل من الشعراء الكبار الذين ضمنوا شعرهم الكثير من الموضوعات واستحدثوا فى الشعر العربى أغراضا جديدة فى المعانى والموضوعات والأساليب ، من أشهرهم أبو نواس، الشاعر الخليع الذى يعكس شعره صورة مجتمع الخاصة والعامة على السواء ، وبشار بن برد الذى أكثر من شعر الغزل والتشبيب بالنساء ، والشاعر أبو العتاهية الذى عرف بشاعر الزهد والوعظ .

أما الطبقة الثانية من مجتمع العامة ، فكانت تشمل فئات وأخلاط غير منظمة من العامة ، فى مقدمتهم أرباب الحرف والصناعات ، وهم فريقان : فريق يعمل فى المؤسسات الخاصة والحكومية كدار الطراز ودار الضرب أو المصانع الخاصة بالزجاج والبلور وصناعة التحف المعدنية والعاجية والعرفاء والبناءون ، وفريق يشتغل لحسابه الخاص كالفخارين والحصارين والنجارين والصفارين والوراقة والصاغة والنساجين والقصابين والصاعة والأساكفة والخياطين ، وكان معظم المشتغلين بهذه الصناعات من أصول غير عربية أو من أهل الذمة يهودا ونصارى كما اشتغل بها فئات من الرقيق (١) . وكان أصحاب الحرفة الواحدة يرتبطون فيما بينهم برابطة الانتماء إلى المهنة التى يعملون بها ، وقد ساعد ذلك على تجمع كل منهم فى سوق خاصة بالحرفة التى ينتمون إليها ، وتضامنهم فيما بينهم ، وكان لذلك أعظم الأثر فى قيام تنظيمات حرفية تعرف

---

(١) الصابى ، تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ، تحقيق الأستاذ عبد الستار أحمد فراج ، القاهرة ١٩٥٨ ص ٢٢ .

عليهم وتدافع عنهم أقرته الدولة بوجودها ، ويسمى رئيس كل حرفة بشيخ الصنف (١) ، أو شيخ الصنعة ويليـــه الأستاذ ، ثم الصانع المحترف ، ثم المبتدىء (٢) . وبفضل عناية الحكومة العباسية وإشرافها على الصناع وأرباب الحرف عن طريق المحتسب ، تقدمت بعض الصناعات ، كالنسيج العراقى الذى أصبحت له شهرة عالية ومنه الموصلى والعتابى والتسترى .

أما الزراع فكانوا يمثلون السواد الأعظم من سكان القرى ، وكان معظم الزراع من الموالى الفرس أو من بقايا الزط أو من العبيد الزنج ، وعمدت الدولة العباسية إلى منع الزراع من الهجرة إلى المدن خشية أن تتناقص الأيدى الزراعية العاملة فى الريف (٣) . واهتم الخلفاء العباسيون منذ أبى جعفر المنصور بنظام الرى فحفروا القنوات وطهروا الترع ، وشجعوا بذلك على ازدهار الزراعة وتحسين حال الزراع .

(٣)

الأزياء وأدوات الزينة

تأثر العباسيون فى العصر الأول بالتقاليد الفارسية فى جميع مناحى الحياة ، ويتجلى هذا التأثير بصورة واضحة فى الأزياء ، فلقد ميز العباسيون بين طبقات المجتمع فى الزى جارين فى ذلك على نفس التقاليد التى كان يعمل بها ملوك الفرس الساسانيون ، فكان من رسم ملوك الفرس أن يلبس أهل كل طبقة

---

(١) اليعقوبى ، البلدان ، ص ٢٤٨ — التنوخى ، الفرج بعد الشدة ، ج ٢ ص ٢٣٢ .

(٢) رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء ، القاهرة ١٩٢٨ ، ج ١ ص ٢٢٥ .

(٣) صلاح حيدر ، ص ١٢٧ .

عن فى خدمتهم لباسا لا يلبسه أحد من فى غير تلك الطبقة ، فإذا مثل الرجل أمام الملك عرف صنعته من لباسه (١) .

وكانت الأزياء على هذا النحو تختلف فى العصر العباسى فى أشكالها وأنواعها وطرق صناعتها باختلاف الوظائف وحتى الأديان ، فكان للقضاة زى وللشرطة زى وللكتاب زى ولكتاب الجند زى (٢) ، وللتجار زى (٣) ، وكان لحرائر النساء زى ولكل مملوك زى وللإماء زى (٤) ، وكذلك اختلفت العمائم فكان للفقهاء عمامة وللخلفاء عمامة وللنصارى عمامة (٥) ، وكان أصحاب السلطان ومن دخل داره على مراتب ، فمنهم من يلبس المبطنة ، ومنهم من يلبس الدراعة (٦) ، ومنهم من يلبس القباء ومنهم من يلبس البازبكند ويملق الخنجر ويأخذ الجرز ويتخذ الجمة (٧) ، وكان الشعراء يلبسون الوشى والمقطعات والأردية السود (٨) .

وكان اللون الأسود هو اللون السائد فى الأزياء فى العصر العباسى ، واستمر السواد رمزا للخلافة العباسية ، ويذكر المؤرخون أن الرشيد لبس بطوش

---

(١) الجهشيارى ، ص ٢ .

(٢) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ٣ ص ١٠٦ .

(٣) ابن الجوزى ، ذم الهوى ، القاهرة ، ١٩٦٢ ص ٤٧٥ .

(٤) الجاحظ ، ص ٩٥ . وذكر الخطيب البغدادى أنه كان للمؤذنين زى ولخطباء المساجد زى (الخطيب البغدادى تاريخ بغداد ، ج ١ ص ٤٨) .

(٥) الجاحظ ، ١٠٦ .

(٦) هى جبة مشقوقة .

(٧) نفس المصدر ، ص ١٠٧ .

(٨) نفس المصدر ، ص ١٠٧ .

يوم وفاته جبة سوداء خز بغير قميص وعليها فنك وفوقها دراعة خز سوداء مبطنة بفنك ، وعلى رأسه قلنسوة طويلة وعمامة خز سوداء وتطلس بطيلسان أسود (١) ، وكان الأمين يوم قتل يلبس ثيابا بيضاء وسراويل وعليها طيلسان أسود (٢) . وكان المأمون قد منع السواد يوم بايع على الرضا بن موسى الكاظم بولاية العهد وأمر بتغيير لباس آبائه بلباس الخضرة (٣) فلما عاد إلى قصره ببغداد بعد مصرع الأمين ، كان الناس يختلفون إليه فى كل يوم مسلمين ، ولباسهم الثياب الخضر ، ولم يكن أحد يدخل عليه إلا فى خضرة ، وساد اللون الأخضر زى أهل بغداد جميعا ، وكان الناس يخرقون ويمزقون كل ما لديهم من الأردية السوداء باستثناء القلانس ، ومع ذلك فكان بعضهم يلبس القلانس السوداء متخوفا ، وبخلاف القلانس لم يكن أحد يتجرأ على لبس أقبية أو طيالس أو أعلام سوداء . فلما حادثه بنو هاشم فى ذلك وقدم طاهر بن الحسين وخاطبه هو وقادة أهل خراسان ، استجاب لهم واستدعاهم فقدموا ، ولما اجتمعوا عنده دعا بسواد فلبسه ، ودعا بخلعة سوداء فكساها طاهر بن الحسين ، وخلع على عدة من قواده أقبية وقلانس سوداء ، فلما خرجوا من عنده وعليهم

---

(١) الجهشيارى ، ص ٢٢١ .

(٢) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٢٨٥ .

(٣) ابن طباطبا ، ص ١٩٨ ، ١٩٩ .

وفى ذلك يقول « وأمر المأمون بخلع لباس السواد ولبس الخضرة ، وكان هذا فى خراسان ، فلما سمع العباسيون ببغداد مافعل المأمون من نقل الخلافة من البيت العباسى إلى البيت العلوى وتغيير لباس آبائه وأجداده بلباس الخضرة أنكروا ذلك » .

وفيه يقول المسعودى : « وأمر بإزالة السواد من اللباس والأعلام وأظهر بدلا من ذلك الخضرة فى اللباس والأعلام وغير ذلك » (ج ٣ ص ٤٤١) .

السواد ، طرح سائر القواد الخضرة ولبسوا السواد » (١) .

وإذا كان السواد أصبح اللون السائد فى الثياب الرسمية ، فقد اتخذت للمنادمة ثياب مصبوغة زاهية (٢) ، وهى ثياب خز معلم ، أو ثياب مصبوغة بالألوان الحمراء والصفراء والخضراء (٣) . وكان يعقوب بن داود وزير المهدى يلبس فى بعض الأحيان ثيابا وردية (٤) ، ولبس الرشيد طيلسانا أزرق اللون يوم وفاة الخيزران (٥) ، وكان المنصور يأمر أهل بيته بحسن الهيئة وإظهار النعمة وبلزوم الوشى والطيب (٦) ، كما أمر بعدم لبس السراويل الكتانية (٧) .

وتنقسم الأزياء الرجالية إلى ثياب للرأس وأخرى للبدن ، فأما لباس الرأس فيقتصر عادة على العمامة أو العصابة والقلنسوة ، والعمامة والعصابة سواء فى رأى الجاحظ (٨) ، وكانت العمائم لباس الرأس عند العرب منذ عصر الجاهلية ، ولهذا قال عمر بن الخطاب « العمائم تيجان العرب » ، وقيل لأعرابى : إنك لتكثر لبس العمامة ؟ قال : إن شيئا فيه السمع والبصر لجدير أن يوقى من

---

(١) ابن طيفور ، ص ٢ .

(٢) الابشيهى ، ج ٢ ص ١٨٦ .

(٣) ابن طباطبا ، ص ١٧٨ .

(٤) الجهشيارى ، ص ١١٩ .

(٥) الإربلى ، ص ١١٧ .

(٦) الطبرى ، ج ٩ ص ٣١٦ .

(٧) نفس المصدر ، ج ٩ ص ٣١٤ .

(٨) البيان والتبيين ، ج ٣ ص ٩٦ .

الحر والقر (١) ، ويعبر أبو الأسود الدؤلي عن فائدة العمامة فيقـــول : « جنة في الحرب ومكنة من الحر ، ومدفأة من القر ، ووقار في الندى ، وواقيـة من الأحداث ، وزيادة في القامة ، وهي بعد عادة من عادات العرب » (٢) وكانت العمامة تتخذ من الشروب الرابقـة أو القطن أو الوشـي المذهب ، ومن حيث اللون كانت العمائم في العصر العباسي عادة سوداء ، أما إذا كانت صوفية فتكون مصبوغة (٣) .

وإذا كانت العمائم تيجان العرب وعادة من عاداتهم ، فإن القـلانس كانت تعتبر مظهرا من مظاهر كمال الرجـــولة عند العرب ، فقد قال الامام علي رضي الله عنه : « تمام جمال المرأة في خفها ، وتمام جمـــال في الرجل في كمته [أي قلنسوته] » (٤) ، ولهذا تفنن الناس في أشكالهـا ومادتهـا ، وأصبحت القلانس تسمى بأسماء البلاد التي تصنع فيها ، فمن حيث الشكل وجدت في العصر العباسي قلانس مستديرة ، تعرف بالدنية لأنها تشبه الدن ، والقـلانس الطاقية التي تطوق الرأس وتمسك به ، والقلانس الدورقية لشبهها بالدورق (٥) ، ومن حيث المواضع التي اشتهرت بصناعتهـا وجـدت القـلانس الرصافية (٦) (من

---

(١) البيان والتبيين ، ج ٣ ص ٩٧ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) بدري فهد ، العمامة ، بغداد ، ١٩٦٨ ، ص ١٣ .

(٤) البيان والتبيين ، ص ٩٠ .

(٥) صلاح حيدري ، ص ١٤٠ .

(٦) الجهشياري ، ص ١٦٧ .

الرصافة) والقلانس السود الشاشية (١) والقلانس المكية (٢) ، ومن حيث الصناعة اتخذت القلانس من الكاغد (٣) أو القصب أو السمور (٤) .

وفى سنة ١٥٣ أمر المنصور الناس بلبس القلانس الطوال المفرطة الطول ، فقال أبو دلامة :

وكنا نرجى من إمام زيادة ∴ فزاد الإمام المصطفى فى القلانس
تراها على هام الرجال كأنها ∴ دنان يهود جللت بالبرانس (٥) .

أما ثياب البدن ، فنها الداخلية كالقمصان والسراويل ، فكانت القمصان تصنع من الكتان الناعم وكان يغلب عليها اللون الابيض ، أما السراويل فكانت بيضاء فى العادة ومذيلة ، وفى بعض الأحيان يلبسون الغلائل الرقاق . وذكر ابن الأثير ، أن السفاح ترك بعد وفاته تسع جباب وأربعة أقمصة وخمسة سراويل وأربعة طيالسة وثلاثة مطارف خز (٦) . أما الثياب الخارجية التى تلبس فوق الأقمصة والسراويل فمنها الدراريع والطيالسة والجباب والأقبية .

١ — الدراريع : (جمع دراعة أو مدرعة) ،وهى جباب مشقوقة من

---

(١) الجهشيارى ، ص ١٢٤ ، ١٧١ — نسبة إلى بلاد الشاش (انظر : Dozy, Dictionnaire des Vetements, p. 420) .

(٢) ابن طيفور ، ص ٩٣ .

(٣) ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ، ج ١ ص ٢٣٤ .

(٤) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ٤٣٥ .

(٥) الطبرى ، ج ٩ ص ٢٨٤ ـ ابن الأثير ، ج ٥ ص ٦١٠ ـ الاربلى ، ص ٨٥ .

(٦) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٦٠ .

الصوف أو الديباج الموشى أو الدبيقي ، وكانت اللباس الرسمي للكتاب ، ثم شاع استخدامها حتى لبسها الخلفاء والوزراء وعامة الناس . فالرشيد عندما خرج للغزو لبس دراعة قد كتب على ظهرها « حاج » وعلى صدرها « غاز »(١) والربيع بن يونس عندما ولاه المنصور خطة العرض كان يلبس دراعة وطيلسان (٢) ، وإدريس بن عبد الله بن الحسن يوم فر إلى مصر فالمغرب لبس مدرعة صوف خشنة وعمامة غليظة (٣) .

٢ ــ الطيالسة : (جمع طيلسان) ، وهو مربع الشكل يجعل على الرأس فوق العمامة أو القلنسوة ، ويغطى به أكثر الوجه ، ثم يدار طرفان منه تحت الفم إلى ان يحيطا بالرقبة ، ثم يطرحان على الكتفين ، أما طرفاه الآخران فيسبلان على الظهر (٤) . وكانت الطيالسة لباس الخاصة من العلماء والمشايخ والقضاء .

٣ ــ الجباب : (جمع جبة) ، تحيط بالبدن ولها كمان ، وكانت الجباب تصنع من الديباج الموشى (٥) أو الصوف ، وكان الخلفاء العباسيون يلبسون الجباب ، ومما يؤثر عن المنصور أنه كان يكثر من لبس جبة هروية (٦) ، وكان

---

(١) الجهشياري ، ص ١٦١ .
(٢) نفس المصدر ، ٨٩ .
(٣) البكري ، المغرب في بلاد إفريقية والمغرب ، ص ١١٨ ـ الجزنائي ، ص ٩ .
(٤) بدري فهد ، الطيلسان ، مجلة كلية الشريعة ، بغداد ١٩٦٦ ، ص ١٥٥ .
(٥) الجهشياري ، ص ١٨٣ .
(٦) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٣٠ .

السفاح يكثر من لبس الحباب ، حتى إنه ترك بعد وفاته منها تسعا (١) .

وكان الرجال يتنعلون النعال ، ويتركون للنساء الخف ، واعتبروا النعال مظهرا من مظاهر الزينة للرجال ، فقال الأحنف « استجيدوا النعال فإنها خلاخيل الرجال » (٢) . وكان العرب يلهجون بذكر النعال في حين كان الفرس يلهجون بذكر الخفاف . وكان صحابة الرسول ينهون نساءهم عن لبس الخفاف الحمر والصفر (٣) . وفي العصر العباسي شاع استعمال الخاصة الخفاف الحمر على عادة الفرس (٤) .

أما ملابس النساء فكانت داخلية وخارجية بالإضافة إلى الثياب الخاصة بالرأس ، فمن ملابس الرأس : العصابة المكللة بالجواهر ، والفضل في انتشارها يرجع إلى علية بنت المهدي ، التي ابتكرتها وكانت ترصعها بالجوهر ، ومنها أيضا البرنس الأسود المنظوم بالجوهر ويعرف اليوم بالعوطة (٥) أما الملابس الداخلية ، فلا تعدو الغلائل الرقيقة والسراويل (٦) والأقصة الإسكندرانية (٧) ، وأما الملابس الخارجية فهي ملاحف (٨) ، أو أردية يقال لها الرشيدية

---

(١) نفس المصدر ، ج ٩ ص ٤٦٠ .

(٢) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ٣ ص ٩٦ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٠١ .

(٤) صلاح حيدري ، ص ١٤٤ .

(٥) نفس المرجع ، ص ١٤٥ .

(٦) الطبري ج ١٠ ص ١١٩ — الإبشيهي ، ج ٢ ص ١٨٨ .

(٧) المصدر نفسه ، ص ١٨٩ .

(٨) ابن طيفور ، ص ١٠١ .

أو الطبرية وكلها ملونة أما نعالهن فكانت حمراء اللون (١) ، وكن يلبسنها فوق جوارب صوفية أو حريرية وكانت الخيزران زوجة الهادى تتخذ الخفاف المرصعة بالجوهر (٢) . وكانت بعض النساء يتنقبن بمقنعة ، حتى لا تبدو وجوههن سافرة ، (٣) أو يعمدن إلى التقنع تشبها بالفرسان والرؤساء كما فعلت البانوقة بنت المهدى عندما سارت على هيئة الفتيان وعليها قباء أسود ومنطقة وشاشية (٤) ؛

ونتج عن تسلل الإباحية فى المجتمع العراقى بتأثير من الفرس ، ورواج المفاسد والمباذل ، وإدمان الناس على حياة اللهو والترف والرفه ، وإقبالهم على مجالس الغناء والطرب ، وتهافتهم على اقتناء الجوارى والقيان ، نتج عن ذلك كله شيوع لون من الانحلال الاجتماعى كان من آثاره استنامة الناس إلى الملذات وتفنن النساء فى الزينة والتبهرج ، وبالتالى تطور سريع فى فنون الزينة والفنون الصناعية المتعلقة بها كصياغة الحلى وفنون الترصيع (٥) . فلقد كان طبيعيا فى مجتمع يروج فيه بيع الجوارى والإماء أن يهتم النخاسون بثقافتهن وتنمية أذواقهن وإحساسهن الجمالى ، كما يهتموا بمظهرهن ، ويحاولوا عرضهن فى صور مغرية جذابة لرفع أثمانهن .

---

(١) الأبشيهى ، ج ٢ ص ١٨٩ .

(٢) الشابشتى ، الديارات ، ص ١٠١ .

(٣) ابن طيفور ، ص ١٠١ .

(٤) الطبرى ، ج ٩ ص ٢١ .

(٥) كالخلاخيل والأساور والخواتم المرصعة باليواقيت والفصوص وعقود اللؤلؤ مثل عقد الشبا وكان لزبيدة أم جعفر زوج الرشيد ، والأعلاق النفيسة التى تدفقت على الأسواق بعد وفاة الأمين أو قبل ذلك بقليل عندما اشتد الأمر به أيام حصار قوات المأمون لبغداد ، واضطراره إلى بيع ما بقى فى خزائنه التى انتهبت (الطبرى ، ج ١٠ ص ١٩٠).

وهناك عامل آخر ساعد على تطور فنون الزينة عند المرأة هـو مساهمـة بعض حريم الخلفاء والخاصة ممن كان لهن دور بارز فى المجتمع العراقى أمثال الخيزران أم الهادى ، وزبيـدة أم الأمين ، وزينب بنت سليمان بن على وعليـة بنت المهدى فى ترويج ابتداعات جمالية استحدثتها كابتكار فكـرة تعصيب الرأس بعصائب مكللة بالجواهر (١) وانتشار هـذا التقليد الجـديد سريعـا فى المجتمع الخاص والعام ، أو شيوع الثياب المصبغة والنعال الملونة المرصعة عنـد النساء أو رواج طريقة معينة لتصفيف الشعر واتخاذ أوضاع خاصة للذوابات (٢)، أو اتخاذ الجوهر منظوما على الشعر (٣) ، أو تزيين الرأس بتاج مرصع بنرجس من الذهب والفضة (٤) . وكانت النساء يتوسلن — لإبراز مفاتنهن وجمالهن — بأنواع الأصباغ كالحناء لصبغ أطراف أصابع اليدين والرجلين ، والخـدود والشفاه والشعر ، كما استخدم من الكحل لتكحيل أجفان العيـون والأهداب بمراود من الخشب أو الزجاج أو النحاس أو الذهب ، أو بأنواع من الطيوب والدهان مركبة من العنبر والمسك والبان (٥) .

---

(١) اتخذت فريدة جارية الواثق عصابة على رأسها كتب عليها بالذهب :

عيني تبـكى حـذر البـين ∴ ما أسخن الفرقـة للعـين

لم أرق الحب ولوعـاته ∴ أوجع من فرقـة إلفين

(راجع ابن الساعى ، نساء الخلفاء ، تحقيق الدكتور مصطفى جواد ، القاهرة ، عدد ٣٨ من سلسلة ذخائر العرب ، ص ٦٢) .

(٢) أحمد ممدوح حمدى ، معدات التجميل بمتحف الفن الإسلامى ، القاهرة ١٩٥٩ ص ١٢ — ١٤ ؛ صلاح حيدرى ، ص ١٦٢ .

(٣) الطبرى ، ج ١٠ ص ٤٣ .

(٤) نفس المصدر ، ج ١٠ ص ٢٠ .

(٥) نفس المصدر ، ج ١٠ ص ١١٥ .

(٤)

الأطعمة والأشربة

شاعت فى العصر العباسى الأول فى العراق أصناف من الأطعمة من أصول فارسية نتيجة طبيعية للتأثيرات الفارسية العميقة فى المجتمع الإسلامى ، وأسرف الخلفاء فى أنواع المآكل وتعددها ،فكانت مائدة الرشيد تحفل بألوان الطعام حتى قيل إن الطهاة كانوا يطهون له ثلاثين لونا من الطعام ، وكان الأمراء يبالغون أيضا فى ذلك حتى قيل إن عيسى بن على العباسى ، استضاف الخليفة فقدم له ولأتباعه من ألوان الطعام : الخبز ولحم الجدى والدجاج والبيض واللحم البارد وألسنة السمك وأكباد الدجاج وصدورها والمخ والكلى ثم الحلوى . وكان المنصور والمهدى يستطيبان ألوانا من المخ المعقود بالسكر والطبرزد والعسل (١) ، وكان المهدى يحب من الطيور الحمام (٢) ، وفى عهده استجدت أنواع من الأطعمة الفارسية منها السكباج الذى اعتبر أفضل أنواع الأطعمة عند العباسيين(٣) ومنها المضيرة(٤) ، ومنها الاسفيدباج(٥) ، والديكبريكة (٦)،

---

(١) المسعودى ، ج ٢ ص ٢٩٨ ، ٣١٠ .

(٢) السيوطى ، ص ٢٥٦ .

(٣) الإبشيهى ، ج١ ص ٢١١ .

(٤) البغدادى (محمد بن الحسن) : كتاب الطبيخ ، تحقيق الدكتور داود الجلبى ، الموصل ١٩٣٤ ، ص ٢٣ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٣٢ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ١٢ — ابن الجوزى ، ذم الهوى ، القاهرة ١٩٦٢ ص ٣٦٣ ، ٣٧٠ .

والطباهجات (١) ، ومن أصناف الحلوى : اللوزينج بالفستق والفالوذج والخشخانج والأرزين (٢) .

وأما أطعمة الأعراب والبدو فكانت بسيطة للغاية ولا تخرج عن الخبز الشعير والوثيئة والبقل والخضروات مع شرب اللبن فى الأكراش ، هذا إلى جانب ما كان معروفا من الأطعمة عند العرب كالثريد والشواء والقديد وما إلى ذلك(٣) أما المشروبات ، فقد غلب شرب النبيذ فى الركوات ، والشراب المصنوع من التمر والتين والجزر (٤) .

(٥)

الأعياد الاسلامية والمسيحية

واصل العباسيون الاحتفال بالأعياد الإسلامية التقليدية كالعيدين (الفطر والأضحى) وليلة القدر ، وكانت هذه الاحتفالات تتخذ مظهرين أحدهما دينى حيث يتوافد المسلمون إلى المساجد الجامعة لسماع آيات القرآن ، وخطبة العيدين ، والآخر اجتماعى حيث يجلس الخليفة للتسليم على الوزراء والهاشميين والقواد فى إيوان من قصره ، ثم يستقبل الشعراء من وراء الستر أو الحجاب ، فيسمع شيئا من قصائدهم ، ثم يأمر بإعداد سماط حافل بألوان الأطعمة ابتهاجاً

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١٤ وما يليها .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٧٤ — ٨٠ .

(٣) راجع : المسعودى ، ج ٣ ص ٣١٠ ، ٣١١ — ابن الأثير ، ج ٦ ص ٨٣ — ابن طباطبا ، ص ١٦١ .

(٤) الجاحظ ، رسالة فى الشارب والمشروب ، بيروت ١٩٦٩ ص ١١٥ — ١٢٠ .

بالمناسبة (١) ، أما الجماهير فكانت تعبر عن فرحهـــا بقرع الطبول والنفـخ فى الأبواق والظهور بأفخر الثياب ، ويخرج النـاس للنزهة على ضفاف دجـــلة والفرات ويركبون الزوارق التى تزدان بالزينات المختلفة .

وإلى جانب هذه الاحتفالات بالأعياد العربية الإسلامية ، احتفل المسلمون بأعياد فارسية بحكم اختلاط العرب بالفرس ، من هذه الأعيــاد النـوروز والمهرجان والرام ؛ فالاحتفال بالنوروز يتم فى بداية كل ربيع من السنة ، ولم يكن هذا الاحتفال مقصورا على الفرس فحسب بل أصبح عيدا شعبيا عاما يحتفل به الخلفاء احتفالا رسميا ، وكان الناس يتبادلون فى هذا العيد الهدايا . وأول من استحدث فكرة الإهداء فى النوروز أحمد بن يوسف الكاتب ، فإنه أهـدى المأمون سفط ذهب فيه قطعة عود هندى فى طوله وعرضه ، (٢) وإن كان هناك ما يؤكد أن فكرة الإهداء سبقت عصر المأمون بفترة طويلة ، فقد كتب بعض الشعراء إلى خالد بن برمك فى يوم نوروز ـــ وقد أهدى النـاس إليه هدايا فيها جامات من فضة وذهب :

ليت شعرى أما لنـــا حظ ... يا هدايا الوزير فى النوروز
ما على خالد بن برمك فى الجـو ... د نوال ينيـــله بعـــزيز
ليعه فى جام فضـة من هدايـا ... ه سوى ما به الأمير يجيزى

فأمر له بجميع ما كان حاضرا بين يديه من الجـــامات والأوانى الفضية

---

(١) الصابى ، رسوم دار الخلافة ، ص ٢٤ .

(٢) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٢ ص ٤٢٠ .

والذهبية (١) . كذلك احتفل المسلمون بالمهرجان (روز مهر أى محبة الروح) فى كل يوم ٢٦ من تشرين الأول ، ويستمر الاحتفال به ستة أيام ، ويسمى اليوم السادس منها المهرجان الكبير (٢) ، وفيه جرى الناس على تغيير فرشهم وآلاتهم وثيابهم (٣) ، واعتادوا قرع الطبول والنفخ فى الأبواق وتعليق الزينات فى ذلك اليوم .

أما عيد الرام فكان أيضا من الأعياد الفارسية القديمة ويسمى رام روز ، ويقع فى اليوم الحادى والعشرين من شهر مدماه الفارسى .

وكان النصارى يحتفلون بأعيادهم فى الأديرة العديدة المنتشرة فى العراق ، وكان لكل دير عيد خاص يحتفلون به فى أوقات معينة من السنة (٤) ، ومن رسوم الاحتفال خروج أهل الدير فى موكب يتقدمه القساوسة وهم ينشدون وقد ارتدوا حللهم الكنسية وحملوا المجامر فى أيديهم ، أما بالنسبة لطوائف النصارى فقد كانوا يلبسون فى أعيادهم المسيحية فاخر ثيابهم من مطارف الخز والديباج . ويروى الجاحظ أن أبا قابوس النصرانى الحيرى ، دخل على جعفر ابن يحيى فى يوم بارد ، فتبين عليه جعفر اثر البرد فألقى إليه مطرف خز كان شراء جملة كبيرة ، وانصرف أبو قابوس ، فحضره عيد لهم ، فالتمس فى ثيابه ما يشاكل ذلك المطرف فلم يجده ، فقالت له ابنته : لو كتبت إلى جعفر فعرفته حالك لوجه إليك ما تلبسه مع هذا ، فكتب إليه :

---

(١) ابن طباطبا ، ص ١٤٠ — الأعياد ، النوروز ، ص ٤٨ .

(٢) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٢ ص ٤٠٨ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٤١٢ .

(٤) الشابشتى ، كتاب الديارات ، ص ٣ .

أبا الفضل لو أبصرتنا يوم عيدنا ∴ رأيت مباهاة لنا فى الكنائس
فلو كان هذا المطرف الخزجية ∴ لباهيت أصحابى به فى المجالس
فلابد لى من جبة من جبابكم ∴ ومن طيلسان من جياد الطيالس
ومن ثوب قومى(١) وثوب ملاءة ∴ ولا بأس لو أتبعت ذاك بخامس
إذا تمت الأثواب فى العيد خمسة ∴ كفتك فلم تحتج إلى لبس سادس
لعمرك ما أفرطت فيما سألته ∴ ولا كنت لو أفرطت فيه بيائس
وذاك لأن الشعر يزداد جدة ∴ إذا ما البلى أبلى جديد الملابس

فوجه إلى أبى قابوس كل صنف ذكره عشر قطع »(٢) .

وكان المسلمون يشاركون النصارى أعيادهم ، فى الأحد الأول من أعياد الصوم الكبير حيث يجرى الاحتفال بالعيد فى دير العاصمة الواقع على نهر المهدى ، فى موضع نزه تكثر حوله البساتين والأشجار ، يزدحم الناس نصارى ومسلمين على السواء (٣) ، وفى الأحد الثانى يحتفل بالعيد فى دير الزريقية ، وفى الأحد الثالث فى دير الزندورد الواقع فى الجانب الشرقى من بغداد فى منطقة زراعية يكثر فيه الكروم فيتجمع عشاق الطرب ورواد النزهة ، وفى الأحد الرابع فى دير درمالس الواقع بباب الشماسية يجتمع نصارى بغداد ومن يسعى إلى اللهو والنزهة المتعة والفرجة (٤) . وفى عيد القديسة أشمونى يحتفل دير أشمونى الواقع فى منطقة قطربل بالجانب الغربى من بغداد بهذا العيد فى ، من

---

(١) أى من بلاد قوهستان (بلاد الجبال) .

(٢) الجهشيارى ، ص ١٦٤ .

(٣) الشابشتى ، كتاب الديارات ، ص ٩ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٣ .

تشرين الأول احتفالا رائعا يعد من الأيام البهجية لدى أهل بغداد ، فيقصدون إلى الدير عن طريق نهر الدجلة ، ويركبون السفن المختلفة كالطيارات والسميريات والزبازب وقد لبسوا أبهى حللهم ، ويقضى بعضهم هذا اليوم إما فى الخلاء أو فى الحانات حيث يقبلون على شراب النبيذ ، والأغنياء منهم ينصب خيمته (١) .

(٦)

الزواج والطلاق

مركز المرأة : لعبت نساء الخلفاء العباسيين والخاصة دورا فعالا فى توجيه السياسة العباسية منذ ايام السفاح الذى تزوج أم سلمة بنت يعقوب فغلبت عليه غلبة شديدة حتى ما كان يقطع أمرا إلا بمشورتها وبتأمرها حتى أفضت إليه الخلافة فلم يكن يدنو إلى النساء غيرها لا إلى حرة ولا إلى أمة (٢) ، كما أسهمت بعضهن فى النهوض بالفنون والآداب فى هذا العصر ، فالمهدى أطلق يد زوجته الخيزران أم ولديه الهادى والرشيد ، وكانت جارية يمنية اشتراها المهدى فأعتقها وتزوجها (٣) ، وأوصاها بأن تلزم زينب بنت سليمان بن على لتقتبس من ادابها وأخلاقها (٤) ، كما أخذت العلم على الأوزاعى ، وكان الهادى كثير الطاعة لها مجيبا لها فيما تسأل من الحوائج للناس

---

(١) الشابشتى ، الديارات ، ص ٣٠

(٢) المسعودى ، ج ٣ ص ٢٦١ .

(٣) الإربلى ، ص ١١٦ .

(٤) المسعودى ، ج ٣ ص ٣١٣ .

فكانت المواكب لاتخلو من بابها (١) وفى عهد الرشيد أصبحت الخيزران هى الناظرة فى الأمور، وكان يحيى بن خالد الوزير يصدر الأمور إلى هرون عن رأيها (٢) . ولما توفيت فى ٢٧ من جمادى الآخرة سنة ١٧٣ هـ شوهد الرشيد وعليه طيلسان أزرق قد شد وسطه وهو آخذ بقائم السرير حافيا يعدو فى الطين حتى أتى مقابر قريش ، فغسل رجليه ودعا بخف ، فصلى عليها ودخل قبرها ، فلما خرج من المقبرة ، وضع له كرسى، فجلس عليه ودعا الفضل بن الربيع وقال : « وحق المهدى إنى لأهم بالشىء لك من الليل التولية وغيرها فتمنعنى أمى فأطيع أمرها ... » (٣) . وذكر ابن الأثير أن وفاة الهادى إنما حدثت بترتيبها ، فقد أمرت عددا من جواريها بقتله ، « وكان سبب أمرها بذلك أنه لما ولى الخلافة كانت تستبد بالأمور وتسلك به مسلك المهدى حتى مضى أربعة أشهر ، فانثال الناس إلى بابها ... » (٤) . وذكر السيوطى عندما تعرض لذكر الهادى : « كانت أمه حاكمة مستبدة بالأمور الكبار » (٥) . ولكن استبدادها سواء فى عصر المهدى أو الهادى أو السنتين الأوليين من خلافة الرشيد لم يكن عن جهل . والظاهر أنها كانت مستنيرة على قدر كبير من الثقافة ، ومن المعروف أن جميع المنشآت العلمية وحركة الإصلاحات الإجتماعية والإقتصادية التى قام بها المهدى إنما نفذت بتأثير زوجته الخيزران ، وكانت تتولى البت فى

(١) المسعودى ، ج٣ ص ٣٢٧ .

(٢) الإربلى ، ص ١٠٨ — ابن الأثير ، ج ٦ ص ٢٠٨ .

(٣) الإربلى ، ص ١١٢ .

(٤) ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٠٠ .

(٥) السيوطى ، ص ٢٦١ .

الأمور فى عهد الهادى والرشيد ، ونافست السيدة زبيدة زوجة الرشيد وأم محمد الأمين (١) ، التى يرجع إليها الفضل هى الأخرى فى تنفيذ بعض المشروعات الإصلاحية ، فإليها ينسب حفر بئر زمزم فى سنة ١٩٠ هـ ، فقد اتفق أن حجت فى هذه السنة فنال الناس عطش جديد ، وغارت زمزم حتى نضب ماؤها ، فأمرت بتعميق البئر تسع أذرع لتزيد الماء (٢) . وكان الرشيد يجد بها وجدا شديداً (٣) ، ويستجيب لرغباتها ، وهى التى حرضته على البرامكة ، إذ كانت تكره يحيى بن خالد وتذمه وتثلبه أكثر ما يثلب به أحد (٤) وكانت بوران بنت الحسن بن سهل وزوجة المأمون قد طلبت منه أن يعفو عن إبراهيم بن المهدى ، وكان قد سجنه فى دار أحمد بن أبى خالد ، فاستجاب لرجائها وأطلقه ورضى عنه (٥) على الرغم من أن إبراهيم كان قد خرج على المأمون وبويع له بالخلافة .

ومن الجدير بالذكر أن نساء الخلفاء كن مستنيرات ، وكانت بعضهن شاعرات ينظمن الشعر ويحضرن المجالس والمناظرات من وراء الستار ويشتركن فى مناظرة الرجال (٦) . وبالإضافة إلى نساء الخلفاء، كان للجوارى المغنيات أثر كبير فى تقدم الحركة الفنية والأدبية ، فقد كانت بعضهن شاعرات، نذكر منهن عريب جارية المأمون التى قيل عنها إنه لم يرا مرأة قط أحسن وجهاً

---

(١) تزوجها الرشيد فى سنة ١٦٥ ، وكنيتها أم جعفر بنت جعفر بن أبى جعفر المنصور .

(٢) اليعقوبى ، ج ٢ ص ٤٢٩ .

(٣) الجهشيارى ، ص ١٢٨ .

(٤) نفس المصدر ، ص ١٧٨ .

(٥) ابن طيفور ، ص ١٠١ .

(٦) ابن قيم الجوزية ، أخبار النساء ، طبعة بيروت ، ١١٧ .

وأدبا وغناء وضربا وشعرا ولعبا بالشطرنج منها . ومنهن عنان جارية الناطفي التي كانت تجيد نظم الشعر حتى أعجب بها الرشيد فاشتراها من صاحبها (١) .

أما المرأة المسلمة العادية فكان دورها في المجتمع العباسي يكاد يكون سلبيا ، فقد كان لتسلل الأفكار الفارسية القديمة والمناداة بالإباحية في هذا العصر أثر بالغ في شيوع الفساد ، وأدخل الفرس نوعا من الشعر الرخيص في الغزل بالمذكر ، وظهر المتخنثون والمتغزلون في الصبيان ، وترتب على ذلك أن بالغ الرجال في حجز الحرائر من النساء في الخدور وتشديد الحجاب عليهن .

الزواج والطلاق :

كان الزواج يتم عادة بموافقة الآباء ، ويتم الزفاف في حفل تجتمع فيه أسرتا العروسين وتقام الولائم وتذبح الذبائح ، ويتم العرس في جو بهيج - تتخلله الأغاني والموسيقى والرقص على الآلات الوترية والمزاهر والدفوف ، وقد وصل إلينا لحسن الحظ وصف تفصيلي لزواج المأمون من بوران بنت وزيره الحسن بن سهل ، وهذا الزواج وإن كان مبالغا في تفخيمه (باعتباره زواج أحد الخلفاء) إلا أنه يصور لنا جانبا من جوانب المجتمع العباسي ؛ وفيما يلي ما أورده ابن طيفور في وصف بناء المأمون ببوران في ٢٦ شهر رمضان سنة ٢١٠ : « حدثني الحارث بن نصر المنجم — وكان من أصحاب الحسن بن سهل — قال : لما زار المأمون الحسن بن سهل البناء ببوران ، ركب من بغداد زورقا حتى أرفى على باب الحسن بن سهل ، وكان العباس بن المأمون قد تقدم على الظهر ، فتلقى الحسن خارج عسكره في موضع كان اتخذ له على شاطىء دجلة

---

(١) صلاح حيدري ، ص ١٦١ .

بنى له فيه جوسق قال : فلما عاينه العباس ثنى رجله لينزل ، فحلف عليه ألا يفعل ، فلما ساواه ثنى رجله الحسن لينزل ، فقال له العباس : بحق أمير المؤمنين لاتنزل . فاعتنقه الحسن وهو راكب ، ثم أمر أن يقدم إليه دابته ودخلا جميعا إلى منزل الحسن ، ووافى المأمون فى العشاء ، وذلك فى شهر رمضان من سنة عشر ومائتين ، فأفطر هو والحسن والعباس ، ودينار بن عبد الله قائم على رجله حتى فرغوا من الإفطار وغسلوا أيديهم ، فدعا المأمون بشراب ، فأتى بجام ذهب فصب فيه وشرب ، فمد يده بجام فيه شراب إلى الحسن [بن سهل] فتباطأ عنه الحسن لأنه لم يكن يشرب قبل ذلك ، فغمز دينار بن عبد الله الحسن ، فقال الحسن : يا أمير المؤمنين أشربه بإذنك وأمرك ؟ فقال له المأمون : لولا أمرى لم أمدد يدى إليك . فأخذ [الحسن] الجام فشربه . فلما كان فى الليلة الثانية جمع بين محمد بن الحسن بن سهل ، والعباسة بنت الفضل [بن سهل] ذى الرئاستين (١)

فلما كان فى الليلة الثالثة دخل على بوران وعندها حمدونة [بنت غضيض] ، وأم جعفر ، وجدتها . فلما جلس المأمون معها نثرت عليها جدتها ألف درة كانت فى صينية ذهب ، فأمر المأمون أن تجمع ، وسألها عن عدد الدر كم هو ؟ فقالت ألف حبة . فأمر بعدها ، فنقصت عشرة ، فقال : من أخذها منكم ردوها . فقالوا : حسين زجلة ، فأمر بردها ، فقال : يا أمير المؤمنين إنما نثر لنأخذه ، قال ردها ، فإنى أخلفها عليك . فردها ، وجمع المأمون ذلك الدر فى الآنية ووضعه فى حجرها وقال : هذه نحلتك فاسألى حوائجك ؟

(١) كان من التقاليد الشائعة فى المجتمع العباسى أن يتزوج الرجل بنت عمه (ابن قيم الجوزية ، أخبار النساء ، ص ١٠٦) .

فأمسكت : فقالت لها جدتها : كلمى سيدك واسأليه حوائجك فقد أمرك . فسألته الرضى عن إبراهيم بن المهدى . فقال : قد فعلت ، وسألته الإذن لأم جعفر فى الحج ، فأذن لها ، وألبستها أم جعفر البدنة الأموية (١) ، وابتنى بها فى ليلته ، وأوقد فى تلك الليلة شمعة عنبر فيها أربعون منا فى تور ذهب ، فأنكر المأمون ذلك عليهم ، وقال : هذا سرف ، (٢) .

وذكر الإربلى أن يحيى بن خالد البرمكى أراد أن يزوج ابنته عائشة من ابن عمه، فقعد فى دكة وسط بستان مع مائة رجل من المدعوين يخدمهم نحو مائة خادم وفى يد كل منهم مجمرة ذهب فيها القطعة عنبر ، بخروا المدعوين ، وأقبل يحيى بن خالد إلى القاضى وطلب منه عقد الزواج ، فعقد ، ثم أمر يحيى بنثر فتات المسك وبنادق العنبر وتماثيل الند على الحاضرين ، فالتقط الناس ، ثم جاء الخدم يحمل كل منهم صينية من الفضة عليها ألف دينار مخلوطة بالمسك فأخذ كل من الحاضرين صينية بما فيها (٣) .

وكان الزوج يقدم صداقا للعروس يتفاوت قدره حسب يسره ، فأبو العباس السفاح قبل أن يلى الخلافة كان فقيرا ، أحبته أم سلمة بنت يعقوب ابن سلمة بن عبد الله بن الوليد بن المغيرة المخزومى بعد أن توفى هشام بن عبد الملك ، فأرسلت له مولاة لها تعرض عليه أن يتزوجها وقدمت له مالا بعد أن عرفت أنه مملق لا مال له ، فأصدقها من مالها ٥٠٠ دينار (٤) .

---

(١) ثوب أشبه بالقفطان مرصع بالدر والياقوت .

(٢) ابن طيفور ، ص ١١٣ و ١١٤ .

(٣) الإربلى ، ص ١٥٣ .

(٤) المسعودى ، ج ٣ ص ٢٦٠ .

وشاع في العصر العباسي الأول اتخاذ الجـــواري إلى جانب الزوجات الحرائر ، بل إن كثيراً من الزوجات كن يهدين أزواجهن ما يرضاه من الجواري ، كما فعلت السيدة زبيدة مع الرشيد (١) ، وهذا يفسر أن معظم خلفاء العصر العباسي الأول كانوا من أمهات أولاد باستثناء السفاح والمهدي والأمين ، والظاهر أن الأمة كانت توفر لمالكها كل وسائل الراحة مع قلة المؤونة وحسن الخدمة ثم هي تحل مشكلة الإنجاب . وقد عدد الجاحظ بعض محاسن التزوج بالجواري فقال : « كان يقال من أراد قلة المؤونة وخفة النفقة وحسن الخدمة وارتفاع الحشمة فعليه بالإماء دون الحرائر . وكان مسلمة بن مسلمة يقـول : عجبت لمن استمتع بالسراري كيف يتزوج المهائر ؟ » (٢) .

أما الطلاق فلم يكن شائعاً في العصر العباسي الأول ، وكان من دواعيه سوء سلوك أحد الزوجين (٣) ، أو إقبال الرجل على الجواري وإهماله لزوجته الحرة التي تزوجها دون أن يرى وجهها .

---

(١) الأغاني ، ج ٢ ص ١٦٠ .

(٢) الجاحظ ، المحاسن والأضداد ، بيروت ١٩٦٩ ، ص ٢٣٠ .

(٣) ابن الجوزية ، ص ٧٤ .

(٧)

مراسم الاحتفالات الجنائزية

لا تختلف جنائز الموتى فى العصر العباسى الأول عنهـــا فى العصر الأموى أو العصور التالية ، فتلك هذه الرسوم قلما تتغير ، وحتى إذا تطورت فإن هـذا التطور لا يحدث فجأة وإنما يتم على مراحل تدريجية . وتختلف الجنائز من حيث عدد المشيعين باختلاف شخصية المتوفى الاجتماعية ومنزلته ومكانته فى المجتمع ، فإذا كان عالما كبيرا ازداد عدد مشيعيه ، كما حدث عند وفاة الإمام أحمد بن حنبل إذ شيعه ٨٠٠ ألف رجل و٦٠ ألف امرأة ، وذكر الجهشيارى أنه لمـــا مات الفضل بن يحيى البرمكى فى ٥ من المحرم سنة ١٩٣ صلى عليه أكثر الناس ، وافتقد الجزع من الخاصة والعامة عليه ، واغتم عليه جميع من عرفه ، وكثر التضاغط والتزاحم فى جنــازته (١) . وقد يشترك فى الجنازة شخصيـات بارزة رسمية ، وقد يكون من بين المصلين على المتوفى شخصيات جليلة ، كما حدث عندما قبض الإمام على بن موسى الرضا بطوس فصلى عليه المأمون(٢) كذلك صلى الرشيد على أمه الخيزران(٣) وعند وفاة رجل جليل جرت العادة أن تغلق الأسواق، وتخرج النساء حسرا ناشرات الشعور يلطمن وجوههن ويندبن تحبيبا عن فجيعتهن بالمصاب، وقد يمشين حافيات ، ويضربن صدورهن بالنعال (٤) . وإذا كانت الفاجعة فى أحد

---

(١) الجهشيارى ، ص ٢١٠ . وذكر القفطى أنه لما مات بختيشوع الطبيب كانت جنازة مشهورة (ص ١٤٢) .

(٢) المسعودى ، ج ٣ ص ٤٤١ .

(٣) الإربلى ، ص ١١٧ .

(٤) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ٣ ص ١٠٤ . وقد شارك الرجال النساء فى اللطم وشق الجيوب والبكاء كما فعل الربيع بن يونس عندما مات المنصور (ابن الأثير ج ٦ ص ٣٤) .

الأبناء ، يجزع الأبوان عليه جزعا شديدا وقد يمتنعان عن الطعام والشراب ، وذكروا فى ذلك أنه مات ابن لسليمان بن على فجزع عليه وحرم على نفسه الطعام ، وجعل الناس يعزونه فلا يحفل بذلك ، حتى دخل عليه يحيى بن منصور فعزاه بالبيت التالى :

وهون ما ألقى من الوجد أننى ∴ أساكنه فى داره اليوم أو غدا

فقال له أعد ، فأعاده ، فنادى على الفور غلامه يأمره بالغذاء (١) . وعندما ماتت البانوقة بنت المهدى ، وكان معجبا بها لا يطيق الصبر عنها حتى إنه كان يلبسها لبس الغلمان ويركبها معه ، وجد عليها وأمر أن لا يحجب عنه أحد(٢) .

ومات لعبد الرحمن بن مهدى ابن فجزع عليه جزعا شديدا ، فبعث إليه الإمام الشافعى يقول : « يا أخى عز نفسك بما تعزى به غيرك ، واستقبح لنفسك ما تستقبحه من غيرك ، واعلم أن أمض المصائب فقد سرور وحرمان أجر ، فكيف إذا اجتمعا مع اكتساب وزر ؟ ألهمك الله عند المصائب صبرا ، وأحرز لنا ولك بالصبر أجرا » (٣) .

وكان العزاء يتم على مرحلتين : الأولى قبل دفن المتوفى والثانية بعد الدفن ، وتكره التعازى بعد ثلاثة أيام من الوفاة حتى لا تتجدد أحزان المصاب ، إلا فى حالة غياب المعزى أو صاحب المصيبة حال الدفن (٤) .

---

(١) ابن الأثير ، ج ٤ ص ١٠٥ .
(٢) نفس المصدر ، ج ٦ ص ٨٧ .
(٣) الابشيهى ، ج ٢ ص ٣٢٦ .
(٤) نفس المصدر ، ص ٣٣٤ .

وكان يقام للشخصيات البارزة أضرحة لقبورهم ، تزار فى الأعياد أو بعض المناسبات الدينية ، فقد دفن يحيى بن خالد بن برمك بالرافقة على شاطىء الفرات وبنى على قبره بناء عال (١) ، وكذلك كان يقام للأولياء وكبار العلماء أضرحة ذات قباب ومآذن . وجرت العادة أن تكون ملابس الحداد سوداء أو زرقاء كما حدث عندما بلغ زبيدة أم الأمين نبأ مصرع ابنها ، فأمرت بثيابها فسودت ولبست مسحا من شعر (٢) ، كذلك لبس الرشيد يوم وفاة أمه طيلسانا أزرق اللون (٣) .

ومن آثار الأضرحة والمشاهد الباقية حتى اليوم فى بغداد من العصر العباسى الأول ، جامع وتربة الإمام أبى حنيفة النعمان التى دفن فيها سنة ١٥٠ ، ومشهد الكاظمين الذى دفن فيه الإمام السابع موسى الكاظم سنة ١٨٧ هـ (٨٠٢ م) ودفن بعده بثلاثين سنة حفيده الإمام التاسع محمد الجواد التقى ، وتربة الشيخ معروف الكرخى (٢٠٠ هـ) وقبور مريديه من الصوفية .

(١) الجهشيارى ، ص ٢١٠

(٢) المسعودى ، ج ٣ ص ٤١٥ .

(٣) الأزدى ، ص ١٩٢ .

ثانيا

التنظيمات العمرانية

(١)

المراكز العمرانية الجديدة فى العراق

١ — بغداد دار السلام أو مدينة المنصور :

حتمت الظروف التى قامت فيهـا الدولة العباسية على الخليفة الاول أبا العباس السفاح أن يتحول عن دمشق حاضرة الأمويين لعدة أسباب : منها أنه من شأن الأسرات الحاكمة الجديدة أن تتخذ مراكزها وقواعدها بين قوم أولى عصبية يعتزون بهم ، ولما كانت دمشق أموية وبعيدة عن خراسان مركز الثورة العباسية ، فقد اقتضى الأمر قاعدة تقرب من خراسان وتبعد عن الشام مركز العصبيات العربية التى اعتمد عليها الأمويون . ومنها تطلع الدولة العباسية من الوجهتين السياسية والحربية نحو الشرق بدلا من البيزنطيين ، لأن أواسط آسيا والشرق الأقصى سيصبح هـدف الفتوحات الإسلامية فى العصر العباسى الأول ، ومنها أن موقع دمشق لا يتيح للعباسيين الاتصال التجارى ببلاد الهند والهند الصينية والصين . وعلى هذا النحو فكر السفاح منذ توليه دست الخلافة فى أن يتخذ مقرا له فى العراق ، واختيار هـذا المقر لم يتم نهائيا إلا بعد إنشاء بغداد فى خلافة المنصور ، بمعنى أن تأسيس بغداد واتخاذها المقر النهائى للخلافة العباسية طوال قرونها الخمسة مر بمرحلتين :

١ — مرحلة إنشاء هاشمية الأنبار :

انتقل أبو العباس السفاح من الحيرة ، فنزل الأنبار (١) واتخذ بها مدينة سماها الهاشمية في سنة ١٣٤ هـ ، ونظرا لأن أخاه المنصور سيؤسس مدينة أخرى بهذا الاسم في موضع آخر ، فقد سميت هاشمية السفاح بهاشمية الأنبار بسبب قيامها بجوار الأنبار المدينة الفارسية القديمة الواقعة على ضفة الفرات الشرقية عند تفرع نهر عيسى من الفرات (٢) . ويذكر اليعقوبي أن السفاح اشترى من الناس أراضي كثيرة بنى فيها منشآت المدينة ، ثم عوضهم عنها بماله ، ولما مات دفن في قصره بهاشمية الأنبار (٣) .

٢ — مرحلة إنشاء هاشمية الكوفة :

لما بويع المنصور بالخلافة في سنة ١٣٦ هـ (٧٥٤ م) ترك الحيرة ثم شخص إلى الأنبار مدينة أبي العباس فضم إليه أطراف أخيه وخزائنه (٤) . ثم إنشأ في أول خلافته مدينة جديدة بنواحي الكوفة سماها الهاشمية وكانت تقع وفقا لإحدى الروايات بين المعسكر العربي في الكوفة وبين الحيرة أي على جانب الفرات (٥) الغربي ، ووفقا لرواية أخرى قبالة مدينة ابن هبيرة الواقعة بجوار

---

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٤٠٤ .

(٢) لي لسترنج " بغداد في عهد الخلافة العباسية ، ص ١٣ .

(٣) اليعقوبي ، ج ٢ ص ٣٠٨ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٣٦٠ .

(٥) ابن طباطبا ، ص ١٤٣ .

الكوفة (١) . وفى هذه المدينة وقعت واقعة الراوندية التى كاد يقتل فيها المنصور، ولهذا السبب كره المنصور الإقامة فيها بعد أن قضى على حركة الراوندية، كما كره الإقامة فيها لعامل آخر هو مجاورة أهل الكوفة الشيعة لها، فقد كان لا يأمنهم على نفسه، وكانوا قد أفسدوا عليه جنده(٢). وقد خطب فى الهاشمية بعد أن قبض على عبد الله بن الحسن فقال فى جملة ما قاله « . . . ثم قام من بعده الحسين بن على رضى الله عنه، فخدعه أهل العراق وأهل الكوفة وأهل الشقاق والنفاق والإغراق فى الفتن، أهل هذه المدرة السوء (وأشار إلى الكوفة)، فو الله ما هى لى بحرب فأحاربها ولا هى لى بسلم فأسالمها، فرق الله بينى وبينها »(٣) . وذكر اليعقوبى أن أبا جعفر أخذ فى بناء الرافقة فيما يقرب من سنة ١٥٥، وكان أخوه السفاح قد ابتدأ بنائها، ولما فرغ المنصور من إنشاء الرافقة لم ينزلها (٤) . وإنما نزلها الرشيد واتخذها مقرا له (٥) .

وهكذا لم يوفق لا السفاح ولا المنصور فى تأسيس مقر ثابت لدولتهما، وتحتم على المنصور البحث عن موضع جديد أفضل من المواضيع السابقة وتتوفر

---

(١) الإربلى، ص ٧٢ .

(٢) ابن الأثير، ج ٥ ص ٥٥٨ — ابن طباطبا، ص١٤٣ .

(٣) المسعودى، ج ٣ ص ٣٠٠ .

(٤) اليعقوبى، ج ٢ ص ٣٧٠ . وتقع الرافقة بالقرب من الرقة، وما زالت آثارها موجودة حتى اليوم، وتتمثل فى أطلال قصر الرشيد . ويذكر كونل أن المنصور كرر تجربة مدينته المدورة (بغداد) عندما وضع تخطيط الرافقة على شكل حدوة الفرس. ومازالت أسوارها المحصنة بالأبراج المشيدة باللبن تحتفظ بأشكالها .

(كونل، الفن الإسلامى، ترجمة أحمد موسى، القاهرة ١٩٦١ ص ٢٤) .

(٥) الجهشيارى، ص ٢١٠ — ابن طيفور، ص ٨٥ .

فيه جميع المزايا الإستراتيجية والمناخية والإقتصادية ، وفى هذه المرة كان لابد أن يقع الاختيار فى منطقة خصبة وحصينة فى آن واحد ، بعيدة عن حد الصحراء التى تمتد على طف الفرات حيث تقع الحيرة والكوفة والانبار والهاشمية (١) . ويذكر المؤرخون أنه خرج يرتاد منزلا ينزل فيه ويتخذه مقرا لدولته وأجناده ، فانحدر إلى جرجرايا الواقعة على دجلة ثم أصعد مع النهر شمالا إلى الموصل ، وهناك ذكر له موضع قريب من بارما إلى جنوب الموصل حيث يقطع نهر دجلة جبل حمرين ، ولكنه لم يستحسنه ، وهناك قدم إليه أحد الجند وأبلغه أن طبيبا نصرانيا كان يعالج عينيه من رمد أصابه أخبره بأنه سمع أن مدينة ستبنى بين دجلة والصراة تدعى الزوراء ، فعاد المنصور ونزل عند الدير القائم بحذاء قصر الخلد ، وهناك شاور الدهقان صاحب الموقع الذى حدده له واسم الموقع بغداد (٢) ، فقال له : « يا أمير المؤمنين ، سألتنى عن هذه الأمكنة وما تختار منها ، وإنى أرى أن تنزل أربعة طساسيج [أى نواحى] فى الجانب الغربى طسوجين وهما قطربل وبادوريا ، وفى الجانب الشرقى طسوجين وهما نهر بوق وكلواذى ، فيكون بين نخل وقرب الماء ، وإن أجدب طسوج وتأخرت عمارته كان فى الطسوج الآخر العمارات . وأنت

---

(١) لسترنج ، ص ١٥ .

(٢) يدل هذا الاسم على أن بغداد مدينة قديمة من أيام الفرس وكانت تقع عند ضفة دجلة الغربية بأعلى مصب نهر الصراة تماما . وثبت من الحفريات الأثرية التى أجريت حديثا فى موقع بغداد أن الموقع قديم للغاية بدليل الواجهة المشيدة من الآجر البابلى التى لاتزال تحاذى دجلة الغربية عند بغداد ، وبدليل أن كل قطعة من الآجر مختومة باسم نبوخذ نصر وألقابه ، ثم إن اسم بغداد شبيه باسم بكدد والمسجل فى السجلات الأشورية (راجع لسترنج ، ص ١٧).

يا أمير المؤمنين على الصراة ، تجيئك الميرة فى السفن من المغرب فى الفرات وتجيئك طرائف مصر والشام ، وتجيئك الميرة من الصين والهند والبصرة وواسط وديار بكر والروم والموصل وغيرها فى دجلة ، وتجيئك الميرة من أرمينية وما اتصل بها فى تامرا حتى يتصل بالزاب ، فأنت بين أنهار لا يصل إليك عدوك إلا على جسر أو قنطرة ، فإذا قطعت الجسر وأخربت القنطرة لم يصل إليك ، ودجلة والفرات والصراة خنادق هذه المدينة ، وأنت متوسط البصرة والكوفة وواسط والموصل والسواد ، وأنت قريب من البر والبحر والجبل » . (١) فاقتنع المنصور بكلامه وعزم على النزول فى ذلك الموضع .

ا – بغداد وأسماؤها الأخرى :

رأينا أنه كان يقوم فى نفس موقع بغداد آثار قرية فارسية قديمة تحمل إسم بغداد ، وقد استندنا فى ذلك على ما أسفرت عنه الحفريات الأثرية من جهة وعلى الروايات التاريخية من جهة ثانية ، ونضيف إلى هذين السندين سند ثالث أدبى يتمثل فى بيت من الشعر من قصيدة أنشدها الحسين الخليع عند حصار طاهر بن الحسين لبغداد فخربت وخاف الناس أن تبقى خرابا ، والبيت نصه :

ما أحسن الحالات إن لم تعد .·. بغداد فى القلة بغداذا (٢)

---

(١) المقدسى ، ص ١١٩ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ٥٥٨ وقارن ذلك بالإدريسى ، ص ٧٢ ، ٧٣ — اليعقوبى ص ٢٣٣ ، ووصفها اليعقوبى بأنها « مفرصة الدنيا » تصل إليها متاجر واسط والبصرة والأبلة والأهواز وفارس والبحرين وعمان وما يأتى دجلة من الموصل وديار بكر . . . » (البلدان) .

(٢) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٢٧٢ . ومعنى ذلك أنه يرجو ألا تعود بغداد (مدينة الخلافة) إلى ما كانت عليه بغداذ القرية القديمة .

واسم بغداذ الذي كانت تعرف به وحرف فيما بعد إلى بغداد(١) إسم فارسي مشتق في رأى لسترنج من « بغ » أي (الله) و « داذ » أي إنشاء وتأسيس ، فيصبح معنى اسم بغداد على هذا النحو (أسسها الله) (٢) .

وهناك تفسيرات أخرى الاسم أوردها الجغرافيون العرب ، فبعضهم يزعم أنها مشتقة من مقطعين « باغ » وتعنى بالفارسية (بستان) وداد اسم شخص لعله دادويه ، وبعضهم يجعل بغ إسم صنم و « داد » من المصدر الفارسي دادن بمعنى عطية وبذلك تعنى بغداد عطية الصنم ، ولهذا السبب بدله المنصور اسمها وسماها مدينة السلام (٣) وهو الاسم الرسمى لبغداد الذي نقش على العملات العباسية ، ولكن الناس حافظوا على اسمها القديم .

ويعتقد الاستاذ بشير فرنسيس أن اسم بغداد آرامي مبنى ومعنى (٤) ، وأنه يتألف من مقطعين : الأول : « ب » بمعنى بيت (مثل باجرمي وباخرى وباطنايا وبكفايا) والثاني كدادا بمعنى غنم ، ويصبح معنى بغداد أو بكدادا بيت الغنم أي سوق الغنم (٥) ، ويؤيد هذا الرأى كل من الأستاذ فؤاد ألحرام

---

(١) ورد الإسم في المعاجم الجغرافية بصور مختلفة منها بغداذ وبغدان ومغداد ومغداذ ومغدان .

(٢) لسترنج ، ص ١٨ .

(٣) المسعودى ، ج ٣ ص ٢٩٧ — البلاذرى ج ٢ ص ٣٦١ .

(٤) بشير فرنسيس ، بغداد ، تاريخها وآثارها ، بغداد ١٩٥٩ ص ٦ .

(٥) لسترنج ، ص ١٨ هامش رقم ٢ .

البستانى ، (١) والدكتور عبد العزيز الدورى (٢) استناداً إلى التفسير اللغوى وإلى الإسم القديم لبغداد بمعنى سوق الغنم . ويدعم الدكتور الدورى موافقته بنص أورده الطبرى ذكر فيه : « وذكر عن حماد التركى أن المنصور بعث رجالا يطلبون له موضعا يبنى فيه المدينة ، فطلبوا ذلك فى سنة ١٤٤ قبل خروج محمد بن عبد الله بسنة أو نحوها ، فوقع اختيارهم على موضع بغداد قرية على شاطىء الصراة مما يلى الخلد ، وكان فى موضع بناء الخلد دير ، وكان فى قرن الصراة مما يلى الخلد من الجانب الشرقى أيضا قرية ودير كبير كانت تسمى سوق البقر وكانت القرية تسمى العتيقة ، وهى التى افتتحها المثنى بن حارثة الشيبانى » (٣) . ويؤكد بشير فرنسيس أن الاسم ورد فى الكتابات الآشورية بصورة بغداد وأربكدادو(٤).

ومن أسماء بغداد مدينة المنصور ومدينة السلام والمدينة المدورة ، وكان جانبها الغربى يسمى بالزوراء لأن نهر دجلة ينحنى عندها ، أما جانبها الشرقى فكان يسمى الروحاء لاتساعه وانفراجه فى هذه الانحناءة من النهر .

---

(١) فؤاد أفرام البستانى ، أصل اسم بغداد ، مجلة المشرق سنة ١٩٣٤ عدد ٤ ص ٦٦ — ٦٩ .

(٢) العصر العباسى الأول ، ص ٩٧ .

(٣) الطبرى ، ج ٩ ص ٢٤١ . ويؤكد البلاذرى قدم بغداد فيقول : « وكانت بغداد قديمة فمصرها أمير المؤمنين المنصور رحمه الله وابتنى بها مدينة » (البلاذرى ، ج ٢ ص ٣٦١) ؛ وذكر الطبرى نقلا عن أحمد بن حميد بن جبلة أن مدينة المنصور كانت قبل بنائها مزرعة للبغداديين يقال لها المباركة (الطبرى ج ٩ ص ٢٤٣)

(٤) بشير فرنسيس ، ص ٦ .

ب — الموقع وبداية التخطيط :

كان موقع بغداد يشغله عدد من أديرة الرهبان النساطرة ، الذين أشاروا على المنصور باختياره موضعا لمدينته لأن بقعته تمتاز عن غيرها من الأراضي الواقعة على دجـلة بخلوها من الوباء الذي يحمله البعوض ، ولطيب لياليها وصفائها حتى فى أشد أيام الصيف حرارة. وفى اختيار الموقع لدينا روايتان؛ الأولى رواية عمر بن شبة عن سليمان بن مجالد نصها : « أفسد أهل الكوفة جند أمير المؤمنين المنصور عليه ، فخرج نحو الجبل يرتاد منزلا والطريق يومئذ على المدائن ، فخرجنا على ساباط ، فتخلف بعض أصحابي لرمد أصابه ، فأقام يعالج عينيه ، فسأله الطبيب : أين يريد أمير المؤمنين . قال : يرتاد منزلا . قال : فإنا نجد فى كتاب عندنا أن رجلا يدعى مقلاصا يبنى مدينة بين دجلة والصراة تدعى الزوراء فإذا أسسها وبنى عرقا منها أتاه فتق من الحجاز فقطع بناءها ، وأقبل على إصلاح ذلك الفتق ، فإذا كاد يلتئم أتاه فتق من البصرة هو أكبر عليه منه ، فلا يلبث الفتقان أن يلتئما ، ثم يعود إلى بنائها فيتمه ، ثم يعمر عمرا طويلا ويبقى الملك فى عقبه . قال سليمان : فإن أمير المؤمنين لبأطراف الجبال فى ارتياد منزل، إذ قدم على صاحبى فأخبرنى الخبر ، فأخبرته به أمير المؤمنين، فدعا الرجل، فحدثه الحديث ، فكر راجعاً عوده على بدئه ، وقال : أنا والله ذاك ، لقد سميت مقلاصا وأنا صبى ثم انقطعت عنى» (١) . ويواصل ابن شبة سرد روايته فيقول : « وذكر عن بشر بن ميمون الشروى وسليمان بن مجالد أن المنصور لما رجع من ناحية الجبل سأل عن خبر القائد الذى حدثه عن الطبيب الذى أخبره عما يجدون فى كتبهم من خبر مقلاص ، ونزل الدير الذى هو حذاء

---

(١) الطبرى ، ج ٩ ص ٢٣٩ — ابن الأثير ج ٥ ص ٥٥٨ .

قصره المعروف بالخلد ، فدعا بصاحب الدير ، وأحضر البطريق صاحب رحا البطريق وصاحب بغداد وصاحب المخرم وصاحب الدير المعروف ببستان القس وصاحب العتيقة (١) ، فسألهم عن مواضعهم وكيف هي في الحر والبرد والأمطار والوحول والبق والهوام ، فأخبره كل واحد بما عنده من العلم ، فوجه رجالا من قبله وأمر كل واحد منهم يبيت في قرية منها ، فبات كل رجل في قرية منها ، وأتاه بخبرها ، وشاور المنصور الذين أحضرهم وتنحر أخبارهم ، فاجتمع اختيارهم على صاحب بغداد ، فأحضره وشاوره وسأله ، فهو الدهقان الذى قريته قائمة إلى اليوم في المربعة المعروفة بأبي العباس الفضل بن سليمان الطوسي ، وقباب القرية قائم بناؤها إلى اليوم وداره ثابتة على حالها ، فقال : يا أمير المؤمنين سألتني عن هذه الأمكنة وطيبها وما يختار منها ، فالذى أرى يا أمير المؤمنين أن تنزل أربعة طساسيج ، في الجانب الغربي طسوجين وهما قطربل وبادوريا ، وفي الجانب الشرقي طسوجين وهما نهربوق وكلواذى ، .. إلى آخر الرواية » (٢) .

والرواية الثانية رواها الهيثم بن عدى عن ابن عياش : قال « لما أراد أبو جعفر الانتقال من الهاشمية بعث روادا يرتادون له موضعا ينزله واسطا رافقا بالعامة والجند ، فنعت له موضع قريب من بارما ، وذكر له عنه غذاء طيب ، فخرج إليه بنفسه حتى ينظر إليه ، وبات فيه ، وكرر نظره فيه ، فرآه موضعا طيبا ، فقال لجماعة من أصحابه منهم سليمان بن مجالد وأبو أيوب

(١) كانت بغداد والمخرم والعتيقة قرى قديمة ورد ذكرها أيام الفتوحات العربية للعراق .

(٢) الطبرى ، ج ٩ ص ٢٤٠ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ٥٥٨ .

الخوزى وعبد الملك بن حميد الكاتب وغيرهم : ما رأيكم فى هذا الموضع ؟ قالوا : ما رأينا مثله ، وهو طيب صالح موافق . قال : صدقتم هو هكذا ، ولكنه لا يحمل الجند والناس والجماعات ، وإنما أريد موضعا يرتفق الناس به ويوافقهم مع موافقته لى ، ولا تغلو عليهم فيه الأسعار ، ولا تشتد فيه المؤونة ، فإنى إن أقمت فى موضع لا يجلب إليه من البر والبحر شىء غلت الأسعار وقلت المادة ، واشتدت المؤونة وشق ذلك على الناس. وقـــد مررت فى طريق على موضع فيه مجتمعة هذه الخصال فأنا نازل فيه وبائت به ، فإن اجتمع لى فيه ما أريد من طيب الليل والموافقة مع احتماله الجند والناس أبتنيه . قال الهيثم بن عدى : فخبرت أنه أتى ناحية الجسر فعبر فى موضع قصر السلام (١) ، ثم صلى العصر وكان فى صيف ، وكان فى موضع القصر بيعة قس ، ثم بات ليلة حتى أصبح ، فبات أطيب مبيت وأرفقه ، وأقام يومه فلم ير إلا ما يحب ، فقال : هـــذا موضع أبنى فيه ، فإنه تأتيه المادة من الفرات ودجلة وجماعة من الأنهار ، ولا يحمل الجند والعامة إلا مثله ، فخطها . . . » (٢) . وأيا ما كان الاختلاف بين الروايتين ، فإن الذى لا شك فيه أن المنصور لم يكتشف موقع بغداد بنفسه وإنما دله عليه رجاله الذين أرسلهم لارتياد الموقع ، وأنه قدم بنفسه إليه وسأل أصحابه عنه فأقنعوه بحسن هـذا الاختيار ، وأنه لم يكتف بذلك بل أراد أن يجرب المبيت فيه ليتخبر مناخه ، فألفاه طيب الهواء ، وأنه لوقوعه على الصراة وبين نهر دجلة ونهر بوق حصين لا يرام على أساس أن دجلة والفرات خنادق طبيعية ، وأنه لوقوعه فى أرض السواد على ضفاف دجـــلة سهل الاتصال

---

(١) يقصد القلد الذى بناه المنصور فيما بعد عند شروعه فى تأسيس بغداد .

(٢) الطبرى ، ج ٦ ، ص ٢٣٩ .

بالبصرة المركز التجارى الهام لتجارة الهند والصين (عن طريق دجلة) وسهل الاتصال بالموصل والجزيرة والشام (عن طريق الفرات) .

فالموقع الذى اختاره المنصور لإنشاء مدينة السلام جـدير بالاختيار استراتيجيا ومناخيا واقتصاديا ، وقدر لهـذه المدينة أن تصبح قلب العالم الإسلامى حتى سقوطها فى أيدى التتار ، وكانت أعظم مدن العالم بعد القسطنطينية .

وما كاد اختيار المنصور يقع على هذا الموضع حتى شرع فى وضع الأساس فى وقت اختاره له نوبخت المنجم (١) ، وأرسل فى حشد المهندسين والبنائين من كل بلد (٢) ، فوجه من حشر الصناع والفعلة من الشام والموصل والجبل والكوفة وواسط والبصرة فأحضروا ، وأمر باختيار قوم من ذوى الفضل والعدالة والفقه والأمانة والمعرفة بالهندسة ، فكان ممن أحضر لذلك : الحجاج ابن أرطأة وأبو حنيفة النعمان بن ثابت ، ثم أمر بخط المدينة وحفر الأساسات وضرب اللبن وطبخ الآجر ، فبدىء بذلك ، وكان الشروع فيه سنة ١٤٥ﻫ (٣) وذكروا أنه أحب أن ينظر إليها ويدرس تخطيطها قبل أن يحفر الأساس ، فأمر أن يخط بالرماد ، ثم أقبل يدخل من كل باب ويمر فى فصلانها وطاقاتها ورحابها وهى مخطوطة بالرماد ، ودار عليهم ينظر إليهم وإلى ما خط من خنادقها ، فلما

---

(١) الإربلى ، ص ٧٤ .

(٢) اليعقوبى ، ج ٢ س ٣٧٤ .

(٣) البلاذرى ، ج ٢ س ٣٦١ — الطبرى ، ج ٩ س ٢٤١ — ابن الأثير ، ج ٥ س ٥٥٨ — ابن طباطبا ، ص ١٤٥ — الإربلى ، ص ٧٤ . ويحـدد السيوطى تاريخ الشروع فى البناء بسنة ١٤٠ ﻫ (السيوطى س ٢٤٣) .

فبل ذلك أمر أن يعمل على تلك الخطوط حب القطن وينصب عليه النفط، فنظر إليها والنار تشتعل، ففهمها وعرف رسمها، وأمر أن يحفر أساس ذلك على الرسم » (١) . وما إن تمت مرحلة حفر الأساس حتى بدأت مرحلة إرساء الأساس، فتولى المنصور بنفسه وضع أول لبنة بيده، وقال: «بسم الله والحمد لله، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين» ثم قال «ابنوا على بركة الله» (٢) .

وكان تخطيط بغداد على شكل دائرة (وسميت لذلك بالمدينة المدورة) لئلا يكون الخليفة إذا نزل وسطها إلى موضع منها أقرب منه إلى موضع (٣) ؛ يعني بذلك أن الخليفة يكون في قصره الواقع في مركز المدينة على بعد واحد من جميع أنحاء المدينة . والتخطيط الدائري لبغداد فريد من نوعه بين المدن الإسلامية على الإطلاق ، ولعل المنصور تأثر في ذلك بتخطيط المدن الفارسية القديمة مثل مدينة أكبتان (همذان الحالية) عاصمة الميديين ، فقد كانت محاطة بسبعة أسوار لا ترتفع عن بعضها إلا بمقدار الشارف ، وكان محل قصر الملك وبيت ماله في وسط السور الداخلي بينما تقع بيوت الرعية بين الأسوار (٤) ، وفكرة المركزية المغلقة بسور داخلي يفصل أحياء الأهالي عن مقر الخليفة تتفق ونوع السلطة المطلقة التي أضفاها المنصور على نفسه تأثرا بالفرس وبالإضافة

---

(١) الطبري ، ج ٩ ص ٢٤١ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ٥٥٩ — الإربلي ، ص ٧٤ .

(٢) الطبري ، ج٩ ص ٢٣٩ — الإربلي ، ص ٧٤ — ابن طباطبا ، ص ١٤٥ .

(٣) نفس المصدر السابق ، ص ٢٦١ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ٥٧٤ .

(٤) البستاني ، المرجع السابق ص ٧٦ — ٧٨ ، الدوري ، ص ٩٢ .

الى التعليلين السابقين لاستدارة بغداد يرى بعض المحدثين أنها بنيت مدورة لتكون مدينة صحية ، لأن البناء المدور يكون عادة أكثر تعرضا للشمس والهواء من أى بناء آخر (١) وأضيف إلى هذا التعليل تعليلا رابعا (٢) هو أن التخطيط المستدير أفضل فى الدفاع والاستراتيجية الحربية من التخطيط المربع أو المستطيل ، فالأسوار المستديرة تتيح المدافعين سهولة التحرك والرؤية ، بينما تحجب زوايا المربع أو المستطيل جانبا من المنطقة المحيطة بالسور وتعرقل سير المدافعين ، فيضطرون إلى التزام أركان المستطيل أو المربع ، ولا شك أن المنصور كان يستهدف موقعا حصينا تدور به الأسوار الحصينة بدليل أنه قيل للمنصور : « فإن الله قد من على أمير المؤمنين بكثرة جيوشه وقواده وجنده ، فليس أحد من أعدائه يطمع فى الدنو منه ، والتدبير فى المدن أن تتخذ لها الأسوار والخنادق والحصون ، ودجلة والفرات خنادق لمدينة أمير المؤمنين » (٣) ، وبدليل أن المنصور أقام لمدينته سورين خارجيين ثم أقام حول مركز المدينة الذى يضم القصر والجامع سورا داخليا ثالثا ، ومعنى هذا أن المنصور كان يهتم بحصانة مدينته ضد أعدائه فبالغ فى تنفيذ هدفه بهذا التخطيط المستدير ، لأن السور المدور يحقق له الحصانة من جهة ويعبر عن نظام حكمه الاستبدادى المقدس بحكم التأثير الفارسى من جهة أخرى .

---

(١) جمال الدين الشيال ، تاريخ الدولة العباسية ، الإسكندرية ١٩٦٨ ص ٢٧ .

(٢) ويمكن ان أضيف تعليلا خامسا هو أن طبيعة قرن الصراة أو نهر الصراة الذى يتخذ مجراه شكل قوس يسير بحذاء السور المستدير هى التى أملت على المنصور شكل مدينته المستدير .

(٣) الطبرى ، ج ٩ ص ٢٦١ — ابن الأثير ، ج٥ ص ٥٧٤ .

ومن المعروف أن المنصور اتخذ لمدينته سورين خارجيين الداخلي منهما أكثر ارتفاعا من الخارجي (١) على نمط ما كان معروفا عند الفرس والروم والسور الأمامي كان يعرف عند الفرس باسم برجخانة وقد عرفه العرب عن الفرس والروم معا وسموه بالحزام البرانى، ووظيفة السور الأمامي أنه يمنع العدو المهاجم من هجومه مباشرة على الأسوار الرئيسية ويعوقه ويعطل تقدمه لفتح الثغرات التي يمكنه أن ينفذ منها إلى داخل المدينة (٢) بسبب وجود الفصيل الواقع بين السورين - وفيه تتركز قوة الدفاع الرئيسية - والخندق، وهذا السور الأمامي بخندقه يشكل على هذا النحو خطا دفاعيا أماميا. وفتح في هذا السور (الأمامي والرئيسي) أربعة أبواب مزدوجة على مسافات متساوية عن بعضها بعضا (٣) ويقابل أحدها الآخر، بين كل بابين ٢٨ برجا (٤) :

١ — باب الكوفة : ويقع في الجنوب الغربي ويشرف على الصراة ويخرج منه طريق الحج.

٢ — باب البصرة : ويقع في الجنوب الشرقي ويشرف على الصراة التي تأخذ من الفرات وتصل إلى دجلة (٥).

---

(١) الطبرى، ج ٩ ص ٢٦١.

(٢) سالم، تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، الإسكندرية ١٩٦٩، ص ٤٤٣.

(٣) ذكر الطبرى أنه جعل أبوابها أربعة على تدبير العساكر في الحروب.

(٤) ماعدا المسافة بين بابي البصرة والكوفة فكان يرتكز على سورها ٢٩ برجا.

(٥) اليعقوبي، ص ٢٧٣.

٣ — باب خراسان : ويقع في الشمال الشرقي ويشرف على الجسر الكبير القائم على نهر دجلة ، وكان هذا الباب يدعى باب الإقبال أو باب الدولة لإقبال الدولة العباسية من خراسان .

٤ — باب الشام : ويقع في الشمال الغربي ويؤدي إلى طريق الأنبار الذي يصل المنطقة الشمالية من نهر الصراة الأعلى .

وبالغ المهندسون في تحصين هذه الأبواب ، فكان على كل من الأبواب الاربعة مما يلي الأبراج مجالس بقباب مذهبة يصعد إليها على الخيل (١) ، وفي ذلك يقول الإربلي : « وعلى كل أزج من آزاج المدينة مجلس ودرجة وعليه قبة عظيمة عليها تمثال تديره الريح (٢) » . ونزل في مجالس كل باب فرقة من الجند ، فكان على باب الشام سليمان بن مجالد في ألف ، وعلى باب البصرة أبو الأزهر التميمي في ألف ، وعلى باب الكوفة خالد العلى في ألف ، وعلى باب خراسان مسلمة بن صهيب الغساني في ألف (٣) .

وخصص المنصور قلب المدينة ومركزها لقصره ، المسمى باب الذهب ، والمسجد الجامع وحولها تركت رحبة فسيحة مستديرة طوقت بجدار داخلي ، فتحت فيه أربعة أبواب في اتجاه الأبواب الخارجية ، وامتدت من هذه الأبواب أربع طرق رئيسية تتشعب من المراكز نحو الأبواب الخارجية ، عرض الواحد ٤٠ ذراعاً . ونستطيع أن نستنتج من أقوال المؤرخين أن كل

(١) اليعقوبي ، ص ٢٧٤ .
(٢) الإربلي ، ص ٧٥ .
(٣) نفس المصدر ، ص ٧٦ .

بابه من الأبواب الأربعة فى السور الخارجى للمدينة كان له بابان، يعنى أن السور الأمامى كان لكل باب من أبوابه بابان وكان لكل باب من أبواب السور الرئيسى بابان ، ولكل باب من أبواب جدار الرحبة المركزية باب ، فأصبح لزاما على من يرغب فى الوصول إلى الرحبة المركزية أن يمر بخمسة أبواب .

واتخذ المنصور لهذه الأبواب بوابات حديدية ضخمة ، فنقل من واسط أبوابها الخمسة ونصب أربع منها على أبواب مدينته فى السور الداخلى والخامس نصبه على باب قصره ، وجعل على باب خراسان الخارجى بابا جىء به من الشام ، وعلى باب الكوفة الخارجى بابا جىء به من الكوفة كان قد عمله خالد بن عبد الله القسرى ، وأمر باتخاذ باب حديدى لباب الشام فصنع فى بغداد فجاء أضعف هذه الأبواب الحديدية كلها (١) .

وتفرعت من الطرق الأربعة الرئيسية فى المدينة دروب وسكك قدر عددها فى الجانب الشرقى بنحو أربعة آلاف درب وسكة ، وستة آلاف فى الجانب الغربى (٢) .

ج — بناء الاسوار والقصر والجامع والدواوين :

لما أمر أبو جعفر بحفر الخندق وإنشاء بناء الأساس أمر أن يجعل عرض السور من أسفله خمسين ذراعا ومن أعلاه عشرين ذراعا ، (٣) وقيل عرضه

(١) الطبرى ، ج ٩ س ٢٦١ — ابن الأثير ، ج ٥ س ٥٧٤ .

(٢) الإربلى ، س ٨٢ .

(٣) الطبرى ، ج٩س ٢٤١ — الإربلى ، س ٧٤

من أسفل سبعون ذراعا (١) ، وقيل عرضه من أسفل عشرون ذراعا وارتفاعه ٣٥ ذراعا (٢) ، فلما بلغ ارتفاع السور قامة أتاه خبر خروج محمد بن عبد الله ابن الحسن فقطع البناء وخرج إلى الكوفة (٣) ، فلما فرغ من ثورة النفس الزكية عاد إلى بغداد وواصل بنيان أسوارها . وكان الإمام أبو حنيفة يتولى مهمة ضرب اللبن المدينة وعده ، حتى فرغ من استتمام البناء بسور المدينة مما يلي الخندق ، وكان أبو حنيفة يعد اللبن بالقصب وهو أول من فعل ذلك. ويرجع السبب في إشراك أبي حنيفة في أعمال البنيان أن المنصور أراد أن يوليه على القضاء والمظالم فامتنع ، فأقسم المنصور أن يوليه عملا ، فولاه القيام بضرب اللبن ليخرج من يمينه (٤) وكان أبو حنيفة يتخذ قوالب ضخمة للمن لبن طولها ذراع وعرضها ذراع ، وهذا يفسر ضخامة سمك السور وعظم النفقة في بنائه. وفي نفس الوقت عهد المنصور إلى أربعة قواد من قواده ودولته ببناء المدينة (كل يبنى منها ربعا) . وتولى الحجاج بن أرطاة مهمة تخطيط المسجد الجامع وبنائه ، ولكن قبلة الجامع جاءت منحرفة غير مستقيمة لأن بناء الجامع حدث بعد بناء القصر وكان جدار القصر غير مستقيم من القبلة (٥) ، ويشغل بناء القصر مركز المدينة . وكانت تتوسط القصر قبة خضراء على رأسها تمثال فارس في يده رمح (٦) ، على نفس نظام التماثيل المقامة بأعلى قباب مجالس

---

(١) اليعقوبي ، ص ٣٧٤ .

(٢) الإربلي ، ص ٧٥ .

(٣) الطبري ، ص ٢٤١ .

(٤) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٥٦٠ — الإربلي ، ص ٧٥ .

(٥) الطبري ، ص ٢٦١ — ابن الأثير ، ص ٥٧٤ .

(٦) الإربلي ، ص ٧٦ .

الأبواب وجميع هذه القباب مكسوة بالقراميد الخضراء ، وزينت بطونها بنقوش ذهبية (١). وكان قصر المنصور بناء ضخما يتوسط المدينة وكان يعرف باسم باب الذهب (٢) أو قصر الذهب (٣) أو قصر القبة الخضراء (٤) ، وبلغت مساحته ٤٠٠ ذراع فى فى مثلها ، وفى أدنى القبة الكبرى مجلس مشرف يتقدمه إيوان ضخم .

أما الدواوين فقد أقيمت بعد ذلك حول الرحبة المركزية ، وكانت تضم بيت المال وخزانة السلاح وديوان الرسائل وديوان الخراج وديوان الخاتم وديوان الجند وديوان الحوائج وديوان الأحشام ومطابخ العامة وديوان النفقات (٥) .

ولما بنى المنصور بغداد وعظمت عليه النفقة ، أشار عليه أبو أيوب الموريانى بهدم إيوان كسرى بالمدائن ويعرف بالقصر الأبيض ، واستعمال أنقاضه فى أبنية بغداد ، فاستشار المنصور خالد بن برمك فى ذلك ، فنهاه عن تخريب القصر بحجة أنه « علم من أعلام الإسلام يستدل به الناظر إليه على أنه لم يكن ليزال مثل أصحابه عنه بأمر دنيا وإنما هو على أمر دين ، وهو مع

(١) اليعقوبى ، ج ٢ ص ٣٧٣ .

(٢) اليعقوبى ج ٢ ص ٣٧٩ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ٦٠٤ .

(٣) الإربلى ، ص ٧٥ . وسمى أيضا قصر السلام (الطبرى ، ج ٩ ص ٢٣٩) .

(٤) نفس المصدر ، ص ٧٦ .

(٥) لسترنج ، ص ٣٥ .

هذا يا أمـــير المؤمنين فإن فيه مصلى على بن أبي طالب صلوات الله عليه » . فقال له أبو جعفر « هيهات يا خالد أبيت الا الميل إلى أصحابك الأعاجم» (١) وأورد ابن طباطبا رواية شبيهة مع بعض الإختلاف الطفيف ، فبعد أن نصحه خالد بعدم هدمه باعتباره علما من أعلام الإسلام ومصلى لعلى بن أبي طالب ، قال له : «والمؤنة في نقضه أكثر من نفعه» فرد عليه المنصور قائلا : « أبيت يا خالد إلا ميلا إلى العجمية (٢)، ثم أمر المنصور بهدم إيوان كسرى ، فهدمت منه ثلمة ، فبلغت النفقة على هدمها أكثر من النفقة على بناء ما يعادلها من البنيان الجديد ، فأمسك المنصور عن هدمه (٣) .

وفى سنة ١٤٥ تم بناء القصر والجامع والدواوين ، فنقل المنصور إليه بغداد الخزائن والدواوين وبيوت الأموال (٤) ، ثم أقطع المنصور مواليه وقواده القطائع داخل المدينة ، ودروبه المدينة تنسب إليهم، وأقطع آخرين من القواد على أبوابها وأقطع الجند أرباضها وأقطع اهل بيته الاطراف(٥). ثم نزل مدينته فى ربيع الأول سنة ١٤٦ هـ نزول مستوطن ، وكانت الأسواق داخل المدينة ، فأخرجها إلى الكرخ سنة ١٥٧ (٦) . وذكر الطبرى فى أسباب نقل الأسواق من داخل المدينة بالطاقات الأربع فى المدينة إلى ناحيه الكرخ

---

(١) الطبرى ، ج ٩ ص ٢٦١ .

(٢) ابن طباطبا ، ص ١٤٠ .

(٣) الطبرى ، ص ٢٦١ ـ ابن الأثير ، ص ٥٧٣ ـ الإربلى ، ص ٧٤ .

(٤) الإربلى ، ص ٨١ .

(٥) اليعقوبى ، ص ٣٧٤ .

(٦) اليعقوبى ، ص ٣٧٤ ـ الطبرى ، ج ٩ ص ٢٨٨ .

أن بطريقا من بطارقة الروم قدم على المنصور وافداً فى سفارة ، فأمر المنصور الربيع بن يونس ، أن يطوف به فى المدينة وما حولها ليرى العمران والبناء ، فطاف به الربيع ، فلما انصرف قال : كيف رأيت مدينتى — وقد كان أصعد إلى سور المدينة وقباب الأبواب — قال : رأيت بناء حسنا إلا أنى قد رأيت أعداءك معك فى مدينتك . قال : ومن هم ؟ قال السوقة ، ، فلما رحل الرسول أمر المنصور بإخراجهم إلى ناحية الكرخ وبنيان أسواقهم هناك ويعملوها صفوفا وبيوتا لكل صنف (١) ، وذكر بعضهم أن السبب فى نقل أبى جعفر التجار من المدينة إلى الكرخ وما قرب منها مما هو خارج المدينـــة أنه قيل لأبى جعفر إن الغرباء وغيرهم يبيتون فيها ولا يؤمن أن يكون فيهم جواسيس ومن يتعرف الأخبار ، أو أن يفتح أبواب المدينة ليلا لموضع السوق . فأمر بنقل الأسواق من المدينة وجعلها للشرط والحرس ، وبنى للتجار بباب طاق الحرانى وباب الشام والكرخ (٢) . وهناك سبب ثالث أعتقد أنه الرئيسى فى نقل الأسواق التجارية إلى محلة الكرخ وغيرها ، فقد ذكر الطبرى أيضاً أن محتسب بغداد والأسواق واسمه أبو زكريا يحيى بن عبد الله كان شيعيا حسنيا ساءه أن يتتبع المنصور أنصار الحسنيين ، فجمع جماعة من السوقة وحرضهم على الشغب ، فثاروا فى أسواق بغداد ، فأرسل المنصور إليهم أبا العباس الطوسى فسكنهم ، وقبض على بن زكريا وقتله على باب الذهب فى الرحبة ، وأمر المنصور بهدم الدور التى تعترض الداخل إلى المدينة وتوسعة الطريق إلى

---

(١) الطبرى ، ص ٢٦٢ — ابن الأثير ، ص ٥٧٤ .

(٢) نفس المصدر .

أربعين ذراعا وهدم ما زاد من المباني على هذا القدر ، ونقل الأسواق إلى الكرخ (١)

٥ - الدور والقصور الأخرى .

وإلى جانب قصر الذهب أو القبة الخضراء الذي تحدثنا عنه أقام المنصور بعد بضع سنين قصر الخلد ، ، يقع خارج باب خراسان على ضفة دجلة ، وأصبح قصر الذهب المقر الرسمي للمنصور ومن خلفه من الخلفاء حتى الرشيد الذي آثر الإقامة في قصر الخلد طوال لبثه في بغداد ، ولكن الأمين عاد إلى الإقامة في قصر الذهب، أما قصر الخلد فقد كان يقيم فيه أيام المرض أو الراحة ، ويذكر الطبري في أحداث سنة ١٥٧ هـ أن المنصور عرض جنده في السلاح والخيل على عينه في مجلس اتخذه على شط دجلة دون قطربل ، وأمر أهل بيته وقرابته وصحابته يومئذ بلبس السلاح ، وخرج هو وقد لبس درعا وقلنسوة سوداء من النسيج المصري تحت البيضة (أو الخوذة) (٢) وفي العام التالي (أي سنة ١٥٨) نزل المنصور قصره الذي يعرف بالخلد (٣) ، مما يقطع يقينا بأن بناء قصر الخلد بدأ قبل سنة ١٥٧ ، وانتهى سنة ١٥٨ هـ .

ومن القصور التي أقيمت في العصر العباسي الأول ببغداد قصر الجعفري الذي شيده جعفر البرمكي أقرب المقربين إلى الرشيد ليكون موضع لهوه ومجلس أنسه ، وكان يقع على ضفة نهر دجلة في بغداد الشرقية ، ثم تبدل اسم القصر بعد نكبة البرامكة وبعد أن أقام فيه المأمون فسمى القصر المأموني ، ولما أقام فيه

---

(١) الطبري ، ص ٢٦٣ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٨٨ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٩٠ .

الحسن بن سهل سمى القصر الحسنى ، وكان المأمون قد أضاف إلى هذا القصر وزاد فيه الميدان المعد لسباق الخيل ولعبة الصولجان التى كان الرشيد أول من لعبها فى بغداد (١) ، وجعل فيها حير الوحوش .

ولما تولى المعتصم الخلافة أقام لنفسه قصرا فى محلة المخرم إلى الجنوب من باب خراسان ، اتخذه مقرا له حتى سنة ٢٢١ (٨٣٦ م) التى أسس فيها سامراء ، فانتقل اليها (٢) .

ومن القصور العباسية أيضا قصر عيسى بن على العباسى أول ما شيد من قصور أمراء بنى العباس فى بغداد ويقع فى الجانب الأعلى من نهر عيسى عند التقاء هذا النهر بدجلة ، وظل هذا القصر قائما فترة طويلة حتى القرن الرابع الهجرى (٣) ، ومنها قصر حميد بن عبد الحميد (ت ٢١٠ هـ) الذى لعب دورا هاما فى القضاء على حركة إبراهيم بن المهدى العباسى ، وكان يقع على ضفة نهر دجلة (٤) ، ومنها قصر القرار (أى قصر البركة) وكان يقع فى أدنى قصر الخلد على مسافة قليلة من أعلى قرن الصراة ، وسمى هذا القصر أيضا بقصر زبيدة أم الأمين ، وعرف أيضا بقصر أم جعفر لقب زبيدة (٥) .

ويمكن أن نضيف إلى القصور السالفة الذكر قصرا أصبح نواة لمدينة

---

(١) الرشيد هو أول من لعب بالصوالجة والكرة ورمى النشاب فى البرجاس (السيوطى ص ٢٧٤) .

(٢) لسترنج ، ص ٢١١ .

(٣) نفس المرجع ، ص ٨٣ .

(٤) نفس المرجع ، ص ٩١ .

(٥) نفس المرجع ، ص ٩٦ .

تعرف بالرصافة ، ويقع هذا القصر فى الجانب الشرقى من بغداد ثم اتسعت المرافق حوله حتى أصبحت تؤلف مدينة مستقلة لها سور وخندق وميدان وبستان (١) .

ويرجع سبب بناء المنصور للرصافة أن بعض الجند شغبوا عليه وحاربوه على باب الذهب، فدخل عليه قثم بن العباس بن عبيد الله بن العباس - وكان شيخا وقورا مقدما عند القوم - فاستشاره المنصور فى الأمر، فنصحه بإقامة مدينة أخرى ينزلها ابنه المهدى ويقيم معه فيها قسم من الجيش من عصبية تخالف نوع عصبية جند بغداد، فإذا فسد جند بغداد أمكنه ضربهم بجند الرصافة ، فاقتنع المنصور بهذا الرأى وباشر بناء الرصافة فى شوال سنة ١٥١ هـ (٧٦٨) ، وتولى أعمال البناء صالح صاحب المصلى (٢) . ولم يتم العمل فى بناء الرصافة حتى سنة ١٥٩ هـ (٧٧٦ م) أى فى السنة الثانية من خلافة المهدى . وأول بناء أقيم فى الرصافة هو جامعها الكبير وتبعه القصر ، ولهذا السبب جاء اتجاه قبلة الجامع صحيحا بخلاف قبلة جامع بغداد التى أملى الجدار المنحرف بالقصر اتجاهها المنحرف . وكان يحيط بقصر المهدى فى الرصافة سور وخندق وبجواره رحبة ، وأجرى المنصور المياه إلى بساتين الرصافة من نهر المهدى (٣) .

٥ — دثور قصور بغداد ابان الفتنة بين الأمين والمأمون :

فى سنة ١٩٧ حاصر طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين وزهير بن المسيب

---

(١) الطبرى ، ج ٩ ص ٢٨١ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ٦٠٤ .
(٢) الطبرى ، ص ٢٨٢ — ابن الأثير ، ص ٦٠٤ .
(٣) راجع ياقوت ، معجم البلدان مادة (رصافة) .

بغداد ، فنزل زهير برقة كلواذى ، ونصب المجانيق والعرادات وحفر الخنادق ، ونزل هرثمة نهربين وخندق هناك ، ونزل عبيد الله بن الوضاح بالشماسية ، ونزل طاهر البستان الواقع بباب الانبار ، وتبادل المحاصرون والمحصورون الرمى بالنفط والمجانيق فأحرقت محلة الحربية (١) الواقعة إلى الشمال من باب الشام وتنسب إلى حرب بن عبد الله صاحب شرطة المنصور فى بغداد ، وعمد طاهر إلى هدم الدور وتحصين الدروب بالخنادق ، فكثر الخراب والهدم ببغداد ودرست المنازل ، ووكل الأمين إلى على أفراهرد بالدفاع عن منطقة قصر صالح وقصر سليمان بن المنصور حتى دجلة ، فألح فى إحراق الدور والدروب والرمى بالمجانيق ، وفعل طاهر مثل ذلك ، فأرسل إلى أهل الأرباض من [illegible] نهر بشار وباب الكوفة وما يليها ، فكلما أجابه أهل ناحية خندق عليهم ومن أبى إجابته قاتله وأحرق منزله ، ووحشت بغداد وخربت ، (٢) وفى ذلك يقول بعض فتيان بغداد :

بكيت دما على بغداد لما ∴ فقدت غضارة العيش الأنيق
تبدلنا هموما من سرور ∴ ومن سعة تبدلنا بضيق
أصابتنا من الحساد عين ∴ فأفنت أهلها بالمنجنيق
فقوم أحرقوا بالنار قسرا ∴ ونائحة تنوح على غريق (٣)

---

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٢٧١ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٧٢ .

(٣) المصدر نفسه ، ص ٢٧٤ .

وأمر طاهر بن الحسين بالهدم والإحراق ، فهدم دور من خالفه من بين دجلة ودار الرقيق وباب الشام وباب الكوفه إلى الصراة وربض حميد ونهر كرخايا. وفى سنة ١٩٨ دخل طاهر الكرخ بالسيف ، وقصد إلى مدينة المنصور وطوقها ، وحاصر قصر الخلد ، ونصب المجانيق بإزاء قصر زبيدة وقصر الخلد ، فلاذ الأمين مع أمه وأولاده إلى مدينة المنصور وتحصن بها (١) . وأصيب قصر الذهب إصابات بالغة بقذائف مجانيق طاهر ، ولم يبق من القصر بعد مصرع الأمين سوى أجزاء قليلة ، وبقيت القبة الخضراء قائمة إلى أن سقطت فى سنة ٣٢٩ هـ (٩٤١ م) بسبب صاعقة دمرتها (٢) .

كذلك أصيب قصر الخلد بأضرار فادحة ، ولكنه كان أقل بكثير مما أصاب قصر الذهب ، فعندما عاد المأمون إلى بغداد بعد مصرع الأمين بخمس سنوات اتخذ مقره أولا فى قصر الخلد مما يدل على أن الإصابة لم تكن بالغة أما قصر زبيدة فقد تهدم جانب منه وثلمت جدرانه بفعل أحجار المجانيق التى قذفها أعوان طاهر عليه (٣) . وقد تهدم الخلد تماما خلال الستين سنة التى انتقل فيها الخلفاء إلى سامرا ، وظل مهدما إلى أن أقام عضد الدولة البويهى على أنقاضه البيمارستان العظيم المنسوب إليه وذلك فى سنة ٣٦٩ هـ (٩٧٩ م) (٤) .

ثانيا — مدينة سامراء :

كان المعتصم قد استكثر من الأتراك ، فاجتمع له منهم أعداد ضخمة الجسوم

(١) ابن الأثير ، ص ٢٨٠ .

(٢) لسترنج ، ص ٣٩ .

(٣) نفس المرجع ص ٩٦ .

(٤) نفس المرجع .

أنواع الديباج والمناطق المذهبة والحلية المذهبة وميزهم عن سائر جنده ، وكان هؤلاء الجند يركبون الدواب فيركضونها إلى الشوارع فيصدمون المارة من الرجال والنساء والشيوخ والصبيان ، فيثور الأهالي عليهم وتنشب معارك قد تنتهي بقتلى من الطرفين ، فاعترض المعتصم في موكبه يوم عيد شيخ وقال له : « لا جزاك الله عن الجوار خيرا ، جاورتنا وجئت بهؤلاء العلوج من طغانك الاتراك ، فأسكنتهم بيننا ، فأيتمت صبياننا وأرملت بهم نسواننا وقتلت رجالنا ، »(١) فتألم المعتصم وعزم على الخروج من بغداد واتخاذ مقر آخر غيرها ، فخرج إلى الشماسية وهو موضع كان المأمون يقصده وينزل به الأيام والشهور ، ولكنه بعد أن أقام هناك كرهه لضيق أرضه وقربه من بغداد (٢) ، ورحل من هناك يرتاد موضعا يصلح لإنشاء مدينته التي يزمع اتخاذها مركزا له ، فنزل بالبراذان(٣) فلم يستطب هواءها ، فلم يزل يتنقل ويتقرى المواضع الى دجلة وغيرها حتى انتهى إلى الموضع المعروف بالقاطول (٤) ، فأعجبه الموضع واستطابه ، وكان بهذا الموضع قرية يسكنها قوم من النبط فبنى المعتصم هناك قصرا ، وبنى الناس ، وانتقلوا إلى القاطول . ولكن المعتصم ناله من شدة برودة الجو هناك وصلابة الأرض (٥) ما دعاه إلى ترك القاطول بحثا عن موضع آخر ينزل فيه

---

(١) إبن الأثير ، ج ٦ ص ٤٥٢ .

(٢) اليعقوبي ، كتاب البلدان ، ص ٢٥٥ .

(٣) المسعودي ، ج ٣ ص ٤٦٦ .

(٤) القاطول نهر كان في موضع سامراء قبل أن تعمر ، حفره الرشيد وبنى على فوهته قصرا سماه أبا الجند (حسين أمين ، سامراء في ظل الخلافة العباسية ، بغداد ١٩٦٨ ص ١٧٨ .

(٥) المسعودي ، ص ٤٦٦ .

إلى أن انتهى إلى موضع سامرا ، وكان صحراء من أرض الطيرهان لا عمارة فيها إلا دير قديم للنصارى ، فكلم بعض رهبان الدير وسألهم عن اسم الموضع فأخبروه أنه سامرا ، ثم سألهم عن معناها فأجابوه أنهم قرأوا فى كتب التاريخ الماضية أنها مدينة سام بن نوح ، وأنها ستعمر على يد ملك جليل مظفر منصور ينزلها وينزلها ولده . فنظر المعتصم حواليه فألفى فضاء فسيحا لا حدود له ، واستطاب هواءها فأقام هنالك ثلاثة أيام يتصيد ، فأعجب بالموضع ، ودعا رهبان الدير فاشترى منهم أرضهم بأربعة آلاف دينار(١) ، وأمر ببناء القصور والدور سنة ٢٢١ ، واستقدم المهرة من الصناع والفنيين لتشييد قصوره وجميع منشآته ، وجلب أصناف الأشجار المثمرة من جميع البلدان ، فغرست البساتين فى كل مكان ، وجعل للأتراك قطائع متحيزة ، وجاورهم بالفراغنة والأشروسنية وغيرهم ، وعهد إلى كل رجل من أصحابه ببناء قصر ، ففوض إلى خاقان عرطوج أبى الفتح بن خاقان بناء الجوسق الخاقانى ، وإلى عمر بن فرج بناء القصر المعروف بالعمرى ، وإلى ابن الوزير بناء قصر الوزيرى ، وخط القطائع للقواد والكتاب ، وخط المسجد الجامع واختط حوله الأسواق صفوفا ، وجعل لكل صناعة وتجارة شارع على مثال ما رسمت عليه أسواق بغداد ، وأقيمت دواوين الدولة ، وشيدت ثكنات لسكنى ٢٥٠٠٠ ألف جندى(٢) . واستقدم لكل هذه الأعمال الإنشائية الفعلة والبنائين وأهل المهن من الحدادين والنجارين وسائر الصناعات ، وكتب فى حمل الساج وسائر الخشب والجذوع من البصرة وما والاها من بغداد وسائر السواد ومن أنطاكية وسائر سواحل الشام (٣) .

---

(١) المسعودى ، ص ٣٦٧ — ياقوت ، معجم البلدان ، مادة (سامرا) .

(٢) حسين أمين ، سامراء فى ظل الخلافة العباسية ، ص ٧٩ .

(٣) اليعقوبى ، البلدان ، ص ٢٥٨ .

وأقطع المعتصم أشناس التركي ورفاقه الأتراك الموضع المعروف بكرخ سامرا، ومن فراغنة من أنزلهم الموضع المعروف بالعمرى والجسر(١). وأقطع الأفشين في آخر البناء مشرقا، وسمى الموضع الذى أقطعه إياه المطيرة، كما أقطع أصحابه الأشروسنية حول داره، وأمره أن يبنى فيها سويقة تضم حوانيت ومساجد وحمامات(٢). وفى الشارع الأعظم المعروف بالسريجة قطائع قواد خراسان، منها قطيعة هاشم بن باتيجور وقطيعة عجيف بن عنبسة وقطيعة الحسن بن على المأمونى، وقطيعة هرون بن نعيم، ومواضع الرطابين وسوق الرقيق ومجلس الشرط والحبس الكبير والسوق الكبير، ثم الجامع القديم، وتمتد القطائع بعد ذلك بامتداد الشارع مرورا بدار هرون بن المعتصم (وهو الواثق) وذلك عند دار العامة، ثم باب العامة ودار الخليفة العامة التى يجلس فيهما يومى الإثنين والخميس(٣). وهناك شوارع أخرى شتى فى هذه المدينة فيها قطائع لشخصيات بارزة، فشارع أبى أحمد بن الرشيد ينتظم ديوان الخراج الأعظم وقطيعة الكتامى، وتتصل به قطائع ابن أبى دواد والفضل بن مروان ومحمد بن عبد الملك الزيات وبغا الصغير وبغا الكبير وسيما الدمشقى وبرغش ووصيف وقطيعة إيتاخ حتى باب البستان وقصور الخليفة. وفى شارع صالح العباسى قطائع الأتراك والفراغنة، وفى شارع الحير الجديد قطائع قواد الفراغنة والأشروسنية وغيرهم. ويطل على دجلة شارع [illegible] الخليج حيث تشاهد السفن التجارية التى ترد من بغداد

---

(١) المسعودى، ص ٤٦٧.

(٢) اليعقوبى، ص ٢٥٩.

(٣) حسين أمين، ص ٨١.

وواسط وكسكر وسائر السواد من البصرة والأبلة والأهواز ؛ وينتظم هـذا الشارع قطائع المغاربة (١) ومعظمهم العرب اليمنية والمضرية الذين اصطنعهم المعتصم من مصر وسماهم المغاربة (٢) .

وفي عهد الواثق بالله أنشىء القصر الهاروني الواقع على دجـلة في ظاهر سامرا وبإزائه من الجانب الغربي قصر المعشوق (٣) . وظلت سامرا تزدهر وتعمر في عهد الواثق ، إلى أن بلغت ذروة تطورها العمراني في زمن المتوكل ، ومن أشهر مبانيه المسجد الجامع بسامرا ومئذنته المعروفة بالملوية ، وما زالت آثار هـذا الجامع باقية حتى اليوم ، وبنى في عهده أيضا جامع أبي دلف الذي يشبه كثيرا حتى في المئذنة جامع سامرا . كذلك أنشأ قصر الجعفري في الموضع المعروف بالماحوزة ، وبقايا هذا القصر لاتزال تشاهد اليوم على ضفة دجلة في شمال السور الداخلي لمدينة المتوكلية المنسوبة إليه .

ثم هجرت سامرا بعد أن سكنها ثمانية خلفاء بني العباس من الواثق حتى المعتمد ، وفي عهده انتقل مقر الحكم إلى بغداد ، ومنذ ذلك الحين دب فيها الخراب ، وفقدت رواءها وعظمتها ، وقد أجريت في أطلال سامرا حفريات أثرية قام بها هرتسفلد فيما بين عامي ١٩١١ ، ١٩١٢ أسفرت عن كشف تخطيط الشوارع والشارع الأعظم والجوامع والقصور والدور . واستدل من هـذه

---

(١) نفس المرجع ، ص ٨٣ .

(٢) المسعودي ، ص ٤٦٥ .

(٣) ياقوت ، معجم البلدان .

الكشوف الأثرية بالنسبة للقصور على أن تأثير إيوان كسرى الذي يقوم حتى اليوم في المدائن على نهر دجلة على العمارة العباسية كان عميقاً ، ويتجلى هذا التأثير في بقايا قصر الجوسق الخاقاني ويشتمل القصر على قاعة كبرى تخطيطها يماثل حرف T وهو نفس النظام الذي كان معروفا في قصور المناذرة بالحيرة مما يعبر عن تأثير مباشر . والبناء بالآجر هي الظاهرة الواضحة في آثار سامرا . وكانت جميع المساكن تكسى في أسفلها بطبقة من الجص ثم تنتظم بأعلاها حنايا وطاقات مختلفة الشكل ، وكانت الطبقـــة الجصية تزدان بزخارف نباتية وهندسية محفورة حفرا مائلا ، من طابع أقرب ما يكون إلى الفن الشعبي الطوراني (١) . كذلك كشفت الحفريات الأثرية عن كميات هائلة من قطع الخزف بعضها من النوع الصيني الأبيض وبعضها من نوع الخزف ذي البريق المعدني .

(٢) أرنست كونل ، الفن الإسلامي ، ترجمة أحمد موسى ، القاهرة ١٩٦١ ص ٣٢ .

(٢)

المراكز العمرانية الجديدة فى افريقية ومصر

اولا — مدينة العباسية (القصر القديم) :

أسسها الأمير إبراهيم بن الأغلب فى سنة ١٨٥ ، وتقع على بعد ثلاثة أميال جنوبى القيروان (١) ، ويبدو أن سبب بناء ابن الأغلب لهذه المدينة يرجع إلى أن سكان القيروان بما كانوا يتصفون به من تدين وورع ، أبدوا سخطهم على الأمير لإقباله على الخمر ، وانغماسه فى حياة اللهو والملذات ، فاضطر ابن الأغلب إلى إقامة هذه المدينة للاستمتاع بالحياة بعيدا عن أنظار رعيته ، فلا يناله شىء من تجريح فقهائهم وانتقادهم لسلوكه . ولعله احتذى حذو الخلفاء الأمويين والعباسيين فى اتخاذ مدن أميرية خارج عواصمهم أو إشباعا لرغبته فى الظهور بمظهر الأبهة والفخامة .

ولقد اشترى بن الأغلب لهذا الغرض أرضا من بنى طالوت ، وبنى قصرا للإمارة نقل إليه السلاح والعدد سرا ، فأسكن حوله عبيده وفتيانه ومواليه وأهل الثقة من خدمة (٢) ، وسمى بالقصر القديم بالنسبة لقصر رقادة الذى بناه الأمير إبراهيم بن أحمد فى سنة ٢٦٤ (٣) ، وعرف بالقصر الأبيض ربما

---

(١) ابن عذارى ، ص ١١٧ . ويذكر اليعقوبى أنها تقع على ميلين من القيروان (البلدان ، ص ٣٤٨) .

(٢) ابن عذارى ، ص ١١٧ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٥٤ .

لبياض لون جدرانه . ولقد أطلق إبراهيم بن الأغلب على هذه المدينة اسم العباسية إمعانا في إظهار ولائه للعباسيين (١) . وفي هذه المدينة استقبل رسل شارلمان إليه في سنة ١٨٥ هـ (٨٠١ م) عندما قدموا لنقل رفات القديس سان سيبرين (٢) وظلت هذه المدينة داراً للإمارة في عهد خلفاء إبراهيم بن الأغلب، وأسس فيها زيادة الله بن إبراهيم القصور والمنيات ، وحصنها سنة ٢٠١ هـ (٣). كذلك أقام الأمير أبو الغرانيق محمد بن أحمد في العباسية ، وكان لوعا مهترا شغوفا باقتناص الطير ، وكان له برج في موضع منها يعرف بالساحلين يستطيع أن يركن فيه إلى هوايته المفضلة ؛ وكان لمدينة القصر القديم جامع له صومعة مستديرة مبنية بالآجر والعمد سبع طبقات لم ير أجمل منها (٤) .

واتسعت العباسية وأصبحت مدينة كبيرة مسورة ، وكان ينفتح فيها خمسة أبواب منها بابا الرحمة والحديد في السور الجنوبي ، وبابا غلبون والريح في السور الشرقي ، وبابه السعادة في السور الغربي (٥) . وقد أقيم في المدينة كثير من المنشآت من حامات وفنادق وأسواق ومواجل (خزانات مياه مكشوفة) ؛ ويذكر البكري أيضا أنه كان يتوسطها ميدان فسيح أقيم قصامه

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان مادة (عباسية) .

(٢) Marçais, L'architecture musulmane d'Occident p. 26

(٣) ابن عذارى ، ص ١٢٣ .

(٤) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة (قصر القيروان) .

(٥) البكري ، ص ٢٥ .

قصر يعرف بالرصافة (١) . ولما ترك سنة ٢٦٤ هـ بنو الأغالبة مدينة القصر القديم وانتقلوا إلى مدينة رقادة الجديدة ، هجرت العباسية . وقد انتهى القصر القديم إلى الدمار ، ولكن موقعه ما زال معروفاً حتى اليوم . ولقد أجريت على طول الجانبين الشمالي والغربي من الأطلال حفريات أثرية في سنة ١٩٢٣ أسفرت عن كشف بعض الغرف الصغيرة ، كما كشفت عن بعض القبوات والمخازن المنقورة في باطن الأرض (٢) .

ثانياً — مدينة رقادة :

تقع رقادة على بعد ثمانية أميال جنوبي القيروان ، وهي العاصمة الأغلبية الثانية ، شرع إبراهيم بن أحمد الأغلبي في تأسيسها سنة ٢٦٣ هـ وتم تأسيسها في سنة ٢٦٤هـ ، وأصبحت رقادة منذ ذلك التاريخ مقر أمراء بني الأغلب حتى انقراض دولتهم . ويصفها البكري بقوله : «وأكثرها بساتين ، وليس بإفريقية أعدل هواء ولا أرق نسيماً ولا أطيب تربة من مدينة رقادة ، وسميت رقادة لأن الأمير إبراهيم أرق يوماً ، وشرد الكرى عن جفنيه ، فلم ينم ، وأمر بالخروج والسير فلما وصل إلى هذا الموضع نام ، فسمى رقادة . . . والذي بنى رقادة واتخذها داراً هو إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب ، انتقل إليها من مدينة

---

(١) وجدت قصور كثيرة بهذا الاسم في العالم الإسلامي : منها رصافة هشام بن عبدالملك بالشام ، ورصافة بغداد ، ورصافة قرطبة ، ورصافة بلنسية ، ورصافة العباسية . والظاهر أن تسمية الرصافة لها علاقة بالطريق المرصوف ، ولعل القصر كان يطل على جادة مرصوفة من عهود الأوائل .

(٢) Marçais, op. cit., p. 27.

القصر القديم ، وبنى بها قصورا عديدة ، وجامعا ، وعمرت بالأسواق والحمامات والفنادق ، (١) ، وكانت من قصورها قصر بغداد والمختار والفتح وقصر العروس وقصر الصحن . وكان يحيط برقادة سور من الآجر واللبن أصلحه الأمير زيادة الله الثالث حتى يتحصن فيها عند محاصرة أبي عبد الله الشيعي لها .

ولم تزل هذه المدينة بعد ذلك دار ملك بني الأغلب حتى هرب منها زيادة الله الثالث أمام زحف قوات أبي عبد الله الشيعي ، فاحتلها عبيد الله المهدي ، وأقام في قصر الصحن برقادة حتى سنة ٣٠٨ هـ ، ثم انتقل بعد ذلك إلى المهدية . ثم فقدت رقادة بالتدريج مكانتها القديمة ، وأخذ الخراب يدب في قصورها ودورها ، حتى تولى محمد بن إسماعيل الخلافة الفاطمية ، فهدم ما تبقى منها ، وأصبحت رقادة محجرا تستخرج منه مواد البناء في العصور التالية . وقد تبقى منها اليوم آثار حوض لعله حوض القصر المعروف بقصر البحر(٢) .

ثالثا — مدينة العسكر :

أتيح لمصر الإسلامية أن تشهد مركزا عمرانيا جديدا بعد أولى عواصمها الإسلامية عندما أقدم عمرو بن العاص على تخطيط الفسطاط في سنة ٢١ هـ (٦٤١م) في المنطقة الممتدة ما بين النيل والجبل الشرقي المعروف بالمقطم ، وقريبا من حصن بابليون ، ومنذ ذلك الحين أصبحت الفسطاط مقرا للولاة في عهد الخلافة

(١) البكري ، ص ٢٧ .

(٢) راجع التفصيلات في : Marçais, op. cit., p. 28

الراشدة ومصر الدولة الأموية ، وقاعدة الإدارة والجيش (١) ، فلما سقطت الدولة الأموية عام ١٣٢ هـ ودخلت مصر في فلك الدولة العباسية، رأى العباسيون أن يتخذوا للإدارة العباسية في مصر مركزا حربيا جديدا إما رغبة في التجديد واتخاذ عاصمة جديدة كما جرت العادة في الشرق ، وإما لأن مروان بن محمد كان قبل مصرعه قد أشعل النار في الفسطاط فدمرت جانبا منها ، أو لضيق الفسطاط عن الاتساع لعسكر العباسيين في مصر ، أو لهذه الأسباب كلها مجتمعة ، فأنشأ صالح بن علي العباسي والي مصر (في المحرم سنة ١٣٣) حاضرة جديدة في مصر في موضع عرف باسم الحمراء القصوى كان يمتد إلى جبل يشكر الواقع إلى الشمال الشرقي من الفسطاط . وأسس صالح بن علي دار الإمارة ومساكن العسكر ، وأقام ابنه الفضل بن صالح في سنة ١٦٩ مسجداً جامعاً لهذه المدينة العباسية لصق دار الإمارة عرف باسم جامع العسكر ، وأحيط هذا الجامع بالأسواق وكثرت حوله العمائر ، واتسعت المدينة بالمنشآت حتى اتصلت مبانيها بمباني الفسطاط . وظلت العسكر قاعدة رسمية لمصر الإسلامية ما يزيد على قرن من الزمان (١٣٢ — ٢٥٦ هـ) إلى أن استقل أحمد بن طولون بمصر وأسس القطائع .

---

(١) انظر في ذلك : المقريزي ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ج ٢ ص ١٠٨ طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ — ابن دقماق ، كتاب الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، بولاق ١٣١٠ هـ ، ص ٢ ، ٤ — محمد عبد الله عنان ، مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية ، القاهرة ١٩٣١ — عبد الرحمن زكي ، الفسطاط وضاحيتاها العسكر والقطائع ، القاهرة ١٩٦٦ — عبد العزيز سالم ، الفسطاط ، دائرة معارف الشعب ، عدد ٧٩ القاهرة ١٩٦٠ .

فهرس الكتاب

صفحة